

كتاب
اشتهر في الاصل

في
السيرة والسبب

تأليف

رفيق بن العظم

المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم)

وهذا

الجزء الاول منه

(الطبعة الثانية)

طبعة مطبعة رشيدية في القاهرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله الذي أفاض على الانسان من نور العقل ما شرف به على سائر
المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق
بعض درجات) فانتشروا في اكناف الارض يتبعون الى ذلك الوسيلة .
ويتذرعون الى السبق في مضمار الحياة بالاعمال الجليلة . فشيدوا صروح
المدنية فشادوا الممالك . فمنها الموجود ومنها الهالك . وصلى الله على سيدنا محمد
اعظم البشر بلا مرء . ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم الحرية والعدالة
والاخاء . الذي دانت لدينه الامم . وتضاءلت دون جليل عمله شواخخ القمم .
وعلى آله واصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء . وخلفائه الذين
اهتدوا بسنته فحضمت لهم الشعوب لارهبة ولا رياء (واما بعد) فان الله
سبحانه وتعالى منذ دحا الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء . وتبارى
فيه الاكفاء . والانسان ابن بجدتها . والسابق في حومتها . كل فريق منه
يبارى فريقاً . وكل امرئ يتجهج الى المجد طريقاً . فمن استمسك بعروة الجد
استعلى . ومن استهل عزيمة النفس وفي واسترخى . فكانت يده في هذا
الوجود هي الدنيا . ويد السابق هي العليا . وبيد الهمة يأبى الادنى . والغضاضة
لا يرضاها الا ضعيف الحجي . ومن ثم كانت مراتب الناس في هذا الوجود
بنسبة الاعمال . وخلاشهم سبب تفاوت الرجال . فرب شخص بعيد السمعة
عظيم كبير . وآخر لا في المير ولا في النفير

ولم ار امثال الرجال تفاوتاً الى الفضل حتى عد الف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة ويشتق

الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب اسباب السعادة بافذاذ من كل امة
معدودين . وافراد من الرجال مشهورين . كبرت نفوسهم عن ان تخلد الى الدنيا
وترضى بالحقير من الشهوات فطمعت بهم الى معالي الامور وانصرفت بهمهمهم
الى غايات الكمال فنالوا بهذا حياة لا تفتنى . وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول
لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول لانهم
اقطاب العالم الذين تقوم بهم اركانه . ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها
بنيانه . وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا
ممالك الارض فانهم على قلة عددهم من كل قبيل . وندرتهم في كل جيل . لم
يخل تاريخ كل امة من ذكرهم . ولم تمح عن صفحات الوجود آيات فخرهم . ولللام
في تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الازمنة
والاقوام وقد بلغ بالاقدمين منهم كالليونان مثلاً ان أنزلوهم منزلة الآلهة ورفعوا
لهم في هياكل العبادة الانصاب وأما أهل العصور المتقدمة فقد افردوا لافرادهم
التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر . وشيدوا باسمهم الآثار ليقي مذكوراً
بالتعظيم أبد الدهر

لو تقبنا عن هؤلاء الرجال في تاريخ كل امة لوجدنا أعظمهم عملاً .
وأعلامهم كعباً . وأبعدهم همة رجال الاسلام الذين نبنت اصولهم في منابت الشج
والقيصوم . وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب واوربا والروم .
فدانت لهم أعظم دول الارض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد
الأمم صولة وأرقاهن قوة ومدنية كالفرس والرومان والنوط وغيرهم
ان ممن اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة
الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز

اليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقباهم عن منصات مجدهم ومع هذا فأين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق الذين جاء آمن أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة في افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثني عشر الف مقاتل مضيق سبته الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . بل اين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الاموي وانساح بجيشه القليل في احشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من جبل طارق فدعرت منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع جيشه على ادراجه واوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة عجايزة

اين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الاوريون من أشهر القواد في العالم لحروب طويلة اصلاهم نارها . واذاقهم شدة اوارها . لم تأت لدولته بفتح جديد . او خير عتيد . من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان او عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعها اطماع الطامعين . وشرأبت الى التحزب والانقسام اعناق المسلمين . فبادر الى تلافي الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد بعد النظر والرأي فذل صعب الامور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة . ثم بعد ان استصفي لنفسه الخلافة وأجرى امور الملك مجرى السداد والطمأنينة اطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغارة فحاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة اعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها

ومع ان هؤلاء الرجال واضرابهم كثير عددهم في الاسلام فان العناية
بامتصاص اخبارهم وتبويب تواريخ حياتهم وافرادها بكتب خاصة تخليداً لذكورهم
وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوفرة عند المسلمين . ولا ملتفت اليها عند
المؤرخين . اللهم الا ما اوردوه من اخبارهم مبذوراً في بطون التواريخ متفرقاً
في كتب التراجم التي تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على ارباب القلم
دون ارباب السيف

نعم قد عني بعض المؤرخين بافراد كتب خاصة بتاريخ افراد من رجال
الاسلام كسيرة السلطان محمود الغزنوي وسيرة صلاح الدين وسيرة تيمورلنك
الا ان الاخرى ببعض هذه السير ان تسمى كتب ادب لا كتب سير وتاريخ
كسيرة السلطان محمود الغزنوي المشهورة بتاريخ العتي وسيرة تيمور المسماة
عجائب المقدور لالتزام مؤلفيها طريق التقفية وتكلفهما السجع الممل للنقوس
المخل باصول التاريخ وفضلاً عن هذا فان في المسلمين من رجال السياسة
والحرب عدداً غير قابل لو افردت لكل واحد منهم سيرة خاصة او افردوا
بتاريخ خاص لكان ذلك ابقى لذكورهم . وأظهر لشهرتهم . واقرب لتناول
اخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل اعمالهم . فان لبعض
النفوس ميلاً غريزياً الى حب الشهرة وسلك مسالك الظهور فاذا عرف
اربابها كيف ساد اسلافهم واشتهر عظماء قومهم وراوا التنويه بشأنهم خاصة
والاشارة الى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى
كانوا من زعماء الأمة وقادة الافكار والسياسة الى التشبه باولئك في جلائل
اعمالهم وتدقيق النظر في سيرهم للوقوف على مواضع الاصابة ومظان الخطأ
من اعمالهم والاخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بافرادهم التواريخ لرجالهم والعناية بالتنويه بشأنهم بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق ومساحات المدن وشيدوا باسمهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجي ليكون ذلك ادعى لتوجيه الانظار اليهم . وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم . كما انهم اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وايراد الاستعارات والمجاز في الوصف وحرصوا على الالقاب الكثيرة رسماً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتعمض على الناقد اوصافه الحقيقية . ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على ايراد الحقائق في منشأ المترجم وما أثره في حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع في قالب الوجود حتى كأنما هو يراه

ولعمري ان رجال الأمم العظام خليقون بمثل هذه العناية جديرون باعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان الاسلام قد أنجب كثيراً من امثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً في بطون التواريخ متفرقاً في ثنايا الكتب والسير فقد نهضت بي عزيمة النفس واستفزني الولع برجال الاسلام الى ان استقصى اخبارهم واتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتي به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياساتهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على اسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع للاوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة في النفس الى المزيد ولا يحوج المطالع الى الامعان في جمع مزيج الاخبار الى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأغراضها

هذا وقد أخذت على نفسي ان اطلق لها في كل مجال عنان القول وأرمي

بسهام الفكر الى كل غرض يبدو للنظر عساني ان ألم بشيء من الادواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين . واستطيع من اسداء النصيح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين . سيما اذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة الى الدين

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت ان اقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على اشهر مشاهير الاسلام خاصة وأورد في ختامه ملخصاً تاريخياً المشاهير رجال الاسلام عامة يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه الى ملخص تاريخهم واني وان كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثأرها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم اجمعين ولم أر بداً من ايراد ذكرهم مع الخليفين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لانهم جميعاً من دعائم الاسلام التي قامت عليها صروحه . واعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم او حكمة زاجرة يحتاج اليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ علي ما يرى من الاختصار في تراجمهم والاقصر على ذكر بعض سيرتهم

وقد جعلت الكتاب اقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها مقدماً في الذكر الاقدم من الخلفاء والسلاطين ومن يليه وهكذا الى آخر الكتاب وأتبع كل خليفة او سلطان بذكر من قام في دولته . واشتهر من بين زمرة . من امراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم في الاسلام أثرهم . والله المسئول ان يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب انه مجيب السؤال

﴿ القسم الاول ﴾

(دولة الخلفاء الراشدين)

هذه الدولة التي أسست مجد الاسلام ورفعت منار الدين الحنيف وبلغت خيائها شطوط المحيطين ونشأت على الحشونة في العيش والاعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بأيدي الناس هي الدولة الأولى التي كان بها نجر الاسلام والى خلفائها الاربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد وانما قامت الدولة الاسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الاسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضل هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو افضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الامم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار اليهم بالبنان . ويعدون من افراد ذلك الزمان . في الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الاكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة . وقد عزمنا على أن نأتي على سيرتهم في دولة الخلفاء كل رجل منهم مع خليفته الا الاحنف والمغيرة فيما انهما خدما هذه الدولة الى نهايتها فسنأتي على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين

﴿ أبو بكر الصديق ﴾

(باب)

« حاله في الجاهلية »

(نسبه وأصله)

اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله واسم أبي قحافة أبيه عثمان وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ويقال لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انت عتيق من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي وسمي صديقاً لانه بادر الى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال التيمي وهو في التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عم أبي قحافة وتكنى أم الخير . وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ شرفه ﴾

انتهى الشرف من قريش الى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الإشباق وهي الديات والمغرم ولما كان هؤلاء

الرهط الذين اليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية واتصلت بالاسلام منهم من صار من مشاهير الاسلام وستأتي ترجمتهم بعد فقد رأيت ان آتي هنا على بيان هذه المكارم وعامة من انتهت اليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم منهم في هذا الكتاب فاقول

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب السكبي تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن

وهم هاشم . وأمية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدي . وجمع . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحبيج في الجاهلية وبقى له ذلك في الاسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل أخرجها اذا حيت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد اعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرقادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترقد به منقطع الحاج . ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار . ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له اعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بني تيم أبوبكر الصديق وكانت اليه الاشناق وهي الديات والمغرم فكان اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا جمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه . ومن بني مخزوم خالد

ابن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب . ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بامر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه . ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهم . فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر وكان كل شرف من شرف الجاهلية ادركه الاسلام وصله لهم وقد رأيت مكانة أبي بكر من الشرف في قريش هذا فضلاً عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله

﴿ صناعته ﴾

كانت قريش مع ما تمت به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما انها حامية البيت وصریح ولد اسماعيل لا يستنكف اشرافها من الاحتراف او المتاجرة والاعتماد في الاسترزاق على عمل اليد ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتي ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يبري النبل . ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً واما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم

على مصالح المسلمين والذي بقي عنده ما زال يتجر به حتى مات رضي الله تعالى عنه وأرضاه

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة واحسان وتفضل فيهم ولهذا قال له ابن الدغنة يوماً أنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتقري الضيف . وكان عالماً بالانساب وأخبار العرب رغاباً عن الدنيا عفيف النفس حرم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية . قال السيوطي أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لقد حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية

اللهم ان امرأً ينشأ بين الاوثان حيث لا دين زاجر . ولا شرع للنفوس قاهر . وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعري العقدة والمروءة لجدير بان يتلقى الاسلام بملء القواد . ويكون أول مؤمن بهادي العباد . مبادر باسلامه لارغام انوف أهل المكابرة والعناد . ممد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه المستمسكين بمتين سببه «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» وأولهم أبو بكر

﴿ باب ﴾

(اسلامه وصحبته)

(اسلامه)

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس اسلاماً فقال بعضهم انه علي وقال

بعضهم انه أبو بكر وقال بعضهم خديجة وقد أخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن علي رضي الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ومما يؤيد انه أول الناس اسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية اتقاها وأعد لها إلا النبي وأوقاها بما حملا

والثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الاقوال بان أبا بكر أول من أسلم من الرجال وعلي أول من أسلم من الصبيان وخديجة أول من أسلمت من النساء وأول من ذكر هذا الجمع الامام أبو حنيفة رضي الله عنه (وهو الصواب)

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة وخلص جوهره من الدغل وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب والممارسة في الحق فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة . من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر)

سبق أبو بكر بالايمان فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم بركة اسلامه الى نيل السعادة بالاسلام لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر الا ان يكون نبي) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرها من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فقد أسلم

منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون

﴿ صحبته ﴾

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم الى حين توفي خيراً صحبة وكان أحب رفيق اليه وأعز صاحب لديه حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة اولو القوة ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي الى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته واستبشاراً بتخفيف اذى قريش عنه . ورافقه في النار ثلاثاً وعينه من اجله لا تنام ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة حتى قلل له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ليسكن اضطرابه ويأمن على نبيه وأنزل فيه قرآن (ثاني اثنين اذ هما في النار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه)

علم أبو بكر ان لله عليه حقاً وان للايمان بكتابه شرطاً وهو الامتثال لما جاء به والعمل بما فيه وان الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة) فسمح بماله في سبيل الاسلام وأنفق على النبي عليه الصلاة والسلام وكان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام . لانقاذهم من الآلام . كما كان يشتري على الاسلام ايضاً (١) حتى

(١) اخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتقد على الاسلام بمكة فكان يعتقد عجائز ونساء اذا أسلمن فقال أبوه أي بني أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت أنا أريد ما عند الله وأخرج الطبراني عن عروة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب في الله اه

اتى عليه الرحمن ونوره به القرآن ومنه قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى) الآية
وقوله تعالى (وسيجنبها الاتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى)
الى آخر السورة كل هذه الآيات وغيرها نزلت في أبي بكر

سمع بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
الا حضره ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ويقف في
وجه الاعداء دونه

اخرج البزار في مسنده عن عليّ انه قال . اخبروني من أشجع الناس .
فقالوا انت . قال اما اني ما بارزت احداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني
بأشجع الناس . قالوا الا نعلم فن . قال (أبو بكر) انه لما كان يوم بدر فجعلنا
لرسول الله عريشاً فقلنا من يكن مع رسول الله لئلا يهوى اليه احد من
المشركين . فوالله ما دنا منا احد الا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول
الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى اليه احد الا هوى اليه فهو أشجع الناس .
قال عليّ رضي الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته
قريش فهذا يجباه وهذا يتلته وهم يقولون انت الذي جعلت الآلهة الهاً
واحداً فوالله ما دنا منا احد الا أبو بكر يضرب هذا ويجباه هذا ويتل
هذا وهو يقول . ويلكم أقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم رفع عليّ بردة
كانت عليه فبكي حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله امؤمن آل فرعون
خير أم أبو بكر . فسكت القوم فقال الا تجيبوني فوالله لساعة من أبي بكر
خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذلك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل
أعلن ايمانه

﴿ باب ﴾

(خلافة أبي بكر)

(كلام على الخلافة)

قبل الكلام على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه نأتي بتمهيد مختصر في الخلافة الإسلامية فيه بيان يحتاج إلى النظر فيه كل باحث في تاريخ الإسلام فنقول

إن موازنة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تختلف سواء عن الشرائع الإلهية . أو الأوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة إلى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولي الشرائع (ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الإشارة إلى ملازمة القوة للدين إرهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التي لا يقوّمها مجرد الإرشاد واللين وهذه القوة إنما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة

ومن المقرر أن وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع إليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه إلا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة الرسول وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية

والعقل والعدالة والعلم ولا يشترط فيها شيء من النبوة بل النبوة رسالة الهية
يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع وتلك رئاسة
دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع واقامة أركان الدين ولا تناسب بين
الوظيفتين البتة لهذا تضافرت الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم
على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أي
قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام وأيد هذا سنته العملية
فقد فارق هذه الدنيا الى الملائ الأعلى وليس لاحد من آل بيته أمر من أمور
الناس أو ولاية من ولايات الاطراف ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملاً
من الاعمال أبي عليه ذلك لتلايظن بعده انه أراد بقاء الامارة في بني هاشم
متصلة بالنبوة مع ان النبوة شيء والامارة شيء آخر

وقد علم هذا الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه لما تنازل عن الخلافة لمعاوية
ابن أبي سفيان فقال (أبي الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب آل البيت
شرفاً أن تكون النبوة فيهم

قلنا ان الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار انها شيء والنبوة شيء آخر وانما قالوا انها
رئاسة دينية وخلافة نبوية لما يتعلق بها من اقامة أركان الدين كما تقدم وهي بهذه
الثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكاً دنيوياً بحيث اذا
ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الامارة وهي الصلاة بالناس التي استخاف بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم أبابكر فكان خليفته على الامة في الدين كما صار أميراً عليها
في أمور سياستها في الدنيا ومن هنا اشتق اسم امارة المؤمنين اذ لا بد لكل أمة
اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقوم أحكام شرائعها ويدير
سياسة ملكها لاسيما وان الاسلام جاء بقسمي السياسة والدين ولم يقتصر

على أصول التوحيد والعبادات لهذا كان وافياً بمحاجات الدين والدنيا
 من ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين
 بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجها الى
 وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله
 ويأخذ بالقوة على أيدي ذوى العيب بالنظام . الا انهم اختلفوا فيمن يولونه هذا
 الامر اختلافاً ليس فيه ما ينافي المصاححة الاسلامية بل غايته تمحيص الفكر
 ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون
 أثبت قدماً في الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاخاروا لهذا المنصب الرفيع
 أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاخاروا للخلافة رجلاً من غير بيت
 النبوة ولو علموا خلافة لما عدلوا عن بيت النبوة البتة وكان أولى الناس بهذا
 الامر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم أو علي بن أبي طالب لسابقته في
 الاسلام وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسبا وصهرا بعد
 العباس

هكذا كان أيضاً بعض بنى هاشم وبعض بنى أمية يتوقعون انه لا يعدل بعلي
 كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لخصوصيات
 ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له
 لذلك المنصب الرفيع لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبني هاشم والآن لو صح عندهم
 شيء من وجوب الخلافة لبني هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بهامن علي
 لانه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن الامر كذلك لم يتخلف علي عن مبايعة أبي
 بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة

له وعوناً له على أمره

هذا اذا صح انه تخلف عن بيعته ولم يصح وانما وجد عليه وعلى عمر بن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وهي قرية بخير لما ثبت عند أبي بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة انما يأكل آل محمد من هذا المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر واني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت في عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره على أيضاً الى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبي بكر وكان لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فصالحه وربما وهم الرواة من هذا الامر انه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً وسترى من الروايات الآتية ما يدل على ان علياً لم يتخلف عن البيعة الا قليلاً والله أعلم .

ولكن ما الحيلة وقد رزى هذا الدين بشراذم من المنافقين انما دخلوا في هذا الدين للتشويش على أهله لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الاسلام التي ملأت قلوبهم لم يمكنهم من بث الفتنة في الدين فبثوها وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور رأى بعد منافقوا الاعاجم ومجوسهم الذين ابتزوا الاسلام ملكهم مثل عروش ملوكهم فها لهم أمره وساعتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لادخال الوهن على الاسلام وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما في وجوه المسلمين فزعموا ان منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن أصله . ولا يصح وضعه في غير محله . واشتروا فيه ما يشترط في

النبوة من العصمة وهي لا تكون على زعمهم الا في علي وأهل بيته والآفلا امام يؤتم ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذي رموا اليه يومئذ بسهم نفذ في كبد المسلمين . وفرق وحدة المؤمنين . ولا يزال يتابعهم عليه الى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون . ولا فهم لحقيقة ما هم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظارا لامام موهوم ويوم معلوم وامصيبته من هذه العقول التي لم تدرك الى الآن سراي غرض السالفين ومهاوي ضلال الزنادقة الكاذبين الذين جعلوا مسألة الامام المعصوم عقبة دون اقامة شعائر الدين . لن تزول من وجه الاسلام الى يوم الدين . ما دامت مدعمة باحاديث المهدي الموضوعة . واخبار الامامة المصنوعة . التي يدل على انها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائمها من التفريق وما أصيب به الاسلام من الوهن وهذا شيء لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأئمة كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ولو صح شيء منه لما ترك الله عباده الى الآن يتخبطون في ظلمات الفوضى بلا امام معصوم والعصمة انما هي لله وللانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ولن يرسل للبشر الائمة والسلطين المعصومين كما يريد فريق المتخرفين من الشيعة . وهذا العالم البشري على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائما بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان الآن أو كسرى في قديم الزمان . فالهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة وتأليف تلك القلوب المتفرقة انك مجيب السؤال ولترجع الى الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ونبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول

﴿ بيعة أبي بكر ﴾

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبا في أهله بالسنع
فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم في اختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم فمنهم المصدق ومنهم المكذب فدخل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فكشف عن وجهه وقبلة وقال بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب
الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً . ثم خرج إلى الناس فحمد الله وأثنى
عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله
فإن الله حي لا يموت . ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)
الآية فكان الناس لم يعلموا ان هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا ان سمعت أبا بكر يتلوها
فوقعت الى الارض ما تحملي رجلاي . فالهم ارزقنا قلوبا كهذه القلوب ملئت
بالايمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق انه قد مات لدهشة أخذتها
وحزن أصابها وأسى راعها وبلاء فاجأها ولما لم تطق حمل هذا كله زهلت لحظة كما
يشرب الطير ثم ثابت الى نفسها . وعاد اليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما
المسلمون كانوا في ذهول عنها وما هو الا ذهول الحزن ووقع أليم المصاب
وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومجهيزه ودفنه
جاء مخبر فاخبرهم باجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في
شأن الخلافة فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا
الامر قبل افتراق الكلمة فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبائعون سعد
ابن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلّبهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر
فأدلى بالحجة وكان مما قاله

يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلاً الا وانتم له أهل . وان العرب لا تعرف هذا الامر الا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح فكثر حيثئذ اللفظ بين الانصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم ان عمر لما رأى أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين يجعل الخلافة في قريش وان الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله قام الى أبي بكر وقال ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

وتخلف عن بيعته علي وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم حتى كان مما قال يومئذ عقبه بن أبي لهب

ما كنت أحسب ان الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى البيعة لأبي بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوة وان أبا بكر أحق الناس بها بعد ان أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين في حال مرضه اقبلوا على بيعته وبايعه علي رضي الله تعالى عنه بعد أيام على الأرجح لا بعد ستة أشهر وقد سبق الكلام على هذا في أول الفصل ويؤيده ما رواه الرواة عن أبي سعيد الخدري انه قال في حديث طويل ان أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

ثم نظر في وجوه القوم فلم يرَ علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه علي ابنته أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثرِب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

وأخرج ابن عساکر عن علي انه قال . لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ان يصلي بالناس^(١) واني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدينانا ما رضي به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني في الافراد والخطيب وابن عساکر عن علي رضي الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله ان يقدمك ثلاثاً فأبى علي إلاّ تقديم أبي بكر

هذا كله يدل على أن علياً رضي الله عنه لم يتردد عن بيعة أبي بكر الا قليلاً ويعضده أيضاً ان جماعة من بني أمية منهم أبو سفیان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقرعاً

هذا ولما استقرت الخلافة لأبي بكر وذلك سنة احدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخبركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق

(١) أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال مرض النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة انه رجل رقيق القلب اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس فقال مروى أبا بكر فليصل بالناس فعادت فقال مروى أبا بكر فليصل بالناس فانكن صواحب يوسف

إن شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله
بالذل . أطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي
عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

كلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الاسلام تمثيلاً تستكن امامه القلوب
التي أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول الى نتائج اعناق زعماء الحرية
في كل أمة وجيل

كلام صدر عن اول خليفة في الاسلام يبشر الأمم بنزع اغلال الذل
والاستعباد من اعناقهم وانزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم
بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة في الاسلام ويسجل الشقاء
على من تسامح بها من المسلمين . فانا لله وإنا اليه راجعون . على ما كان بعد ذلك
في المسلمين وما سيكون

﴿ انفاذه جيش أسامة بن زيد ﴾

لم يكن أمر البيعة اول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه
وسلم فانه لم يكده ينتشر نعيه في الآفاق . حتى ظهر النفاق واشرايت من الامم
المجاورة الاعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم تفقد
نبيهم وقتلهم وكثرة عدوهم

كان النبي عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولا أسامة
ابن زيد لبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته
عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لأبي بكر قال له الناس ان هؤلاء
(يعنون جيش أسامة) جنود المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا
ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه والذي

نفسى بيده او ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو ثبات امام الاخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ في مثل ذلك الموقف الحرج الذي وقف به المسلمون لا تصدر الا عن مثل أبي بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وان يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل لما خرج الجيش الى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان معه في جيشه الى أبي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون

وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله الا فأمضى فأبلغه عنا ان يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فأصر على ثبات رأيه واستمر في مضاء عزيمته على انفاذ جيش أسامة وقال لعمر لو خطفتي الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيرى لأنفذته

قال عمر فان الانصار تطلب رجلاً أقدم سناً من أسامة . فأدرك أبو بكر من هذا ما يحتاج لضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل في نفوسهم من آثار الفخر الجاهلية والاستمسك بعرى التفاضل بالانساب فرأى ان يحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى والاعمال وان يبدأهم

من ذلك بنفسه فاذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركن أو لا تنزلن فقال والله لا نزلت ولا أركب وما على أن اغبر قدي ساعة في سبيل الله . فلم يسع الانصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب اسامة إلا السكوت ولم يبدر من احد منهم يادرة قط بل ساروا صحبة أسامة وابدوا ما عرفوا به من الاخلاص في الجهاد والذب عن حياض الاسلام والاستماتة في قتال الاعداء فرضي الله تعالى عنهم اجمعين

ولما اراد أبو بكر ان يرجع قال لأسامة ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل

فأذن له

امام أمره نافذ في جيوشه وسلطته وبسوطه على قواده احب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش الا باذن قائده أسامة بن زيد تنبيهاً لمن فيه الى وجوب الطاعة لأمره وعدم الحيد عن اشارته ما دام فيهم اميراً ولهم قائداً وقد كان في استطاعته ان يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه لو لم ير ان يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه وهيئات هيئات ان تلد الولادات مثل أبي بكر وعمر

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ان الدول المتسدة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها المريضة في خدمة الانسانية والانسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن ان تقيد جيوشها بمثل مضمونها او يرتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وما هي بنصها

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً
 كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا
 تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا
 أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم
 فخصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً
 ثم قال اندفعوا باسم الله وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فسار وأوقع بقبائل من قضاة وأغار على أبي موضع
 بناحية البلقاء ^(١) وغنم وعاد بعد أربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً

﴿ باب ﴾

(الكلام على الردة)

« بحث في الردة »

ربما يتوهم متوهم من ايراد الكلام على أهل الردة على علته ان الردة
 إنما هي ارتداد العرب عن الاسلام الى الشرك كما توهم بعضهم في مناظرة
 جرت بيني وبينه من بضع سنين في مجلة الهلال التي تطبع في مصر والحال
 أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة وإنما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم
 ركنا من اركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن
 احببت ان اخلصها في هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه
 الصحيح فاقول

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا سيما لما بلغهم استفحال أمر مسيلمة الكذاب وطلحة الأسيدي فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالاتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ولم تلبث ان فشت هذه القالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطرّدوا عمال الزكاة ولما انتهى الخبر الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى فاختلفوا في هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا تقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل تقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعوني عقلاً^(١) مما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم عليه ومضى بنفسه الى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم وقد ادّى اجتهاد عمر في ايام خلافته الى ردّ السبايا والاموال اليهم واطلاق المحبوسين منهم

وفي سياق حكاية اقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف في حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها فقد نقل ابن شاذان في عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى في قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم فقال أبو بكر والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في مشكاة المصابيح نقلاً عن النهاية - أراد بالعقل الجبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة لان على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوي عقلاً من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدق أعيان الابل قيل أخذ عقلاً واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اه وقال المبرد في الكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقلاً واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً

لقاتلهم على منعها . فقال عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ^(١)) وأن محمدا رسول الله فمن قاتلها عصم مني ماله ودمه الا بحمقها وحسابهم على الله)

فقال أبو بكر . والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال الأبحقها . قال عمر رضى الله عنه فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق اه

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلى في رسالة البدع في الجزء العشرين من كتاب الكواكب ^(٢) أن قتال الصديق رضى الله تعالى عنه لاهل الردة انما كان لمنعهم الزكاة فقط وأفاض في هذا البحث مبينا أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قوتل عليه كله والزكاة من الدين فاجتهد أبى بكر أداه لقتال العرب عليها اه

وفي حديث ابن مسعود الذى يقول فيه (وسياأتى بتمامه) فوالله ما رضى منهم الا بالخطبة المخزية أو الحرب المجلية . فاما الخطبة المخزية فان يقرأ بان من قتل منهم في النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الاسلام الى الشرك والا فما معنى اقرارهم على أن من قتل منهم في النار ولو كانوا على الشرك فهم في النار بالطبع انكروا أو أقروا

وانما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالاتاوة بدليل

(١) هكذا في الاصل ولم ترد في هذه الرواية وانما وردت في رواية حتى يشهدوا ان لا الخ (٢) هذا الكتاب موجود في مكتبة دمشق الشام في جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهي المكتبة التي عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة في المدارس القديمة المرحوم مدحت باشا لما اسندت اليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر في نيف وأربعين مجلداً

ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصوره من جيفر على بلاد بني عامر فنزل بقره بن هبيرة وقره يقدم قديماً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مشواه فلما أراد الرحلة خلا به قره وقال يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة فإن اغفيموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع وإن أبيتكم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من صناديد قريش ودهاتها فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ما ينتظر منه حيث قال له . أكفرت يا قره وتخوفنا بالعرب فوالله لا وطن عليك الخيل في حنش أمك وأحفاش بيت ينفرد فيه النساء ثم قام وذهب

هذه حقيقة الردة فبين لم يرتد حقيقة كمن شايح مسيلمة الكذاب وطلحة الأسيدي قد بسطناها ليكون القارئ منها على علم وهي وأن تكن بتلك المثابة إلا أنها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء

﴿ قتال أهل الردة ﴾

اعلم انه كما كان للمهاجرين والانصار فضل وسابقة في نصره الاسلام ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طأ من بهم من إشراف من ناواه . واستخدى من عاداه . فلعمامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان قريشاً استقبلت بصدورها حوادث الردة المرية ونيرانها المتأججة وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة أو خاصة الاثيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك الفجاج الذي يرتج بأهل الردة ارتجاجاً .

وخاضت بجيولها من حروب القوم بحراً عجاجاً . وممن عقد له يومئذ من
رجال قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد
ابن سعيد والمهاجر بن أبي أمية ولم يلبث ان أطلقاً أبو بكر نيران الردة بامثال
هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة
وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادها في استخضاع تلك الجيوش
الجرارة وتدويج تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام
وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن
سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية
ابن أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة القهري وسعد بن أبي
وقاص واضرابهم من صنديد قريش ورؤسائها الذين ذلوا من الصعاب
وقطعوا من العقاب ولاقوا من الاهوال ما لا يحلم بذكره الانسان ، ولا
يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعد الا انه يؤخذ على بعضهم
تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضررها ،
وهي شؤون وان كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ،
الا أن قريشاً كانت أولى في مثل عصرها الذي نزل فيه القرآت باطراح
أسباب التخاذل والمزاحمة . والاخذ بأسباب الحزم والتضافر . بعد ان انتهت
اليهم السيادة في الاسلام كما انتهت في الجاهلية ومع هذا فلا يسعنا نكران
فضلهم على المسلمين بخدمتهم للاسلام في أيام الفتوح العظيمة وأما ما عدا هذا
فلهم فيه شؤون ريمافاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر وليست
العصمة الا لله وللرسول ولله في خلقه شؤون

نعود الى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذي وقف فيه

المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول
قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله من علينا بأبي بكر . أجمعنا على
أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وان نأكل قري عريية ونعبد الله
حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضى منهم الا بالخطبة
المخزية أو الحرب المجلية فاما الخطبة المخزية فان يقرأ بان من قتل منهم في النار
ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونعزم ما أخذنا منهم وان ما أخذوا منا
مردود علينا واما الحرب المجلية فان يخرجوا من ديارهم

بلغ بعزيمة أبي بكر وعظيم رأيه بعد اذ رأي ما أصاب المسلمين من النعم
ان آلى على نفسه ان لا يدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف آخذ برقابهم
والاسلام ضارب بينهم بجرانه وبينما هو يطاول في الامر انتظارا لرجوع أسامة
بجيش المسلمين أمجلته عبس وغطفان وأسد وطيء وكان بعضهم نازلا بذى
القصة وبعضهم بالابرق فارسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم
خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقله المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم
وأعمهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصيد الصناديد
وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعلى وطلحة والزبير الذين لا يقل لهم حد
ولا يدرك لهم جد

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً
وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو
فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسي
ليكونوا لهم رداً فوافوا ليلاً الانقاب وعليها المقاتلة فمعوهم وارسلوا الى أبي

بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو وأبعوهم حتى بلغوا ذا حسي^(١)
فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وفيها الجبال ثم دهدهوها^(٢) على الأرض
فذهرت اهل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم
ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبئة فما طلع الفجر الا وهم والعدو على صعيد
واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار وأبعوهم
أبو بكر حتى نزل بذى القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن في
عدد ورجع الى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس
وقدم في أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة
وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام اليه علي
والمسلمون وناشدوه الله ليقم فأبي وقال والله لأواسينكم بنفسي وسار الى
ذي حسي وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني
ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع الى المدينة فلما اعتراح أسامة
وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر الى تسير
الجيش الى أهل الردة

﴿ تسير الجيش الى أهل الردة ﴾

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة احد عشر لواء

الأول عقده نخلد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار الى

مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له

١ ذى القصة وذو حسي « أو ذو خشب على رواية البعض » اما كن قرب المدينة

لجهة نجد وهي منازل القوم

٢ أي نفخوها والأنحاء هي القرب

- (٢) لعكرمة بن أبي جهل القرشي وسيره الى مسيلمة
- (٣) المهاجر بن أبي أمية المخزومي القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن
ومعونة الابناء على قيس بن مكشوح ثم يمضي الى كندة بحضرموت
- (٤) خالد بن سعيد بن العاص القرشي وبعثه الى مشارف الشام
- (٥) عمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاة
- (٦) حذيفة بن محصن الغفاني من حمير وأمره باهل دبا
- (٧) عرفة بن هرة البارقي من الازد وأمره بمهرة
- (٨) شرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة وأرسله في أثر عكرمة بن أبي جهل
واذا فرغ يلحق بقضاة
- (٩) معن بن حازم السلمى وأمره بنى سليم ومن معهم من هوازن
- (١٠) سويد بن مقرن من أوس وأمره بتهمة باليمن
- (١١) العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية ووجهه الى البحرين
لما سير أبو بكر هؤلاء الامراء كتب لهم عهداً ستأني صورته في باب
كتبه وخطبه وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتاباً وسيره مع الرسل وستأني
صورته أيضاً

﴿ باب ﴾

﴿ حروب الامراء مع أهل الردة وأخبارهم ﴾

﴿ طليحة الأسدي ﴾

هو طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خديمة وكان قد تنبأ

في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبيةً لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وعطفان وطبيء ولما قصد مهاجرة المدينة أمدت هذه القبائل بأخيه حبال فأفترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت إلى ذي القصة ثم أوفدوا وفداً إلى أبي بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل، ولما سار امرء المسلمين بالجيش قصد خالد بن الوليد رضي الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه وأسروا منهم عيينة بن حصن الفزاري كما سيأتي تفصيل ذلك في سيرة هذا البطل المنوار إن شاء الله

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فلألم إلى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر كانت سييت في مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشه فاعتقها فرجعت إلى قومها ولما اجتمع إليها هذا القل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد قتل جمعها وقتلها

﴿ تميم وسجاح ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بني تميم ستة أمراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما وقع اليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان إلى أبي بكر بصدقات بني عمرو ووفى الزبرقان فاتج صفوان بصدقات الرباب وهي ضبة بنت أد بن طابخة وعدى وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أد بصدقات عوف والابناء وكلها من بطون تميم ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة فأما قيس فقدم ولما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج

الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه وأما مالك فتخبر وتشاغلتم تميم بعضها ببعض فقام من بقي على الاسلام في وجه من ارتد وبيناهم على اختلافهم اذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عققان التميمية وكانت ورهطها في اخوالها من بني تغلب في الجزيرة فادعت النبوة وجاءت تريد غزو أبي بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادة فوادعها وردھا عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بني تميم فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم قروا أمامها أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية فأغار عليها أوس بن خزيمه الهجيمي في بني عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ثم تحاجزوا على ان يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم فيئست بذلك من الذهاب الى المدينة وانقلبت تريد اليمامة وجرى لها مع مسيلة أمور لا محل لذكرها هنا ثم رجعت الى الجزيرة ولم تزل في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن إسلامها وإسلامهم

﴿ مالك بن نويرة ﴾

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا وتراجعوا الى الاسلام وأدوا الصدقة الا مالك بن نويرة فانه بقي متردداً بين الامرين واجتمع اليه قومه بالبطح فسار اليه خالد بعد ان انتهى من امر طليحة فلما علم مالك بمسيره اليه أمر قومه ففرقوا في المياه فبث خالد السرايا في أثرهم فأتي بمجاعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتي تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد

﴿ مسيلة وأهل اليمامة ﴾

كان مسيلة ممن وفد مع قومه بني حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رجع ومن معه الى منازلهم باليمامة ادعى مسيلة النبوة وانه

أشرك مع محمد بالامر واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين الف مقاتل
ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة
ابن أبي جهل الى اليمامة كما تقدم وأمدته بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص
ريثما يصله المدد بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم
فكتب فكتب الى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر وكتب اليه لا أرينك
ولا تراني فتوهن الناس امض الى حذيفة وعرجة فقاتل أهل عمان ومهرة
ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن
وحضرموت

وكتب الى شرحبيل بالمقام الى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد فاذا
فرغوا من مسيلة نلحق بعمر بن العاص تعينه على قضاة . فلما رجع
خالد من البطاح الى أبي بكر واعتذر اليه عما صنع بمالك وقومه فقبل
عذره ورضي عنه وجهه الى مسيلة وأوعب معه المهاجرين والانصار وعلى
الانصار ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن
الخطاب . وسار خالد للقاء مسيلة فأمدته أبو بكر بسليط ليكون رداً له لئلا
يؤتي من خلفه فلما علم مسيلة ومن معه بدنو جنود خالد خرجوا فمسكروا
في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفر اليهم عدد كثير

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بني
حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لادراك ثار لهم
وعليهم مجاعة بن مزارة من سادات بني حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا الا مجاعة
فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى
بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الارواح بيع السماء وأصيب

المسلمون بناس من ذوي البصائر والشرف وانتهى الامر بقتل مسيلة
وانهزام بني حنيفة وسيأتي هذا الخبر مفصلاً في سيرة خالد بن الوليد ان شاء
الله تعالى فان هذا الموطن من مواطنه المظيعة في حروب الردة

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه
وسلم في حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوي فلما توفي عليه الصلاة
والسلام كان المنذر مريضاً فتوفي عقبه فارتد أهل البحرين فأما بكر فتت
على ردتها وأما عبد القيس فراجعت الاسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن
المعلّى العبدي وكان جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه في الدين وامتلأ
قلبه بنور اليقين وعاد الى قومه عبد القيس فكان فيهم الى حين الردة فجمعهم
لما قالوا لو كان محمد نبيا لم يميت وقال لهم: أتعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى .
قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فان محمداً قد مات كما ماتوا وأنا أشهد
أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله : فأسلموا وثبتوا على اسلامهم

هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بأخر وليس بين الشقاء والسعادة
الا عقبة لا يقطعها الا المحقون من الشهوات الغالبون على هوى النفس
المالكون للارادة التي لا سلطان عليها من الشهوات ولا قائد لها من التقليد
وانما هي مطلقة في عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث

فكما مني الاسلام بناس من المعطلين الذين ران الهوى على قلوبهم،
واستحكمت عادة الضلال والاضلال في نفوسهم، فأثاروا نائرة الفتنة وأبو الا
الاسترسال فيما وجدوا عليه أباءهم من الضلال فقد رزق ناساً على العكس من
هؤلاء قد غلبت ارادتهم على الهوى، واستنارت بصائرهم بنور الهدى . فكانوا

للحق أنصاراً ، وللإسلام أعواناً ، وفيمن كان من هؤلاء في أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعري الإسلام عشيرته فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين هذا الشهم أي الجارود بن المعلى العبدي وصفوان بن صفوان التميمي وعدي بن حاتم الطائي وأمثالهم من أهل البصيرة والرأي الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين ، ويكونوا عوناً للمسلمين ، لتعلو كلمة هذا الدين ، ولو كره المشركون

لما اجتمع إلى الجارود قومه من المسلمين واستمروا على الإسلام خرج إليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستيحوهم وينتقموا على زعمهم ممن جراه فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود فارسل أبو بكر كما تقدم العلاء بن الحضرمي لأهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفي في مسلة بنى حنيفة وقيس ابن عاصم المنقري في قومه واتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان في مجبوحها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت إبلهم بأجمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء فلحقهم من النعم ما لا يعلمه إلا الله ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا إليه فقال ما هذا الذي غلب عليكم من النعم فقالوا كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم نخم الشمس حتى نهلك

حقاً أنه لموقف يروع القلوب ، ويستدعي اليأس من الحياة ، إبل نافرة بالزاد والماء ، وسحراء رملية تتلظى تلظى الرمضاء ، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها إلا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لا زاد لديهم ، ولا ماء يبل صدهام ، فإذا يصنعون ؟

رحمك اللهم فإن العلاء آلى أن لا تهلك هذه المصابة المسلة في مثل

هذه الدهناء ما دام في سبيل الله سعيها، وإلى نصرته الحق قصدتها، فقال لهم: لن تراجعوا أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن تخلدوا: فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلع لهم الماء فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الأبل تجمع من كل وجه فأنأخت إليهم فسقوها

فكان الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم يتمكن منها اليقين وأسعفهم بعد الشدة برحمته ليوقنوا أنه لا يتخلى من عباده المخلصين ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فبين معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين واجتمع المسلمون إلى العلاء وخذق كل على نفسه وكانوا يتراوحن القتال فاذا أمسوا رجع كل إلى خندقه حتى إذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شرييات ووضعوا فيهم السيف كيف شاؤوا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ثم قصد فلهم جزيرة دارين في الخليج الفارسي وعبروا إليها في السفن فعبث خلفهم المسلمون وقتلواهم هناك فظفروا بهم وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء إلى أبي بكر بالفتح

﴿ عمان ومهرة ﴾

لما أسلم أهل عمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولي عليهم الأخوين جيفراً وعباداً ابني الجلندي وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي وكان يسمى في الجاهلية الجلندي وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً فقبه كثير من أهلها فخانه ابنه الجلندي فماد بالجيال وبعث

جيفر الى أبي بكر فبعث اليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا وأرسل في أثرها عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة فلحقهما قبل أن يوصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فاتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان أما لقيط فانه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديداً كاد المسلمون يهزمون فيه لولا أن الله من عليهم بمدد عظيم من بني ناجية وعليهم الحرث بن راشد ومن عبد القيس وعليهم ميجان بن صوحان وغيرهم فاستظفروا بهم وهزموا المشركين ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا الى أبي بكر بالخمسة مع عرفجة وأقام حذيفة بيمان يسكن الناس وأما مرة فان عكرمة بن أبي جهل سار اليهم لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقترح بلادهم فوافق بها جميعين من مرة مختلفين أحدهما مع سخريت رجل منهم والثاني مع المصباح أحد بني محارب ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتا فأجاباه وأسلم وكاتب المصباح يدعوهم فلم يجب فرأى أن يمحوا ما لحقه من غضب أبي بكر لانهم جيشه في حرب مسيلة فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاءوا من الغنائم فبعث عكرمة بالانخاس الى أبي بكر مع سخريت وأقام هناك يدبر الامور ويدعو الناس الى الاسلام حتى اجتمع الناس على ما يجب وضرب الاسلام بجرانه

﴿ ردة اليمن ﴾

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملاً للاكاسرة على اليمن ثم دان بالاسلام وكان مقره صنعاء فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من

الصحابة منهم أبو موسى الأشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار وشهرته الاسود فادعى النبوة فأجابه بعض العرب ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله وأقام أصحاب الاسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون الى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أعمالهم وبعثوا الى المدينة بالخبر وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المهزمين من جنود الاسود فاجتمعوا اليه وأراد أن يحتال في قتل كبار الابناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الاسود العنسي) فبيأ لهم طعاما ودعاهم اليه فظفر بواحد منهم وهو داذويه ونجا الباقيون وهما اثنان فيروز وخشنش^(١) فطلبهما فامتعا بقبيلة خولان فرجع قيس الى صنعاء فاستأثر بها وعمد الى عيالات الابناء فغرت بهم وأخرجهم فلما علم بذلك فيروز استمد بنى عقيل بن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الابناء التي سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم انصرفوا الى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم وفي غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواءً وسيره لقتال جنود العنسي ومعاونة الابناء وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل بعد ان انتهى من عمان ومهرة فساعدا الابناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الاسود فسيراهما الى أبي بكر كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يتألف القلوب بالاناة ولا يتعجل بالعقوبة فلما وصل اليه قيس أنه على ما فعل فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه

شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له لان القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله وقال لعمر بن معد يكرب أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور^(١) لو نصرت هذا الدين لرفعت الله . فقال لاجرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا الى عشائرهما مؤمنين وكان لعمر بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى

﴿ كندة وحضرموت ﴾

كان زياد بن ليلى الانصاري عاملاً على كندة وحضرموت بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً وكان قد ولي صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً فطلبوا اليه استبدالها بغيرها فأبى وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه المداء فاستغاثا بحارثة بن سراقة بن معد يكرب فأقبل الى زياد وحل عقال الناقة وبمشها وقام دونها فأمر زياد شباباً من حضرموت والسكون فنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكريان عظيمان من هؤلاء ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سيلاً يتعلقون به عليهم وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ونهد اليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا

(١) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في اول رده وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بني العاص ثم الى بني أمية ثم الى بني العباس الى عهد الوراق حيث أمر بدفعه الى صيقل ليُسقته فتغير

لما تفرق القوم اطمان زياد من جهتهم فأطلق حارثة ومن معه ولم
 يترصد ريثما يصل اليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم فلما رجع الاسرى الى
 أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع
 الصدقة . ومن هذا يعلم ان كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الاولى
 مع الاسود العنسي وانما الجأهم الى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد
 من الخلاف

اجتمع الملوك الاربعة منهم ونزلوا المهاجر وهي اجماء جموها ونزلت
 بنو الحرث بن معاوية مهاجرها فنزل الاشعث بن قيس محجراً والسمط بن
 الاسود محجراً وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة الا الشهم الهمام
 شرحبيل بن السمط وابنه فانها قالا لبني معاوية : انه لقبيح بالاحرار التنقل
 ان الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا الى اوضح منها مخافة العار
 فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل الى القبيح ومن الحق الى الباطل
 اللهم انا لانمائي قومنا على ذلك

فله ما أسى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلا هذه المدارك
 وانما ساد المسلمون لا بكثرة وغلبيوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد
 وعديد وانما هو برجال مثل هذين لم تضعف في مواطن الشدة قلوبهم ولم
 تلقهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدو ذي شوكة فالهم ارزق
 المسلمين الآن امثال أولئك الرجال وغير حالهم الذي انتهوا اليه بأحسن حال
 انك مجيب السؤال

قال شرحبيل وابنه لقومها ما قالا ثم انتقلا الى المسلمين ومعها امرؤ
 القيس بن حابس وكان من حسن رأيها وعظيم فضلها وبعد نظرهما ان اشارا

على زياد بديات القوم وقالوا له ان اقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا اليهم وكذلك شداد من حضرموت فان لم تفعل خشينا ان تفرق الناس عنا اليهم . فاستحسن رأيها وأجابها الى تبيت القوم فطرقوهم في محاجرهم وجاءهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم فقتلوا الملوك الاربعة وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فادركتهم لعنته وفر من قومهم من نجا من القتل وعاد زياد بن لييد بالسبي واجتاز بالاشعث بن قيس فثار في قومه واستنقذهم وجمع الجموع فكتب زياد الى المهاجر بن أبي أمية يستحثه فلقية الكتاب في الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس وقدم على زياد وسار الى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان فاقتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هرباً الى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموه وأصلحوه وسار المهاجر فزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون وقدم عكرمة فاشتد الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الامراء على نفوسهم فخرج الاشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد ان يؤمنهم وأهليهم على ان يفتحوا لهم الباب فاجابهم الى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى اختمه ففعلوا ونسي الاشعث نفسه فأخذوا وأرسل مع السبي الى أبي بكر

لما قدم الاشعث المدينة أتبه أبو بكر وشدد عليه النكير فلما خشى القتل قال أو تحتسب في فتطلق إيسارى وتقياني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بامثالي وترد على زوجتي (وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم آخرها الى ان يقدم الثانية) فان فعلت ذلك تجدني خيراً أهل بلادي لدين الله فحقن أبو بكر دمه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق

وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره

﴿ كلمة في حروب الردة ﴾

انتهت حروب الردة على ما رأيت وثاب العرب الى السكون بعد ان علموا أن الاسلام يعلو ولا يلبى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم على أعدائهم ويمكن لهم السلطان في الارض لو علم العرب ما أعد لهم بواسطة الاسلام من سعادة الدنيا والآخرة وكشف لهم النطاء عن ذلك الملك العظيم الذي سيؤول اليهم والسلطان العميم الذي سيصبح بأيديهم لما لعبت الالهواء برؤوسهم ، وأخذت الجاهلية الاولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه ان يلقي من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة اعراضاً . حتى يتبين لها انه الحق فترضاه ، وانه سبيل الهدى والسعادة فتقصد اليه وتتوخاه ،

تبين معنا من أخبار الردة امور جديدة بالاعتبار حرية بامعان النظر لانحسب ان يفوتنا النظر اليها وبيان ما يستتج منها وهي

(١) ان المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ومنهم

من أرتد فعلاً وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنبئون الاربعة

(٢) ظهور دعوى النبوة بين العرب حتى ادعاها اربعة رجال وامرأة من

عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم الاسود العنسي في اليمن وطليحة في

أسد وغطفان ومسيلة في بني حنيفة وسجاح في اخوالها من بني بكر

ورھطها من بني تميم ولقيط بن زرارة في عمان

(٣) انقسام معظم العرب في حروب الردة فبعضهم للاسلام وبعضهم عليه

(٤) سرعة التوفيق في انتهاء حروب الردة

(٥) مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم

فاما الامر الاول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة من انها ليست على اطلاقها وانما هو اجتهاد من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ثم لما رأوا أن المصلحة تؤيد وقتئذ ما ذهب اليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى ان هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها وان بقاء من أسر من المرتدين في حالة الرق مع انهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محذور في الاسلام قال : انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الاعاجم فاستشار الصحابة في فداء سبايا العرب ثم وضع الفداء ورد السبايا واما الامر الثاني وهو فشو دعوى النبوة بين العرب فهو عندي معجزة من معجزات النبوة وقد حملها بعضهم على ترقى أفكار العرب قبيل ظهور الاسلام ولا دليل لهم على ذلك وانما هو النرض يثير بالنفوس نائرة البغضاء ويستل من بين الجوانج روح الحق فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر والا فأي باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول ان فشو دعوى النبوة يومئذ منشأوه ترقى أفكار العرب مع ان هذه الدعوى انما فشت بعد ظهور الاسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لا قبيل ظهوره واذا ادعاها واحداً واثنان قبل البعثة فلان بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لانفسهم واما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الاوثان لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة الا أهل الكتاب منهم كطى مثلا وهم أول من خذل مسيلمة وكان للاسلام نصيراً وللوحدين ظهيراً

والحقيقة التي يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ان دعوى النبوة انما ظهرت في العرب بعد الاسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام وطلباً للرياسة وظناً من القائلين بهذه الدعوى ان مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ثم التدرع بها للقبض على زمام السيادة مجازاة للرسول على زعمهم وحسب العاقل ان يفرق بين النبوة وبين النبي بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ ومنها ان النبي محمداً عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو الى الاسلام ومات ولم يجتمع لديه من المقاتلة ما اجتمع في بضعة اشهر لمسيلمة الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين ألفاً باتفاق المؤرخين ومع هذا فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الاسلام كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش وأعدوا العدة لمكافة الاسلام فصددهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحام من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ومع هذا فقد كانت كلمته هي العليا والمسلمون على قلوبهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لانه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوة الصحيحة والفيض الالهي العظيم الذي لا تقني عنه الجيوش الكثيفة ولا يقوم مقامه ترقى الافكار ولو انصف اولئك الناس وانعموا النظر في كثرة المتنبئين في عهد الرسالة وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانحسار دعوتهم في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ودعوته قائمة منتشرة واتباعه في ازدياد حتى بلغوا الى هذا العهد

سدس البشر وضرب الاسلام بجرانه في معظم انحاء الارض لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوة أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ويظهر الباطل في جانب الحق ليميز بين الاثنين . ويعلم المعاند أن محمداً نبي الله حقاً بلا من . ولكن ما الحيلة (فانها لا تعنى الابصار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور)

وأما الامر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتصر للاسلام وقائم عليه فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين . وتعجيل الفتح المبين . وفيه دليل على ان الناس انما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لانهم لرؤسائهم تبع . ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون . فان كلمة من عدى بن خاتم الطائي مثلاً كفت لانحياز انجاد طيء وفرسانها لجانب المسلمين وقتالهم في صفوف الموحدين فان عدياً لما كان شهماً يأبى النقيصة وقد سبق منه الايمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر الى قومه لما انحازوا الى طليحة الأسيدي ونصحهم على الوفاء بالعهد . وعدم الخروج عن الايمان فسمعوا له واطاعوا . ولما اشار به انصاعوا . حتى قيل يومئذ (كان عدي خيراً مولود في طيء واعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلفهم بكريم اخلاقه . وتمسكهم بالاسلام اقتداءً به . واتباعاً لنصيحته .

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر في قومهما من تميم حتى اقتدوا بهما واطاعوا اشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من احياء تميم . وانحازوا مع ذينك الشهمين الى المسلمين .

وأما الامر الرابع . وهو سرعة التوفيق بانهاء حروب الردة . والامر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فانها ولا ريب من نتائج حسن

اليقين عند المجاهدين وتجردهم لنصرة الاسلام تجرد من لا يرى الحياة الا بالموت ويرجو من ثواب الشهادة في اعلاء كلمة المسلمين، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافئة المكافئين، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين واعزاز جانب اخوانهم الموحدين ان تدك امامهم شواخ الجبال، لا صفوف الرجال ويستخذي لهم الملوك الكبار، لا سكان القفار

ولا ينكر ما لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا انحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقاً وشطوط البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً ولم تكن غيبتهم الا كما يغيب المرتاد للمناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن، وجمعوا سكانها على كلمة الايمان،

وقد نتج عن هذا كله ان وقعت هبة الاسلام في قلوب العرب وايقنوا انه الدين الحق الذي لا يفلح مناوته، ولا ينجح شائته، فاقبلوا بأجمعهم اليه، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه،

﴿ باب ﴾

﴿ فتوحات أبي بكر ﴾

(تمهيد للفتح الاسلامي)

رأي أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا

يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة في جسم تلك الأمة العظيمة التي جمعتها كلمة الاسلام وان يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعمياً للدعوة الاسلامية وبثأل روح العدل والحرية بين الأمم فما هو الآن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت احشاءها سيوف الاهواء والاهام، وقضى على مجدها القديم ظلم ارباب السيطرة على النفوس والاجسام، فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لهريق أهل الكتاب منها (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً) ولهريق الصابئة ومن على نجاتهم من المشركين (الاسلام أو الجزية أو السيف)^(١) حتى اشرأبت لعدل سلطاتهم اعناق الناس . ودانت لدينهم الشعوب . وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك ، وشادوا الممالك ، ومصروا الامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى ، كما يأخذون على يد الظالم

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة في الاسلام هي ان لا يقبل من مشركي العرب الا الاسلام وأما اهل الكتاب فالاسلام وان أبوا فالجزية وهي ما يستعان به على اصلاح شأن الأمة وان أبوا فالسيف أي الحرب وهي منتهى درجات الدعوة وانما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الافرنج في حماية المبشرين بالاساطيل والجند والعدة والعديد

وقد اختلف في المشركين من غير العرب أي المجوس هل يحاربون على الاسلام أو الجزية أم على الاسلام فقط والمشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية وأما العرب فان يقبل منهم الا الاسلام وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ومن ثم تعلم خطأ القائمين بقيام الاسلام بين الأمم بالاكرام وهو لم يتم الا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الادب ان تفصيلاً شافياً

حتى يخذى ،

أما والله إن تبلغ أمة بالظلم والقوة، وكثرة العديد والعدّة، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والايغال في احشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرضون ، ولينصف الغريون ، فإن سلطان الظلم اذا أسرع بسيفه الى الرقاب، فلا سلطة له على النفوس، وإنما تملك النفوس بالعدل، وتلتف الناس على القائم بالقسطاس، السائس بالرحمة، الباسط بساط الحرية والأمن، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار، وأتى يجاريهم ساسة الممالك في هذا المضمار، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين، وبئس من غلبتهم الشهوات بعدت فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين، وقدفوا بالأمة من حلق مجدها الى وهدة الذل المهين .

أجل ان أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبصفة المغلوبين لهم لا بالحيف . ولما ثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب على أمره من مستبد قاهر الا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لاهل الاسلام وهم مكرهون ، ولا يدالة دولتهم من العرب متمنون، وأى شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذي ينطق عليهم بالحق ولا يقول الا الصدق

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال اهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

ولندفن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل اهل المدنت التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والا فاننا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

واحزناه على ذلك العدل . قوم نشأوا في مهد دولتهم ونشأت في أحضانهم . ودانوا بدينها ودانت بدينهم . يغلغون في وجهها الابواب . ويظاهرون عليها العدو ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم . وينكس أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم . ولا من جنسهم . ولا من أهل لغتهم . هل مر قوا من الدين . وخانوا الدولة . وباعوا الوطن . وماتت فيهم طواطف العزة . كلاً وانما هو العدل العدل . العدل الذى جمع بين الامير والمسأمر وانخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم في شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والاخاء

شيء شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه . وذاقوا طعمه بعد ان لم يذوقوه . فحبب اليهم دولة المسلمين بعد اذا أصبحوا من حقيقتها على علم . وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم اللهم انك اذا حببت بسطان الارض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة ، وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن ، وأردت له سعة السلطان ، ومكنت له فى الارض كما مكنت لانصار دينك يومئذ سلطانهم ، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فان رحمتك قريب منه ، وأنى يشته بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم

ورضوا عنه ،

من يصدق ان تلك القبائل البدوية التي نشأت على حب العصية والتهالك على قتال بعضها بعضا والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعي المدنية ، انتهى اليها في بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا لولم ينزل اليها القرآن ، وتستدير بشريعة سيد ولد عدنان ، لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الاسلام . بالامس كانت هذه القبائل مشهورة سيوفها على المسلمين والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس في محاجرهما بقومهما من كندة يضربون بالسيوف في وجوه المسلمين واليوم أحدهما الاشعث في العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوت الفرس ، وينادى يا للأسلام ، والثاني في حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يفلقون في وجه دولتهم الابواب ، ويدفعون عنه جند الروم ان هذا لمن العجب العجيب ،

أصبح العرب بعد تلك الهجيرة المعروفة من قادة السيادة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرص الناس على حكمهم ، وأرغبهم في شرعهم ، أفليس في هذا كله ما يكف عن الاسلام السنة المخترصين ؟ ويشهد بان الفتح الاسلامي كان خيراً وبركة على الناس أجمعين

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ولم يحد أمر أوهم عن صراط القرآن ، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمة للاهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون الأجداد ورقياً والاسلام الا انتشاراً وتعمياً ولكن هي الاخلاق اذا فسد جوهرها والاهواء اذا

انفجرت ينابيعها صارت طوفانا اذا اندقع على البشر ، لا يبقى ولا يذر ، والنم
لا تدوم الا بالشكر ، ولا تزول الا بالكفران ، وحسبنا من هذا قوله تعالى
في القرآن (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

فتح العراق

أول من حرك في نفس أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمر العراق هو
البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني من بكر بن وائل وهو ممن
لم يتابع بكراً على ردها وبقي وقوه على الاسلام وكان يغير على سواد
العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنه فقال له
قيس بن عاصم بن سنان المنقري . هذا رجل غير حامل الذكر ولا مجهول
النسب ولا ذليل العباد هذا المثنى بن حارثة الشيباني

والظاهر ان المثنى بجاورته لبلاد فارس وتوالي غارته على اطراف ملكهم
من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب جبل دولتهم
فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من أسلم من قومه لينزو بهم
اطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك
عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رأى ان المثنى وحده لا يقوم بالمهمة التي
خالجت فؤاد أبي بكر وهي نشر راية الاسلام على ارجاء العراق ثم فارس فاستدعى
اليه خالد بن الوليد المخزومي من اليمامة في المحرم من سنة اثنتي عشرة للهجرة
وأمره بالمسير الى العراق وأن يبدأ من أسفله وكتب الى عياض بن غنم
الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة وقسم من ارمينيا بعد وأمره
ان يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلتقي خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً
أن لا يضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه رضي الله تعالى عنه على

منابع الثروة وعلماً بان العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة، والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك وانما هي قائمة بالفلاح فهو اولى الناس برعاية السلطان وجراسته من اذى الجند فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر، يبيت بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الاقوام ويدكوا صروح أولي السيطرة الظالمين ثم يبت فيهم روح الرأفة بالفلاحين، والمحافظة على المستضعفين، ليندفع في نفوسهم احترام حقوق اهل الفلاح الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم الى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم وليعلموا أن أولى الناس برعاية الامير عامل يعمل بارضه ويشغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين

وأوصاها أيضاً ان لا يغزون معهما أحد ممن ارتد ذلك لضعف ثقته رضي الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ما ظهر من حرب المسلمين ولعله خشى من أن يكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبشون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبي بكر لبعده نظره في العواقب وتأنيه في الامور ومع هذا فان عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين الى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الاسدي وعمرو بن معديكرب والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس وأمثالهم البلاء الحسن في فتوح الشام والعراق والاحلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح وانما قويت ثقة عمر رضي الله عنه بالعرب لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الاسلام ولأن في

توالى الجهاد شاعرا لاهل الفتنة عن الفتنة . ولعل ما أصاب المسلمين من بلاء التشيع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعده لما استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخذوا الى الراحة من عناء الفتح كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر والله بالحقيقة عليم لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المشي ابن حارثة بثمانية آلاف وبعد مسيره أمدته أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار . فقبل له أمدته برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمدت عياض بن غنم بعبد يغوث الحميري وكتب الى المشي بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وكان مذعور بن عدى العجلي قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله ونحال قومه من الاسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس فأمره ان ينضم الى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلي من بكر بن وائل يتربص في البصرة محبى خالد ليكون وقومه معه على قتال الفرس . فحيا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضي عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الاسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيا الله لاهله أسباب النصر لما نصره . وأعزتهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون في أول بلد قصده خالد فقال بعضهم انه سار الى الأبله^(١) وقال الدينوري في الاخبار الطوال انه سار الى الحيرة وان فتح الأبله كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان . ولعلها انتقضت فارسل

١ قال الدينوري في الاخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبة الخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الأبله مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اه

عمر عتبة لا خضاع أهلها إذ المشهور أن خالدًا بلغ الحفير والكواظم عند مصب
 الفرات ودجلة في خليج العجم ثم عاد إلى الأبله ففتحها عنوة وخلف عليها سويد
 ابن قطبة وقال له. قد عر كنا هذه الاعاجم بناحيثك عركة اذلتهم لك. ثم أتى
 الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهي منازل خريبة بها مسالح لكسرى تمنع
 العرب من العيث فطردهم منها واستخلف فيها عامر بن قين من بني سعد بن
 بكر من بني هوزان ثم تتبع شط الفرات فجاء باتقيا وبار وسماو آيس فصالحه
 أهلها على مال معلوم وعلى أن يكون أهل آيس عيون له ثم سار إلى الحيرة فناوش
 أهلها الحرب فخرج إليه أياس بن قبيصة الطائي من أشرف الحيرة وكانوا من أهل
 الكتاب فدعاهم (إلى الاسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له أياس ما لنا بحر بك من
 حاجة بل نقيم على ديننا ونعطي الجزية فصالحهم على الجزية واختلفوا في مقدارها
 فقال بعضهم أنها كانت تسعين ألفا وقال بعضهم مائة ألف وروى البلاذري
 أن أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن
 خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفا تكون ستين وزن سبعة. وروى الطبري أنها
 كانت مائة وتسعين ألفا ويؤيده ما جاء في كتاب عهد خالد لأهل الحيرة على ما سترى
 وأهدى أهل الحيرة هدايا إلى خالد على عادتهم مع الفرس فبعث بهامع
 خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفئ إلى أبي بكر فقبل الهدايا وعندها لأهل
 الحيرة من الجزية تعففا عما لم يأذن به الشرع وقطعا لدابر العادات الاعجمية التي
 كان يُحتال بها على سلب أموال الناس

هذا أول فتح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج
 جزيرة العرب وقد رأيت أنه لم ترق فيه نقطة من الدم في غير الأبله وفيه دليل
 على ارتياح أهل البلاد إلى حكم المسلمين ومثلهم من ظلم الفرس وتوقمهم

لاضطراب جبل دولتهم وزوال ملكهم وانما قوبل خالد بعد هذا بالحرب
لدماء أصابها من النمر وتغلب واياهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه
ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثأر

ثم ان خالداً بعد ان استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي
كانت تحكم العراق من قبل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة أخذ يتم فتح العراق
العربي فسار مصعباً جنوباً فافتتح الأنبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين
النمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ولما وصل الى دومة الجندل التقى بعباض
ابن غنم فجاءها عباض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتحها عنوة . وكانت
آخر حروب خالد في الفراض التي هي آخر تخوم العراق مما يلي الشام والجزيرة
وكان كلما فتح فتحها وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمسة الى أبي بكر رضي
الله تعالى عنه مع خبر الفتح حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء ان يلدن
مثل خالد)

وسياتي معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق في سيرته ونورد
كتبه التي كتبها الى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التي افتتحها ان
شاء الله

انصرف خالد بعد وقعة الفراض الى الشام واستخلف المشي بن حارثة
الشيبياني على جند العراق فاقام في الجزيرة يرتب المقاتلة ويذكر كي العيون وكان ملك
فارس يومئذ شهريران بن ازدشير فظن ان غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين
فجهز جيشاً عظيماً بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المشي في بابل شرقي الفرات
والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس وكانت حرباً شديدة انجلت
عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس فماد الاضطراب

في المملكة الى ما كان عليه واختلفت الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافا
يؤذون بادالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك
عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والاهام دون
الجد والحزم (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميرا)



باب

فتوح الشام

(تمهيد)



لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر
لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات
القوة للاجهاز على ممالك الفرس ورأى أبو بكر ان الله سبحانه وتعالى منجز
وعده الذي وعد المؤمنين (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الارض) انصرفت همته الى الشام التي هي مركز التجارة بين
الشرق والغرب ومدخر الخيرات التي أعدها الله للمسلمين
كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية وكان سلطان
الروم هناك في تقلص . ونفوذهم في اضعحال . ومعظم ولاية الشام في أيدي
العرب واليهم ترجع الامارة وعلى الملوك من بني غسان حراسة البلاد . ولم
يكن لقيصر في باطن الامر على اهل الشام سوى الاتاوة . والنفوذ والسلطان
انما كان للعرب الذين كانوا لا يميلون الى الروم ويودون اجلاءهم الى حيث نبت

بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذي يصاحب غالباً أو أواخر الدول
 الفاتحة الغربية عن البلاد المخالفة لها في الجنس والعادة فلهذا ولأن الشام في
 الحقيقة أشبه بجزء طبيعي من جزيرة العرب كانت الاسباب متوفرة لضم هذه
 البلاد الى سلطان المسلمين وطرده ذلك الفاتح الغريب العايت بنظام العدل
 المتعدي على حقوق الملك الطبيعي والاستقرار الثابت للعرب . يضاف الى هذا
 ان انصواء الامة العربية الى لواء الاسلام واجتماعها على كلمة الايمان أمر
 لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة في الجنس واللغة التي تقضي بوحدة الدين
 والسلطان

وأنت ترى ان الشام بهذه المثابة كحق طبيعي للمسلمين وهي لما حكمت
 بالاسلام انما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكامين
 حكم الجوار واللغة وان لم تكن عامة وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى
 بالشرق .

اذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدعون حقاً قديماً في البلاد
 يسمونه المسئلة الشرقية ولم يكن لاسلافهم في الشرق الا ما يكون لكل فاتح
 غريب من السيادة الى حين . ثم يتقلص ظله . وينكش الى وطنه . كما
 انكش الرومان الى حيث نبت بهم بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلمهم (سنة
 الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

وحبذا لو حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى الى مجلس العدل والمناقشة ،
 وولجوا بنا باب الانصاف في المناضلة ، اذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا في
 جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنها القوة تغلب كل حق وان
 كانت في نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها الا اذا عادل خصمه واستعلى

على عدوه وأنى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبي بكر وأخوانه
ومعاوية والخلفاء من بني عمه والمنصور وأحفاده وعبد الرحمن الداخل وأشباه
أشباهه وصلاح الدين وعزيمته والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين
قضوا بجزائهم على بقايا دولة الرومان في الشرق

ذكرى تمزق الافئدة والقلوب وحال من ضعف البصائر وغلبة
شهوات النفوس قد انتهينا اليه أفقدانا كل صبر ، وسلكا بقول النابغين في
الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم الى التخلص من
شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف اسوار من شهوات
الامراء وأتلاف الامة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار
الشع من نفوسها ، لا تزول الا بخلق جديد في الاسلام فقد استقلاله ، وقضي
حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد الآ على جده ، يهب
هبة الغافل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو وفي قول
علي بن أبي طالب ما يشير الى هذا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) (١)

هذا الحق الذي يعظم وقع في نفوس العقلاء . ويثقل بسماعه على البسطاء .
نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين
وحكوماتهم . والنظر الى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ
الانسان - وما كان ربك ليهلك القري بظلم وأهلها مصلحون - ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون - ياداود انا جعلناك خليفة في الارض
فاحكم بين الناس بالحق - واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا
فيها ففحق عليها القول فدمرناها تدميرا - ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

أقدامكم - وتلك الايام نداولها بين الناس - الى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت ان لله في خلقه سنناً لا تخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لا مهرب منه ومع هذا فاننا نرجو أن تخلف ظننا الاقدار ويخلق الله لهذا الأمة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على المجد اذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق الى نهايتها يصير . وانما نصر الله المسلمين في عهد أبي بكر ومن بعده بمجرد وسودهم على الامم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين

﴿ استدراك ﴾

ربما يظن ظان مما قدمناه في هذا التمهيدي انا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية ابان الفتح وانهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها والحال ان ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة انما هي حقائق تاريخية أوردناها على وجه الاجمال لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحيينا أن نستدرك ما فات بيان تاريخي لما تقدم فنقول

ان قسماً عظيماً من سورية كان أهولاً يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ونخلم وجذام وكتب وقضاة وغيرهم وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها الى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشامي الشرقي المتمد من غوطة

دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى شط الفرات مأهولاً بالعرب أيضاً من
 بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق
 فاما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بني
 غسان الشهيرة فمشهور لا حاجة فيه الى البيان
 وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولاً بالعرب فالدليل عليه مارواه الطبري
 وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد والبلاد التي مرّ عليها
 أثناء مجيئه من العراق الى الشام لنجدة المسلمين ومنه يستنتج ان كل البلاد
 التي مرّ عليها يومئذ منذ أشرف على وادي الفرات حتى انتهى الى دمشق بلاد
 مأهولة بالعرب واليك البيان

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع اليها المفازة أشرف منها على حدود
 سورية الشرقية في وادي الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته
 الدير المعروف الآن بدير الشعار وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر
 وتغلب وغيرهم لم تزل الى الآن كذلك فاني أركّ وهي واقعة بين تدمر والدير
 ومنها سار الى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية وسار منها الى القريتين
 (ولم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم) ومنها سار الى دمشق (عن طريق
 القلمون الاسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون
 ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام
 الى العراق) فأثني خالد في طريقه على حوارين وقصم وكانت آخر ما فتحه من
 البلاد الواقعة في طريقه من شمال دمشق فقاتله اهلها وكانوا من بني مشجعة
 من قضاة فظفر بهم ثم سار عنهم الى ثنية العقاب (التي تشرف على المرج المعروف
 الآن بمرج عدواء الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر

الى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً الى جهة الجنوب)
فأغار على بني غسان في يوم فخصهم فقتل وغنم وبعث بالانخاس الى أبي بكر
هذا ما أثبتته الطبري بشأن البلاد التي مرت عليها خالد وفتحها أثناء مجيئه
من العراق الى الشام ومنه علمت ان آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقي
عن دمشق (قُصَم) وأهلها من العرب من بني مشجعة وهو يدل على ان
القلون الاسفل وما يليه شرقاً الى شطوط الفرات كان مأهولاً بالعرب من
النمر وتعلب وايااد وبهراء وغيرهم^(١)

وكذلك القسم المواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولاً
ببني غسان . والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت
تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الاسلامي فهي اذن
كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية
والفرات ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان
مأهولاً بالعرب

اذا تقرر هذا علمت ان لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه
بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب واليهم ترجع حماية البلاد
وحراستها ولم يكن للروم فيها إلا الاسم اللهم إلا ما كان منها واقماً في الجهة

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد
أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب فجعل قصم آخر الفتح الى
جهة دمشق . وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه
أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فإذا صح هذا ضعف استدلالنا على ان قلون
الاسفل كان مأهولاً بالعرب

الغربية والشمالية كفلسطين والاردن وحلب وانطاكية وما يليها فر بما كانت
سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم

✽ بعث البعوث الى الشام ✽

كان بعثُ أبي بكر البعوث الى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد
عوده من الحج وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص
وقال ابن الاثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين انه عزله قبل أن يسير بابعاز
عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي
بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بتياء رداً للمسلمين وأن لا يفارقها
وان يدعو من حوله من العرب وان لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع
كثيرة واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ثم
جاءه ما هان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه فكتب الى أبي بكر
بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث الى آخر ما ذكره
من خبره

هذا ما ذكره بن الاثير وغيره وروى البلاذري في فتوح البلدان عن

أبي مخنف قال

رما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكم أبا بكر في عزله
وقال انه رجل نخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله أبو بكر ووجه
أبا أروى الدوسي لاخذ لوائه فلقبه بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على
أبي بكر رضي الله عنه فدفعه أبو بكر الى يزيد بن أبي سفيان فسار به معاوية
أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم اليه اللواء بذي المروة فمضى على جيش خالد
وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شرحبيل اه

والذي يستتج من هذه الرواية ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون رداً للمسلمين لا ليغزو مع الامراء ثم بعد مسيره كله بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه فدفعه الى يزيد وسيره على أثر مسير الامراء . وروى الطبري في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية وروى ايضاً من طريق آخر ان أبا بكر لما عقد الالوية للامراء عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كله بشأن عزله عمر اطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض وأمر خالداً أن ينزل بتياء وان لا يبرحها وان يدعو من حوله الى الاسلام ففعل واجتمع اليه جموع كثيرة فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب له أن اقدم ولا تحجم فسار اليهم خالد ففارقوا فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر . اقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك . فسار فيمن كان معه فلقبه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده وكتب الى أبي بكر يستعده فاهتم أبو بكر لامر الشام وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الامراء فنكبه الروم فعاد الى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الامراء . وهذه الرواية توافق ما رواه ابن الاثير وتختلف رواية البلاذري وفي كلا الحالين فان يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ولما تكامل جمعهم وذلك في مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الالوية فعقد لواء لعمر بن العاص وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاة ووجهه الى فلسطين . وعقد لواء لشرحبيل بن حسنة وكان قد وفد اليه من

العراق ووجهه الى الاردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من
انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشرف قریش
ووجهه الى البلقاء وقال بعضهم الى دمشق . وعقد لابي عبيدة عامر بن عبدالله
ابن الجراح الفهري ووجهه الى حمص . وكان العقد في بدء الامر لكل أمير
على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم
أربعة وعشرين الفا ؟

هذا هو الجيش القليل العدة النائي الديار الذي سار على بركة الله لينزو
الروم في عقر دارهم . ويجوس خلال ديارهم . ويزعزع اركان ملكهم . وينذر
بتقلص سلطانهم . وينشر راية الاسلام على ربوع الشام وأسيا الصغرى
والجزيرة وارمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله في السر والجمهور ، وعدم المبالاة
بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الاسلام ، والتعفف عما بأيدي
الناس ، وانصاف المغلوب ، وحماية ماله ونفسه ، واطلاق الحرية له في عوائده
ودينه ، ما دام يدفع للمسلمين جزءاً من ماله ، يستعينون به على اصلاح حاله ،
وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق
حيثما ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الامير والامانة في الجوار
ما عليهم ، لا يضار في عرض ولا نفس ولا مال ، هذا اذا ختار البقاء على
دينه ، ورضي باداء جزيته ، وأما اذا أسلم فانسلمون كما في الحديث (تكافأ
دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصامهم وهم يد على من سواهم)

ضف الى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي ، من
يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص

وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم أجمعين ومن وراثهم مثل أبي بكر يمدح بالرأي . ويتابع اليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبي سفيان التي تمجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم في كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الأمراء

﴿ وصية أبي بكر ليزيد ﴾

اني قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عمالك . وزدتك . وان أسأت عزلتك . فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك . مثل الذي يرى من ظاهره . وان أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً اليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد^(١) فاياك وعيبة الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها . واذا قدمت على جنديك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدم آياه . واذا وعظهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والنخش فيها . واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا عمك . وأنزلهم في ثروة عسكريك . وامنع من قبلك من محادثتهم . وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سررك لعلائيتك فيخلط امرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتي من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبددهم في عسكريك . وأكثر مفاجباتهم

في محاربتهم بغير علم منهم بك فن وجدته عقل عن حرسه فأحسن أدبه
وعاقبه في غير افراط وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الاولى أطول من
الاخيرة فانها ايسرها لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا
تلجن فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً . ولا تغفل عن أهل عسكريك
فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم
واكتف بعلائقهم . ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء .
واصدق الاقواء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر
ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما
حبسوا أنفسهم له اه

﴿ ابتداء الفتوح ﴾

(بالشام)

علمنا مما سبق ان الجهاد مبني على الدعوة وان المسلمين لا يبدأون
أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم الى خصلة من ثلاث (الاسلام أو الجزية
أو السيف) أي الحرب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب اني هرقل
في جملة من كتب اليهم من الملوك يدعوهم الى الاسلام ففي رواية انه أجابه
واسلم سرّاً وفي رواية انه لم يجبه ولما سار الامراء وكتبوا اليه يدعوونه الى
خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع اليه البطارقة وكبار القواد
وشاورهم في امر المسلمين وأشار عليهم بصلحتهم فأبوا عليه الا الحرب وكان
مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم

نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبكم على الشام ونصف بلاد الروم) ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ بأعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الاردن . ونزل عمرو بن العاص العربية من فلسطين . ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ومن قائل غير ذلك والذي قال بالاول بني قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمدّه بخالد بن الوليد ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد انتهى بانكسار الروم وبينما هم في اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومع الخبر أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة بن الجراح

مع ان امان الامراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الاردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك كل هذا يؤيد ان واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة اجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بأخر رمق وواقعة العربية من فلسطين وغيرها وان المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً ويؤيد هذا

ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما أنجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

وقد اتفق ابن الاثير والبلاذري على حصول وقائع للمسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك وهي وقعة بصرى في حوران ودائن في فلسطين ومرج الصفر وغيرها

والظاهر من هذه الروايات أن الروم في ابتداء الامر لم يحفلوا بأمر المسلمين ولم يظنوا فيهم القوة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل في احشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة وهو من سوء الرأي المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر فان الاستهانة بالعدوئهما قل وهن في السياسة منشأه ما يصيب عقول السياسة في الدول الهرمة من فقد قوة التجارب أو الاعراض عن مصالح الملك حبا بمصالح النفوس وشهواتها

قد مهدت سياسة الروم هذه للمسلمين ان يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجريين في الحروب العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد فانهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي في فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخري في الجنوب والجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة الى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو في الاردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب . ومن ورأهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات

على هذه الصفة دخلت الجيوش الاسلامية الى الشام واقتتح كل أمير مامراً عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى اذا اخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المدعورين . وانتهوا انتباه الغارين . فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام وهم يومئذ حماة البلاد والى الملوك من بني غسان ينتهى القول والعمل فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين الفا قسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسماً منهم بقيادة أحد مشاهير القواد

اجتماع الامراء في اليرموك

ووفود خالد بن الوليد عليهم

لما رأى أمراء الجيوش الاسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود كتبوا بذلك الى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم فأشار عليهم بالجلء عن البلاد والتقهقر الى اليرموك وهو نهر في واد واقع في الجهة الشمالية من جبل عجلون الى الجنوب الغربي من الشام وكتبوا الى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد وكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى الشام وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن جارية بطل العراق الشهير ولا يأخذن من فيه نجدة الا ويترك عند المثنى مثله فامثل خالد الامر وسار بمن معه حتى أتى تدمر وهي على حافة البرية مما يلي وادي الثرات وموقعها الى الشمال الشرقي من دمشق على بعد ١٥٠ ميلاً منها بعد ان عانى وجيشه مشقة عظيمة في الطريق وغزاه من صادفه من القبائل كما سترى في

سيرته بعد ثم قام من هناك الى ثنية العقاب ومنها الى صرج راهط الواقع شرقي القوطة فأغار على ارباض دمشق ثم اتجه جنوباً الى بصرى وقاتل أهلها فظفر بهم وأرسل بالانخاس الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة

كان المسلمون الى ذلك الحين يراوون العدو القتال ويطاولونه في النزال متساندين كل أمير على جيشه والعدو امامهم بجنده الكثيف الذي يبلغ المائة وخمسين الفاً لا ينزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن امامه جند الاسلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي في الحرب بعيد النظر في ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الامراء وليس لهم أمير يجمعهم فجمعهم اليه وخطب فيهم خطبة أنبهم فيها على ما هم فيه من الاقتراق في الامارة على ما استرى ذلك في سيرته وطلب اليهم أن يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الامارة العامة كل يوم واحد وان يؤصروه ذلك اليوم فأطاعوا اشارته وأمره فرتب الجيش ترتيباً حسناً ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم ما يؤيد قولنا فيما سبق ان الله سبحانه وتعالى كما أيد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصار أيده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شرهزيمة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة جداً وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجملة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة وعمرو ابنه وسعيد بن الحرث بن قيس ابن عدي وهو قديم الاسلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاء ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح

لا جرم ان واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك فإنها كانت آخر وقعة قضي فيها على سلطان الروم في سورية حتى لم يبق لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر واذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا انهم كانوا محور الحرب الذي دارت عليه رحاها وجنتها التي نلقت سهام أذاها . واليهم ينهى الفضل في كسر شرّة الروم وتمهيد السبيل لتدويج بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الاسلام .

ليس بعجيب ان يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الدمار وانما العجب لهذا الرهط ان ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ويقضي على كثير من ممالك الارض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين . والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة . وانما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا الى العلم بالدين وامتلات قلوبهم بنور الايمان

لا ريب ان هدى الاسلام قد نفذ منهم الى اعماق القلوب وكشف عن بصائرهم غشاء العرة فأخرجهم من الظلمات الى النور فأرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم اليه . قفازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا في الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده

ومن أبلي بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب وذهبت فيها عينه وخالد بن الوليد والسمط بن الاسود الكندي وعكرمة بن أبي جهل وهو الذي قال لما اشتد الامر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط خالد

قالت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم^(١). ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من باع نفسه في سبيل الله وأصبح الموت أحب إليه من الحياة حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح فأتى بهما ثانی يوم الى خالد فوضع رأسيهما على فخذه وجعل يقطر في حلقيهما الماء ويقول . زعم ابن حنمة يعني عمر أنا لا نستشهد .

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها فتخلى الأمير عن أمارته والغني عن ماله وملذته والشريف عن عزته والمائل عن أهله وولده التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الاسلام ، وطلباً لقر العدوة وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين يا حماة الاسلام ، وطلاب الشهادة ، يشددن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الختوف ،

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرضات يجاهدن العدو ويمرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتل المرأة ولد فبعثت الى ساحات الحرب اباه . أو تسلت عنه بأخيه

بينما المسلمون في ذلك اليوم في أشد حالات الحرب والصدام قدم

(١) يعني من مواطن قريش لان اسلام عكرمة كان بعد فتح مكة

البريد من المدينة واسمه محمد بن زعيم فسأله الخبر فأخبرهم بسلامة
وامداد وانما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة فكم هذا الخبر عن المسلمين
ريثما تضع الحرب أوزارها وتولي الروم أدبارها

وقد اختلف المؤرخون في هل جاء الخبر بوفاة أبي بكر والمسلمون في
اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا في هل فتح شيء من الشام قبل اليرموك
في خلافة أبي بكر ومما لا ريب فيه ان جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم
الجنوبي من الشام افتتحت كل ما مرت عليه من البلاد وربما بلغت حصص
شمالا كما رواه البلاذري الا ان انجلاءهم بعد عن البلاد وتقهقرهم الى اليرموك
جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين
عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم لهذا
عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك في خلافة
عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وطار بعضهم فأوردها مشوشة وفي
كلا الحالين فان الفتح الحقيقي للديار الشامية انما تم في زمن عمر بن الخطاب
ولأبي بكر الفضل العظيم فيه لسبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له
وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح انه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد

باب

مناقب أبي بكر وأخلاقه وما نزه

ان أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله وأخلاقه تمثيلا لا يدع في النفس
حاجة الى المزيد ما وصفته به أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنه وعن خطبة
وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه واذا أتيت بشيء

من ذكر فضائله ومناقبه فانما يكون تفصيلا لما أجملت . وشرحا لما أوجزت
فقد روي انه بلغها أن أناسا يتناولون من أيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت
أبي ماأية لاتعطوه الايدي ذاك والله حصن منيف وظل مديد أنجح
إذا كدتم . وسبق اذونيتم . سبق الجواد اذا استولى على الامد . فتى قريش
ناشئا وكهفها كهلا . يرش مملقها . ويفك عانيها . ويرأب صدعها . ويلم
شعبها . حتى حليته قلوبها . واستشري في دينه . فما برحت شكيمته في ذات
الله عز وجل حتى اتخذ بفنائها مسجدا يحيي فيه ماأمات المبطون . وكان رحمة
الله عليه عزيز الدمة . وقيد الجوانح . شجى النسيج . فانصفت عليه نسوان
مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزؤن به والله يستهزي بهم ويمسدهم في
طنينهم يعمهون . وأكبرت ذاك رجالات قريش فحنت له قسيها . وفوقت
اليه سهامها . فامتثلوه غرضا فافلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومر على
سيبائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست اوتاده . ودخل الناس
فيه افواجا من كل فرقة ارسالا وأشتاتا . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم
ماعنده فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد
طنبه ونصب حباله واجلب بخيله ورجله والقي بركه . واضطرب جبل الدين
والاسلام . ومرج عهده . وماج اهله . وعاد مبرمه انكاثا . وبني الغوائل
وظن رجال ان قد اكثبت اطعامهم نهبها . ولا حين الذي يرجون . وأنا
والصديق بين اظهرهم فقام حاسرا مشمرا . قد رفع حاشيته . وجمع قطريه
فرد نشر الدين على غره ولم شعثه بطيه وأقام اوده بثقافه . قابذعر النفاق
بوطاته . وانتاش الدين فنعشه . فلما اراح الحق على اهله . واقر الرؤوس على
كواهلها . وحقن الدماء في اهبا . وحضرته منيته . فسد ثلمته بشقيقه في

المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة ذلك ابن الخطاب لله أم حملت به ودرت
عليه لقد أوحدت قفنخ الكفرة ودينها . وشرّد الشرك شذر مذر وبعج
الأرض وبخمها فقاءت أكلاها . ولفظت خببها ترأمة ويصدعنها . وتصدي له
ويأبأها . ثم وزع فيأها فيها وتركها كما صحبها فأروني ماذا ترتوون . وأى يوي
أبي تنعمون . أيوم اقامته اذ عدل فيكم . أم يوم ظعننه اذ نظر لكم أقول قولي
هذا واستغفر الله لي ولكم ^(١)

﴿ سياسته في الخلافة ﴾

لم يكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأخرج على
المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدثى العرب بالقرآن ويتألفهم بالمعجزات
ويملك عليهم طرق الزيج بتوالي نزول الوحي بالدلالة على المناقين منهم .
وكشف خبايا ضمائرهم . ومع هذا فقد عانى منهم ما عانى ولقى أشد ما لقي نبي
من قومه ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة وانتقاض
العرب ما أوهن عزائمهم وقت في عضدهم نظر أبو بكر فرأى أن العرب كان
يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي وهم مع حداثة عهدهم
بالاسلام عريقون بالبداوة ساذجو القطرة قل أن يتأثر وجدانهم الا بما يتأثر به
حسهم فلا سبيل الى اجتذاب قلوبهم وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين
الكلام أو قواصر التفرغ للاحتيال على ضمائرهم . والتوصل الى كبح جماحهم

(١) نقانا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد اوردها
ابن عبد ربه في العقد الآ أن أيدي النساخ مسنخها مسخاً فجاءت ناقصة عن هذه في
بعض الجمل ومختلفة عنها في البعض فتقابل

وان القوة هي أحسن ما تراض به نفوسهم . وتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم . وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأي دون كثير من الصحابة كما علمت مما مر في اخبار الردة فكان رأيه الصائب . وقوله الحق . وعمله الموفق وسياسته الناجمة . حتى اعترف له بالاصابة وحزم الرأي بعد جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان من وراء عمله في الردة سلامة الاسلام والمسلمين من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الاعداء بدليل ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة قال (والذي لا اله الا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقبله يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبي بكر في انفاذ جيش أسامة وجيوش الردة في حديث طويل قد مضى معنا ما هو بمنه من أخبار أبي بكر فلا حاجة لا يراده هنا وكذلك رأيه في انفاذ جيش أسامة يدل على علو كعبه في السياسة وبعد نظره في مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهرة القوة . واستهان بانفاذه بخطب الردة . فنفت في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الامرين حتى واقفهم جيوش المسلمين وهم على فرقهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا . ورضتهم عما ابتدعوا . وضرب الاسلام بينهم بجرانه . وقضى على شيطان الجهل وأعوانه

ومن حسن سياسته انه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين . فاستكانوا للاسلام . وأخذوا الى الطاعة . ولم ير بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدة معهم . رفع العقوبة عن زعمائهم . والآن القول لأمرائهم . تأليفاً لقلوبهم . واستفادة من نفوذ رأيهم في أقوامهم فلما جئ له بالسمط بن الاسود الكندي أحد ملوك كندة . وعمر بن معد يكرب

والاشعت بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم . وامتلك ضمائرهم . فكانوا في المستقبل من انصار الاسلام الكبار . وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد واغضاؤه عن هفوته في قتل مالك بن نويرة مع الحاح عمر عليه باستدعاء خالد الى المدينة ليحاكم وتجري العقوبة عليه . ولما قال له عمر ان سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللائمة على خالد . قال يا عمر تأول خالد فإخطأ فإرفع لسانك عنه فاني لا أشيم سيفاً سله الله . وودي مالكا وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل وأخبره الخبر واعتذر اليه فعفاه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوباً من الجند العظيم الرأي في الجهاد موقفاً في الحروب فرأى أبو بكر ان رجلاً هذا شأنه لما يضمن به ويحرص عليه . لاسيما وانه كان يضمن ان يرمي به الفرس والروم . ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الاسلام في الممالك القاصية . لما يعهده فيه من سداد الرأي والشجاعة والتوفيق . فاصتقى بتعنيفه علماً منه بانه ان أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف في تنبيه مثله الى ان لا يعود الى مثلها

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم في جهاد الاعداء وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام بحسن اختيار أبي بكر له وعفوه عنه فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بنين القول والادلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوة وذلك لخرج الموقف الذي وقف

فيه المسلمون وقتئذ واشرباب الاعناق الى الخلاف . وتلظي نار الردة . وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف . وتربصهم الشر بالخلافة . وناهيك به موقفاً يحتاج الى الأناة والبصيرة . والصبر والعزيمة . وما زال به أبو بكر حتى بدت غيومه . ومهد للسكون والسكينة طريقه . فوافته الأمور كما شاء . وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب . ومما قاله يومئذ وهو يدل على إخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته الى درء الاخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتولية الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف قال خطب أبو بكر فقال

(والله ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلة قط . ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية . ولكنني أشفت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلت أمراً عظيماً مالي به من طاقة . ولا يد الا بتقوية الله) فقال علي والزبير ما غضبنا الا لاننا أخرنا عن المشورة وأنا نرى أبا بكر أحق الناس بها انه لصاحب الغار وأنا لتعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي اه

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه وصاياہ للقواد والامراء بالرفق بالأمم المغلوبة وتجنب كل ما يثير بالمحارب تائراً الاشجان ، أو يدعو الى مس جانب الانسانية أو يخذش وجه العمران . حتى كان من ذلك ان قام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الاسلام على الارض . فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضوا الى لوائه ، وكانوا من أنصاره وأوليائه،

كانت جنود الاعاجم من الفرس والروم اذا وطئوا ارضاً أفسدوها .

وإذا ظفروا بعدو مثلوا به واستباحوا حماه . فجاء جند الاسلام يحمل الدعوة قبل الحرب في يد وأمان البلاد من امثال تلك المنكرات الخبيثة في يد أخرى . وكانوا اذا انتصروا على عدو واستباحوا حتى ملك أو أمير يحملون رؤوس البشر الى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، واعلان للفخر ، فرأى امرء المسلمين في حرب الروم ان ياملوهم بنفس عملهم فبعث عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام الى أبي بكر مع عقبة بن عامر فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة ، يا خليفة رسول الله فانهم يصنعون ذلك بنا قال . أفيستنان بفارس والروم لا يحمل الى رأس انما يكفى الكتاب والخبر اه اخرج به البيهقي

اللهم ليست المدينة بالزخارف التي يتجلى بها الغريون الآن ومن ورائها الشهوات تهدم ما ينون ، وتضع مما يرفعون ، تزع بالقوي اذا استعلى على الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالي أخيراً صنع أو شراً ، وعدلاً أتى أو ظلماً ، يحشرون الى الفارمئات من البشر ويسدون عليهم فوهته بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروم التمدن الجديد بسائر ألوانه .^(١) أو يصفون الناس صفاً ، وينسفونهم بقذائف البارود نسفاً^(٢) أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب . ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب .^(٣) وانما المدينة ماسنت لعبادك في

(١) هكذا صنع الفرنسيون بمسلمي الجزائر لما دوحوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الانكليز لما استخضعوا ثوار الهند في ثورتهم الكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الاوربية هذه السنة في الصين وهكذا تصنع الدول

الاوربية في كل حرب الا بعضها مع بعض فربما يرفق قليلا

كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ،
وعدلوا بين خلقك ، وتجاؤوا مضجع الراحة في سبيل مرضاتك ، وأقاموا
الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الاسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التي كانت
فاشية بين الامم وهدبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين
كان من ورائهم فيه حكمة أبي بكر ويقظة عمر تسدان على دنيء العادات
الوثنية وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب الى نفوس المسلمين ،
وتقيان في وجهها حواجز الدين الاسلامي المين ، وما نشب ان امتد الفتح
وكثر الاختلاط وامتزج الامم بحكم الوحدة الاسلامية روميها وعربيها
وعجميها وتركها حتى أعجز الخلفاء الامر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء
والمقرين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم
الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الاخلاق بالاخلاق ، ومن ثم كان
معظم المصائب التي حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الاعجمية ، وفقد
التربية الاسلامية ، وليس هذا محل الاسهاب وربما تأتي بالمناسبة على شيء
من ذلك في هذا الكتاب

اخرج البخاري عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من
احس يقال لها زينب ، فراها لا تتكلم . فقال ما لها لا تتكلم . فقالوا حجت
مصمتة قال لها : تكلمي فان هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية : فتكلمت
فقلت من انت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت اي المهاجرين ، قال
من قريش قالت ، من اي قريش ، قال انك لسؤل انا أبو بكر . قالت
ما بقاؤنا على هذا الامر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية . قال بقاؤكم

عليه ما استقامت أمتكم . قالت وما الأئمة . قال أو ما كان لقومك رؤوس
 وإشراف يأمرونهم فيطيعونهم . قالت بلى . قال فهم أوثق الناس
 هذا هو الحق الذي أنطق الله به أبا بكر فحسبنا الله ونعم الوكيل وهو
 بحسن عافيتنا كفيلاً (ربنا اننا اطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل)

﴿ سياسته في الرعية ﴾

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف . ولين من غير ضعف .
 بطيء العقوبة غير متعجل فيها إلا بقصاص واجب لهذا كان يأخذ على العمال
 ايغالهم في العقوبة ويأمرهم بالرفق والأناة
 ذكر السيوطي ان المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة فرفع اليه
 امر أنان مغنيتان غنت احدهما بستم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع
 ثنيتها وغنت الاخرى بهجاء المسلمين قصل بها مثل ذلك فكتب اليه أبو بكر
 رضى الله تعالى عنه

بلغنى الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بستم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا
 ما سبقتي فيه لامرتك بقتلها لان حد الانبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى
 ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد . فهو محارب غادر . وأما التي تغنت
 بهجاء المسلمين فان كانت ممن يدعى الاسلام فأدب وتعزير دون المثلة وان
 كانت ذمية فلعمرى لما صفت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت
 اليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً . فاقبل الدعوة واياك والمثلة في الناس فانها
 مأموم ومنفرة الا في قصاص اه

ومن سياسته في الرعية ان كان يحذرهم من الدخول في غمار الفتن التي
 تسبب فيهم دماء المسلمين ويحملهم على التعفف عن المغام والقناعة بالكفاف

في إبان الفتوح الذي تحولت فيه كنوز الروم وفارس إلى المسلمين خشية أن تحيا فيهم ملكة الطمع فتتزع بهم منازع الظلم وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون إلى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد

أخرج أحمد في الزهد عن سليمان قال: أتيت أبا بكر فقلت اعهد إلي فقال: يا سليمان اتق الله واعلم أنه سيكون فتوح فلا أعرفن ما كان حظك منها ما جعلته في بطنك أو ألقيته على ظهرك واعلم أنه من صلى الصلوات الخمس فإنه يصبح في ذمة الله ويمسي في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخفر الله في ذمته فيكذبك الله في النار على وجهك ﴿أدبه وتأديبه﴾

إذا أطلق لفظ الأدب فاحر به والله أن يطلق على الصحابة الكرام الذين تأدبوا بأداب النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا خير أمة أخرجت للناس وأشرف قدوة في مكارم الأخلاق يقتدي بها المسلمون وناهيك بأبي بكر وصحبه لرسول الله من بدء عهد النبوة إلى آخره ﴿أدبه مع رسول الله﴾

أخرج ابن عساکر والامام أحمد عن يزيد بن الأصم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت قال أنت أكبر وأكرم وأنا أسن منك^(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن أقتلوا أنفسكم) الآية قال أبو بكر يا رسول

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الأولى دون أن أبين أنه جاء في رواية أخرى عن العباس عم النبي (ص) وهو الأصح لأن النبي أسن من أبي بكر وعمه العباس أسن منه

الله لو أمرتني ان اقتل نفسي لفعلت . فقال صدقت
وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها انها تمثلت بهذا البيت
وأبو بكر يقضى

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

أخرج بن عساكر عن الاصمعي قال كان أبو بكر اذا مدح قال اللهم
أنت أعلم مني بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى ما لا يعلمون
ولا تؤاخذنى بما يقولون

﴿ تأدبه لنفسه ﴾

أخرج احمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضى الله عنه قال : جرى
بينى وبين أبى بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم فقال يا ربيعة رد على مثلها
حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل . قال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول
الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس
من أسلم فقالوا لى رحم الله أبابكر فى أى شىء يستعدى عليك وهو الذى قال
لك ما قال . فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا نانى اثنين وهذا
ذو شبة المسلمين اياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونى عليه فيغضب فيأتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة
وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه
الجديث كما كان . فرفع الى رأسه فقال . يا ربيعة مالك والصديق فقلت يا رسول
الله كان كذا وكذا فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتى يكون قصاصا

فأبیت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجل لا تردّ عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر اهـ

لله أي وجدان هذا الوجدان وأي نفس تلك النفس . بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض الا اقتصاصه منها ، وصفحته عنها ، تناهيا بالفضيلة ، واستمساكا بالأدب . وشعورا تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القاب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألما يتحمل منه الضمير فلا يستريح الا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتك اخلاقا تغلب على شهواتنا وتطهر من ادوان الكبرياء الباطلة قلوبنا لنرى مواطن الخطأ فتجنبها ، وطرق الزلل فتنكها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا . وتتمكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتتمكن لنا في الارض سلطان عزنا ، ونجعل الى ملائكة الاعلى مصيرنا ، انك سميع الدعاء

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بان يحمل الناس على طريقته . ويؤدبهم بأدب نفسه . مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة . وطهارة الاخلاق . والتمسك بأداب الشرع . مبالغة في النصيحة لهم . وحنانا عليهم . وقياماً مقام الوالد الرؤف بينهم

أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر أنه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أي ينازع) جارا له . فقال له لا تماظ جارك فانه يبق ويذهب عنك الناس

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصها فقد ضل ضلالا مبينا ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله

الذي شرع لكم وهداكم به فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص .
السمع والطاعة لمن ولاء الله امركم فان من يطع الله وأولي الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر فقد أفلح وادى الذي عليه من الحق . وإياكم واتباع
الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . وإياكم والفخر
وما فخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم
حتى وغدا ميت

وستأتي هذه الخطبة برمتها في فصل الخطب وكثير امثالها مما تلين له
قلوب الجماد ، وتسترشد به الى الفضيلة عقول ذوي العناد ، وتوضح للمؤمنين
سبل الهدى والرشاد ،

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

أخرج الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل الى
أبي بكر فقال السلام عليك يا خليفة رسول الله . قال من بين هؤلاء اجمعين
(يشير الى من كان معه من الصحابة ادباً معهم وتأديباً للقاتل)
وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل
ان يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحي يأتيه بغنمهن
فيحطبهن لهن

وأخرج ابن عساكر ايضاً عن أبي صالح الغفاري ان عمر بن الخطاب
كان يتعهد عجوزاً فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها فأصاح ما أرادت
فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو
يومئذ خليفة فقال عمر انت هو لعمرى

هكذا التسابق الى الفضيلة والتسارع الى الخيرات وهذا منتهى الرأفة

ونغاية الغايات من التواضع وحق لأمة هكذا يكون رؤسائها، وبهذه الاخلاق يتخلق ساداتها، ان تمتلك رقاب البشر، وتسود على البدو والحضر، وان ديناً هذا تأثيره في الاخلاق وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تسك اهل بهديه، واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره، لكانوا الى هذا العهد أسعد الامم حالاً، وأعلى الناس كعباً، ولكنهم فرطوا والمفرط بالحسارة اولى، وبالندامة اخرى، (ولا يظلم ربك احداً)

وحسب أبي بكر من الادب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان اسأت فقوموني)

يقول ابو بكر لهذا الجمع لست بخيركم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان من أمن الناس على في صحبته وماله ابو بكر^(١) ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلاً ولكن اخوة الاسلام) او اه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبرهم بالنبي وأقربهم اليه وأقدمهم صحبة له وانما هو الادب النبوي الذي تأدبت به نفسه والتواضع الذي اشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله، ولا يحيطان من جلالة قدره، بل يعلمان مكانته في النفوس، ويحبيان

(١) قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بان تكون (من) زائده على منعيب الاخفش وقيل (ان) بمعنى نعم فيكون ابو بكر مبتدأ ومن أمن الناس خبره وقيل اسم ان ضمير الشأن وهو نادر مع ان المكسورة كما عرف في النحو والوجه ما ذكره بعضهم انه محكي على ما هو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين علي^(ع) فيما اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تمياً الداري (شهد به ابو بكر بن ابو تحافة) الخ

به القلوب ، ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لامره ، والخضوع له ، والالتفاف حوله ، والعمل بإشارته ، والذب عن حوزته .

أين هذا ممن اتخذوا بعد اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ويمزقون احشاء الاسلام ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتعجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الالهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الاعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار القن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومناذب لهم ، يأخذ بأسباب الحيلة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر الى يومه وأمه ، فخذت من جراء ذلك جذوة العقول ، وقترت القوى ، وانحطت الاخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ويزلفون اليهم بوضع الحديث ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الأمة ، ويبددوا نظام الاسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين فذكر له حديثاً وضعه يطريه فيه فانكره عليه وطرده من حضرته

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب اسباب تقهقر المسلمين الى الدين والدين يبرأ الى الله من كل ما يخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقى ، كالعلم والحرية والعدل وانما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها اربابها

الى الصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونايذ
 أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللمحة شديد المعارضة عظيم الاطلاع غير
 هيباب من اعداء الحق ولا رغب في غير الثواب من الله والشكر من الناس
 يضع لنا تاريخاً يستقصى به اخبار الماضي ويتبع مظان العلل فيكشف عن
 بصائر هذه الامة الغطاء ، ويزيل عن ابصارهم العشاء ، فقد والله سئمت نفوسنا
 من سرد تاريخ الامة الاسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ،
 وضعيفه بمتينه ، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون
 من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على اذى هذا الظلم ، والله
 في خلقه شؤون

﴿ زهده وورعه ﴾

أعتادت اسماعنا وألفت اذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة
 ووضعوه الوضاعون انه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل
 ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على
 الزهد وعكس لعناه اذ الزهد في الحقيقة هو التفنف عما بأيدي الناس والقناعة
 بالكفاف عن الفضول والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على
 كفاية الاغيار كما ستري ذلك مبسوطاً في غير هذا المحل

ومذهب الصحابة في الزهد هو العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف
 وليس منهم الا من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال هذا مع الرضا بالقناعة
 وعدم الطموح الى الفضول تهديناً لنفوسهم واقتداءً بنبيهم صلى الله عليه وسلم
 وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه

مما يروي عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش أن زوجته

اشتيت حلواً فقال ليس لنا ما نشترى به . فقالت انا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به . قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردده الى بيت المال . وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وروى انه لما ولى الخلافة رأى ان يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق فلقيه عمر فقال أين تريد . قال الى السوق . قال اتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين . قال فمن أين أطعم عيالي . فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا الى أبي عبيدة فقال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئاً رددته واخذت غيره . فقرضاه كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن : اخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له القين فقال زيدوني فان لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة ومما يدل على شدة ورعه وانه انما قبل فرض العطاء له اضطراراً لا اشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ما اخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر . قال لقد علم قومي ان حرفتى لم تكن تعجز عن مؤنة اهلى وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين وروى عن عائشة أم المؤمنين انها دخلت على أبيها في مرضه الذي توفى فيه وطلبت اليه ان يعهد بالامر وهي حزينة كثينة فرفع رأسه وقال . يا أمه

هذا يوم يجلي لي عن غطائي و اشاهد جزائي ان فرحا قدأتم . وان ترحا .^(١)
 فمقيم . اني اطعت امانة هؤلاء القوم^(٢) حين كان النكوص اضاعة . و الخذل
 تفریطاً . فشيدى الله ما كان يقينى اياه فتعلقت^(٣) بصحفهم و تعلت بدرة
 لفتحهم فاقمت صلاتى^(٤) معهم لا مختالاً اشراً . ولا متكاثراً بطراً . لم اشد
 سداً الجوعة و ورى العورة . وقواتة القوام . حاضرى الله من طوى ممعض
 تهفو منه الاحشاء . و يجب له المعى .^(٥) فاضطرت الى ذلك اضطرار
 المريض الى المعيف الآجن .^(٦) فاذا انامت فردى اليهم صحفهم . و عبدهم
 و لفتحهم . و رحام و دنارة ما فوقى اتقيت بها اذى البرد و دنارة ما تحتى اتقيت
 بها نز الارض كان حشوها قطع السعف المشع

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته و يتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالا عنها
 بأمر المسلمين و قياما بوظائف الخلافة فيضطر الى اخذ نفقته من بيت المال
 بما لا يزيد عن الحاجة الى سد الجوع و ستر العورة ثم هو يؤدي للمسلمين
 خدمة هيات ان تؤدى حقها الخزائن و يقابلها الشكر ، و لما يقضى واجبه
 ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين وهي ذلك المتاع
 الحقير . يأمر بردها الى المسلمين لياق ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر
 النفس خفيف الحمل الآ من التقوى ، فارغ اليدين الآ من الايمان ، ان فى
 هذا لبلاغاً و انها لموعظة لقوم يعقلون

فاللهم ان هذه التقوى و هذا الزهد وان كان أليق بمثل أبى بكر و الصق

(١) وفي نسخة ان فرح قدأتم وان ترح فمقيم (٢) وفي النثر المختار اني اطلمت

بامامة هؤلاء القوم (٣) في النثر تبلغت (٤) وفي النثر فاقمت صلاتى معهم في ادايتهم

(٥) وفي العقد و يجب له الامعاء (٦) وفي النثر اضطرار البرض الى المعتب الآجن

عن أدرك عهد النبوة وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين إلا أن فيها عظة
لو تذكرها بعد خلفاء المسلمين وادّرعوا منها جليلاً ليس بالصفيق فيثقل عليهم
حملة . ولا بالرقيق فيتكشف عن ضامرهم مادونه . لما زجت بهم نزعات
النفوس في ظلمات المراسم الاعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التي هدمها وكل
توابعها الاسلام ونهى على أهلها عوائدهم الخبيثة القرآن) فتركهم مثلاً في
الجبارين حاشا أفراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دناراً ، والتقوى شعاراً ،
فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر في تاريخ المسلمين

وهيئات لتلك النفوس الهائمة في فضاء الحياة الفانية أن ترضى لنفسها من
هذا المتاع الدنيوي ما رضيه لنفسه أبو بكر . وأني للمؤرخ الناقدان يتبع منافذ
القضاء التي أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً ما زال يعظم ويشتد
حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأنى على الحضراء واليابسة ، ومعظم النار من
مستصفر الشرر .

﴿ جمعه القرآن ﴾

من مناقب أبي بكر العظيمة وما آثره الكبيرة جمعه القرآن . ولا يعلم قدر فضله
بهذا العمل الجليل إلا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على
الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين الذين
شوشوا على الأمة في الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جرّ على
الأمة من البلاء ولولم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثاني
وما بعده إلى تلافى هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات
الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم . والمصيبة أشد .
أما القرآن فله الحمد والمنة على أنه سبحانه تكفل بحفظه فقال تعالى فيه

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمر ما ألهم من النهوض الى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل . وأما سبب جمعه فيظهر مما يلي أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال (أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر ان عمر أتاني فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس واني لا خشى ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعه واني لأرى ان يجمع القرآن قال أبو بكر . فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر انك شاب عاقل ولا نهيماك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنتبع القرآن فاجمه . فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن . فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح الله صدر أبي بكر وعمر فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها)

﴿ قضاؤه ﴾

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر سنة قضى به فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع عليه نفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء . فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان أعياه ان يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والآ دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

﴿ مطلب ﴾

﴿ كلام على القضاء في الاسلام ﴾

لا يتخفى على من له الملم بأصول الشريعة ان الاحكام القرآنية التي كانت تنزل بازاء الحوادث والسنة النبوية التي ورد فيها حكم قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم انما هي أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الاحاطة بجزئيات الحوادث التي تتجدد في كل وقت ومكان لهذا لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً الى اليمن قال له بماذا تحكم . قال بكتاب الله . قال فان لم تجد .

قال بسنة رسول الله . قال فان لم تجد . قال اجتهد برأبي وفي رواية اجتهد رأبي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله

وانت ترى من هذا ان لأبي بكر رضى الله عنه ان يجتهد برأيه في الحوادث التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب ولا سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله كان يرى ان لا ينفرد بحكم في نازلة ولا يقضى قضاء ليس بازائه نص صريح الا برأبي جماعة من الصحابة مبالغة في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه . واذا علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)^(١) اتضح لك من جميع ما قدمناه ان هناك أموراً لا ينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الالمام باطرافها

ان الاجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد وقول معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد برأبي ظاهر معناه انه يحكم بما يراه بعد بذل الجهد في تمحيص الرأي وتحري الحق واستشارة أهل الرأي وليس هناك قرينة أو شيء آخر يدل على ان معاذاً أراد بقوله اجتهد برأبي معنى غير ما ذكرناه^(٢) وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص به لمعاذ لان الله سبحانه وتعالى جعل الاسلام دين اليسر لا دين العسر فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم انما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لا تعطل مصالح المسلمين ولا يكون عليهم حرج في الدين

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (٢) أي ما اصطلاح عليه الاصوليون

ومن البديهي ان هذا الترخيص تشريع للاجتهاد الذي هو ادارة الاحكام على المصلحة على تنادي الزمان . وأولى من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنه ومع هذا ومع ما رخص له به من الاجتهاد فانه رأى ورأيه الحق ان لا ينفرد برأيه في الاحكام ولا يقضي بقضاء مبني على الرأي الا باستشارة جمع من الصحابة واجماعهم على ذلك الرأي تحميصاً للحق وتحرياً للصواب وأخذاً بالأصلح والاحوط

اذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الاهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهاد عند الحاجة أي عند عدم وجود النص (ومنها) ان الاجتهاد بمعناه اللغوي دائر مع المصلحة والحق . مرخص لوضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) ان أبا بكر من سنة الشورى وعدم الانفراد سواء بالرأي بوضع حكم أو بالقضاء فيه وتابعه على ذلك عمر رضى الله عنهما وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدى بهما للحديث السابق

اذا تقرر هذا علمنا ان المسلمين بما دخل على نظامهم الاجتماعى من الوهن وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام انما أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتره أعداؤه أو يقول به فريق من سوائهم الذين هاموا بمظاهر التمدن كما تهيم السائمة في منابت الكلا فتجتز من هنا تارة وهناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب . اذ الدين لم يحص كل ما تحتاج اليه المجتمعات الاسلامية من الاحكام الجزئية في المعاملات ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الاحكام دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات . أجل قد أصيب القضاء في الاسلام بأفات عظيمة أثرت كثيراً في

الحالة الاجتماعية عند المسلمين ولكن ما ذنب الاسلام وهو دين اليسر الذي دفع عن الأمة الحرج ونهبها الى وجوب التوسع في القضاء بتوسع الحاجات وبما لا ينافي قاعدة الحق والعدل التي تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم التي كانت الأمة فيها على حال من سداجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب تكاد تجعل التخاصم بين الناس في حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية بمقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ولا انحصار المعاملات في دائرة لم تتعد طور السداجة المذكورة من جهة أخرى . ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد وتوسعوا بالفتح وخالطوا الأمم فطراً بعد ذلك انقلاب في السياسة والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة نشبت فيه طرق الاعمال وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعد طوره الأول الا بانتقاله من أيدي الخلفاء الى أيدي أشخاص آخرين هيات لأخيراً خيريهم ان يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشرية والاخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهي اليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم بجادة الانصاف ويضطرهم الى تنكب طرق الخطأ أو الجور الا ما جاء من ذلك في كتاب الله من أمر بالعدل ونهي عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى وانما يستلحق بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ونشأت على سداجة الفطرة وأولئك هم المسلمون الاولون . وأما من انعمسوا بعد ذلك بحما الحضارة وافتنوا بزخارف العالم الثاني فانهم الى سيطرة السلطان أحوج منهم الى التذكير بالقرآن لهذا جاء

في بعض الآثار (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولا بد دائماً من قوة تصاحب الشعرائع فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها والى هذا وردت الاشارة في كتابه الكريم (ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والاسلام بما جاء به من وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على اقامة احكام الشرع فقط ولكن غفلة الناس واهواء الحكم أضاعا مزاي الاسلام وتركوا الامة متفاداة لجور الرؤساء محكومة بالاهواء . لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد اذ كانت في الصدور ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للاهواء ثم تلاهم الائمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعاً يسراً والاحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا في القرآن والحديث ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذي يشتمل على قسمي العبادات والمعاملات ونعمة الخدمة خدموا بها الاسلام وضبطوا بها أمور القضاء بما وصل اليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب انهم تركوا الامور على أكمل الحالات ولم يبق للناس الا ان يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه

أجل ان الامر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات لانه ليس مبنياً على شيء من الرأي وانما هو أصول ثابتة في الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها وأما في قسم المعاملات فليس الامر كذلك الا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسئلة الواحدة ومنشأوه اجتهاد كل

فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ولو ألهم الله القوم ما ألهم
 أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأي فيما لا يكون بإزائه نص صريح من
 الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأي والعلم منهم على جعل علم الفروع قائماً
 بالتكافل خالياً من شوائب الظنون والاختلاف دائراً مع المصلحة التي تناسب
 كل عصر ولم يأت بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز من حيث
 لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح أو ما لا يصلح لكل
 زمان منها لما عرا نظام القضاء في الاسلام ماعراه من الخلل والنقص
 وتلاعب الأهواء

ان لنظام القضاء أثراً عظيماً في ترقى الأمم وتدنيها اذ متى انحرفت حكومة
 من الحكومات عن طريق العدل وحاولت حكم الأمة بالجور والاستبداد
 فانها أول ما تنكسر فعلى القضاء فان كان نظام القضاء قوياً ثابتاً منعها من الجور
 وصددها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس ارواحهم واموالهم وحقوقهم
 والعكس بالعكس

ومعاذ الله ان نريد بهذا القول رمي الأئمة بالتقصير في جانب الحاجة
 الاجتماعية الى التوسع في الاحكام بتوسع طرق المعاملات فان هذا فوق
 طوق الآحاد أو نجسهم حقهم من الاحترام وهم لعمر الله أولى من يحترم عملهم
 ويشكر صنيعهم بما خدموا به الشريعة وما عانوه من استنباط الاحكام وتدوينها
 تسهيلاً لتناول الاحكام ودفماً لفوضى الرأي حتى انا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من
 بعيد الشأ وقصى الغاية في تتبع احكام المعاملات المدنية أو فن الحقوق وانما
 هناك أمور ربما فاتهم النظر اليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالاسلام
 وتمكن التقوى والعدل من النفوس ولم يصلوا الى مكان النظر في الغيب

ليروا ماذا يحدث من الاقضية بعد للمسلمين والى أية درجة تنتهي اليه الاخلاق
وتتبدل العوائد وقد فسحت تلك الامور لقادة الأمة مجال العبث بالشرعية
ومهدت للحكام سبيل الهوى فكانوا في كثير من العصور الاسلامية آفة الامن
وسم الاجتماع الامن من عصم ربك وهؤلاء لا يبني عليهم حكم

وأما تلك الامور فهي أولا كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين
حتى على المسئلة الواحدة مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لاحد من
الناس ان يتناول منه حكما جازما الا بواسطة الفقهاء والمفتين وقليل من الناس
المعصوم عن الخطأ أو الغرض فيحمل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه
الآخر من طريق غيره^(١) هذا بين علماء المذهب الواحد فما بالك بتعدد
المذاهب أيضا

ثانياً أحكام العقوبات التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة
كالضرب والتعذير والحبس ووضع لها الأئمة والعلماء أحكاما من طريق الرأي
أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم على وجه يمنع من تحكم هوى النفوس.
وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاة والمحتسبين فكان
من ذلك ان تدرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم
وسلب الراحة والامان من بين ظهرانيهم لاسيما بعد مبالغة الخلفاء بالتعجب
وترفعهم عن النظر في المظالم وانزولهم في زوايا القصور عن انظار الناس
والظلم على ذلك الوجه اذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن
قوتها فتألف المداهنة والنفاق وتذل نفوسها لأولى السبطرة وتمنع ثروتها

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين وانت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين في
عصره وكيف توسعوا بالافتاء الى ان أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الاوقاف

من الظهور خوف المصادرة فتبور عندها التجارة والصناعة وتقف حركة الاعمال وناهيك بها من آفات تتخر جسم العمران وتهدم من التمدن شوايح البنيان وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الامة حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام في عصره انها لازم من لوازم الأمن على الانفس والاموال لا حرج فيها على المداهنين. وما أقبحها من حال آلت بالامة الاسلامية الى هذا المآل ثالثاً تبادل المسؤولية^(١) بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها وقد وضع لها الأئمة والعلماء كتباً خاصة كالأحكام السلطانية وآداب القضاة والمفتين وأشباهاها إلا انها شوبها بأفة الخلاف وخلوها عن تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعييناً باتاً صريحاً كادت تكون بحكم المعدوم وان وجد شيء منها فليس وراءه من قوة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلّة ذلك عدم تحديد المسؤولية في تلك الكتب وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير على الصغير ومن هذا على الأدنى وأنى يتيسر وجود هذه المسؤولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأي للأمة في التشريع ولا لأولياء الامر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم اليهم فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه وعاملوا الامة معاملة السائمة كما تشاء الاهواء وكما جرت هذه القوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحملة الجناد وليس العهد بها في المملكة العثمانية يبعد فانا ان لم ندرك شيئاً منها فقد ادرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل اليه لذلك العهد انحلال نظام الاختصاص

(١) المراد بالمسؤولية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة

وقد المسؤلية حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو ^(١)) قبل وضع القانون المعمول به الآن لرجاء من الدائن ومثل هذا وأشد لم يزل حاصلًا في بعض الممالك الاسلامية الى الآن كملكة مراكش التي يموت بسجنها السجين دون ان يعلم بسبب سجنه أو موته السجن أو يأخذ خبره أحد من الحكام إلا من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفي والانتقام وهذا من التناهي في الظلم الناشئ عن تشويش نظام القضاء والعياد بالله

وتالله ان الاسلام ليبراً الى الله من التصاق أمثال هذه المخازي بالمسلمين وهو انما شرع الاجتهاد في المسائل التي لا يكون بازاها نص صريح دراً لامثال هذه المفسدات وتلافياً لكل ما عساه يحدث للأمة من الاقضية التي لم تحدث في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ورأي المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت وهكذا أئمة المذاهب انما الجأهم الى الاجتهاد في مسائل الفروع والتوسع في وضع الاحكام توسع الامة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس

(١) هذه وظيفة قديمة في الدولة وهي خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال في الاراضي الاميرية عملاً بقانون الاراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة الى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث في الاراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه الآن حتى جمعت كل الاراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدت حرية التملك والتملك في المملكة العثمانية وأصبحت الاعيان جميعها ملكاً للدولة كما هي مالكة للرقاب أيضاً وهو شأن غريب من شؤون الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد

ولا جرم ان سنة الترقى والتدرج تقضي بتوفر تلك الاسباب وتمدد تلك الطرق ومن المصلحة الصالحة ان يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل ما يحدث للناس من الاقضية وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك الى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهر الناشئ عن التضيق في نظام القضاء وبلغت قوانينهم الشرعية الى هذا العهد مبلغاً من الترقى يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم وزعزعت أركان مجتمعهم ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لعلة سوى ان هذا القول وافق هوى من نفوس الامراء الذين تماكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم فأعانوا الفقهاء على قولهم . ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم اذ الاجتهاد مبني على المصلحة والمصلحة كانت تقضي بسد كل ثلعة يتسرب منها جور الرؤساء الى الأمة وفي هذا غل لأبيهم عن الاستبداد ، وصد لاهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غره ، ومضى الامر لهذا العهد على وجهه . حتى بلغت بنا الحال الآن الى العمل بالقوانين الوضعية التي تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية وأماننا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء فالهم ارزقنا من فضلك فرجاً، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجاً ، انك مجيب الدعاء

ربما يتبادر الى الذهن انا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لاهل الرأي يلجه منهم من شاء في أي وقت شاء ليتلافوا حاجة القضاء في كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الأمر ، ومعاذ الله ان يخطر لنا مثل هذا في بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف ، وتشوش نظام القضاء فاصبحت الاحكام عرضة لآفات الخلاف، وانما الذي نراه حاسماً للعللة وافياً بالحاجة واقياً

من التماذي في فوضى التفريع هو الاستئنان بسنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الاجتهاد بالمسائل التي لا يكون بازلها نص صريح في الكتاب أو السنة ذلك بان لا يتحكم فيها رأي فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر وهكذا الى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بمدد غير متناه من القوانين كما هو شأن المسلمين بمخرجهم ومرجعهم الآن بل يكون الامر في ذلك شوري بين طائفة من العلماء المتضلعين في علوم الشريعة الواقفين على حالة الامة والمصر ينتدبهم عند الحاجة ولي الامر في كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأي أهل العلم من المسلمين) ليجهدوا في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي تحدث للأمة^(١) وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقى والاجتماع واذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص كذلك ينبغي لاولئك العلماء ان يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس اليه حاجة الدولة والامة من الاحكام التي تقتضيها سياسة الشعور بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الاحكام . او الحكم بالهوى فيما لا يكون بازائه نص صريح في المسائل التي تعرض للحكام .

ومن ثم يتكون من احكام الشريعة قانون شامل لاحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شيء من مشاركات الخلاف يتناول منه الاحكام سائر الناس ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ما صنعتها الدولة العثمانية في ترتيب مجلة الاحكام الشرعية التي أغنت الامة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز انه قال يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية في التفريع

هذا ما نراه حاسما لثناء القوضى القانونية عند المسلمين قريبا من الصواب
وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبعده قفوق كل ذي علم عليم
والله وليّ الارشاد واليه يرجع الامر

﴿ أولياته ﴾

منها انه أول من سمى خليفة وأول من ولي خلافة وأبوه حي وأول
من فرض له رعيته العطاء وأول من أسلم وقد تقدم الكلام على اسلامه وأول
من جمع القرآن وأول من وضع بيت المال



﴿ باب ﴾

﴿ كتبه وخطبه ﴾

(كتبه)

(كتاب عهده للامراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم هذا
عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال
من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره
وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أماني
الشیطان بعد ان يعذر اليهم في دعوتهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم .
وان لم يجيبوه شن غارته عليهم . حتى يقرؤا له ثم ينثبهم بالذي عليهم والذي
لهم . فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظروهم ولا يرد المسلمين عن قتال
عدوهم فمن أجاب الى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما
يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله . فاذا أجاب الدعوة لم يكن
عليه سبيل . وكان الله حسيبه بعد فيما استسرب به . ومن لم يجب الى داعية الله

قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مرانمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبي قتله فان أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً . ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم . وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يجعل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اه

﴿ كتابه الى المرتدين ﴾

﴿ وسيره اليهم قبل مسير الامراء لخرابهم ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والهوى فاني أحمد الله اليك الذي لا اله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأؤمن بما جاء به (أما بعد) فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حياً ويحج القبول على الكافرين . يهدي الله للحق من أجاب اليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنه من أدبر عنه حتى صار الى الإسلام طوعاً أو كرهاً ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمة وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل

الاسلام فقال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفانئ ان مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفانئ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فان الله بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم . حافظ لأمره . منتقم من عدوه بحزبه . واني أوصيكم بتقوى الله . وحفظكم وانصيحكم من الله وما جاء به نبيكم . وان تهتدوا بهديه وان تعصموا بدين الله عز وجل فانه من لم يهد الله ضل . وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهدياً . ومن أضله كان ضالاً (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقر بالاسلام . وعمل به اغتراراً بالله عز وجل . وجهالة لأمره . واجابة للشيطان . وقال جل ثناؤه (واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد أنفذت لكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعو الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعاناه عليه . ومن أبى ان يقاتله على ذلك ولا يبق على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل

قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام^(١) فمن آمن فهو
خير له . ومن تركه فلن يُعجز الله . وقد امرت رسولى ان يقرأ كتابى في
كل جمع لكم والداعية الاذان فان اذن المسلمون فاذّنوا كفوا عنهم وان
لم يؤذّنوا فاسألوهم بما عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على
ما ينبغي لهم اه

✽ كتاب عهده لعمر ✽

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة في الحال التي
يؤمن فيها الكافرويتقى الفاجر . انى استعمت عليكم عمر بن الخطاب فان برّ
وعدل فذلك علمى به ورأى فيه . وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب .
والخير أردت . ولكل امرىء ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أى
منقلب ينقلبون)

✽ كتابه الى عمرو بن العاص ✽

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) انى كنت قد رددتك الى العمل
الذي كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّك مرة وسماه لك أخرى
مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم
وليته وقد أحببت أبا عبد الله ان أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك
منه الا ان يكون الذي أنت فيه أحب اليك

✽ كتابه الى خالد ✽

وكتب الى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بتحصن الشام

(١) كل هذا مبالغة لاهل الردة بالارهاب فقط

(أما بعد) سرحتي تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا
واياك ان تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم
يزرع الشجوي من الناس نزعك فليهنك أبا سليمان النية والحظوة فاتم يتم الله لك
ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك ان تدل بعمل فان الله عز وجل
له المن وهو ولي الجزاء

﴿ كتابه الى أبي عبيدة في شأن الدارين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر الصديق الى أبي عبيدة بن الجراح
سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن
بالله واليوم الاخر من الفساد في قرى الدارين وان كانوا أهلها قد جلوا عنها
وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها واذا رجع اليها أهلها فهي لهم وأحق بهم
والسلام عليك

﴿ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام ﴾

مجل تاريخ الخطابة عند العرب انها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبريز
وفيها ولع ، ولها في تاريخهم عظيم الاثر ، وطويل الخبر ، ونحن نجتزئ من
ذلك بذكر ما يهم ايراده ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب
أبي بكر وغيره من فصحاء الاسلام فنقول

كانت العادة عند العرب في الخطابة ان يكون الخطيب واقفاً على قدميه
مشرفاً على الناس لهذا كان اذا خطب خطيبهم في العراء علا نشراً من الأرض
وان لم يجد خطب على الراحة وفي غير العراء يقف على المنبر وكان لا بد للخطيب
من ان يأخذ بيده العصا أو المخرصة أو القوس وتارة يخطب وفي يده القناة
وللعرب في هذا أشعار كثيرة فمنها قول معن بن اوس المزني في العصا

فلا تعطى العصا الخطباء يوماً وقد تكفى المقادة والمقالا
ومنها قول لبيد بن ربيعة في القسي
ما ان اهاب اذا السرادق عمه قرع القسي وأرعى الرعيد
وقال جرير بن الخطفي في حملهم القناة
من للقناة اذا ما عي قائلها والاعنة يا عمرو بن عمار
ولما جاء الاسلام أقر كثيراً من هذه العوائد والى استعمال المسلمين
المحصرة والعصا يشير بقوله كثير من شعراء الاسلام
اذا قرعوا المنابر ثم خطوا باطراف المخاصر كالغضاب
وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الحشي الى الآن وكان
النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر^(١)
وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف الآ في خطبة
النكاح فانهم كانوا يخطبون وهم جلوس لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
ما يتصعدني كلام كما يتصعدني خطبة النكاح ، وذلك لانه كان يخطبها جالسا ،
وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها في
مشاهدتهم ، ويختير لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم ، الا انها كانت لا
تخلو من السذاجة تبعا لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم القطرية ، ولما جاء
الاسلام ببيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر
وبعدت مرامي العقول ، فارتقى فن الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء

(١) عند الامام احمد وغيره من حديث سعد بن عائد وسعد القرظ مؤذن رسول
الله (ص) ان رسول الله كان اذا خطب في الحرب خطب على قوس واذا خطب في
الجمعة خطب على عصا

يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر الذي كان أشبه
بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطير شررها القدرح

والفضل في ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين إنما هو عائد
للكتاب المين وذلك من وجوه (منها) ان القرآن وان كان نزل بلغة القوم
التي بها يتخاطبون ، وبفصاحتها يتفاخرون ، الا ان اساليبه العالية التي أعجزت
فصحاءهم ، وأخذت بجماع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تحيز
الاساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت السننهم من عقال الحوشية والتعمر
الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم ،

حتى انهم لكانوا يعيرون الخطيب المصقع اذا لم يكن في كلامه شيء من
آي القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدي عن عمران بن حطان انه
قال : خطبت خطبة عند زياد أو قال ابن زياد فاعجب بها زياد وشهدها عمي
وأبي ثم اني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم ، هذا الفتى
أخطب العرب او كان في خطبته شيء من القرآن :

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضا انهم (يعني العرب) كانوا يستحسنون
ان يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من آي القرآن فانه
مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع
(ومنها) ان الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم
أدخل من الرقة على عواطفهم ما رق به كلامهم وكثر للمعاني المؤثرة في النفوس
اختيارهم في خطبهم ومخاطباتهم

(ومنها) ان ما جاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب البالغ
حد الإعجاز في التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن

في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات ، أو الحاجة الى تأليف قلوب
الجماعات ، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملل ،
ملا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك من قلوب الرجال ما لا تملكه البدر والاموال ،
كما صنع أبو بكر في خطبه يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين
والانصار ، وصرف عن الامة تلك الامور الكبار ، وكما صنع الحجاج في أول
خطبة له في أهل العراق يوم اذ قلبوا للدولة الروانية ظهر المجن ، وسطرت
على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فانهم ما طرقت مسامعهم داعي الامير
الى المسجد حتى أخذوا يفتدون اليه افواجا ويلتقطون من ارضه الحصى يريدون
رجمه بها وهو على المنبر استصناراً لشأته واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت
أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كله ، حتى تناثرت من
أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطاطأت الرقاب ، رهبةً منه
واجلالاً له ، كما سمر عليك في هذا الكتاب ان شاء الله

(ومنها) ان الاسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم
من سعة السلطان والسيادة على الشعوب ، وفر لهم الاسباب الداعية الى التوسع في
الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع في الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة واخلاقها
هكذا كان شأن الخطابة في صدر الاسلام ومبلغ تبرز القوم فيها
وتسلطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقوي برهانها ، ولكن وأسفاه
فقد بدأ يروها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة الروانية حيث كان
استحكم الفساد باللغة المرية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ،
فأقلوا من الظهور لعامة الأمة ، وترفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب
للناس ، لا سيما وقد كان الخلفاء في صدر الاسلام يخطبون الناس عند طرؤ

كل حادث جل بلا تقييد بوقت ، ولا تكاف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين الى المسجد تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأني لمن اتخذوها بعد كسروية ان يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون ان الرأي سلطان لا يتعداهم وان الناس بالنسبة اليهم همل لا ينبغي لعصا القوة والجبروت ان تختطاهم ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ، وأشدّه اثاراً للعواطف ، اذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم ، وتحقق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى اليه آمالهم ، يستلينهم بالقول اذا قسوا ، ويستخضعهم به اذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فاذا استوهبهم الاموال والارواح وهبوا اليه

تالله انها لمكانة سامية انحط عنها الامراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوة في الارواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الاجسام وأني يضارع الروح الجسم ، ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة في الاسلام في عهد الوليد بن عبد الملك حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب ديب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى محج الخلفاء والامراء ، وانحط عنه القيادة اما عجزاً عن الوفاء بحقه ، واما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسي رضي الله عنه وانما انحلت عرى الخطابة بعد لما انحلت عرى الامامة وأخذ الخلفاء يستنبئون بالصلاة

بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الامامة فاصبحت الخطب تتلى على المنابر في ايام الجمع لا لما وجدت له بالذات بل لانها اصبحت من قبيل الرسوم التي ينبغي اداؤها على أي حال كان ، حتى كان من ذلك ان تنوسى مع الزمان القصد الذي سنت من أجله الخطابة في الاسلام فانقلب نفعها ضراً وخيرها شراً بمن انتهت اليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين الذين أصبحوا واخزناه يفتنون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى في العقول بعد اذ كانت تشرق منه شمس الحكمة فتنبعث أشعتها في الاقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ما تفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم فيفيضونها على الناس فيضاً . ورؤسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ترسل قوته على الناس من أنابيب الافواه ارسالا ، فتحركهم حركة من دببت فيه الحياة ، وامتلاً بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأني لنا ان يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون

﴿ خطبه ﴾

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قوي الحجّة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه وروي عن الزبير بن بكار انه قال سمعت بعض أهل العلم يقول ، أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب

وها نحن نقل اليك في هذا الكتاب ما وقفنا عليه من خطب أبي بكر

رضي الله عنه

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبئ الناس فأصبحوا بين
مصدق ومكذب جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ثم خرج وخطب الناس فقال
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله وأشهد أن الكتاب كما نزل. وأن الدين كما شرع، وأن الحديث
كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين، في كلام طويل
ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله
فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً،
وإن الله قد اختار لنيبه ما عندكم على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم
كتابه، وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر، يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا
يفتنكم عن دينكم فاجلوه بالذي تمجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢

(خطب يوم السقيفة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن
المهاجرون أول الناس اسلاماً، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً، وأحسنهم
وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى
الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى
(والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن
المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفداء، وانصارنا
على العدو، وآوئناهم وواسيتهم فجزاكم الله خيراً، فنحن الامراء وأنتم

الوزراء ، لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على اخوانكم
المهاجرين ما منحهم الله من فضله

٣

(وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً
من بيت الله ، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان هذا
الأمر وان تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت له الاوس لم
تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى ، وجراح لا تداوى ، فان
نعق منكم ناعق فقد جلس بين الحي الاسد يضعمه المهاجري ويجرحه الانصاري اه
ولقد أثرت هذه الخطبة في الانصار تأثيراً بالغاً اذ تنبه لها الاوس فخافوا ان
يصير الامر دونهم الى الخزرج وتبته الخزرج فخافوا ان يصير الامر الى الاوس
فتركوا جميعاً الامر لقريش فانطلقت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف

٤

وخطب بعد أن ولي الخلافة وهي غير خطبته التي أوردناها عند ذكر
بيعته ولعل هذه خطبته التي خطبها بعد البيعة العامة ، فقال بعد ان حمد الله
وأثنى عليه

(أما بعد) فاني قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن
وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا أيها الناس
ان اكيس الكيس النقي ، واعجز العجز الفجور وان أقواكم عندي الضعيف
حتى آخذ له بحقه ، وان أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها
الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا أحسنت فأعينوني ، وان أنا زغت
فقوموني اقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم اه

﴿ كلام على الحكومة في الاسلام ﴾

أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة وروى في ختامها عن مالك رضي الله عنه انه قال (لا يكون أحد اماماً أبداً الا على هذا الشرط)

ومن تدبر قول الامام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة علم ان الخلافة صارت ملكاً عضوياً وسلطة قاهرة لم يأت للمسلمين ان يقوموا زيف اوليائها منذ عهد بعيد جداً وان تلك الحكومة الاسلامية الاولى التي تمتع بها المسلمون زمننا ليس بكثير وعين أبو بكر حد السلطة العليا فيها تلك الخطبة الانيفة حكومة ديمقراطية قل ان يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الامم منها ، وانما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل منذ كانوا يشعرون شعوراً واحداً بحاجة الحياة الاجتماعية ويعلمون ان السعادة والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويعطى مقاليد الرئاسة عليهم وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ، ويعمل للمصاحبة العامة عملهم ، فاذا أحسن أعانوه ، واذا زاع قوموه ، ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال الى الاعتقاد بالمعجز عن القيام بشؤون الحياة الاجتماعية الا اذا تركوا مقاليد الامور الى رئيس تنجهم آمالهم اليه ، ويعولون في اسباب السعادة عليه ، فيفنى وجودهم في وجوده ، وتضمحل ارادتهم في ارادته ، فلا يكون الا ما يشاء لا ما يشاؤون ولا يعمل الا ما يريد لا ما يريدون ، استحال حكومتهم من الديمقراطية الى المطلقة واصبحت الخلافة ملكاً عضوياً وسلطة جائرة تزعت منازع الجبروت واستأثرت بالمصالح واجتثت اصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الاسلامية ، وانحطت مدارك الامة عن مقام العرفان بواجب الراعي والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة

الراحة والانتظام

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون جحماً الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بدلاً عن العدل والحرية وباتوا أضعف الأمم احساساً بالآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع إلى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق والحاجة إلى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوة فضلاً عن بقية الأمم العظيمة الأوروبية وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا إلى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الأرض وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذي برح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر في سوء المنقلب أو يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال في بال

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم في حيرة من هذا التدنى البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المنبهين من رجال الإسلام في حيرة من تعليل الأسباب الداعية لجمود هذه الأمة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوروبا فانهم ألقوا أسباب التدنى في الأمة الإسلامية بالدين بدعوى أن المسلمين والغربيين من طينة واحدة لا فرق بين الفريقين في الخلق والتركيب يدعو إلى مثل هذا التفاوت الكبير في الشعور وهو قول في الحقيقة خال عن التحقيق ، بعيد عن الصحة ، إذ الأسباب الداعية لتدنى المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة وهي غير الدين الذي يبرأ إلى الله من جمود المسلمين وأهم تلك الأسباب استحالة حب الاستقلال إلى الاعتقاد بالعجز والاعتماد في سائر شؤونهم على أولياء الأمر كما قدمناه والدين يبغيض

اليهم العجز ونيهام عن الرضا بالذل
أفرط بعض الخلقاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم
والمشاركة لهم والاشراف على أعمالهم كما كان الأمر على عهد الخلقاء الراشدين
فكان من ذلك الإفراط وهذا التفريط ان فسد كثير من شؤون المسلمين
الدينية وانحلت عرى حكومتهم الديمقراطية فدخل الوهن على الحاكم
والمحكوم ، وشقي الظالم والمظلوم ، وكان الضرر بالخلقاء أعظم ، والندامة بهم
أزيم ، اذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت همهم الى السفاسف فتوثب أمراء
الاطراف على ملكهم وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الامامة الا الرسم ،
ولا من السلطان الا الاسم ، فظلموا من حيث ظلموا ، واخذوا من حيث
أخذوا وهم لا يشعرون ، ولو علموا أن سنة الخلقاء الراشدين أبقى على ملكهم
وأعز لسطانهم لما حادوا عنها قيد شبر ، ولما خالفوها أبد الدهر ، وهمل
كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب الا نتيجة الوهن الذي دخل على
الخلافة وأصاب مجموع الأمة وسببه ذلك الإفراط والتفريط
أي وهن لعراييك أشد على الأمة وأظهر في جانب الخلافة من ان تصير
كل قرية كبيرة من الممالك الاسلامية كتكريت في الجزيرة وسيجر في الشام
مثلا عاصمة لملك من ملوك الطوائف يتفرد بسطانه ، ويحكم بشهواته . وينابذ
جاره في الملك ، ويقا تل أخاه في الدين ، والامام في عاصمة الاسلام كبنغداد
ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة في قصره
ان بقاء المسلمين الى الآن يتمتعون بشي من الاستقلال بعد تلك الحال التي
كأنفوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال لمعجزة
من معجزات الدهر التي تحير الالباب وتدعو ملوك المسلمين الى النظر

والاعتبار وقياس الماضي على الحال فان مدينة المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدينة سواهم وقتهم على تفرق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال ، وحفظت سيادتهم من الزوال ، فان انعكست هذه القاعدة الان وأصبح التمدن الغربي على ما نرى باسطقاً زواق القوة على ما عداه ، راقباً فوق كل تمدن ، سبقه فماذا يكون الحكم ؟

انه حكم يستدر عبرات العيون ، ويشير كوامن الشجون ، ويطلق السنة أهل الحق الذين لم يخذل أنفاسهم خلق الرياء ولم تم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون فتنادي على ملا السامعين ان تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صوادع العبر ولم يزل دأبهم دأب آباؤهم الأول ولو أصبح الحال غير الحال ، وانطبقت الجبال على الجبال ، أو أذن لاستقلال الأمة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين

٥

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فاني وليت هذا الامر واناله كاره ووالله لو ددت أن بعضكم كفانيه ، الا وانكم ان كلفتموني أن اعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً اكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فاذا رأيتوني استقمتم فاتبعوني واذا رأيتوني زغت قوموني واعلموا ان لي شيطاناً يعتريني فاذا رأيتوني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في اعشاركم وابشاركم اه

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر وحق لمن أنزل

نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الادب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والاثرة دونهم بالرأي ان يرفعه الله الى ذلك المقام الجليل الذي ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل ايامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين

٦

ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه
أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، أيها الناس ان كثراً أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعد الصديق ، بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى ابلغ من نفسي عذراً ، وأقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستغنت بالله خير معين

٧

وجاء مال من البحرين ساوي في قسمته بين الناس فغضب الانصار فخطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه
يا معشر الانصار ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بانفسنا ، لقتلتم ، وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العد ، وان طال به الامد ، فمحن وانتم كما قال طفيل الثنوي

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
بناعلنا في الواطئين فزلت
تلاقى الذي يلقون منا ملّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم
ظلال بيوت ادفأت وأظلت



وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وإن تخطوا الرغبة بالرهبة
وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (انهم
كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ثم
اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك موثيقكم ،
وعوضكم بالقليل القاني ، الكثير الباقي ، وهذا كتاب الله فيكم لا تنفى عجائبه
ولا يطفأ نوره فتقوا بقوله وانتصحووا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة ^(١)
فانه خلقكم لعبادته ووكّل بكم الكرام الكاتين يعلمون ما تفعلون ، ثم اعلموا
عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ان
تنقضي الأجال واتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله ^(٢) فسابقوا في
مهل بأعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما
جعلوا آجالهم لغيرهم فانها كم ان تكونوا امثالهم ، فالوحا الوحاش ثم النجاء النجاء
فان وراءكم طالبا حثيثا أمره سريعا سيره



(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا

تنقضي عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحووا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة الخ

(٢) وفي رواية الحاكم أيضا (الا باذن الله)

ومن خطبه الفراء في الوعظ والتذكير قوله

الحمد لله رب العالمين احمده واستعينه ونسأله الكرامة فيما بعد الموت
فانه قد دنى اجلي واجلكم واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان
محمداً عبده ورسوله ارسله بالحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذر من كان
حياً ويحق القول على الكافرين ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن
يعصهما فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، اوصيكم بتقوي الله والاعتصام بأمر الله الذي
شرع لكم وهداكم به ، فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص
السمع والطاعة لمن ولاة الله امركم فانه من يطع الله وأولى الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدى الذي عليه من الحق ، واياكم واتباع الهوى
فقد أفلح من حفظ من اتباع الهوى والطمع والغضب ، واياكم والفخر وما
نخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حي
وغداً ميت فاعملوا يوماً بيوم ساعة بساعة وتوقوا دعاء المظلوم ، وعدوا
أنفسكم في الموتى ، واضربوا فان العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذر ينفع ،
واعملوا والعمل يقبل واحذروا ما حذركم الله من عذابه ، وسارعوا فيما وعدكم
الله من رحمته ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فان الله قد بين لكم ما أهلك
به من كان قبلكم وما نجي به من نجي قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلاله
وحرامه وما يجب من الاعمال وما يكره فاني لا آلوكم ونفسي والله المستعان
ولا حول ولا قوة الا بالله واعلموا انكم ما اخلصتم لله من اعمالكم فربكم اطعم
وحظكم حفظكم واغبطكم وما تطوعتم به لديكم فاجعلوه نوافل بين ايديكم
تستوفوا لسلفكم وتمطوا جراتكم حين فقركم وحاجتكم اليها ، ثم تفكروا عباد
الله في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ما قدموا فاقاموا عليه

وَحَلُّوا فِي الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ . إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَيْسَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ نَسَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ خَيْرًا وَلَا يُصْرِفُ عَنْهُ سِوَا الْإِبْطَاعَةِ
وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ فَانَّهُ لَا خَيْرَ فِي خَيْرِ بَعْدِ النَّارِ وَلَا شَرَّ فِي شَرِّ بَعْدِ الْجَنَّةِ أَقُولُ قَوْلِي
هَذَا وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَصَلُّوا عَلَيَّ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ
اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

١٠

(وَخُطِبَ أَيْضًا فَقَالَ) الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَاسْتَعِينَهُ وَاسْتَغْفِرُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ
وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَاسْتَهْدِي اللَّهُ بِالْهُدَى ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّدَى ، وَمِنَ
الشُّكِّ وَالْعَمَى ، مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وِلِيًّا مُرْشِدًا
وَاشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ
حَيٌّ لَا يَمُوتُ يَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَاشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، إِلَى النَّاسِ كَافَّةً رَحْمَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمُ وَالنَّاسِ حَيْثُ دَعَا عَلَى شَرِّ
حَالٍ فِي ظُلُمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ دِينِهِمْ بَدْعَةً وَدَعْوَتَهُمْ فَرِيَةً فَأَعَزَّ اللَّهُ الدِّينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَاصْبِرُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . وَكُنْتُمْ
عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانْقَضَتْ مِنْهَا كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتُهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
فَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَانَّهُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ
تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) أَمَا بَعْدَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ
الْعَظِيمِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلِزُومِ الْحَقِّ فِيمَا أَحْبَبْتُمْ وَكَرِهْتُمْ فَانَّهُ لَيْسَ فِيمَا
دُونَ الصِّدْقِ مِنَ الْحَدِيثِ خَيْرٌ ، مَنْ يَكْذِبُ يَفْجُرُ وَمَنْ يَفْجُرُ يَهْلِكُ وَإِيَّاكُمْ
وَالْفَخْرَ وَمَا نَفَرَ مِنْ خَلْقٍ مِنَ التُّرَابِ إِلَى التُّرَابِ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ الْيَوْمُ حَيٌّ وَعَدَا

ميت فاعملوا وعدوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله
وقدموا لانفسكم خيراً تجدوه محضراً فانه قال عز وجل (يوم تجد كل نفس
ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً
ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا
عن مضي قبلكم واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها
وكبيرها الا ماغفر الله انه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله
ولا حول ولا قوة الا بالله ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا
صلوا عليه وسلموا تسليماً اللهم صل على محمد عبدك ورسولك افضل ما صليت
على احد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرة وأوردنا
حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك اه

١١

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأتى عليه) ان أشقى الناس في
الدنيا والاخرة الملوك فرقع الناس رؤسهم فقال
مالك أيها الناس انكم لطمانون عجولون ان من الملوك من اذا ملك
زهده الله فيما بيده ورغبه فيما يبد غيره وانتقصه شطراً أجله وأشرب قلبه
الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع
عنده لذة البقاء لا يستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القيسي والسراب
الحادع جدل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونصب عمره وضحي
ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه^(١) ألا وان الفقراء هم المرحومون

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلاً عن زهر

الآداب (وأقل الانصار عنه عقوبة)

الا ان من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم
على خلافة نبوة ومفرق محجة وسترون بعدي ملكاً عضواً وملكاً عنوداً
وأمة شحاها ودماً مباحاً فان كان للباطل نزوة ولاهل الحق جولة يغفوها
الأثرو يموت لها الخبر فآزمو المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة
وليكن الأبرامُ بعد التشاور والصفقةُ بعد طول التناظر أي بلاد خرشة^(١)
ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها

١٢

وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

ان الله عز وجل لا يقبل من الاعمال الا ما أريد به وجهه فأريدوا الله
باعمالكم ، واعلموا ان ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وخطأ^(٢)
ظفرتكم به وضرائب أدتتموها ، وسلف قد متموه من أيام قانية لأخرى باقية
لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن
كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحرب ، قد تضعع بهم الدهر
وصاروا رمياً قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ،
وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؛ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا
كلا شيء الا ان الله قد أتى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا
والاعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم فان نحن اعتبرنا بهم
نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنه وجوههم المعجبون
بشبابهم صاروا تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم أين الذين بنوا المدائن

(١) وفي العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة

(٢) كذا في تاريخ الطبري ولعلها حظ

وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلقهم فترك
 مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحس منهم من احد أو تسمع
 لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم واخوانكم قد انتهت بهم آجالهم
 فوردوا على ما قدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت .
 الا أن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً
 ولا يصرف عنه سوء الآبطاعته واتباع أمره واعلموا انكم عبيد مدينون
 وان ما عنده لا يدرك الا بطاعته اما انه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر
 بعده الجنة اه

رضي الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التي تذكر بالملوك الماضين
 ان يعظ نفسه ويستزيد من الورع والتقوى هذا على ما عرف به من التقى والعدل
 وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين والتبريز في اقامة حدود
 الشرع على كل أمراء المؤمنين فما اجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا في حب
 الذات من أولياء أمر الأمة الاسلامية بعد مثل هذه العظة وما أخلقهم
 بالاعتبار بذكر الماضين وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين وتالله لو فعلوا
 لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسوّدوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم
 ولم يجعلوها عرضة للبوار، وغرضاً ترمى اليه بسهام الاذى الاضيار، فانا لله
 وانا اليه راجعون

١٣

وخطب عند ما انتدب الناس الى غزو الشام فقال بعد ان حمد الله

وأثنى عليه

الا ان لكل امرٍ جوامع فمن بلغها فهي حسبة، ومن عمل لله كفاه الله .

عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا أنه لا دين لاحد لا ايمان له ،
ولا اجر لمن لا حبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وان في كتاب الله من
الثواب على الجهاد ، لما ينبغي للمسلم ان يحب ان يخلص به ، هي التجارة التي
دل الله عليها ونجي بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة اه
وله كلام عظيم الاهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي
يقوله لعلي بن أبي طالب حين توقف عن بيعته نرجي ايراده الى سيرة علي
رضي الله عنه لما ترتب عليه من كثرة الاخذ والرد بين علي وأبي بكر وعمر
بشأن الخلافة يومئذ

﴿ تنبيه ﴾

اقتصاداً للوقت واشتغالا بمواد التاريخ قد أغفلت تفسير الالفاظ الغامضة
التي وردت في كلام أبي بكر وعائشة وغيرها في هذا الكتاب وانما أوردت
في الهامش بعض الجمل والالفاظ التي اختلفت في بعض الروايات عن البعض
الآخر تسهيلا لمن يريد مراجعة اللغة لتطبيق المعنى على اللفظ الصحيح من
تلك الالفاظ

﴿ باب ﴾

﴿ مرض أبي بكر وعهده بالخلافة وفاته ﴾

(مرضه)

روى في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه انه اغتسل في يوم بارد
فحم وأخرج الحاكم عن بن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم كدّاً فما زال جسده يجرى (أى ينقص) حتى مات
روي ان عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه فقالت شعراً
وكل ذي إبل يوماً موردها وكل ذي سلب لا بد مسلوب
وفي رواية الطبري

وكل ذي إبل موروث وكل ذي سلب مسلوب
وكل ذي غيبة يؤب وغائب الموت لا يؤب

فقههما أبو بكر فقال ليس كذلك يا ابتاه ولكنه كما قال الله (وجاءت
سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) وانشدت مرة فوق رأسه أيضاً
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للارامل
فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما نقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت
يا أبت أعهد الى حامتك وأنفذ رأيك في سامتك^(١) وانقل من دار
جهازك الى دار مقامك انك محصور متصل بقلبي لوعتك وأرى تخاذل
اطرافك وامتقاع لونك والى الله تعزيتي عنك ولديه ثواب حزني عليك ارقاً
فلا ارقاً وأبل فلا أبقي^(٢) . فرفع رأسه اليها وقال
هذا يوم يجلى لى عن عطائي وأعين جزائي الى آخر ما قال وقد سبق لنا
ايراده فيما مر من الكتاب

﴿ استخلافه عمر ووصيته له ﴾

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ولم يثن همته عن

(١) وفي العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك

(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكي

النظر في مصلحة الأمة وخشي ان هو مات ولم يهد لاحد بالخلافة ان تكون
فتنة تضرب لها الدهماء ، وتعظم الأواء ، وفي القوم نفر ينهي اليهم شرف
السيادة في الجاهلية والاسلام وهم في الفضل والتقدم سواء ، ولكن لكل
منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ، وعصية تريده على الامر وان هو
أباه ، فان ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرق
الرأي وتعدّر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفراد الشورى في الامور
وان كان يراد بها تحييص الآراء لا اختيار الاصلح منها والاصوب فيها الآ أن
صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي الصحابة كما قلنا نفرهم في
الفضل والشرف والاهلية كالحلقة المفرغة لا يدري ان طرفاها ولكل واحد
منهم عصية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه
كما هي في سواه

اذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب
الخلافة شاغراً والمعدرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف مادام فيهم عدة من
ذوي الكفاية وأخصمهم أهل بيعة الرضوان من السابقين كما انها قائمة لابي
بكر أيضاً في عدم تركه الامر شورى والحال ما ذكر دراً لخطر ذلك الخلاف
المتوقع بين قوم هو أبصر بهم وأدري باخلاقهم وانما نظر أبو بكر فيمن يختاره
لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقعه فرأى أنه يحتاج الى رجل فيه شدة
من غير عنف ولين من غير ضعف وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة
الكرام عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب الآ ان الاول كان ربما يريد الامر
فيرى في طريقه عقبة فيدرو اليه والثاني يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم
بين يديه فهو بهذا الى الشدة أميل منه الى اللين لهذا لما استشار أبو بكر

الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر
لما عزم أبو بكر أن يعهد بالامر ونظر فيمن يهد إليه فوق اختياره
على عمر جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة في عمر فسأل عبدالرحمن
ابن عوف فقال اخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر الآ و أنت
أعلم به مني فقال أبو بكر وان فقال عبدالرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه
من رجل ولكن فيه غلظة قال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الامر
إليه لترك كثيراً مما هو فيه ثم دعا عثمان فقال اخبرني عن عمر فقال أنت اخبرنا
به فقال علي ذلك يا أبا عبد الله اخبرني عن عمر فقال اللهم علي به ان سريره
خير من علانيته وانه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد اللهم
اعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي
يعلم ولن يلي هذا الامر أحد أقوى عليه منه ، واستشار غير هؤلاء سعيد بن
زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً
ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم^(١) ما أنت قائل لربك اذا سألك
عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفني ؟ أقول
اللهم اني استخلفت عليهم خير أهلكت . أبلغ عني ما قلت من ورائك
ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر
ابن أبي قحافة الخ كتاب العهد وقد سبق إرادته في فصل كتب أبي بكر ثم
أمر بالكتاب نخته ثم أمر عثمان بفرج بالكتاب محتوماً فبايع الناس ورضوا
به ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فأوصاه ما أوصاه
ومما يؤثر عن أبي بكر هذه الوصية الفراء التي أوصي بها عمر رضي

(١) روى الطبري ان الذي قال ذلك هو طلحة ابن عبيد الله

الله عنهما

﴿ وصيته لعمر ﴾

اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله ان الله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلًا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يكون خفيفًا ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ان لا اكون من هؤلاء ، و ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو ان لا اكون من هؤلاء و ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله اه

لما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال

اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدتهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيبيم بيدك أصلح اللهم ولا تهم واجمله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته

وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق انّ ابا بكر انما اختار للخلافة بعده عمر
رضي الله عنهما ولم يتركها شورى خوفاً من الفتنة وثقة بكفائته وسداً لدرائع النزاع
من جهة ومن جهة ثانية علماً منه بمكانة عمر من السياسة وانه لا يجيد بالامة عن
سبيل الحشونة في العيش والقناعة بالكفاف ولا يترك لها عنان الخوض في
غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد اخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن
بث الدعوة همتها ومع انه اختار لها خير كفو بشهادة كبار الصحابة كما رأيت فقد
تفرس في بعض المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتي ولا يحمل ذلك منهم الا
على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم

روى ان عبد الرحمن بن عوف دخل على ابي بكر بعد ذلك فوجده
مهتماً (١) فقال أصبحت بحمد الله بارئاً يا خليفة رسول الله فقال

اما اني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد
على من وجعي ، اني وليت أموركم خيراً في نفسي فكلكم ورم من ذلك
أنفة يزيدان يكون له الامر من دونه ورأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة
حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألون الاضطجاع على الصوف كما
يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه
في غير جدٍ خيره من أن يخوض في غمرة الدنيا ألا وانكم أول ضال بالناس
غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالاً يا هادي الطريق انما هو النجراؤ
البحر (٢)

قال فقلت حفص عليك يرحمك الله فان هذا يهيبك على ما بك انما
الناس في أمرك بين رجلين اما رجل رأى ما رأيت فهو معك واما رجل خالفك

فهو يشير عليك برأيه وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا الخير ولم تزل
صالحاً مصححاً مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا

﴿ وفاته ﴾

لما ثقل على أبي بكر المرض أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأشار إلى ثوبه فقال اغسلوها وكفنوني فيهما فإن الحي
أحوج إلى الجديد من الميت وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ويعينها
ابنه عبدالرحمن وكتب وصيته بخمس ماله وقال: آخذ من مالي ما أخذ الله
من في المسلمين: وروى الطبري أن أبا بكر لما حضرته الوفاة: قال انظروا كم انقمت
منذ وليت بيت المال فاقضوه عني: فوجدوا مبالغته ثمانية آلاف درهم في ولايته
وأخرج الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها ان أبا بكر لما حضرته الوفاة قال
أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين. قال فإن مت من ليلتي فلا تنظروا بي الند فإن
أحب الايام والليالي الي أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم: وتوفي أبو بكر
من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة
من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته أسماء كما أوصى وصلى
عليه عمر بن القبر والمنبر وكبر أربعاً ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه ان أبا بكر صلى عليه ليلاً ودفن ليلاً^(١)
وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

(١) هكذا كان دفن أبي بكر فليت شعري متى ابتدع المسلمون في الجنائز
ما ابتدعوه من الاحتفال الذي يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وحنائزهم كما يرى
ذلك مرسوماً إلى الآن على آثارهم اللهم ان ما يفعله المسلمون الآن في مصر وبعض
الممالك الإسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الاولى لا يرضاها شرعك
ولم يسبق إلى مثلها أحد من أصحاب نبيك

﴿ خطبة علي في تأييد أبي بكر ﴾

أجمع الروايات ان أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول

رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاماً واخلقهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وصمتاً فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس واوسيته حين بنخلوا وقتت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال (والذي جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تبين نفسك كالجيل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله جليلاً في الارض كبيراً عند المؤمنين لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قوي والقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذه للضعيف فلا حرمننا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ خطبة ابنته عائشة في تأييد أبي بكر ﴾

نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدينامذلاً بادبارك عنها والآخرة معزاً بإقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الاحداث بعده فقدك ، ان كتاب الله

عز وجلّ ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وانا منتجزة من الله موعده
فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثيرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية
لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك ،

﴿ ودخل عليه عمر فقال ﴾

يا خليفة رسول الله لقد كلفت القوم بمدك تبعاً ووليتهم نصباً فميهات من
شق غبارك فكيف اللحاق بك

﴿ باب ﴾

﴿ ولده وعماله وقضاه وكتابه ﴾

(ولده)

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله واسماء أمها قتيبة من بني عامر
ابن لؤي . وعبد الرحمن وعائشة أمها أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من
بني فراس بن غنم بن كنانة . ومحمد أمه اسماء بنت عميس . وأم كلثوم أمها بنت
زيد بن خارجة من الانصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فانه شهد يوم الطائف
مع النبي صلى الله عليه وسلم وتقي الى خلافة أبيه وهلك في خلافته وترك
سبعة دنائير فاستكثرها أبو بكر وولد لعبد الله اسماعيل فهلك ولا عقب له
(وأما اسماء) فهي ذات النطاقين ^(١) وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها
فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت

(١) ان اسماء هذه رضى الله عنها هي أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشاً وأعظهن
تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سببر عليك في سيرة الحجاج

(وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وبقيت الى خلافة معاوية وتوفيت
سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ودفنت بالبقيع
وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الذكاء وفصاحة اللسان
وقد رأيت من كلامها فيما مر ما يدل على قوة عارضتها وفصاحة لسانها
ولها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة وقد أوردنا منها فيما مر مادعت
اليه المناسبة وفضلا عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها
الله ورضى عنها

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن اسلامه
ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بمجبل يقرب من مكة فأدخلته عائشة الحرم
ودفنته واعتقت عنه وكانت شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله وولد له محمد
وعبد الله وحفصة وروى المسعودي ان لعبد الرحمن عقباً كثيراً بدوا وحضرا
كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان

(وأما محمد بن ابي بكر) فكان يكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش
وولاه علي بن ابي طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك
وظفر به فقتله وولد له القاسم لام ولد وكان فقيهاً فاضلاً

(وأما أم كلثوم بنت ابي بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت
زكريا وعائشة ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن ابي ربيعة
المنزومي

﴿ عماله وقضائه وكتابه ﴾

لما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة انا أ كفيك بيت المال وقال له عمر
انا أ كفيك القضاء وكان يكتب له علي بن ابي طالب وزيد بن ثابت وعثمان

ابن عفان وان غابوا فكان يكتب له من حضر
 وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ومات في اليوم الذي مات فيه
 أبو بكر وقيل مات بعده وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء
 المهاجر بن أبي أمية . وعلى حضرموت زياد بن لبيد الانصاري . وعلى خولان
 يعلى بن منية : وهي أمه واسم أبيه أمية : وعلى زيدور مع ابى موسى وعلى الجند
 معاذ بن جبل وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي . وبعث جرير بن عبد الله الى
 نجران . وعبد الله بن ثور الى جرش وعياض بن غنم . الى دومة الجندل . وكان
 بالشام أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد
 وكل رجل منهم أمير على جيشه وقيل كانت الامارة العامة لخالد وخالد كان
 من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره لهذا اخترنا ان نورد سيرته ان شاء
 الله عقب سيرة أبي بكر لانه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة
 الشيباني استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم اجمعين

﴿ باب ﴾

﴿ صفة أبي بكر ﴾

روي ابن قتيبة عن عائشة انها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً
 خفيف العارضين أجناً لا يمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه
 غائر العينين ناتي الجبهة عاري الاشجع كان يصبغ بالحناء والكم
 هذا ما احببنا ايراده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقد
 بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع في التحقيق والتنقيح وجمع شتيت

الاخبار المتفرقة وضم الاشباه والنظائر منها بعضها الى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين الا انا اغفلنا من سيرته ابواباً لم نر حاجة ليرادها في هذا الكتاب لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها ولانها ليست من خصائص التاريخ بل هي من خصائص كتب الشريعة كالا حاديث والآثار المروية عنه والاحكام الصادرة منه والاحاديث الواردة بفضله ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب السنة وارد في الصحاح وقد بقي علينا فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر وبعد ذلك نأتي على سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله

الحالة الاجتماعية على عهده

جاء الاسلام قاضياً بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية فشوه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور اشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار فتشكلت باشكالها الاخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين فاصبح أهل الكتاب اليهود منهم . بين قرائين وسامرين وربانيين وغيرهم . والنصارى بين يماقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق . وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمية وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزؤ في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الاهواء فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم (وما أدراك ما فارس والروم أعرق

الأمم في المدينة وأقصاها غاية في التاريخ وأرهبها قوة في الأرض وأمد لها ظلاً عليها) أشبه بشجرة تأصلت جذورها في الأرض وتسامقت فروعها في الفضاء فجاءتها ريح عاصف تمنت أصلها وتلاعبت باغصانها فقصفتها قصفاً، وعصفت فيها عصفاً، فزوت افنانها، وتفرقت مع الريح اغصانها، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي إليه الأهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم

ودولة الفرس كذلك تفككت اعضاؤها وتجزأت وحدتها فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتسفوا بالحكم وظلموا الرعية^(١) ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت اهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها فانزوت شمس مدينتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداية الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الأهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله إلا أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهادياً الى الله بآذنه وسراجاً منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس الى دينه . دعاهم

(١) هذه الاسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الاسلامي نحو ستة ملوك في

بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الامراء والرعية قتلاً (راجع تاريخ الكامل)

الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً . والى توحيد الاجتماع فلا يفرقون شيئاً
 ينابذ بعضها بعضاً . والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق . والى توحيد
 المقاصد فلا يخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزعات النفوس . والى
 توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما
 كتب الى ملوكهم الذين اليهم ينتهي أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت
 لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه
 من أجاب وأقبل عليها من أقبل . وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا ان
 تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم
 اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد
 بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر
 يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه
 ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون بالقناعة بالكفاف
 عما بأيدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف
 الله اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز فقال تعالى فيه (كنتم
 خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتسارعون
 في الخيرات وأولئك من الصالحين) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه
 أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يتبعون فضلاً من الله ورضواناً)
 وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (انما
 المؤمنون اخوة) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين

يومئذ تمثيلاً وتدليلاً على مبلغ تأثير الإسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل إلى نور العلم والاجتماع تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته فرمى بالجيوش الإسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاه والتعمير المنعمية في حما الشبهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في اخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف إلى تنكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم لا سيما وأن القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحماهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه وكان جل همهم منصرفاً إلى إقامة شعائر الدين والتأديب بأداب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين وإنما هو كان حريصاً على تأديب المسلمين بأداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد إلى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الدنوية وأنى يشغلهم شيء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتألف القلوب ونصرة العدل والحق ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة

حديثه عهد في الدين من قبل ولن يتأني لأمة سواهم من بعد
 روى الغزالي في الاحياء ان تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ
 بلغ بهم ان كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى
 (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ان لا يتخاصم منهم اثنان
 امام القضاء في حق صدرأ من خلافة أبي بكر فقد روي ان عمر بن الخطاب
 لما استقضاه أبو بكر رضي الله عنهما بقي سنة لا يحضر عنده خصمان في دعوى
 ولا يتخاصم لديه اثنان في حق

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب
 من التواضع وشطف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه
 فقد اقتدى به المسلمون وتحوشنوا في ماكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى
 عن التتم بدخلهم فقد قال المسعودي في تاريخه انه لما قدم على أبي بكر زعماء
 العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب
 والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك
 وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم وكان ممن
 وفد عليه من ملوك اليمن ذوالكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان
 معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ولما شاهد من أبي بكر
 ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤي يوما في سوق من أسواق
 المدينة وعلى كتفيه جلد شاة قفزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين
 والانصار قال ، فأردتم أن أكون ملكا جبارا في الاسلام لا والله لا تكون
 طاعة الرب الا بالتواضع والزهد ، قال المسعودي وتواضعت الملوك ومن

ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التخبير
 ولا جرم ان قدوة الأمم رؤسائها وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم
 يرنا التاريخ مصارع قوم هلكي بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسود قوم
 وتمتسهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم
 هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه وقد بسطناها
 اليك على وجه الاجمال لتذكر وتعتبر. وتبقى الله في نفسك وتزدجر. والله
 ولي الصالحين

وهذا آخر الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله عنه وارضاه ووفق
 ولاة امورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل. والله يعصمنا واياهم من الجهل.

﴿ خالد بن الوليد ﴾

﴿ باب ﴾

(حاله في الجاهلية)

« نسبه وأصله »

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل
 أبو الوليد القرشي المخزومي أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والاول أصح
 وهي بنت الحارث بن حزن الهلاليه وهي اخت ميمونة بنت الحارث زوج
 النبي صلى الله عليه وسلم واخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب
 وهو ابن خالة اولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة

﴿ شرفه في قومه ومكانته عندهم ﴾

تقدم معنا في صدر الكتاب ان خالد بن الوليد ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية من قريش وانه كان على الاعنة والقبلة وابناً ثمة المراد من القبلة والاعنة فلا حاجة للاعادة هنا لهذا كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الا ما بعد الفتح من الوقائع وقد كان خالد في قومه موصوفاً بالشجاعة محبباً فيهم مقدماً عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفاً باصول الحرب حازماً على صفات الجنديّة التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والاخذ بالشدة والتسرع الى المعاقبة لهذا لما بدر منه بعد اسلامه ما بدر من التسرع في حادث مالك بن نويرة قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ان سيف خالد فيه رهن وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين والاسلام يأبى الشدة ويأمر بالانابة والحلم وعدم الامعان في ايذاء المقاتلين ومع هذا فان الاسلام غنم كثيراً من طباع خالد والآن من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبه ﴾

(اسلامه)

اختلف في وقت اسلام خالد فقال بعضهم انه أسلم سنة ثمان للهجرة وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الاصح فقد كان اسلامه

بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذى القعدة سنة ست ووقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري في صفر فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها:
* (صحبه) *

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة الى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي استشهد فيها زيد ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد أيضاً ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالاً شديداً حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين

وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله وذلك انه أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الامراء فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ومن ثم سمي خالد سيف الله وكان خالد من حين اسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وأمره يومئذ ان يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وعتار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو أول يوم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا

ناساً بالخدمة ليقاتلوا ومعهم الاحابيش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة
فلقيهم خالد فقاتلهم فهزموهم بعد ان قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً
ولما فتحت مكة واذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشد العرب عداوة
له وايداءً لاصحابه ووقوفاً دون دعوته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو
من حول مكة من العرب الى الاسلام وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه
الى بني جذيمة داعياً لا مقاتلاً فذهب فقاتلهم وقتل منهم فلما انتهى الخبر الى
النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال (اللهم انى ابرأ اليك مما
صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والاموال ثم جاء خالد
الى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ان عبد الله بن حذافة السهمي
أمرنى بذلك عن رسول الله

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العزى ببطن نخلة وكان يتأعظيا
لمضر تعظه قريش وكنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني
هاشم فهدمها خالد وقال

يا عزى كفرانك لا سبحانهك انى رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني
سليم ففرح خالد فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفت في جرحه فبرئ
وأرسله أيضاً الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده الى بلده ، وأرسله
أيضاً سنة عشر الى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران وأمره ان يدعوهم
الى الاسلام فان اجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الاسلام وان ابوا يقاتلهم فخرج
خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون الناس الى

الاسلام فاسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم اليه وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتي صورته فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم فاقبل وأقبل معه الوفود وفيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنّان ذي العُصّة ويزيد بن عبدالممدان ويزيد بن المحجل وغيرهم

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح اعداء الاسلام ويحرص على رضا النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له بعد من جميل الاثر في قتال اهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ما رأيت في سيرة أبي بكر وتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الاسلام

باب

حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر

(حروبه في الردة)

حروبه مع طليحة

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه انه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح وكان أبو بكر بعث عدي بن حاتم الطائي قبل خالد الى طي وأتبعه خالداً وأمره ان يبدأ بطي ومنهم

(١) هو عدي بن حاتم الجواد وقد على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الارض فاسلم وسر باكرام رسول الله له سرور أعظيا وكان له في أيام الردة أحسن الاثر رضي الله تعالى عنه

يسير الى طليحة بزاخة ويثث بالبطاح حيث يقيم مالك بن نويرة بقومه وان لا يبرح اذا فرغ من قوم حتى يستأذنه

سبق عدتي خالداً الى قومه ودعاهم فاجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد واخره عنا حتى نستخرج من عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عدتي خالداً واخبره بالخبر فتأخر خالد وارسلت طيء الى اخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ولما عزم خالد على قصد جديلة^(١) استعمله عدتي عنهم ايضاً ولحق بهم يدعوهم الى الاسلام فاجابوهم فعاد الى خالد باسلامهم ولحق بالمسلمين الف راكب منهم كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عدتي بن حاتم رضى الله تعالى عنه حتى قيل يومئذ عنه انه خير مولود في ارض طيء واعظمه بركة عليهم

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة ارسل عكاشة بن محصن وثابت ابن اقرم الانصاري طليحة فلقبهما حبال اخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو واخوه سلة فقتلا عكاشة وثابتاً واقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتاً قتيلين فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيء فقالت له طيء نحن نكفيك قيساً فان بني اسد حلفاونا فقال قاتلوا أي الطائفتين شتم فقال عدتي بن حاتم لو نزل هذا على الدين هم اسرتي الاذني فالاذني لجاهدتهم عليه والله لا أمتنع عن جهاد بني اسد لحلفهم فقال خالد ان جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأي اصحابك وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم انشط وقد اصاب خالد بهذا الرأي ورضي به عدتي ثم سار جيش المسلمين على تعبئة الى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين وكان مع طليحة عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة فقاتلوا قتالا شديداً حتى اذا اشتدت

عليهم وطأة الحرب وزعمت عنهم صدمات المسلمين كرت عينته على طليحة وسأل هل أوحى إليه بشيء؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا ابالك فهل جاءك جبريل؟ قال لا فقال عينته حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كرت على طليحة فقال هل جاءك جبريل؟ قال نعم قال فإذا قال لك قال قال لي ان لك رحي كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عينته قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بني فزاره فانه كذاب فانصرفوا وانهمز الناس وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجابها وقال يا معشر فزاره من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بأمرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب فلما بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا أسلم وبقى في كلب حتى توفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف صمر فأتى إليه وبأبيه ثم حضر بعد ذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين وأبلى في حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين وهيات للباطل ان يقوم في جانب الحق وللكذب ان يغلب على الصدق (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.)

لما انهزم جند طليحة اجتمع القل من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بني فزاره فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالد الخبر سار إليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها

﴿ حادثة مالك بن نويرة ﴾

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا في سيرة أبي بكر

رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كازبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع بن مالك وغيرهم إلا مالك بن نويرة بقي متردداً حتى إذا بلغه مجيء خالد ندم على ما فعل وفرق قومه في البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بني يربوع أنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطينا فلم نفلح وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأني لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسومسه الناس فإياكم ومناواة قوم قد صنع لهم فتقروا وادخلوا في هذا الأمر

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الانصار وقالوا قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من بزاخه أن نقيم حتى يأتينا أمره فقال خالد قد عهد الي أن أمضي وأنا الامير ولو لم يأت الي كتاب بما رأته فرصة وكنت ان أعلمته فأتيتي لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع ان نرى أفضل ما يحضرننا ثم نعمل فأنا قاصد الى مالك ومن معي ولست أكرههم ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن في تعجيله بأمر مالك ما لآحمد عقباه لهذا امتنع الانصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا ان أصاب القوم خيراً حرمتموه وان أصيبوا ليجتنبكم الناس فلحقوه ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وان يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلاً فان أذن القوم فكفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان أقرؤا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم)

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد انهم

أذنوا فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة فأمر خالد منادياً فنادى
 دافقوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم انه أراد القتل ولم يرد الا
 الدف فقتلهم فقتل ضرار بن الازور مالكا وسمع خالد الواقعة فخرج وقد
 فرغوا منهم فقال اذا اراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك
 ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر رغب عمر الى أبي بكر أن يستدعي خالداً
 ويقتص منه وكان عمر رضى الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر
 يحب الاناة وعدم التعجيل في العقوبة ولما أُلح عمر على أبي بكر بشأن خالد
 قال يا عمر تأول خالد فإخطأ فرفع لسانك عن خالد فاني لا أشيم سيفاً لله الله
 على الكافرين، وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء
 وقد غرز في عمامته أسهماً فقام اليه عمر فزعا وحطما وأسمعه كلاماً لم يظلم
 يكلمه ودخل على أبي بكر وأخبره بحلية الخبر واعتذر اليه فقبل عذره وودي
 مالكا من بيت مال المسلمين

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة اذا صح ان سيده سوء فهم كما تقدم
 فنخالد غير مسؤول عن دمه هذا اذا صح انه أظهر الاسلام حين رأى جيش
 المسلمين الا ان تردده في الامر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص
 للاسلام والا لكان تابع بقية سادات تميم بإرسال الصدقة الى أبي بكر ولم
 يبطل الى حين وصول جند المسلمين اليه وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به
 عن خالد بن الوليد رضى الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو مجلباً به من
 قبل خالد بن الوليد ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلماً في تاريخه لا يسدها
 الا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام

﴿ حربه مع مسيلمة ﴾

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يصل إليه شرحبيل بن حسنة ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبي بكر كتب لشرحبيل بالتربص وأبعه خالد بن الوليد بعد محيئه إلى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة وأوعب معه المهاجرين والانصار فتقدمهم إلى البطاح ولما تكاملت عدتهم سار بهم إلى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد هل ي تعجيله ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء باربعين الف مقاتل وقيل بستين ألفاً وخرج إليه الناس وخرج مجاعة بن صرارة في سرية يطلب ثاراً لهم في بني عامر فأخذهم المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة

ثم ان مسيلمة ترك الاموال وراء ظهره وتقدم لقتال المسلمين وقام ابنه شرحبيل يحرّض بني حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلاً لهم يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحي الطعن والضرب واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط حتى نزعوا إلى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس وغيرها صفوف العدو وحمل خالد بالناس حتى ردوا الاعداء إلى ابد مما كانوا واشتد القتال وتدامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالاً شديداً والمسلمون صامدون حتى قتل من أولى البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم لما رأى خالد ما الناس فيه خشى من أن يهزم اخلاط العرب فتختل

صفوف المسلمين ويساق معهم أهل النجدة من الانصار والمهاجرين فنادى في الناس ان امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين تؤتى . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار وحيثما ظهر ان القتل في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر من البوادي وعلم خالد ان الحرب لا تركد الا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز اليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركب خالد فانهزم امامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن احسابكم ونادى مناديتهم يا بني حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها واغلقوا عليهم بابها

فجاء أحد أبطال المسلمين الانجاد وهو البراء بن مالك وقال يا معشر المسلمين القونى عليهم في الحديقة فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتمحها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم وأقتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ورجل من الانصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الادبار فاخذهم السيف من كل جانب كان مجاعة بن سرارة اسيراً مع خالد كما قدمنا فقال لخالد بعد انكسار بنى حنيفة هلم الى الصلح على ماورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون الا النساء والصبيان ومشيمة فانية وبعض رجال ضعاف فالبسهم الحديد وأمرهم ان يشرفوا من الحصون ثم عاد الى خالد وقال له قد أبوا ان يجيزوا ما صنعت . وكان قصده بهذا ايها خالد لاجل ان يأخذ الامان للرجال ويصالح خالداً على السبي وقد نجح بهذه الخدعة اذ رأى المسلمون ان يمودوا على ظفر بعد ان نهكهم طول اللقاء فصالحه خالد على الفضة والذهب وربيع السبي وقيل نصفه وانتهى الامر

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه ما لم يظهر من جيش قط واستحرت القتل في المهاجرين والانصار يومئذ وقتل من القراء جمع وهذا مادعا ابا بكر وعمر للمبادرة الى جمع القرآن كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب

ومن مكائده خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب أمره للمسلمين بان يمتاز الاحياء والقبائل بعضهم عن بعض لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت وقد فعلوا وشكروا شمل ذلك الجيش العظيم بقوة اليقين وحسن تدبير خالد بن الوليد فرضي الله عنه وعنهم أجمعين

باب

فتح العراق وحروبه فيه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالتوجه الى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ونحن ذاكرون هنا طرفا من أهم أخباره في حرب أهل العراق مما لم يذكر بالتفصيل من قبل فنقول

وقعة الحفير

اول وقائع خالد بن الوليد في العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز فبرز الى خالد بمجيئه مقترنين بالسلاسل كي لا يفروا فطلبه خالد للبراز فبرز اليه ولم يتجاولا الا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه

أصحابه فما شغله ذلك عن قتله وحمل القمعاق بن عمرو بالمسلمين فزاحوا الفرس
وركبهم المسلمون فهزموهم وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة
الامارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ومن عادة الفرس اذا تم شرف الانسان
ان تكون قلنسوته بمائة الف

﴿ كلمة على الالقاب والرتب ﴾

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة والظاهر ان القلنسوة كانت عند
الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي
من قبيل الرتب والالقاب التي احدثت بعد في دول الاسلام وأول من أحدثها
العباسيون أخذوا عن الاعاجم وذلك كالنصور والمهدى مثلاً في القاب الخلفاء
ونظام الملك في الوزراء وشرف الدولة وعز الدولة في الامراء وما لا يحصى من
الالقاب والنعوت التي وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو
والجبروت قرون الضعف والانحلال الى درجة تشمئز منها النفس وبأبائها عقل
الحكيم ومن أراد ان يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدول
التركية والايوية والچركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر اليهم
من ديوان الخلافة ليرى كيف كانت ترص الالقاب والنعوت لامراء وملوك
ما أجدهم بقول الشاعر الاندلسي الحكيم

القاب مملكة في غير موضعها كالهري يحيى انشا خصوله الاسد

ولا جرم ان توفر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطمع الى
المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقي والشرف الذاتي ومنشأ هذا امر ان
(فقد الترية وانحلال الدول)

أما فقد الترية فلأنه يضعف قوة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضى

على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكب بهم طرق الفضائل
 فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعدهم بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي
 من طرق الجد والعمل . ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء
 والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الامور التي تدل على فقد الشيم
 وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وقصاراها ضعف الأمم
 وتدرجها في مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوة
 الدمار والقضاء حيث يبدأ غيرها بالصمود ممن كان ينازعها البقاء وهكذا كان
 الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة
 ظهورهم في الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

وأما انحلال الدول فلانه يحل عرى الألقه وتتناكر به القلوب وينفض
 الناس من حول الامير لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم فيحتال
 لاجتذاب قلوب أفرادهم ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الالقاب وضخامة
 التشریف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتعتبر بمظاهر الفتحفة الكاذبة
 نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والاقاب التشریف الباطلة وهكذا كان
 الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر وابتدع الخلفاء
 من القاب التشریف الكثيرة ما يتألفون به قلوب الناس ويجتذبون اليهم اقتدة
 الامراء المتوسلين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ولكن لم يعن ذلك عن
 سقوط خلاقهم وانحلال دولتهم و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)
 ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الاسلامية من طريق
 التقليد للاجاجم في أمور كثيرة أفسدت اخلاق الامة وأدخلت الوهن على
 أصول التربية الاسلامية التي تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم

من الامويين وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس في عهدها الى أعلى مراقي المجد التي لا يبلغها الا ذوو الشم والجد الآخسون بنواصي الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاعتزاز بزخارف المجد الباطل حتى لقد كان الخلقاء لا يخاطبون بغير أسرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولايتهم بالكنى واللقاب بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها رسما وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهي جمهورية امر كالمالية التي حرم في دولتها ايجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الالقاب الكاذبة والسفاسف المضرّة بالاخلاق والترية فنشط سكان تلك المملكة العظيمة الى السعي وراء المجد الحقيقي المتأتي عن العمل والعلم حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الارض الآن ولله في خلقه شؤون وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الاول منهم العاقلون والثاني الجاهلون

﴿ وقعة الثني وما بعدها ﴾

لما اجتمع خالد بهرمز في الحفير أرسل الثاني كتابا الى كسرى يستمده فأمدّه بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن فلما انتهى الجيش الى المدار لقي المهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا الى الثني وهو النهر وسار اليه خالد وقتلهم فهزمهم وقتل وسي وكان في السبي يومئذ ابو الحسن البصري الشهير وكان نصرانياً وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى ازدشير بعث اليه بجيش بقيادة الاندرز عز جله من العرب الضاحية والدهاقين فسار اليهم خالد ووضع لهم كميناً فالتقوا عند الوجلة ولم تلبث أن نشبت بينهم الحرب حتى خرج

الكمين على العدو وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فقتل منهم من قتل
وانهزم من انهزم ومات قائدهم الاندر زعز عطشا في القلاة

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فاستنقروا
اخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم يهمن جازويه وكان يقشيناثا وأمره بالقدوم
على نصارى العرب بالليس فقدم امامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب
ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضيعة وجابر بن بجير
وعرب الضاحية فسار اليهم خالد وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا للحرب
فهزمهم شر هزيمة واكثر فيهم القتل والاسر

ثم بعد هذه الواقعة قصد خالد الحيرة وحمل الاثقال بالنهر ولما بلغها صالحه
أهلها بعد مناوشات خفيفة وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر ما فيه
الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وكتب
لهم خالد كتاباً بذلك

ولما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحي فصالحوه
على ما بين القلاييج الى هرمز جرد على النى ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان
لآل كسرى وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونهم وأرصاده وأرسل السرايا
فمخروا دجلة الى أرض فارس وأرسل خالد كتبه الى ملك فارس ومرازبتها
يدعوم الى الاسلام وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس الى
الاضطراب يولون ملكاً ويمزلون آخر شأن الامم اذا انحلت رابطتها والدول اذا
انتكث قتلها وأذن الله بانصرام أجلها

وبينما الفرس في شغل الاضطراب أخذ خالد يتم فتح العراق فسار الى الانبار

وكان بها شيرزاد نخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصوِّح وخرج الى بهمن جازويه ناجيا بنفسه ثم صالح خالد من حول الانبار واستخلف عليها الزبرقان ابن بدر وسار الى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوين بجند عظيم من العجم وعتة بن أبي عتة بجمع كثيف من العرب من التمر وتغلب وايد فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عتة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور وأخذه أسيراً فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من في الحصن أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبي من فيه فكان من جملة السبي سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الاندلس بعد وروى بعضهم ان نصيراً عربياً من أراشة من بلي سبي في أيام أبي بكر فاعتقه بعض بني أمية فصار الى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مري

ومنها سار خالد الى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه وخالد من أسفله فخرج الجودي صاحب دومة الجندل الى خالد بطائفة من قومه وأرسل الى قتال عياض طائفة أخرى فدحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والحنافس ومضيق البرشاء والثني والزميل وكانت آخر وقائمه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ثم أمر بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة وسار هو الى مكة فنج وعاد ولحق بسافة الجيش قبل وصوله الى الحيرة على ما رواه المؤرخون

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي أصلى الفرس والعرب في العراق ناره ووقضى على ملك الفرس إذ مهد السبيل الى تدويح فارس وإزالة دولة الاكاسرة وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأنًا وأرقاها مكانًا الا أنها بلغت من الكبر عتياً، ومن فشل السياسة مكاناً قصياً، فجاءها جند الاسلام بادي الشباب ناعم الإهاب فأسس ملكه الجديد في تخوم بلادها لينساح في احشائها، وينشر دعوة الاسلام في ارجائها، ويقضي قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتوحد كلمة الأمم في السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

قد كانت حروب العراق ايام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب في العراق وجند فارس على حرب المسلمين حتى لقد كان أهل العراق ايام علي إذا بلغهم عن معاوية شي يقولون نحن أصحاب ذات السلام ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذي كان بعدها

﴿ امراء خالد وقواده ﴾

ممن كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالد بن الوليد من امراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون الى الاسلام أو الجزية ويقاثلون من امتنع عن قبول احدى الحصلتين، المثني بن حارثة الشيباني وبشير بن سعد الانصاري وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحنظلة الكاتب والنسير بن دسيم ابن ثور وجريز بن عبد الله البجلي وضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو وعتيبة بن النحاس وغيرهم من أهل النجدة والباس، والاربعة الاخيرة كانوا من امراء الثمور

﴿ جغرافية العراق ﴾

قالوا سمي العراق عراقا تشبيها له بعراق القرية وهو الخرز الذي من اسفلها وهو على ضفتي دجلة ويمجد العراق شمالا الجزيرة وكرديستان ، وشرقا بلاد العجم وجنوبا خليج العجم المسمى (أيضا بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات يقرب الانبار الى بغداد ومن ثم على شرقي دجلة الى مصب نهر الزاب الاصغر فيها ويفصل بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممتدة جنوبا من جبال كردستان وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر بل كل الجزء الواقع بين دجلة والفرات وهو العراق والجزيرة كان قبل الاسلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها وكانت للعرب دولة في العراق وهي دولة المناذرة تدفع الاتاوة الى الفرس كما كان لهم دولة في الشام وهي الدولة الغسانية تدفع الاتاوة الى الروم فلما جاء الاسلام قضى على دولتي المناذرة وغانان كما قضى على دولتي الروم والفرس

﴿ باب ﴾

(سفره الى الشام وحروبه فيها)

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنه ان جنود المسلمين في الشام اجتمعوا في اليرموك واخذوا يطاولون العدو ويطاولهم وكتبوا الى أبي بكر يستمدونه فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد ان يسير بنصف الناس الى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فصعد خالد بالامر وسار في ربيع الاول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم وبعضهم قال انه سار من عين التمر ولما سار استخلف

على العراق المثني بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحك الله الى سلطانك
فغير مقصر ولا وان)

وقد كان المثني استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا
فأذن له وولاه جند العراق ثم أرسل خالدًا الى العراق وأمر المثني بالسمع
والطاعة له ولما سار خالد الى الشام عادت امارة الجند الى المثني وكان خير
كفو لها بعد خالد بن الوليد

سار خالد بمن معه من جند الاسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم
وتسعة على رواية البعض الآخر وقال بعضهم ان أبا بكر أمره ان يأخذ معه أهل
النجدة فسار بخمسة و لعل الرواية الاولى أصح وأغار في طريقه على جمع من تغلب
وكلب على ماء يسمى قراقروم ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير
فيها لفق الماء منها وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي انك لن تطيق
قطع المفازة بالخيول والاثقال فقال لا بد لي من ذلك لا أخرج من وراء جموع
الروم ، واحتاظ لقطع المفازة بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء
للشعبة لحس وان يعطش من الابل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللا بعد
نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا
مشافرها لئلا تجتر ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً و ليلة شقوا العدة من الخيل
بطون عشرة من الابل فمزجوا ما في كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل
فصعلوا ذلك أربعة أيام وفي اليوم الخامس انتهوا الى سوى فأغار خالد على جمع
من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين^(١)

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل
ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظيمة في قديم الزمان وبينها وبين

فقاتل أهلها فظقربهم ثم فعل مثل ذلك بجوارين

وروي الطبري انه سار منها الى قصم وقاتل بني مشجعة ثم سار الى ثنية العقاب^(١) قرب دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ثم سار فأتى مرج راهط^(٢) فأغار على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي ارطاة وحبيب بن مسلمة النهري من قريش فأغاروا على قرى الغوطة ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالبواب الشرقي من دمشق فأخرج لهم بطريقها نزلاً وخدمة وقال احفظ لي هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتاباً

ثم سار خالد من دمشق الى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء)^(٣) فقيل انه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها وبعث باخماسها الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمالى جبل عجلون) أم في اجنادين من عمل فلسطين فقال أبو جعفر الطبري ان وقعة اجنادين كانت بعد اليرموك

دمشق الشام سبعة مراحل ويلها القريتين وهي على مرحلتين منها وقال ياقوت انها هي حوارين التي مر عليها خالد وفيه نظر

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى

محصاه ولعلها التي تسمى الآن الثنايا

(٢) هو المرج الواقع شرقي دمشق مما يلي الغوطة

(٣) القضاء في عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء او المتصرفية التي تجمع

لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية مادون الولاية التي تجمع الى رئاستها بضع متصرفيات

أو ألوية

وأورد البلاذري في فتوح البلدان خبر اجنادين قبل اليرموك وقال ان وقعة اجنادين كانت في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ مع ان أكثر المؤرخين ومنهم ابن الاثير قالوا ان وقعة اليرموك كانت في سنة ١٣ وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة للاعادة وانما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من ان واقعة اليرموك كانت قبل اجنادين وفيها التقى خالد بن الوليد بالمسلمين

قال بعض المؤرخين ان خالداً لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط والظاهر ان الرواية الثانية أصح لما ذكره ابن الاثير والطبري من ان خالداً لما انتهى الى المسلمين في اليرموك وجد الامراء متساندين كل أمير على جنده فرغب اليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه واليك البيان

لما اجتمع المسلمون في اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين الفا فيهم الف صحابي وكان الروم في مائة الف وفي رواية انهم كانوا في مائتي الف مقاتل وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لا يجمعهم أمير ولا يخفى ما في هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزء القوة بتجزء الامارة وتعددها ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعا مع كثرة العدو عديداً وعدةً وان لا بد في نيل الظفر من حزم الرأي واجتماع الكلمة وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الاولى وقيل في جمادى الآخرة فأراد المسلمون الخروج اليهم متساندين فقام فيهم خالد فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا
الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وانتم
متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال
بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه رأى من واليكم
ومحبته : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الامارة العامة وان يؤمروه عليهم في ذلك اليوم
فأمروه وهم يظنون انها تخرجهم وان الامر يطول
من هذه الرواية نعلم ان خالد لم يكن أميراً عاماً على الجيش وانما كان
أميراً على جنده فقط ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون في القتال بل
لدبر الامر لدحرم منذ وصوله الى اليرموك

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبئة الجيش تعبئة لم تعب العرب
مثلاً قبل ذلك فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة وجعل المينة كراديس
وعليها عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة والميسرة كذلك وعليها القعقاع
ابن عمرو ويزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان
وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط
خرج للعدو بأربعين كردوساً وأمر عكرمة بن أبان جهل والقعقاع بن عمرو
فأنشبا القتال وأظهر الروم من البسالة وقوة الجاش والصبر على الحرب ما كاد
يزيل المسلمين عن مواقعهم وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالاً
عظيماً امام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضوا ونهد خالد بالقباب
حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسان الروم ففرج لهم المسلمون وأما
الرجالة فالذي نجحاً والذي قتل وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب

منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة كما أصيب بمثل هذا
أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعاً
ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبوا إحدى الحصلتين (الاسلام
أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر
على الامم بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان
الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة التي امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت
من الامم الخاضعة لسلطان الفرس والروم بخناقها ولكن انى ينصف قادة
الشعوب وزعماء السيطرة اذا أحسوا يديتمس جانب كبريائهم ، وتقل من
غلواتهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال في الشهوات
باعتنهم ، وما قتل الامم ، وساق النفوس الى مصارع المهلكة ، وزعزع دعائم
ال عمران في كل زمان ، الا هذه الفئة الجائرة التي اتحلت لأنفسها حق
السيادة المطلقة على الاشخاص والنفوس وأذاقت الانسان أنواع الشقاء والبؤس

﴿ عزله عن الامارة ﴾

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود أي يوم اليرموك في أشد
حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب جاء البريد من المدينة ينعي وفاة
أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد
وتوسيد امارة الجيش العامة الى أبي عبيدة بن الجراح فكم ذلك أبو عبيدة
ريثاً تم النصر للمسلمين هذا على رواية بعض اللورخين وعلى رواية بعضهم
ان البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ومن جعل واقعة اجنادين قبل اليرموك
روى مجيء البريد وهم في اجنادين والصحيح ان عزل خالد وتأمر أبي عبيدة
انما جاءهم وهم على دمشق كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي

عبيدة كما ستراه مبسوطاً في خلافة عمر رضي الله عنه وروى الطبري ان أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لاهلها عهداً فاضاه له وعلى أي حال كان فان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حضر بعد امارته هذه معظم فتوح الشام متطوعاً وقال بعضهم انه حضر بعض فتوح ارمينيا أيضاً وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ولما فتح في اماره أبي عبيدة قنسرين التابعة لولاية حلب وانتهى الخبر بذلك الى عمر قال (أمر خالد نفسه يرحم الله أبابكر هو كان أعلم بالرجال مني)

وأما سبب عزله فأمران الامر الاول ما كان في نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة والأمر الثاني وهو الأهم اقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتهم بين يديه في كل مشاهدته في العراق والشام وذلك لمن تقيته في الحروب . وشجاعته التي أرهبت القلوب . وقد علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخالف فؤاده شي من وخشي من اقبال الناس عليه لاسيما وان في نفس خالد من جهته ما في نفسه من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقرع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة لهذا بادر عمر رضي الله عنه الى عزله قبل ان يصل خبر توليه منصب الخلافة الى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم وهذا الذي خالف نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتبه عنه بل أظهره اليه فقد روي انه استدعاه بعد عزله الى المدينة فمات به خالد فقال له عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس نفقت ان تفتن بالناس) وهذا صريح في أن عمر رضي الله عنه خشي من أن تحدث خالداً نفسه بشي فيشق عضا المسلمين وهو نظر شديد

ومرعى بعيد من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلا أن خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمرء المسلمين كانوا في زمن أبي بكر وزمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وأزهم للطاعة لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفين في السياسة ورهبتهما التي حلت في القلوب وعدا هذا فان خالد بن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر فقد روى الطبري ان خالدًا لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكانت أحب إلى من عمر والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلى من أبي بكر ثم أئمني حبه) والظاهر ان ما خالج فؤاد خالد من حب عمر لما ولي الخلافة عليه فيما بعد عمر بن الخطاب لهذا لما عزله وقال له ما عزلتك لريبة فيك كتب بذلك إلى الامصار دفعاً للتهمة عنه

وهي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد وتقدر قدر خدمته للإسلام والمسلمين وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

وروى الطبري ان عمر بن الخطاب لما عزل خالدًا صادره على نصف ماله وذلك شأنه مع أكثر العيال كما سترى في سيرته لانه كان يرى ان ما يجمعونه من المال انما هو حق المسلمين فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين

﴿ باب ﴾

(حزم خالد وتوفيقيه في الحرب)

قل ان يوجد قائد في العالم يوفق إلى النصر في كل وقائمه كما وفق خالد

ابن الوليد رضي الله عنه فان التاريخ لم يثبتنا عن انخذه ولا في وقعة واحدة من وقائمه مع أهل الردة أو في العراق والشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يتربص الفرص ويسدد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطئ مرماه وقد رأيت كيف قلّ جموع الروم في اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة مذ سلموا قيادهم اليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع انّ فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأى يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والاسلام كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن سفيان وأضرابهم من كفاة الاسلام وقادة الجيوش العظام

وروي الطبري ان خالداً لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الاعداء ليلةً مواقفهم على الاسوار لوليمة أعددها لهم البطريق فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين الا خالد بن الوليد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولما وقف على جليلة الامر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه الى السور وصعد الى أعلاه بالسلالم وكبر فكبر أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانتصاره على الاعداء ونفاذ الرهبة من سطوته في القلوب وحق والله لقائد مثله ان يخلد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الأثر أعظم بنيان

﴿ باب ﴾

(كتبه)

١

كتب الى ملوك الفرس بعد تدويج ملكهم في العراق يدعوم الى
الاسلام كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذي حلّ نظامكم . ووهن كيدكم ، وفرق
كلماتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم
ونجيزكم الى غيركم ، والآ كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت
كما يحبون الحياة اهـ

٢

وكتب الى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذي فض حدتكم ، وفرق كلمتكم ، وكسر
شوكتكم ، فاسلموا تسلموا والآ فاعتقدوا في الذمة وأدوا الجزية والآ فقد
جنتكم بقوم يحبون الموت كما يحبون شرب الخمر اهـ

٣

ولما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق كان الاسقف الذي أقام له
النزل يوم مروره على دمشق في اثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما
وقف على السور فدعي له خالد فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له ذات يوم
يا أبا سليمان ان أمركم مقبل ولى عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة فدعا

خالد بدواة وقرطاس فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية اه
هذا ما رواه البلاذري بشأن هذا الكتاب وهو يؤيد أنه كان يومئذ أميراً على جنده وأن خبر عزله إنما أتاهم وهم على دمشق وإنما كتبه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح وقد روي بعض المؤرخين أن أبا عبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد أن فتحت دمشق وأخبر خالد بالمرز



وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى بني الحارث بن كعب (بسم الله الرحمن الرحيم) لحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) يا رسول الله صلى الله عليك فإني بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم إلا أقاتلهم ثلاثة أيام وإن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وإن لم يسلموا قاتلتهم واني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت فيهم ركبانا يابني الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين أظهرهم وأمرهم وأمرهم به وإنهاهم عما نهاهم عنه وأعلمهم ما أمروا به وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلى رسول الله والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته

٥

وكتب في صلح الحيرة كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً
ابني عدي وعمر بن عبد المسيح وياس بن قبيصة وحيري بن أسكال^(١)
تقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمرهم به ، عاهدتهم على تسعين
ومائة ألف درهم كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا
من كان منهم على غير ذي يد حيساً عن الدنيا تاركاً لها^(٢) وعلى المنعة فان لم
يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة
وكتب في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وشهد فلان وفلان

٦

وكتب الى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزايد بن
بهيش وصلوبا بن نسطونا ان لكم الذمة وعليكم الجزية وانتم ضامنون لمن تقبم
عليه من أهل البهقباد الاسفل والاوسط على التي الف تقبل في كل سنة ثم
كل ذي يد سوى فاعلى بانقيا وباروسما (وفي رواية بسما) وانكم قد
ارضيتموني والمسلمين وانا قد ارضيناكم واهل البهقباد الاسفل ومن دخل
معكم من أهل البهقباد الاوسط على اموال ليس فيها ما كان لآل كسرى
مال ملهم شهد فلان وفلان وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر اه

(١) وفي رواية جبري

(٢) وفي رواية وسائماً تاركاً للدنيا

﴿ (١) كلمة على الذمة أو أصل الامتيازات ﴾

اعلم ان هذه الكتب وكل ما أعطي من الصحابة من كتب العهد لاهل الذمة سواء كانوا في العراق أو الشام أو غيرها كانت اصولاً ثابتة في معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين وعهوداً مكينة في جباية الخراج استمر العمل بهامدة الخلفاء من بني أمية وصدرًا من خلافة بني العباس حيث صار للناس غير الناس واختلط السكان واتسعت اصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد في معاملة أهل الذمة وعلّة ذلك كله الحديث الشريف الذي مر مرنا ذكره في هذا الكتاب وقد جاء فيه (ان المسلمين يسعى بذمتهم ادناهم) بمعنى ان كل ما أعطاه أحدكم من عهد لا سبيل لنقضه بل يؤكد الآخرون وهذه قاعدة من أسس القواعد التي جاء بها الاسلام لحماية الأمم التي تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ما دأوا في عهد المسلمين وذمتهم لا يمانون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم ما فرضوه على انفسهم ورضوا به من الجزية أو أي نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية وهو تناهي في العدل في حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله في تاريخ الدول الفاتحة لا في ذلك الزمن وما قبله ولا الآن بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها

(١) نريد بهذه الامتيازات ما يسمونه امتيازات الكنائس او امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الاسلامية (وهي الذمة) لا امتيازات الاجانب فان هذه تسمى (عهداً) واهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه ايضاً قد استفحل مع الزمان امرها واستشرى شرها سيما في المملكة العثمانية التي عاث فيها الاجنبي بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لما قبل الدول العلية بعد ان كانت منحاً وعهوداً حبية وسيأتي الكلام عليها في الاجزاء التالية ان شاء الله

الدول المتقدمة الغربية في هذا العصر ان تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ما تحكم به في بلادها وابناء جنسها وملتها وتعاملهم معاملة الرقيق للوضع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف لا ان تشتط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق

ولقد كان المسلمون يومئذ في ايان عزم وجددة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم أو هية من عدوهم بل عملا بشرعهم واتباعاً لامر نبيهم ، وأي عصر من عصور الفتح كان أنفذ هية وأبسط قوة وأعظم سلطاناً وأكثر فتوحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال ان ينقض عهداً من تلك العهود إلا ان خان أصحابه المسلمين

روى البلاذري في تاريخه فتوح البلدان ان عمير بن سعد (الانصاري أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان أهلها يخبرون عدوتنا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدوتنا ولهم عاينا عهد، واستشاره في أمرهم فقال عمر فاذا قدمت فتحهم ان تعطيمهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيتين فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه وأجلهم واخر بها فان أبوا فأنبذ اليهم وأجلهم سنة ثم اخرجها فانظر كيف ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبي ان ينقض عهد هؤلاء القوم الذي أعطاهم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة

عليهم وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ويريمهم جزاء عملهم
باجلاهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن لانهم خانوا المسلمين
والخائن لا عهد له ومع هذا فقد أبى عدله ودينه ان يجلبهم عن بلدهم الا بعد
تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود اهل الذمة فيما يتعلق بنوع
الجزية ومقدارها كما جاء في كتب اليهود التي بأيديهم من الصحابة حتى تغير
السكان ودان معظمهم بالاسلام وتوسيت تلك الكتب وفقدت واما ما يتعلق
بحماية اهل الذمة حيث كانوا وحماية اموالهم واملاكهم وحرية معتقدتهم فهذه
لما كانت لا تقتصر الى المحافظة على امثال تلك الكتب اذ هي قاعدة اساسية في
الاسلام فقد استمر العمل بها الى الآن الا ما كان أيام ملوك الطوائف ربما
أصاب اهل الذمة من جورهم ما أصاب اهل الاسلام ولما آلت الدولة الى
آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية وأخصهم المرحوم السلطان
محمد الفاتح بما أعطاه لبطريك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة
مسيحية داخل الحكومة الاسلامية ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف
والجمالة وحسن الصنيع ولكن عمله ذلك كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك
سلسلة كثيرة الحلقات اذ جعلت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد
لمسيحي الشرق من امثال تلك المنح حتى توسع الدول بعد باسمها فسموها
امتيازات وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعم حتى تناوت الذمي
والمعاهد وحتى زال من نفوس الخائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من
دول الاسلام عملاً بالشرع الاسلامي لا تمييزاً لاهل الذمة عن المسلمين ولا
رهبة من دولة من الدول وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين

الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم فما اخلق تلك الدول المتعدنة ان تعطى للحكوميين منها من المسلمين ولو جزاً مما يعطى الاسلام للحكوميين من دوله من المسيحيين ثم تطالب بعد ذلك الدول الاسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين وهيئات هيئات ان تغلب الفضيلة على الشهوات ويبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام

باب

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد ان اتم فتوحه في العراق والشام ان يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص وفيها توفي سنة احدى وعشرين في خلافة عمر وقال بعضهم انه توفي في المدينة وليس يثبت ومدفنه لم يزل معروفاً يزار الى الان في حمص وهو ضمن مسجد واقع خارج السور الى الجهة الشمالية من حمص وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حي يسمى (حي سيدي خالد) كما يسمى المسجد ايضاً مسجد سيدي خالد وقد زرته مرّة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف اصحابها اقدار الزجال ، ويتأثرون بذكرى عصر اولئك الابطال

لما حضرت خالداً الوفاة قال (لقد شهدت مائة زحف أوزهاها وما في بدني موضع اشبر الا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت

العير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى من لا آله الا الله وأنا مترس بها)
 فله ما أعظم هذه النفس التي استهانت في سبيل المجد بالحياة حتى ما تطيق
 الموت على فراش السكون ، وتأنف ان تذوق في غير مواقف الحرب كأس
 المنون ، ولا جرم ان جسما ليس فيه موضع شبر الا وفيه طعنة برمح أو ضربة
 بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الاجسام ، وتمنى لقاء الموت
 فيحجم عنها في ساحات الصدام ، وهذا هو السر في أن حياة الابطال العظام
 عزيزة طويلة ، وحياة الاندال الجبناء ذليلة قصيرة .^(١)

وأوصى خالد قبل وفاته الى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ولما
 مات اجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه فلما بلغ ذلك عمر قال (ما عليهن ان
 يبكين أبا سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة) وقيل انه لم يبق امرأة من بني المغيرة
 الا جزت لمتها وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم الذي يحق ان تبكيه
 الرجال والنساء ، ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

﴿ ولده ﴾

روي ابن قتيبة انه كان لخالد ولد كثير قتل الطاعون منهم أربعين رجلاً فبادوا
 وقال في أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار ان ولد خالد بن الوليد انقرضوا
 فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة
 ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة في جهات حمص تسمى بني خالد ادعى بعض
 مشائخها من بضع سنين انها تنسب الى خالد بن الوليد لاغراض لا محل لذكرها
 هنا وهي دعوى كاذبة ليس عليها دليل اذ ولد خالد انقرضوا جميعهم في الصدر
 الاول كما علمت والله أعلم

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر

انتهى الجزء الاول وفيه سيرة أبي بكر ومن اشهر في دولته ويليها الجزء الثاني
وفيه سيرة عمر ومن اشهر في دولته رضي الله عنهم أجمعين اهـ

﴿ تنبيه ورجاء ﴾

قد اخترت ان أنشر هذا التاريخ أجزاء متوالية لفائدتين (الفائدة
الأولى) سهولة نشر الكتاب وتعميمه (والفائدة الثانية) اطلاع القراء على
الكتاب جزاً بعد جزء حتى اذا رأى أحد منهم خطأ في الجزء الواحد ينهني
الى اصلاحه في الجزء الذي يليه لهذا فاني أرجو ممن يطالع على هذا الجزء من
السادة العلماء والكتاب والادباء ويرى فيه خطأ في النقل ، أو سهواً عن
حقيقة ، أو غموضاً في قول ، أو ضعفاً في رأي ، أو ما أشبه ذلك من أغلاط
قد لا يسلم منها كتاب ، ولا يعصم عنها مؤرخ ، أن ينهني اليه ، ويتفضل على
بيان وجه الخطأ فيه لا يبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه ، اذ العصمة لله
وحده والمرء ضعيف بنفسه قوي بأخيه

﴿ ايضاً ﴾

نقدت الطبعة الأولى من هذا الجزء فاعدت طبعه مصححاً على قدر
الامكان وكان بودي التبسط في بعض المباحث واطرافه اشياء خطرت لي من
سيرة أبي بكر لكن منعي من ذلك اتصال اعداد صحف هذا الجزء بالاجزاء التي
تليه الى تمام المجلد الاول فلو زدت فيه شيئاً لاختل ترتيب الفهرس كما لا يخفى
وما اشد هذا التقيد على النفس

فهرست

الجزء الاول من أشهر مشاهير الاسلام

صحيفة	صحيفة
٣٦ مالك بن نوره	١ فاتحة الكتاب
٣٦ مسيلمة واهل اليمامة	(القسم الاول) دولة الخلفاء الراشدين
٣٨ ردة اهل البحرين	٨ أبو بكر الصديق
٤٠ عمان ومهرة	(باب) حاله في الجاهلية
٤١ ردة اليمن	٩ نسبه وأصله
٤٣ كندة وحضرموت	٩ شرفه
٤٧ كلمة في حروب الردة	١١ صناعته
(باب) فتوحات ابي بكر	(مكانته عند قومه وسيرته فيهم
٤٠ أعهد للفتح الاسلامي	١٢ (باب) اسلامه وصحبته
٥٥ فتح العراق	(اسلامه
(باب) فتوح الشام	١٤ صحبته
٦٠ أعهد	(باب) خلافة ابي بكر
٦٣ استدراك	١٦ كلام على الخلافة
٦٦ بحث البعوث الى الشام	٢١ بيعة ابي بكر
٦٩ وصية ابي بكر ليزيد بن ابي سفيان	٢٤ انفاذه جيش أسامة
٧٠ ابتداء الفتوح بالشام	(باب) الكلام على الردة
٧٣ اجتماع الامراء في اليرموك	٢٧ أبحث في الردة
٧٧ (باب) مناقب ابي بكر واخلاقه وما آثره	٣٠ قتال اهل الردة
٧٩ سياسته في الخلافة	٣٣ تسيير الجيوش الى اهل الردة
٨٥ سياسته في الرعية	(باب) حروب الامراء مع اهل
٨٦ أدبه وتأديبه	٣٤ الردة واخبارهم
٨٦ أدبه مع رسول الله	إطليحة الامدي
٨٧ أدبه مع نفسه	٣٥ عم وسجاح

صحيفة	صحيفة
١٤١ (باب) صفة ابي بكر	٨٧ تأديبه لنفسه
١٤٢ الحالة الاجتماعية على عهده	٨٨ تأديبه للمسلمين
١٤٧ خالد بن الوليد	٨٩ اديه مع المسلمين وتواضعه لهم
١٤٨ (باب) حاله في الجاهلية	٩٢ زهده وورعه
١٤٧ نسبه واصله	٩٥ جمعه القرآن
١٤٨ شرفه في قومه ومكانته عندهم	٩٧ قضاؤه
١٤٨ (باب) اسلامه وصحته	٩٧ (مطلب) كلام على القضاء في الاسلام
١٤٨ اسلامه	١٠٨ أولياته
١٤٩ صحته	١٠٨ (باب) كتبه وخطبه
١٥١ (باب) حروبه وفتوحاته	كتبه
١٥١ (حروبه في الردة)	١١٢ كلام على الخطابة عند العرب في
١٥١ (حربه مع طليحة)	الجاهلية والاسلام
١٥٣ حادثة مالك بن نويرة	١١٧ خطبه
١٥٦ حربه مع مسيلمة	١٢٠ كلام على الحكومة في الاسلام
١٥٨ (باب) فتح العراق وحربه فيه	١٣١ تنييه
أوقعة الحخير	(باب) مرض ابي بكر وعهده
١٥٩ كلمة على الالقاب والرتب	بالخلافة
١٦١ وقعة الثني وما بعدها	١٣١ مرضه
١٦٤ امراء خالد وقواده	١٣٢ استخلافه عمر ووصيته له
١٦٥ جغرافية العراق	١٣٥ وصيته لعمر
١٦٥ باب سفره الى الشام وحروبه فيها	١٣٧ وفاته
١٧٠ عزله عن الامارة	١٣٨ خطبة على في تأيين ابي بكر
١٧٢ باب حزم خالد وتوفيقيه في الحرب	١٣٨ خطبة ابنته عائشة في تأيينه
١٧٤ باب كتبه	١٣٩ كلام عمر في تأيينه
١٧٧ كلمة على الذمة او أصل الامتيازات	(باب) ولده وعماله وقضائه وكتابه
١٨٠ وفاته وولده	١٣٩ (اولده)
١٨١ ولده	١٤٠ عماله وقضائه وكتابه
١٨٢ تنييه ورجاء	

كتاب

انتهاج السالكين
مستأجر السالكين

في

السير والسيرة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظيم

﴿ الجزء الثاني من المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلق الراشدين)

وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب

« ومن اشهر في دولته »

(طبع بمطبعة الوسوءات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)
« لصاحبها اسماعيل حافظ »

عمر بن الخطاب

— باب —

﴿ حاله في الجاهلية ﴾

« نسب وأصل »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب القرشي السدوي أبو حفص وأمه حنمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنمة بنت هشام بن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لأن هاشمًا وهاشما بني المغيرة أخوان وهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فإنه والد حنمة وعم أبي جهل والحارث هكذا صححه في أسد الغابة

﴿ شرفه وصناعته ﴾

سبق لنا في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذي انتهى اليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنهي إليه السفارة كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين ستر دسيرتهم في هذا الكتاب ومنهم عمر بن الخطاب فإنه كان تاجرًا وما زالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فحينئذ تركزها الشغلا عنها مصالح المسلمين كما سير عليك مفصلا ان شاء الله

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر أسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشدة عزيز الجانب مع انه لم يكن ذامال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً إلى الشام فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها وأخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجرب رعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضحيان (اسم مكان) فقال: كنت أرى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرى أحياناً واحتطبت أحياناً فأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد الا رب العالمين ثم قال

لا شيء مما ترى الا بشاشته يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته ومسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة بلغ به علو الهمة وضاء النزعة والرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم



باب

اسلامه وصحته

(اسطر)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقتلهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخربين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورين بالثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرأبهم من صناديد قريش وأشرفهم إلا أن معظمهم هاجروا إلى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقتلهم في حاجة إلى الاستكثار من ذوي العصية أو الجرأة والاقدام من رجال قريش ليستطيعوا إعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وتسيب المسكاة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحدهذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعني أبا جهل استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين إليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد أربعين رجلاً واحدي عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

وأما سبب اسلامه فقد جليت فيه روایات كثيرة ومنها ما أخرجه الحافظ

عن الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جدّه أسلم انه قال .
قال لنا عمر بن الخطاب أحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤا اسلامي قلنا نعم . قال كنت
من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا أنا يوم ما في يوم حار شديد الحر
بالمهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن
الخطاب انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قال قلت
وما ذاك . قال أختك قد صبأت . قال فرجعت منغضبا وقد كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلم عند الرجل به قوة فيكونان معه
ويصيان من طعامه وقد كان ضم الى زوج أختي رجلين قال فحمت حتى قرعت
الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوسا يقرأون القرآن في
صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واواخفوا وتركوا ونسوا الصحيفة من أيديهم
قال فقامت المرأة فتمتحت لي فقلت يا عدوة تنسها قد بلغتني انك صبوت قال فارفع
شيئا في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلهارات المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن
الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت قال فدخلت وأنا منغضب فجلست على
السري فظنرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطنيه فقالت
لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه إلا
المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت
بالرحمن الرحيم دعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الى نفسي فاذا
فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت
باسم من أسماء الله عز وجل دعرت ثم رجعت الى نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله
ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ن كنتم مؤمنين)
قال فقلت أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمدا رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عز وجل ثم قالوا يا ابن
الخطاب ابشر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم اعز
الاسلام بأحد الرجلين اما عمرو بن هشام واما عمر بن الخطاب) وانا نرجو ان
تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق وقلت لهم اخبروني
بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فمالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال
فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب : قال : وقد عرفوا
شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي : قال : فما جئنا أحد
منهم أن يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فإنه ان يرد
الله به خيراً أيده قال ففتحوا لي وأخذ رجلان بعصدي حتى دنوت من رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجميع
قبضي فجدني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم أهده قال قلت أشهد أن لا إله
إلا الله وأنك رسول الله فكبر المسلمون تكبيراً سمعت بطرق مكة قال وقد كان
استخفي^(١) قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب الآرأيت
^(٢) قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب إلا أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال
فذهبت الى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه
فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج الي فقلت له أشعرت اني قد صبوت ،
قال فعلت قلت نعم ، قال لا تفعل ، فقلت بلى قد فعلت ، قال لا تفعل فأجاف الباب
دونني وتركني : قال : فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

(١) هكذا وعلما وقد كانوا مستخفين

(٢) وفي رواية فلم أشأ أن أرى رجلاً يضرب ويضرب الآرأيت ولا يصيبني من

اسلامك : قال : قلت نعم : قال : فاذا اجلس الناس في الحجر واجتمعوا اثبت رجلاً لم يكن يكرم السرفاصغ اليه وقل له فيما بينك وبينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصبح ويملته : قال : فاجتمع الناس في الحجر فجت الرجل فدوت منه فاصغيت اليه فيما بيني وبينه فقلت اعلمت اني قد صبوت : فقال : ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ : قال : فما زال الناس يضربونني وأضربهم فقال خالي ما هذا : قال : فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي . فانكشف الناس عني وكنت لأشاء ان اري احداً من المسلمين يضرب الارأيتة^(١) وانا لا أضرب : قال : فقلت ما هذا بشي حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين : قال : فأملت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع : قال : قلت جوارك عليك رد : فقال : لا تفعل يا ابن أختي : قال : قلت بل هو ذاك : فقال : ماشئت : قال : فما زلت أضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اه

وروي ان عمر لما سلم : قال : يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جاست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس : قال : لما سلم عمر قال المشركون قد

١٠ يريد الارأيتة يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان

الناس وافوا رغبته ولم يخرجوا الى الضرب بنفسه

انتصف القوم اليوم وانا نزل الله (يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من
المؤمنين)

وانت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسجود منزلة في قبيله وما كان
لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ اقر واظهر المسلمين عليهم ورجحان
كفة المؤمنين على كفهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت
ويؤيدها شاهد العيان ايضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين
اعلنوا بعد اسلام عمر دينهم واخذوا يبشرون بين الناس دعوتهم لا يباليون بما قام في
نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد اىصال الضرر والاذى اليهم فقد روي عن
عبد الله بن مسعود رضى الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته
نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى أسلم عمر
فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصيلينا) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن
ابن مسعود ايضاً قال (مازلنا أعززة منذ أسلم عمر)

ولا جرم ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الرجل القذا الجليل الذي قوى
الله به الاسلام في منبته وأعززه في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لاهله
فكان رضى الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المصروب في التقوى والعدل
والشهادة ونصرة الدين وتأيد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط
وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الأمم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي من الله
بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين

﴿ صحبته ﴾

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل في نصرته
مهجته وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين وينافح عن سيد المرسلين ويظهر من

الشدة على أعدائه والمظاهرة لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأ ذمهم على أتباعه واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة حتى إذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا بها حرون مستخفين إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملا قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن علي رضي الله عنه : قال : باعدت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مخفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هاجر بالهجرة تقلد سيفه وتكبد قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عزته ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شامت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن يشكله أبه ويؤتم ولده ويرسل زوجته فليأتني وراء هذا الوادي : قال علي فتابعه أحد الأقوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجه

وأخرج ابن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب ابن عمير أخو نبي عبد الدار ثم قدم علينا بن أم مكتوم الأعمى أخو نبي فهر ثم قدم علينا عمر الخطاب في عشرين ركباً فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثرى ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قواماً على الحق مناخاً عن رسول الله سابقاً لا عدائه حريصاً عليه من وصول أذام إليه مبغضاً لمن أبغضه لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضماير الوافدين حتى إذا تفرس في أحدهم سؤنية لازمه في دخوله وخروجه وأزمه حد الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخنوع بين يديه . روي أن عمير بن وهب الجمحي

عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على ان يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرس فيه الشرف فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه يا عمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني أباه وهب لانه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر) قال : اصدقني : قال : ما جئت الا لذلك : قال : بل قعدت أنت و صفوان و جري بينكما كذا وكذا فدهش عمر وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قریش سهيل بن عمرو وفأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيتك يا رسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً : فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه (١) ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له فمظم ذلك عليه وأخذ بمخناق اليهودي : وقال : دعني أقتله يا رسول الله : فقال : دعه يا عمر ان لصاحب الحق مقالاً

وله من هذا القبيل اخبار كثيرة ايام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من تاواه

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصاهم نبي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله لبيتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور في التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الامور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً بالصدق لهجتها وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر: قال (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (مليهون) فان يك في أمتي أحد فاته عمر (متفق عليه كما في المشكاة) لهذا كان رضى الله عنه يرى رأى فينزل به القرآن حتى بلغت موافقته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فاته لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فانه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب: وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا فانزل الله تعالى واذا سألتوهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرم الدخول: فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضى الله عنه في صدق اللمجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سيباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والاجتماعية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضى الله عنه نافعاً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديداً حرص عليه والحب له والمدافعة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته إن الحرب سجل يوم بيوم بدر أعل هبل (أى اظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلناكم في النار : فلما أجاب عمر أبو سفيان قال أبو سفيان هلم الي يا عمر فقال رسول صلى الله عليه وسلم : أنته فانظر ما يقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك بالله يا عمر أفتلنا محمداً : قال : لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندي من بن قثمة وأبر (لقول بن قثمة لهم قد قتلت محمداً)

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً إلى ذات السلاسل في جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله في جيش أميره أسامة بن زيد مولى رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقى عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضي الله عنه خدّم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً للنبية عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته أو أصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال . من قال أن محمداً قدماء علوت رأسه بسيفي هذا وليعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم . والقصة مشهورة وأوردنا للمهم منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكان عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين فأذهلهم عن الكلام ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه



باب

﴿ خلافة ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبابكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليا يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما نزل كتاب المهدي على المسلمين بايعوه جميعا ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعه أبي بكر حاله كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الأول وانما رضي المسلمون بعهد أبي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتتجاوزها المصيبة وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافة فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرس المسلمين في عمر الكفاية على القيام بهذا الامر واقتداره على سد ذرائع الفتنة كما تفرس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق لهم منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفائته رجاؤهم فكانت خلافة رحمة على الأمة كما مر في حديث بن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة. الملك حين تفرس في يوسف والقوم فيه زاهدون. والمرأة التي

تفرست في موسى فقالت (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي المتين)
وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

نعم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر إلا أن استيلاءهم لم يكن لفقد الكفاية ممن أسندت إليه الخلافة وإنما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم كما بسطنا هذا في سيرة أبي بكر ومع هذا فإن أبا بكر رضى الله عنه لم يقض إلا بعد أن جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساکر في تاريخه عن عاصم قال: جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا ولا تشقوا بها فأنها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واجبوها فحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وإن هذا الأمر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم في حال الشدة وأسلمكم في حال الآين وأعلمكم برأي ذوي الرأي. لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم ولا يتخير عند البديهة قوي على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده^(١) من الجذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب ثم نزل فحمل^(٢) الساخط أمارته الراضي بها على الدخول معهم توصلاً

ومن هذا يعلم أن أبا بكر إنما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علماً بحقيقته وسد الذرائع الفتنية وطلباً لخير المسلمين ومصالحهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقد أخرج الحافظ عن الدين الجوزي

(١) بفتح العين الذخيرة الممدودة لوقت الحاجة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفي

تاريخ ابن عساکر وجعل الخ ولم يذكر متعلق (لتوصلاً)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي أنه دخل على علي بن أبي طالب في خلافته فقال: يا أمير المؤمنين اني مررت بشريد كرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الاسلام: فقام (أي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر أقوى عليها ولو كانت محياة لأثرها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معناه في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاية عمر دعاهم الى الرضا ببيعتهم والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثلاً لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقوا الله سبقاً بعيداً وأتبعوا الله من بعدهما اتباعاً شديداً فذكرها حزن للأمة وطعن على الائمة»

ولقد صدق رضى الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ذينك الخليفين الا مطالبين بمثل عدلها محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الأولين وأول ما خرجوا كان خروجهم على علي رضى الله تعالى عنه هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله حتى ان الخوارج لم يستطيعوا ان يأخذوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي لم تنبث في الحقيقة الا عنهم

وحسب عمر رضى الله تعالى عنه من خلافته ان يكون مثلاً في العدل وحجة

على الخلفاء والولادة من بعده بل حسبته من سيرته فخراً وذكراً أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على أنه أعدل من سائر الأمم وأعظم رجل في الإسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذي يفتخر به تاريخ الإسلام لشيدوا بأسمه الآثار العظيمة في كل مكان لبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حي في التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولاً وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون في ذلك الرجل العظيم الذي أصبح في حسن السيرة مثلاً في العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأبي عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب للإسلام جماعة يقدر حون بمثل عمر بن الخطاب على تفرد به بالشهرة وجلالة قدره وجلالته أعماله وآثاره وسبقه بالإيمان وخدمته للإسلام في صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الإسلامي وذكرى الفخر العابر الخالدة مع ان الإسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلها ابن سبأ اليهودي واضرابه من أعداء الإسلام وعريدي الشرب بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الإسلام وهو يبرأ الى الله من نحلهم الفاسدة التي لا يقبلها ذوق عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمي والجهل بقبولان في العقول والاهام ما لا تفعله السموم في الاجسام

باب

أول أعماله في الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضي الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال : انما مثل العرب مثل جبل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود

وأما أنا فوردب الكعبة لا حماهم على الطريق
 وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور: إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب
 الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة اليه في الشام الى أبي عبيدة
 عامر بن الجراح: وبعث يعلى بن أمية لأجله أهل نجران: فأما خبر أبي عبيد
 فسيأتي معناه في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقدم
 معناه في سيرته وورد بما ورد الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام: وأما خبر
 نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها وعظة وذكرى لقوم يعاينون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا يكراه
 فيها وأن أساس التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبي فعله أن يخضع لسلطانهم
 وان يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق
 الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء الا ما رضيه في
 عهده وان تكون له الذمة والمهادني حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام
 وافيًا بعهده مؤديًا لجزية لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد
 على هذا سوقه اليك في هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين
 اتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلقاء على عهودهم معهم ما لم
 يخونوا أو يفتروا أو تحرير الخبر عنهم انه كان وفدو قدم على رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الجزاء فصالحهم
 على شيء معلوم يؤدون له كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة
 الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومن اتهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وان
 يؤمنوا على أنفسهم وولدهم وأرضهم واموالهم وغائبهم وشاهدتهم وغيرهم

وبعضهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطارأرضهم جيش ومن سأل منهم حقائقهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحو وأصلحو واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعابوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لأن العرب أمة حديثه عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها من الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوت يتدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعد من اصوله الصحيحة

هذان من وجه ومن وجه آخر فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا من ثروتهم ويؤذون بفقرهم على غير شعور منهم لاسيما وأن الشريعة الاسلامية قد حرمتهم تماماً ولا يؤمن من أن النجرانيين باستمرارهم على تعامل الربا يجهلون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الآثام بالتعامل منهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تاجي إلى إكراه النجرانيين على الاسلام فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لأن شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم إلى الاسلام بالتى هي أحسن

فأبوا وأعطاهم كتاب العهد المذكور إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر أ كد لهم عهدهم الأول مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسمعه في أمرهم إلا ما وسع الرسول (ص) حتى اذا علم أنهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون أن يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء اهل نجران وأن يعاملهم بالرافة ويشترى أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لأن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مرّ معناه وبعثه قال فيه عن عمر أنه أوصى بلى بن أمية باهل نجران فقال

أنتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلبهم من أقام منهم على دينه وأقر المسلم وأمسح أرض كل من تجلي منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أن تجلبهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسهم ووفاء بدمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف وكتب لهم كتاباً بهذه صورته كما أوردتها البلاذري في فتوح البلدان

وأما بعد فن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من جرت الأرض

وما اعتلوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن «
 على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود
 ففترقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت
 ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما يدهم من العهد وتمويضهم عما
 تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية
 ورفق ولم يرفقوا الا حدهم مظلمة إلا أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم
 بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك أنهم شكوا امرأة الى عثمان رضى الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم
 ومن أحمه الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد بن عقبة بن
 أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة
 من جزيتهم لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة
 عثمان رضى الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه
 بفرقهم وموت من مات منهم واسلام من أسلم منهم وأحضره كتاب عثمان بن
 عفان بما حطهم من الخلل وقالوا انما زدنا نقصاً بنا وضعنا فوضع عنهم مائتي حلة تامة
 أربعاً حلة فلما ولي الحجاج البراق وخرج ابن الأشعث عليه آتهمهم والدهاقين
 بمواالاته فرد جزيتهم الي ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا
 اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا قبلوا والعشر من عدتهم فألزمهم مائتي
 حلة جزية عن رؤوسهم فقط فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد
 الاموي ردهم الي ما كانوا عليه عصية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين
 واستخلف ابو العباس السفاح رفعوا اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبد العزيز

ويوسف بن عمر فردهم الى ائتي حلة ولما استخاف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت
العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتاب بالمأتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من
معاملة العمال وان يكون ووداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتم أحد من العمال
هذا ما رواد المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة الرزب وقد رأيت مما مره يبلغ
عناية عمر (رض) بهم لئلا يبدأ من اجلاهم للأسباب التي مر ذكرها وقد كان من
السهل اكرامهم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من شركي
العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي
يمنع من اكرام غير شركي العرب على الاسلام كما يمنع من تقض العهد وخفر
الذمة إلا بسبب مشروع لهذا لما خان النجرايون عهدهم بتعاينهم بالربا وقد عاهدوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتاملوا به في الجزيرة ساغ لا ير المؤمنين
اجلاؤهم الى غير هابعدان عوضهم عن المال والعقار بمثلها وما زال الخلفاء بعدهم بالغة
بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة المادلة ووفاءً بعهدهم الله والرسول
يعاملون النجرايين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم
أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكرام
النجرايين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة
عهد عملها بالاسلام ذلك لان عدم الاكرام من أصول الشريعة الاسلامية
والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكرام الا
جهاد شركي العرب يوهى فقد شرع لا رغابهم على الاسلام لأسباب حكيمه

لا تخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية
واستئصال شأمة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك
الشرق والغرب من آسيا وافر بقاء وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية
بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة
والإشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم جيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء
بالعهود وتأكيدهم لعهود النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقتهم
وقوة الخلافة الاسلامية وسلطانها وان ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة بل عن محض
تمسك بالعهود وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام
من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على
قاعدة حماية الذي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن أرضهم وماله بالمثل من
أرض المسلمين وماله لما قضت الضرورة باجلائهم عن أرضهم الى غيرهما من بلاد
المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما
وما فعله من هذا القبيل مع أهل عرس بسوس من ثغور الروم وكيف أنه لما أمر
باجلائهم عن أرضهم لحياضهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الأمانة والصدق أمر
بأن يعضوا عن ماله عقارهم ونعمهم ضعفين وما زال الخلفاء في أيام الفتوح
العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام
المذلولين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ولم
يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم أو تزعمهم بغير حق ولا عوض
ولا عبرة بما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض الخلفاء الذين

غابت شهواتهم على التفضيلة فجادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل
هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغالب التي فتحها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستتزمه سلامة الملك والدين لا ما تدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة ما لهم وعليهم ما عليهم فبالغوافي الرأفة بأهل جوارهم والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الاخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينادعواهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من أعضائها مجتهدين لا غنى عن مشاركته في العمل ومشاطرة أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عليلهم عليهم بل بالغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار في الشام ودانوا لو كهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير التتار قتلوا شاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام: لا بد من افتكك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً الا من

أهل الملة ولا من أهل الذمة فاطلة بهم له^(١)

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما سرته من هذا الكتاب وكما سترى بمدون نحن نقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامه على مصر وهو قوله

«واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقندي به وان ملك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبض فقال «استوصوا بالقبض خيراً فان لهم ذمة ورحماً» ورحمهم ان أم اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهداً أو كانه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة» احذري يا عمرو ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وأنت من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي وورق عظمي فأل الله ان يقبضني اليه غير مفترط . والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عمالك ضياعاً ان أسأل عنه يوم القيامة»

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لاقتكاف أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ علي أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف ان يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرعى غرض التاريخ الصحيح ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدينة الاسلامية وعصورتها انفقوا الاسلام والمسلمين

نأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي به عالمه بأهل الكتاب ترى
الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلام الحشوع والحنان المنبثثة عن وجدانه
الظاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يسأل عن
حقوق خلقه ويحاسب عن عمله في رعيته . إن في هذا آيات من العدل وغايات
في إنصاف الرعية غير المسالمة لا يدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة . من
أمم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وسايا عمر التي أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين
والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه بأهل ذمة الله
وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفيهم بمعهدهم ولا يكفروا فوق طاقتهم وان يقاتل
من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما استراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة . وبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين
لسلطنتهم من غير المسلمين اوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك
ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية ما زالوا يتمتعون بكل
ما يتمتع به المسلمون من الحقوق . مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تزرع منهم أرض ولم
يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو أصيبوا بما يصاب به
المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان
الاسبانيول ما لبثوا ان دوخوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي
العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا آرائهم
وسفكوا دماءهم وبشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أتقى لهم في بضع سنين
باقية ومحا كل ماركوكو من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت جنة الارض

في عصرهم

واذا اتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ
 في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا اخط في الاخلاق والمدنية من
 تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك لدماء
 وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وانجحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها
 أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورافتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم
 نقول ولا نكر ان الحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الحمجية
 بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبئت أصوله بين العرب يومئذ
 وأظلت فروعها ممالك المغرب وانما حملة علوم الدين وتمصّبهم الذي هو الذي
 جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وبارين في السياسة بين الفاتحين وأبن من
 يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغاب كجزء لا يتصل عن
 مجتمع المسلمين له ما لهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كافي وصايا الخلفاء التي
 رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار تحفز للوثوب
 على الشعوب وهو لا يعم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم شير و نار
 الحروب الصليبية من القسم ومدبروه وكائند جمعية التفتيش الديني
 (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر المدنية والنور
 المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطاوية على الاسلام والمسلمين
 أليس لعجيب ان يقر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين
 لسلطانه ويمتحم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأهولهم وأعراضهم
 ونحلهم ويأهدهم على هذه الحماية خاتم المسلمين كل اجاء خليفة يؤكده
 السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم
 النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين في دينهم وديارهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا المنتهى
الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقص في لباس الاوهام والى الله نبياً
عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا واتى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل
رب معترض يقول انا بالفناني تعنت الأمم المسيحية والبري من وصية
التعصب الذميمة الذي يرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس
لا تنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكوماتهم من اغتات رعيتها
من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بحسنه أهل جوارهم من الكتابيين
فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة
من السماء الآن دينهم الذي أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهد أهل الذمة وجاء
للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتغدي على حقوق الجوار
هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الأمم
مباشرة مع مجاورينهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين وإقامة الشعائر
والمادات وأنموهم على المال والارض وحرية التجارة وشاركونهم في الاعمال
وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين في ذمة
المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم
علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستلينهم اذا
قسوا وانما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم
وتسامحوا بأصول شرعهم اذا تفخخ في المسلمين شئ من روح التعصب على
المسيحيين وجفوا اخوانهم في الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم في الدين فانما كان
نافع هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي
أسهر طيها في المشرق خطباء الدين والسياسة في الممالك المسيحية وما تلا ذلك من

تحول قوة الغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وانما لها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا ممزوجا بالاغراض السياسية مبنيا على القسوة والجبروت في مناوأة دول الاسلام مع ما يضاف الى هذا من دس الدسائس للتغريب بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاوريههم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المماثلة العثمانية منذ قرن تقريبا كميديان حرب تباع فيه ارواح المسلمين والمسيحيين بلا جبر وقولا اثم الا الجهل الذي يزوج بهم في غمار المتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم بمن يخدمون ومن ثم كان المسؤل عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون انفسهم

أجل قد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا انبيهم وخلقوا له الراشدين بأهل الذمة لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبني على عملهم حكم وإنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل ساعهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبالغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وأذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثير آمن من ايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت عن مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذي في جورهم سواء ولقي ويلقي المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقي المسيحيون . على أن الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنهت فيهم سم التنافر والجفاء لو وجدوا انفسهم سيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً في نوع الحكم والحكم في
معاملة الذي في الاسلام هو ما رأيت مما مر في هذا الفصل من عناية الخلفاء
بالكتابين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذ اقبلنا بين هذا الحكم وبين الحكم
في معاملة المسلم عند الدول المتعدنة المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً
والتباين بينهما قاضحاً إذ ان الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة
والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد للناس كلهم في شرعه سواء واما قودة القلب التي
أُتيت في العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نرعت من قلوب زعمائها كل
حنان ورحمة في معاملة المسلمين معاملة القوي القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ
بتلك الدول أن جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية
تدير شؤون رعيها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون
أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك، من هذا أن دولة فرنسا التي
توسعت في هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول
المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع الفرنسيون في الجزائر منازع القوة
والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملأهم وأوقاقهم وحجروا على
حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات الجزائري في حالة
من الضنك والفقر والجهالة ينفطر لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنسية أبغض
الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هو لا نداني معاملة القاسية
لمسلمي الجاوى ويتلوها النمسا في معاملة لمسلمي البوسنة والمهرسك ويتلو هذه
الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة أوربية لها نصيب من ظلم المسلمين
وتعنتهم ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين

وأسد هن سياسة في المستعمرات وأطلقن حرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا ان ترى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملاتها الشرقيين بونا شاسعا وفرقا عظيما اذ يناري أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنيا على ما تقدم من حسن السياسة ترى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر ويفالون في حب الذات الى حد يكاد ينفذ للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي معها بلغ من العدل ومن اغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقييها كان مقامه ان يدخل مكانا فيه رجل انكليزي بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حينما كانوا رجلا من الشرقيين ورأينا كثيرا من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الجبروت والاعتراق في حب الذات (١)

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد غرة ذي القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال في افريقيا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه . ارسلت لكم نسخة من جريدة (مكري) المطبوعة في نتال في (بور تليزيت) وهي ان المؤذن بينا كان واقفا على رأس منارة طانية يؤذن فلم يشعر الا وطلق ناري أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها في هويها (كدا) وقد قبض على الجاني وهيئات ان يلقي عقاب الموت لانه لم يمهده ان انكليزيا يقتل في وطني بهذه الديار ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبي القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب

فأين ما تعامل به المسلمين الدول الاوربية في هذا العصر الذي دالت به
 لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين في ابان
 مجدها وأيام فتوحها رعيتهما من المسيحيين وأين ما تعامل به عمر بن الخطاب ومن
 بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانس مسلمي
 الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنسيون بلا عوض
 ولا حق ولا عدل

لا جرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين
 كانوا يصورون المسلمين في صورة وحش ضار ان يصوروا التمدن الاوربي
 وأهله في أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ما بسطناه من
 المقابلة بين حكم الاسلام في المسيحيين وحكم التمدن في المسلمين ومن العار على هذه
 المدينة أن تصل الى أرق درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الى
 دركات التسفل في الاخلاق والنثائي عن الرحمة والبعده عن فضيلة النفس فتنتفض
 بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فرسها الضعيفة ولا ذنب لأؤلئك
 المسلمين الا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم
 وسائل الغلبة على الأمم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا
 أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخاء والمساواة وأحيوا تمدن الرومان
 واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم تنازع البقاء
 دولتهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتقلب شروعات أمراتهم
 وجهل قادتهم أصبحوا في نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون
 الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستعباد ان هذا شيء عجاب
 يقول الاوربيون إن المسلمين أمة نفيخ فيهم روح التعصب والجنائ

والبعض لمن لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستقراء الناقص عند الباحثين وعلى النرض أو التعصب الذميمة عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في اوربا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً في الدين والاخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية والتعصب لأدركوا اخطأهم ببداهة الحس اذا ن قوماً ماضي عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني في وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجواروا ببعدهم عن تحكيم الغلب وخبروت السيادة لدى يظهر من كل فاتح عظيم أن للاوربيين ان يمزقوا عن بصائرهم حجب النرض والوهم ويعلدوا ان لاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوارو محاسنة من أحسن اليهم وان لا يخاصنوا الا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين بما فطر واعليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضى بالقضاء وميلاً للفضيلة وقد قضي جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة النظير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دولة انكلترا من اخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والأمن الظلم القاضح والعار المشين على الدول المتعددة المسيحية

وأخصها جمهورية فرانس الجائرة على المسلمين أن تعامل محكومها من المسلمين
 بعكس ما تعامل به الدول الإسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم
 حرية لتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لاسيما في المملكة
 العثمانية ومن المبعث أن تختط الدول الأوروبية لنفسها خطة العسف وحب الأثرة
 والجور في حكمها في المشرق وترجع مع هذا تمكن سلطاتها في هذا الجزء العظيم
 من الأرض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان
 العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعرضوا عن هذا السلطان بجميع
 المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له
 كهنود أمير كامبالباغ للدول الأوروبية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب
 القسوة والاذلال حسب ما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين
 شأنها ما ذكرنا فمن المحال أن ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله
 وليّ الرشده وهو الموفق بين القلوب

— — — — —
 ﴿ باب ﴾

﴿ فتوح الشام ﴾

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الإسلامية قلت جموع الروم
 على اليرموك وذكرنا ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي
 كانت قبل ذلك إلى فتح دمشق وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام
 من أوائل السنة الثالثة عشرة إلى أوائل السنة الرابعة عشرة أو وجد اضطراباً في
 الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواة تاريخ الفتح الاسلامي كسيف
ابن عمر الأسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلامهم من مدوني التاريخ كابن جرير
الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير
في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك
الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون
بعد في سرد الوقائع المختلف في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في
شيء مادام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً
الآن عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أو ردها للرواة متفرقة من طرقتي
فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو ان تلاحق بعض الوقائع ببعض
أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والمبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لافي
تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

﴿ فتح دمشق ﴾

(وانحياز هرقل الى حمص)

لما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في اورشليم وقد جاءها
لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس
قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دوائه بموقنين بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم ما لم
تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين في اليرموك
فغضب قلبه وأسقط في يده فنظر فرأى ان مقامه في اورشليم (القدس) خطر عليه
سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سورية ولحق
بمدينة حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية ومن ثم أخذ يبيت المقاتلة ويذكي البيون
ويسرح القواد الى مواقع الحرب وسلم أخا تذارق (لعلاء تيودور) القيادة العامة

وتربص هـ وفي حمص . وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه
وانه لو حضرها لكان ذلك ادعى التشجيع جنود دوارجي للنصر على ان هرقل كان
ملكاً حازماً ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفروه قبل حربه مع العرب
بالفرس^(١) لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا تلك الدولة البيزنطية حتى وصلوا
الى القسطنطينية وذلك حوالي سنة (٦١٤ م) فاشهر هرقل عليهم الحرب ثانية
سنة (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في
القرآن الكريم في قوله تعالى (ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون في بضع سنين) ويعني بادنى الارض اذرعات وهي أدنى أرض الروم الى
العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بعض وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان
النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان
الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه
الآية راهن أبو بكر الصديق^{رضي} بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع
سنين ، مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً)
فظفرت الروم . وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم
الحدبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م)
أو التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة
فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به
القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والضح ما بين الاربعة الى التسعة وقد
حاء في تواريخ العربيين ما يؤيد ذلك وحاصل ما ذكره عن هذا الحادث ادوردجيه ن
الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابروز ملك الفرس غزا
بجيشه مملكة الرومان الشرقية البيزنطية ، في سنة ٦١٤ م ، لاسباب لا محل لذكرها
هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ولما
رأى الامبراطور هراكليوس هـ هرقل ، ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشي ان هو
حارب الفرس قريبا ان تسقط في ايدهم فجهز اسطولاً عظيماً مشحوناً بالمقاتلة
والمؤن وخرج به في سنة ٦٢٢ م من القسطنطينية حتى بانغ هلسيونت « جناق قلعه »

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدرية على الحرب وحسن
السياسة في البلاد التي افنحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأقمهم من جور
الحكام الرومانيين خاصر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد
لاسيما وان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد
وانما كان حماها من العرب المنتصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً
من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤخذ هرقل
على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيلة لنفسه وتمسكاً
بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد.

لم يكن المسلمون يومئذ على ما عهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد
غير خبيرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من أمرهم
ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة
البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من
التدريب والائانة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

ومن ثم مخر الاسطول في عباب البحر الأبيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد
معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أميناً
لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود
الى حدود سورية وكيكيا «ادنه» ورتب معسكره قرب إسس في السهل الذي انتصر
فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس «وهو سهل الاسكندرون» وأخذ يدرب
جنوده على فنون الحرب ويبرئهم للطنن والغرب ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله
من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تديره الحربي ومنزق جموعهم كل ممزق ثم جهز
عليهم حملة ثانية وما زال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة «٦٢٨ م» استقر
الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كبرى ازدشير بعد أن قتل أباه ابرويز
فضالح هرقل على ان تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اذ وجاء في تاريخ الكامل لابن
الاثير ما يطابق معنى ما ذكره جيون وفيه زيادة تفصيل

ما يصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة البرية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الأبيلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهم من متوهم من بدعوة أو تلك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت هجبة على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيش وتبصرهم في تدويج البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرده فصلاً خاصاً تفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وهما نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقصة وفرغ من المقام والانفال وبعث بالانخاس وسرحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يفتال برودة ولا تقطع الروم على مواده^(١) وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفرة وهو يريد اتباع القالة ولا يدري مجتمعون أو يفرقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا وافحل وان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أيدمشق يبدأ أو يفحل من بلاد الاردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفرة فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص و خالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي ان يبدأ به كتب اليه (أما بعد

(١) أي لا تقطع عليه مخطط المواصلة على الاصطلاح المعروف الآن في فن الحرب

فابدأوا بدمشق فأنهذوا لها فاتها حصن الشام وبيت مملكتهم وأشغلوا عنكم أهل
فجل بجبل تكون بازا لهم في محورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله
قبل دمشق فذاك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل
بدمشق من يملكها او يدعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فجل
فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالدا الى حمص ودع شر جبيل وعمرأ وأخلاهما
بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرح أبو عبيدة عشرة قواد ابا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد بن
عامر الجرشى . وعامر بن حثمة . وعمر . بن كليب من محصب . وعمار بن
الصعق بن كعب . وصيني بن علبه بن شامل . وعمر بن الحبيب بن عمرو . وابدة
(أو وليدة) بن عامر بن خثمة . وبشر بن عصمة . وعمار بن مخش (أو مخشي)
قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى
لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفر حتى نزلوا قريبا من فجل فلما رأت
الروم ان الجنود تريد ان يبقوا المياد حول فجل فاردت الارض ثم وحلت واغم
المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان اول محصور بالشام أهل
فجل ثم أهل دمشق

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص رداء . وبعث
علقمة بن حكيم ومسر وقافا كانا بين دمشق وفلسطين والامير يوشد يزيد بن
أبي سفيان (١) فقدم خالد بن الوليد وعلی مجنبيه عمرو وأبو عبيدة وعلی الخليل عياض
ابن غنم وعلی الرجل شر جبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس
ابن نسطوس (وفي رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حوالها . فكان

(١) یعنی انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمر وعلى ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل
(هرقليوس) يومئذ بمحص فحاصروا أهل دمشق نحو أسبوعين ليلة صاروا
شديداً بالزحف والترامي والحجاق والروم معتصمون بالمدينة يرجون النيات
وذوالكلاع بينهم وبين حصص يتبع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل منيثة
لأهل دمشق فاشجتها الخيول التي مع ذى الكلاع وشغلها عن نصره المشقيين
فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل إليهم فشلوا وهنوا وقد كانوا يظنون
أنها كالنارات قبل ذلك إذا هجم البرد قتل المسلمون فسقط النجم والقوم
مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك
ولد البطريق الذي على أهل دمشق ولودفأعد للقوم ولمة فأكلوا وشربوا
وعتلوا عن موافقتهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالفاته
كان لا ينام ولا يقيم ولا يتحنى عليه من أمرهم شيء عيونهم ذاكية وهو معني بما يليه
قد اتخذ حبالاً كريهة السلايم وأوهاقاً فلما أمسى من ذلك اليوم نهضوا من معه من
جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومدعور بن عدي
وأمثاله من أصحابه وقالوا إذا سمعتم تكبيراً نألى السور فارقوا أئينا ونهدوا للباب
فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى
ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهما أن تسلق القعقاع ومدعور
واثبتا الأوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذي اقتحموا منه
أحصن مكان يحيط بدمشق وأشد مدخلا ولما استروا على السور حذر خالد
عامه أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم
بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهض^(١) المسلمون إلى الباب ومالوا إلى الحبال

(١) في القاموس نهض الرجل نهض ولعبه صعد لهم

بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدروا الى الباب
فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل
اهل كل ناحية بمن يليهم وقطيع خالد بن الوليد ومن معه أغلق الباب بالسيوف
وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما يلي باب خالد مقاتل
الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أقات
الى اهل الابواب التي تلي غير دو قد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا
وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصالح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم
الابواب وقالوا ادخلوا وامنونا من اهل ذلك الباب فدخل اهل كل باب بصاح
مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا
وانتهابا وهذا صلحا وتسكيننا فاجروا ناحية خالد مجري الصالح نصار صا حوا وكان
صلح دمشق على المقاسمة الدينار والمقارود دينار عن كل رأس فاقسموا الاسلاب
فكان اصحاب خالد فيها كاصحاب سائر القواد وجري على الديار ومن بقي في الصلح
جريب حنطة من كل جريب ارض ووقف بما كان للملوك ومن صوتب معهم
فيها^(١) وقسموا الذي الكلاع ومن معه ولا بي الأعرور ومن معه ولبشيرة ومن معه
(وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا
بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق
فسرحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومنه القعقاع بن عمرو

(١) النبي هو ما نيل من المحارب بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره
دار اسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يُصالح عليه من المال وحكمه ان يكون
لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلا في كتابنا (تنبيه الافهام
الى مطالب الحجة الاجتماعية والاسلام) ويتناهية ان ما رمى اليه مقاصد الاشرافيين
في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه مقبول لا يصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبري وقال ان فتحها كان بمائة الاسقف الذي كان اعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها في اول مجيئه الشام وذلك بان ارسل اليه الاسقف بعض اصحابه وأعلمه بان القوم في عيد لهم وان الباب الشرقي ردم وليس عليه احد من الحرس (وقدمت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب في سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقي في دخولها بالمسلاط وهو موضع النجاسين بدمشق وهو البريص الذي ذكره حسان ابن ثابت في شعره حين يقول

يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل
ولا يخفى ما في هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت في الاخبار ان
أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على ان الذي تولى عقد الصلح مع
الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأما ضاهله أبو عبيدة فبعد ان اظلمه على كتاب عمر
(رضي) بمزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبري في روايته عن ابن اسحق
والبلاذري في تاريخه فتوح البلدان وفي هذا ما يدل على ان خبر عزل خالد لم يأت
وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتبه عنه أبو عبيدة
ريثاً تم الفتح وفي حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم في الصفر في انتظار
كتاب عمر بالذي ينبغي ان يبدووا به ما يستتج منه ترجيح ورود الكتاب بدزل
خالد وهم على الصفر والله أعلم

واما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر في رواية الطبري على دينار على كل رأس
وجريب من الخنطة على كل جريب من الارض وعلى المقاسمة على المقار والدينار

على أن هناك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح مانصه (وأما الخنطة والشعير التي وجدتوها في دمشق وكثرت مشاجرةكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على أن المسلمين اختلفوا في هل يشاطروا الدهشقيين على نصف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب أبو عبيدة يستشير في الأمر فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط وسير معناه هذا الكتاب بجملة في باب كتبه إن شاء الله

وقال البلاذري في فتوح البلدان مانصه «زعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحو على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أرفيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون انتهى ما نقله البلاذري من قول الواقدي ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذي أعطاه لأهل دمشق وفيه الأمان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شيء وقد مررت بصورة الكتاب في سيرة خالد على أنه سواء أصبحت هذه الرواية أو الرواية الأولى فإن المسلمين أجزوا نصف كنيسة مار يوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقي الذي يلي الباب الذي دخل منه خالد بن الوليد وجملوه مسجداً لهم وما زال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعاً لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بني أمية وسبب أتى الكلام عليه في سيرة الوليد إن شاء الله وأما باقي كنائس دمشق فالتروى أنه كان منها يسددهم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم
أقطع كنيسة منها لبني نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى النصارى
هذا وأما الجزية فانها كانت في بادىء الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم
ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغنى بنسبة غناه
والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أجبنا يراده من الخبر عن فتح دمشق التي كانت أم المدن السورية
ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الإسلامي لاسيما في
عهد الامويين مجدداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد
صارت الى يزيد بن أبي سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد
ذلك عاصمة ذلك الملك الإسلامي العظيم الممتد من حدود الهند في الشرق الى
شواطئ الاطالنتيك في الغرب على عهد الامويين لا عاصمة سورية وحدها
وسياتي الكلام على هذا في محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون في الزمن الذي افتتحت به دمشق فروى بعضهم
انها فتحت في اوخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال في أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤
وبعضهم قال انها فتحت في رجب من هذه السنة ولعله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألتني بعضهم عن حكاية رآها في تاريخ انكليزي وهي ان خالد بن الوليد لما افتتح
دمشق صالح اهلها على ان من يريد منهم الجلاء يهمل بعد سفره ثلاثة ايام اذا مضت
وادركه المسلمون قدمه مهدور وان اهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد
ثلاثة ايام فقتلوهم ولا يخفى ما في هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما
لوصح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا في الأعم القاطحة بالمهدو وأبعدهم عن

مثل هذا الظلم الذي يباه دينهم وتنزه عنه شديدهم العربية واخلاقهم الفطرية فبحشت
 عن هذا الخبر فيما دونه رواة الاخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن
 واضح المعروف باليعقوبي وفي تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الاثير الذي هو اوثق
 التواريخ فلم نجد لهذا الخبر من ابروانما رأيت في بعض تواريخ معاصرينا من
 المسيحيين كتاريخ سورية لجرجي أفندي ني وتاريخ الوافي لامين أفندي شميل
 وكلا التاريخين وان كانا مؤلفاهما عربيين الا ان عبارتهما تدل على اذنان في
 التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تنق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانوا بعد
 الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التي لم
 تغادر كبيرة ولا صغيرة الاآت على ذكرها تفصيلا في البعض واجمالا في البعض
 الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة
 ولعل بعض مؤرخي الاوربيين الولهين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر
 محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازي والقصصين كفتوح الشام وامثاله
 من الكتب التي هي أبعد عن الثمة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ او عن
 كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع
 على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويبدل على بطلان هذا الخبر ما قاله بعض
 مؤرخيهم من أن المسلمين ادركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم
 بعد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت
 كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها صرابطة في البلاد واقفة
 على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق
 وخوران والناس واقفون لهم على قدم الأهبة في كل مكان لما يتوقعونه من
 انكشافهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ما وراء اللاذقية وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد وما الحامل
 لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان
 امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارحاء كثيرة القنائم والخيرات وليس فيهم من
 يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من
 نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يرى تلك العصابة المؤمنة بكتاب
 الله الأمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوي الشائنة وقدم معنا في
 هذا التاريخ ما يدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الحساس التي قضى عليها
 نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مها بلغ بهم فساد
 الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما
 يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة
 وعمرو بن العاص وخالدين الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكنون جندهم
 من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا
 قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المباشرة مع أن العرب لم يكونوا في جاهليتهم مع
 شهرتهم بسفك الدماء ومثارتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل
 فكيف بهم في الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلما ان يعرضوا لأولئك
 المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال ان هذا لما نأباه نفوسهم
 العربية وتمنهم منه المرؤة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا
 ورد في كتب ورخي الروم فصدره العرض واذا ورد في كتب القصاصين
 فصدره الجهل ولا يشك في هذا عاقل البتة



بحث

(في هل كانت دمشق قاعدة الغسانيين)

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكرامة والسلطان الى ان قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحارث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم المتمدنها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان أهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم ان يتكروا واعلينا بديان مواضع الخطأ فيما نقله أو زعمه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتتمسنا الفاضل المدقق جورجى افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتبني عن سعة في الاضطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ووهودى انتقاده على بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ الا في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاية من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بصرى في حوران وانه لم يقرأ ان أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوفى المسألة التي وصفناهم بها ثمة: ونحن مع شكرنا لاجلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالجزء عن بلوغ

شاو المحققين في التاريخ نجيبه بمابلي

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل أمر عليه من البلاد في مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه ممابلي دمشق (قُصم) وقاتل فيها بني مشجعة ثم انحدر إلى المريج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذي أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية إلى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جعل الطبري آخر الفتح ممابلي دمشق وقبل وصوله إلى ثنية العقاب (قُصم) وأنه قاتل فيها بني مشجعة من قضاة على أن بعد أن كتبنا ذلك الفصل رأجعتنا ما كتبه ياقوت في معجمه عن (قُصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفاديا من ارتكاب الخطأ في وضع الظن. وضع اليقين كما رأيت في الجزء الماضي الا أن هذا اذا تيق قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا يتيق قولنا أن ما يليه شرقا إلى شطوط الفرات كان. من أما كن العرب بدليل ان ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرّحل إلى الآن والبلاد التي فيه كضمير والقريتين وتدمر والسخنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر في طرف البرية في وسط منازل العرب

ومنها أن أحد اشرف هذه المدينة المسمى أودينابوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التي كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا واسط سلطته على الجزيرة وسورية في أواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون في أصله هل هو عربي أم سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً بقريته . وقع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنان
هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا يتنى قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان
مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم . وكذلك
لا يتنى قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة
والحجاز كانت مأهولا بالعرب فانه ما لم يبدأه وكان اشهر مدنه بصرى
واشمسكين واطلمنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد ان شمالي
سورية أيضاً كانت بعض مدنه أهولة بالعرب فقد جاء فيها ان ابا عبيدة لما افتتح
قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومصر واهدوا هذا الحاضر لما
تخوفا دعاهم الى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانته بنو سليح من قضاة ثم
اسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين
كان من مدن العرب ولا يبعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصرروا غزة في
الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون
وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيماً من سورية ويتوطنون في أحشاء
البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية ان يكون لهم من
التفوذ والسلطان في البلاداً اكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن
هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخطاط الذين
هم ليسوا الا من الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة
لدولة الروم الا انه لا يعقل ان يكون الجنس الروماني اكثر الاجناس القاطنين في
سورية ولا أقواها أيضاً وان كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرروا هذا فلا بدع ان يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لآسيا وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة
وغنى لأن البلاد التي هم فيها كوران والسكر ومعان وتدمر كلها بلاد زرع
وضرع وهي من أخصب البلاد السورية ولم تنزل كذلك إلى هذا العهد وإذا
أضفنا إلى هذا ومن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لأنكون
بالعين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب في سورية وإن كان ذلك من قبيل
الاستنتاج

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الإسلامي تحت الحارم^(١) الغساني
فأنا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول الدكتور فاندريك سيأتي بيانه
إلا أن هناك من الأخبار التاريخية ما يستتبع منه أن عاصمة بني غسان قبيل الفتح
كانت دمشق الشام ومن تلك الأخبار ما ذكره الطبري في تاريخه عن مجي خالد
ابن الوليد من العراق إلى الشام حيث قال مانصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكلب حتى صار إلى دمشق ثم مرج راهط فلقى
عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم (يريد به جيلة) الخ الحبر
وجاء في السير أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب إلى
الحارث بن أبي شمر الغساني يدعو إلى الإسلام فأنادوه وبنو طة دمشق يبيء
النزل ليصروا وقد كان قاصداً إلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب
الذي معه وغضب وقال من ينزع عني ملكي الخ
ولما وفد حسان بن ثابت الأنصاري قبل إسلامه على آل جفنة وهم ملوك

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قبصر على
ملوك الروم وكبرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو
جيلة بن الأيهم

غساناً متدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمهم يوماً بجأق في الزمان الأول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أيهم

يسقون من ورد البريص عليهم

والبريص الذي جاء في الأبيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي

هو نهر دمشق وجلق من أسماء دمشق وقد تقدم معناني خبر فتح دمشق ما قاله

البلاذري في تاريخه من أن خالداً وأبا عبيدة النقياني دخولا لها إلى دمشق بالمفسلات

وأنه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه

الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بأنهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة

على دمشق والذي يرجح عندنا أن الفرس لما دواخو الولايات الرومانية سنة

(٦١٤م) أقرروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكاً على الشام ولما استعاد

هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب

الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق حين الفتح

الإسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية

دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن قبيلة بن الإيهم بن جبلة

وهو آخر ملوك غسان ابنتي بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي

جبلة التي لم تنزل عامرة إلى هذا العهد فإذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل

الفتح إنما كانوا أمراء على عرب البادية وحواران وآلة يدي قيصر الروم يصدقهم

غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فمعلقة جبلة

بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها
ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة
ملوكهم دمشق ولو لا ذلك لما اتسنى لجبة أن يبتنى تلك المدينة ويسمها باسمه ويؤيد
ذلك ما قاله الدكتور فاندريك في المرأة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصبه
وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين
يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الايات التي سبق
ايرادها

وايت شعري لما ذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبيل
الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا
على هذه البلاد مرارا قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا في مجلته من عهد
قريب نقلنا عن بوسيفوس المؤرخ القديم ولا سرا في أن الحارث أحد ملوك
العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفى سنة ٣٧٧م بلا داستولى على دمشق بعد
حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت
الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية
الى الكورنثيين وهو بنصبه

(وفي دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدهشقيين يريد ان
يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام
وعدا هذا فاننا اذا رجحنا قول القائلين بان اصل اوديناثوس التدمري الذي سبق
ذكرة عربي لا سرياني (والجنسين من اصل واحد) فلا يستبعد ان يكون للعرب
من السلطة في الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر

وعلى عهد اوديناثوس الذي تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة
زنوبيا الشهيرة الى مصر وازعجت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على
غموض تاريخ هذه الامة العربية وما دام العلماء مجدرون في البحث عن آثار الأمم
القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من
تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدينة في
العصور النابرة والله اعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأى المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن
وراءهم من جيوش الروم في بيسان وكانوا ثمانين الفا على قول بعض الرواة كما ذكر
ذلك الطبري فاختروا مناجزة هؤلاء اولاً فاستخلف ابو عبيدة على دمشق
يزيد بن ابي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن
حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة و ابا
عبيدة وعمر ا على مجنبيه وعلى الخيل ضيرار بن الازور وعلى الرجل عياض ولما انتهوا
الى ابي الاعور (وقد كان بين الاردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق)
قدموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم يشقوا المياه بينهم وبين فحل
منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا
بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك
اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي نزل جنود المسلمين فاصبحوا بين
خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فاخذتهم سيوف
المسلمين وهذا يدل على ضعف مارق قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

المهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضع منهم الحيلة وأفقدتهم حسن التدبير
لما رأى المسلمون تلك المياه والوحد نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم إلى حيث
يقم العدو بيسان فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم
في رعد من ريف الأردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة عنهم
فخرجوا عليهم بقيادة قائدهم سقلار أو سقلارورجوا أن يأخذوهم على غرة
والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح
إلا على تعبئة واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد
قتال كان ليبتهم ويومهم إلى الليل فاضلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى
وقد أصيب قائدهم سقلارو الذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوه
فلم يعرف الروم مأخذهم فانهزوا في الهزيمة إلى الوحد فأدركتهم أوائل خيل
المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يدلاهم

كان المسلمون يسمون هذه الواقعة ذات الرداغ لما لا توافقها من الوحد
الذي كانوا الكارهين فكان عوناً لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف
أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد إلى حمص ومضى بنى الكلاع الحميري الذي كان
صراً بطابن جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب في قلوب الروم
فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولي حربها فسار أبو عبيدة إلى حمص وسار
شرحبيل إلى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج إلى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل إلى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل
ابن عمرو وكاهن من أنجاد قرين وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

يفعل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياماً ثم خرج بعضهم
 لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقي على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر
 فصالحوا أبا الأعور علي أن يبلغهم شرحبيل ففصلوا شرحبيل على صلح
 دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم في مدائن الأردن وقراها وكان ذلك سنة
 أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والأردن وبلغه مسير أبي عبيدة إلى حمص
 رأى أن يرسل جيشاً إلى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغتم
 فرصة تفرق الجيوش الإسلامية عن دمشق فتسترد ما جنوده من يزيد بن أبي
 سفيان فارس ذلك الجيش بقيادة توذر (لمه تيودور) فنزل بالجيش في مرج الروم
 غرب دمشق وبلغ ذلك أبا عبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر. فنازلهم
 لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه في جريدة وبلغ يزيد بن
 أبي سفيان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولاحق بهم خالد وهم يقتلون
 فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توذراً وشوذراً وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الفيضة الأكيديرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم
 ما أصاب توذر وقتل أبو عبيدة شنس وأنهزم فلهم إلى حمص وتبعهم بعض
 المسلمين فلما انتهى الخبر إلى هرقل أمر عامل حمص بالمسير إليها وسار هو إلى الرها
 (اورفا) وفي رواية إلى انطاكية وقال للعامل بلغني أن طعامهم (يعني المسلمين)
 لحوم الأبل وشرابهم البانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الآتي كل يوم

بارد فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا
مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم هندستين لكبير عليه أن يعلق
آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهز من التول الا اذا اراد به تخفيف
الهلح عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر
القضاء الذي علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء
بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كي لاتهن نفوس الجنود ولا يستولى
اليأس على ضمائر الشعب

﴿ ذكر بعلبك وحمص ﴾

(وسواحل دمشق)

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبي سفيان كان يجهز بعد فتح دمشق للمسير الى
سواحل دمشق وأن أبا عبيدة قصد حمص ولما جاء توذرا الى مرج الروم تربص
يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر توذرا لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل
دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبي سفيان فابتدأ بصيدا
ففتحها ثم فتح عرقه وجبيل وبيروت وجلا كثيرا من أهلها ممن رغبوا الجلاء
وتولى فتح عرقه معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر
خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصد هم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة
واقطعهم القطائع وانما تجرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم
يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل اذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندي وقدّم خالدًا الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل
بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم
وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتابا ستأتي صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه
وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا
يفادون المسلمين القتال ويرأونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون برداً شديداً
وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما
اشتد عليهم الأمر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صالح دمشق وأنزلها
السمط بن الاسود الكندي في بني معاينة والاشعث بن مينا في السكون
والمقداد في بلي وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم
كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالانخاس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر . . ان أقم في مدينتك وادع أهل القوة
والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكافئك ان شاء الله
﴿ تحقيق خبر أجنادين واليرموك ﴾

(واختلاف المؤرخين فيها)

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك لافن قائل ان الأولى كانت
قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ
الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشبهه
عليه أمرهما فيتحيل له ان الواقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك
واحدة في خلافة أبي بكر والأخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيها

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر
الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يعموا في هذا الاضطراب للمعاسم
نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من
طريق الرواية فاذا بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه
بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذورد جيون^(١) في (تاريخ السلطنة الرومانية)
والمؤرخ الفرنسي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب^(٢) فلم أعثر على ما يشق
الغليل ويترجح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة
سنة (٨١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة
اليرموك قبل دمشق لأجنادين وأما الثاني فقد قال إن مارآه في تاريخ أبي الفداء
في شأن اليرموك يعرّوه اللبس والأشكال وأن هذا يوجب الارتباب في كلام
الشرقيين أكثر من الارتباب في كلام الغربيين إلى أن قال وهذا اللبس من كلامهم
يدعو إلى الظن أنه حدث واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الأولى قبل
فتح دمشق والثانية بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في الاسم وأن الاسمين
ربما يطلقان على مكان واحد لولم تر أن ياقوت فرق في مجمه بين المكاتب فقال
إن اليرموك واد في طرف النور يصب في الاردن وأن أجنادين موضع بالشام
من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما أن الطبري أيضاً قال
عن أجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين
وبما أن حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Empire.

(2) Arabie par M. Noel. Desvergès.

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي يريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان أجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي^(١) وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فإنه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الأول أي قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لولم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الامراء ووافقهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية والالتأخرون فاذا كان اعتمادهم في سرد الوقائع على ما دونته أولئك اضطربوا أيضا في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم إلا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما أن بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك بزعم انها بعد فتح حمص مع أن المرجح أن اليرموك هي الوقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطأهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل مجي خالد من العراق فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ إذا الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص إنما

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا في ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في اجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ان هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في اواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادى سنة ١٣ واجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا انه اورد خبر اليرموك واجنادين الاولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل اجنادين او بالعكس او كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في اجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما ان تكون لخالد بن سعيد لما بعثه ابو بكر لا طرف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان او ما هان على رواية مؤرخي العرب ووردان على رواية ادورد جيون الانكليزي واما ان تكون مع الامراء في اول دخولهم الشام لما بعثهم ابو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما وقعوا باهان ووقعوا به تفرقوا في انحاء الشام فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستنجدوا ابا بكر فأنجدهم بخالد بن الوليد فوافقهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ثم سار ابو عبيدة الى حمص وفتحها ارسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية اجتمعت في فلسطين فعاد ابو عبيدة والامراء الى حيث ينجم جند الروم في اجنادين فكانت وقعة اجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهم البلاذري واليمقوبي ظنوا ان وقعة

أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافقهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ما قاله ياقوت في معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك وادبناحية الشام في طرف الفوريصب في نهر الاردن ثم بمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاثلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه في الجزء الاول ثم قال : وقال القمعاق بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام في أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع	لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به	سوى نفر نجتدم بالبواتر
وجئنا الى بصرى وبصرى مقيبة	قالت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت	بنا العيس في اليرموك جمع العشار

والشاعر من كلام ياقوت هو هذه الايات التي تدل دلالة صريحة على أن خالدًا لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم في اليرموك

وأما أجنادين الاولى فاتف الذي يرجح انها كانت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو نارواه بعض المؤرخين من ان ابا بكر بشر بانتصار المسلمين على الروم في أجنادين وهو باخر روم مع أن انتصار المسلمين في اليرموك كان في جمادى الثاني بعد وفاة أبي بكر واتما جاء المسلمين وقاته وهم على اليرموك

فهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث في تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين التي قبلها وأما أجنادين الثانية وهي التي كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقي الامراء لمصادمة
الجيوش العظيمة التي أرسلها اليهم هرقل واجتمعت في فلسطين ثم في أجنادين
فقد ذكر خبرها الطبري سنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي إلا أن
هذين زعمائها وقعة اليرموك

على ان القرائن التي تحف بهذه الواقعة التي حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت
في أجنادين وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن
وعمالة الاردن كانت سقطت يومئذ في أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها
مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها
يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى
على سلطان دولتهم في سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه
الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذي كان يقصدها
من الأردن ومعاوية بن أبي سفيان الذي عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل
المعقول أن هرقل لما جلا عن حمص وأقام في انطاكية أو الرها ووصلته الاخبار
بتغلب المسلمين على جيوشه في كل مكان ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة
الشمال وقطع طريق المواصلات والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة
البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة
وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أنزلت من يافا وعسكرت
بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة
وأجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبري وغيره في شأن قيساريه
وغزة وأجنادين

﴿ فلسطين وأجنادها ﴾

لما انصرف أبو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل
ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأردن قصد عمرو فلسطين
وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بفرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان
بأن يذني ظهورهم بالرجال وان يسرح معاوية الى قيسارية^(١) وكتب الى عمرو
بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مجز بصدم الفيقار وكان في
غزة وكان مما كتبه الى معاوية (اما بعد اني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر
الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله الله ربنا وثقنا ورجاؤنا
ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أمر به وسار معاوية الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة
الف أو يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح
وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن
علقمة القراسي وزهير بن الحلاب الخثمي وأمرهما أن يتبعاهما ويسبعاها
فلحقاهما فطوياها وهما نائمان وابن علقمة يمثل

أرف عيني أخو جذام كيف أنام وهما أممي

اذ يرحلان والهجير طامي أخو خشم وأخو حرامي

وأما علقمة بن مجز فحصر الفيقار بغزة وجعل يرأسه فلم يشفه مما يريد أحد
فأتاه كأنه رسول علقمة فامر الفيقار جلاً أن يقعد له بالطريق فاذا امر قتله ففطن

(١) هذا الاسم معرب قيصرية وهما ثتان واحدة تسمى قيصرية فلسطين وهي
خراب الآن وخربت على عهد الصليبيين والآخرى قيصرية فيلبس وهي بانياس
على ما قاله قانديك

علقمة فقال ان معي نفر اشركائي في الرأي فانطلق فاتيكم بهم فبعث الفيصار الى ذلك
الرجل لا تعرض له فخرج من عنده ولم يعد وفعل كما فعل عمرو بن العاص
بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

واما يريد معاوية الذي ارسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع
الناس ليلا وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية واثباتهم على الفرح

واما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الارطبون وكان من كبار القواد
ودعاتهم وهو يبادل عند الروم بالدهاء عمر بن العاص عند العرب فتقدم نحوه
عمرو وهو مخيم باجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمرو وشريحيل وعلى مجنبيه
عبدالله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكي مالك بن كنانة وقد كان الارطبون وضع
بالرملة جندا عظيما وبالياء جندا عظيما فكتب عمرو الى امير المؤمنين بالخبر فقال .

قدره مينا ارطبون الروم بارطبون العرب فانظروا عم تنفرج . وكان عمر رضي الله
عنه من لدن توجه امراء الشام بمد كل امر جندويرميه بالامنداد حتى اذا اتاه

كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن ابي سفيان بان يبعث معاوية في خيله
الى قيسارية وكتب الى معاوية كتابا بامرته على قتال اهل قيسارية وقدم ذكره

وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي
ومسروق ابن فلان السكي على قتال اهل ايلياء وبعث ابا ايوب المالكي الى الرملة

وعليها التداريق ولما تابعت الامداد على عمرو وبعث محمد بن عمرو مددا لعلقمة
ومسروق وبعث عمارة بن امية الضمري مددا لابي ايوب واقام عمرو على

اجنادين لا يقدر من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فولىه بنفسه فدخل
عليه كانه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وثأمل حصونه حتى عرف ما اراد

فحدثت ارطبون نفسه بانته عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له

عمر وقاتل للتخلص منه بمثل الحيلة التي احتال بها علقمة على القيقار ونجا عمرو
وعلم الأوطيون بحيلته فقال: خذ عنى الرجل هذا أدهى الخلق: وبلغت عمر بن
الخطاب فقال: غلبه عمرو والله عمرو:

لما عرف عمرو مأخذ الأوطيون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد
أن يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم
أوطيون في الناس وأوى إلى إيلياء ولما وصاها أفرج له المسلمون الذين على
حصارها فدخلها ثم أزالهم إلى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التي اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على
اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك في
آيات القمقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين
وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبري في سياقها
اسم أبي عبيدة وخالد وانها حضرا بمسكرها من حمص الا انه لما ساق خبر فتح
بيت المقدس بعد اجنادين ذكر في جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذي
كان على حصارها هو أبو عبيدة فاذا اضيفت هذه الرواية إلى ما ذكره البلاذري في
فتوح البلدان واليعقوبي في تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من
حمص لأنجاد بقية الامراء في اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة
اليرموك كانت سنة (١٣) لاسنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهو التشابه الوقائع
وقرب المسكنين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح
أن ابا عبيدة وخالد احضرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية في
اليرموك كما كانت وقتان في اجنادين الا ان القول بحدوث وقتين في اليرموك
لم يبق عليه دليل واضح في التاريخ وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبمئة اليهم من لا قبل لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب: وكتب اليهم عمر أنه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق: وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى أن قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وقد آفهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجدا وقال: الحمد لله الذي فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قاتل خالد بن الوليد اه

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصر تكم والدفع عنكم فاتم على أمركم فاقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المورخون بشأن اليرموك وأجنادين بسطناه هنا مع ما في كثرة هذه الأقوال من التشويش والاختلاف ليكون القارئ على بينة من الحقيقة والله بها عليم



﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين
وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقرأها فتفتح غزة ولُد و نابلس وبيت جبرين ومرج
عيون ويافاوقيل إن يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ
يخبر الأوطيون مخابرة حية ويطلب إليه تسليم المدينة والأوطيون ممتنع عليه
وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر :
فكتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول : إني
أعاجل حرباً كثر وداً صدواً (كناية عن شدتها) وبلاداً أذخرت لك فرأيتك :
ولما انتهى الكتاب إلى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية^(١)
وفي رواية للطبري أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب
قدوم عمر إلى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصلحهم على
صلح مدن الشام وإن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فسار
عن المدينة وكتب الأمر أن يوافوا بالجابية اليوم سماه لهم وإن يستخلفوا على
أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد
على الخيول وعليهم الدباج والحريرقبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع
بالتشفي وازدري بنعيم الحياة القانية أن يرى آثار التتم يادية على قواده على قرب
عهدهم بالخوشنة وتخلقهم مخلق العفة والجد والقناعة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

١ قال ياقوت الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق
قرب مرج الصفر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضاً قال الجوامس بن القعطل
أعبد الملك ما شكرت بلادنا فكل في رخاء الأمن ما أنت آكل
بجابية الجولان لولا ابن بحدل هلك ولم ينطق لقومك قائل

بها وقال: سرع ما لفتم عن رأكم اياي تستقبلون بهذا الزبي وانما شبعتم مندستين
 سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فلتتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم:
 فقالوا يا امير المؤمنين انها يلامعة^(١) وان علينا السلاح: قال: فقم اذن:
 وركب حتى دخل الجابية وعمر و وشر حيل بأجنادين فيينا عمر معسكرا بالجابية
 فزع الناس الى السلاح فقال ماشا نكم فقالوا الا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا
 كرددوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستامنة فلا تراعوا وامنوهم فامنوهم
 واذاهم اهل ايلياء

كان اهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد ايقنوا بعد انقطاع المدد
 عنهم واستيلاء المسلمين على اطراف الشام ومدنها العظام انهم ما خذون لا محالة
 وان دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة
 للمسلمين ان لا يصلحوهم على ما صوح عليه اهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى
 المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حريمهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن
 بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومقر الانبياء والظاهر انهم
 خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى ان يترعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة
 ان يجرمهم منها الفاتحون مع ان المسلمين كانوا احرص الناس على الوفاء بالعهود
 والزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صاحوا قومنا على شيء وكتبوا
 لهم بذلك عهدا صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة اولئك المعاهدين لا يجيد
 عنها احد من المسلمين وانما هو الروح اخذت بقلوب اهل بيت المقدس فراءوا تو كيدا
 للامان وتوثيقا لمرى العهد ان يباشروا ذلك مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب
 رضي الله عنه فطلبوا امن الامراء حضروه بنفسه ولما بلغهم وصول امير المؤمنين

الى الجابية أوقفوا اليه ذلك الوفد فلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء وأن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتابا وكتب لأهل إيلياء خاصة كتابا استرد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل علقمة بن حكيم على الرملة وأحوازها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مجز زعي إيلياء وأحوازها وأنزله إيلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضم عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهى الى الجابية وافق عمر (رض) راكباً قبلاً ركبته وضم هو كل واحد منها محتضنها

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له يردون فركبها فلما سار جعل يتخلج^(١) به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علم الله من عليك هذا من الخيلاء ولم يركب بردوا نأقبه ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبها ثم سار حتى انتهى الى المسجد الأقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكمب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال: ارقبوا لي كمباً) فلما أتى به قال له: أين ترى ان تجعل المصلى فقال: الى الصخرة فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كمب وقد رأيتك وخلقك زمليك فقال: أحببت أن أباشره بقدمي فقال: قدر أيتك بل تجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلته مساجدنا صدرها اذهب اليك فانالم تؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة: فجعل قبلته صدره

ثم قام الى كنيسة^(١) قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس في زمان بني اسرائيل
وقال يا ايها الناس اصنعوا كما اصنع وحناني اصلها وحناني فرج من فروج قبائه
وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة^(٢) في كل شئ فقال: ما هذا فقالوا:
كبر كعب وكبر الناس بتكبيره: فقال: على به: فأتى به فسأله عن سبب تكبيره
فقال يا امير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبى منذ خمسمائة سنة وسردله خيراً
طويلاً من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم أن يظهر كعب الاحبار سروره ويكبر لصير بيت المقدس الى
المسلمين وهو اسراييلي الاصل يعلم سوء مالاتى بنو اسرائيل من الرومان
وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذى منعه من حرية
التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبد لهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لاهل
الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا وانى اقاموا
ولهذا السبب كان اليهود في سورية يتمنون ابدالة دولة الروم ويحرضون عليهم
المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قيل فتح
إيلياء جاءه يهودى من يهود دمشق وقال له يا امير المؤمنين لا ترجع الى بلادك
حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازمه حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) الكنيسة الزبالة ويراد بيت المقدس الهيكل الذى بنى على الصخرة وقد كان الروم من
زمان بني اسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكابة باليهود فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وسع
بعده (٢) حنأى أى جلس على ركبته وحنأ من حنأ التراب يحنوه ويحنيه ومعناه ان عمر
حنأ التراب في ذيل ثوبه والرعة بالكسر كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة أوسؤها
وهو ضد والتخرج أى التطلع ولعله هو الاقرب للمراد من قوله يكره سوء الرعة

﴿ لا وثنية في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لانحب ان يفوتنا
البحث فيه لهذا رأينا ان نورد له هذا الفصل فنقول

اولع الانسان بالافراط كما اولع بالتفريط في كل شئونه الروحية والجسمانية
ولو انصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليلبغ مقام الملائكة في أعلى عليين
او يهبط بها الى مقر الشرور في اسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به الزم
وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوامها
وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل وكان
اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهي مستقيم ولم يشوه وجه الشرائع ولم يدع
لتمدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجل اولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فيينا يكون هذا في طرف
التفريط مارقا من كل دين منكر الكل نجلة هائما في المادة التي يتناولها حسه
وينكر ما فوقها عقله يكون الآخر مسلما العقيدة بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالبا
بخياله ما يظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأول ما يلاقه في طلبه
يلتق بقلبه ويظنه منتجع عقله والغاية التي يطلبها في سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه
أمله ويختص به عمله فيغلو في عبادته غلو المادي في مادته حتى يساويه من طرف
الافراط بالتوجه تارة للاقمار واخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقنا للارواح
وأخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل في المادة قريب من تناول الحسن.
فكان العقل الانساني في حال الايمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك
الحس ولا يدع عن الى ما فوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الاهنية ريثما يتلقى
برهان زبه بواسطة الانبياء ويظن ان الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلم عن العقل وتحكم على الكائنات تحم الصانع المختار ثم لا يلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود إلى محيرته الأولى للهبوط إلى هوة النقص والتوجه إلى مظاهر المادة ولو تدرجاً حتى يلتصق بالحضيض ويود إلى الشرك وهو يظنه الإيمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين إلا أصيب أهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الأرواح تارة وأخرى الانصباب تو سلا إليه على زعمهم بالحس وارتياحاً إلى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة إليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به إليه بل هو كما قال في كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين إبراهيم الذي هو كباقي الأديان الآلهية دين التوحيد بالله والإيمان بأنه تعالى خالق الكون ومافيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشئ من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا إلى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح إلى الاعتقاد بالأشخاص ثم إلى الاعتقاد بالانصباب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل في المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون أنهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها إليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذا من الإغراق في الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لأصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم شائر أرباب الأديان مما لا محل لبسطه الآن

إذا تمهد هذا علمنا أن الإسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شائبة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من ارباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد باي اثر من آثار المادة و صرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتوجهه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبته جلالة في القلب وتمكين الاعتقاد بان الآثار الواقعة تحت الحس انما يقوم قوامه بالموثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ينجي من منزلة القدم الى الوثنية المنفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وانما الانسان مادة وهذه أعراض منها تنمو وتمظم في النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعميم لغير الله تعالى والتوجه لأي اثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بتحقيق الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمريّة عن المنور بن مويّد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حبهما قال فقرا بئنا في الفجر (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) « ولثلاف قريش » فلما انصرف رأى الناس مسجداً فيادروه فقال : ما هذا : قالوا : هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثارا نبياتهم بيما من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض :

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعر وامن إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيماً له كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم أنت أعظم الناس فهماً
 للاسلام وعلماً بنواض الدين ووقفاً على مقاصد النبوة المحمدية وما كانت
 تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مرذوها
 هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجماً كان ينزل بها الوحي
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ولازمة الظل
 فاكتسبوا سر شريعته وأدركوا امراي غرضه وقادوه في أعماله وأقواله وانتهجوا
 منهجه واهتدوا بسيرته فتفوقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد
 ومن هؤلاء من هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن
 الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنتم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها
 على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ما هو التوحيد الذي أرشده اليه
 الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يجوابه كل أثر من آثار
 الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلاً على هذا قول عمر بن
 الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بمجمل المصلى الى الصخرة: لقد
 ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك^(١) فانالم تؤمر بالصخرة ولنكننا
 أمرنا بالكعبة: وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلاً عن الطبري ولاجله عقدنا
 هذا الفصل ليكون به عبرة وذكري لقوم يعقلون

تقدم معنا كيف تدرج العرب الى الوثنية حتى أنسوا بلبس الاحجار
 وعكفوا على عبادة الاصنام وأن اصول التوحيد عند أبواب الاديان كلها أفسدت
 تدرجاً كما حصل في دين العرب وانما كان بدا هذا التدرج الاستسلام للشعور
 بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن أن له صلة بما فوق المادة كما يبدى مثلاً

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري بهذا اللفظ ولعلها اليك عنى

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتمدى المظهر الأول الى غيره ويتدرج في أطوار التبدله حتى تنقلب صورة التوحيد المرئسة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحده فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة اولهاصلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدو ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمى اليها بل من اولها بالاهتمام واجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل اثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منتبهاً صالحاً لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح أعظم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيماً دينياً فقد أخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلمه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سواً الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً أحاسب نفسه وعرف دينه ونأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب ما واضع الزال وهو واقع الخطل وسوء الفهم

والله ولي الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماء واللاذقية وقنسرين ﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالاً إلى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره
من حمص إلى إيلياء أي سنة (١٥) وقيل إنه فتحها بعد عودته من إيلياء سنة (١٦)
وعندي أن هذا الأصح

سار أبو عبيدة إلى معركة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار إلى حماء
فصالحه أهلها أيضاً وبث خالد بن الوليد إلى قنسرين وسار هو إلى اللاذقية وقيل بل
سار إليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بأن أمر الجنود
أن يحفروا أسراباً في الأرض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون
حتى حفروها ثم انهم أظهروا القبول إلى حمص فلما جن عليهم الليل عادوا إلى
مسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون أنهم قد انصرفوا عنهم فلما
أصبحوا افتحو أبوابهم وخرجوا وأخرجوا أسرحهم فلم يرعهم إلا تصيح المسلمين
إياهم ودخولهم من باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا
الامان على أن يتراجعوا إلى أرضهم فمقو طموحاً على خراج يؤدون له قلو أو أكثرها
وتركت لهم كنيسهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة
ثم وسع بعد

ثم أخذ عبادة يتم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبي عبيدة ففتح جبلة وانطرسوس
ويانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة إلى الآن بهذا الاسم
وكان فتحها سنة (٥١٥) أو سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فإنه لما وصل إلى حاضر قنسرين زحف إليه القائد ميناَس
بجيش الروم فاقتتلوا قتالاً عظيماً وقتل ميناَس فأمم الروم فماتوا على دمه وأما أهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزولهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل
فارسوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حرب به فدعاهم
الى الاسلام فاسلم بعضهم واقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن
الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل اسلموا في خلافة المهدي العباسي
ولما فرغ من حاضر قنسرين^(١) فتحصن اهلها منه فقال: انكم لو كنتم في السحاب
لحملنا الله اليكم اولاً نزلكم الله اليها فنظروا في امرهم ومالقي اهل حمص فصالحوه على
صلح حمص فابى الا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوم ما بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تصم منهم
المواصم ولا الحصون ولا تثبت امامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد
يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعري
الايمان فكانوا ايداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير
اولئك الفاتحين الا خيار الذين جمعهم كلمة الاسلام على الاخوة التي لا تنضم
عروتها والطريق التي لا يضل سالكها الا اذا انحرف عنها وزاغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم
الى الرها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به اهل حمص قبل سقوطها في
يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر
الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة
أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بني بسيس التوخيبة ثم أخربها
عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقريبة قريبة منها

من قبل قرقيسيا وعبدا لله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطروا بلاد الجزيرة وخلقوا وراءهم عقبة ثلاثيوتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعباض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القواد الى أماكنهم دون حرب . ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبابكر هو كان أعلم بالرجال مني .^(١) وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثني بن حارثة الشيباني وقال : اني لم أعز لها عن ريبة ولكن الناس عظموها فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فإنه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن هنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأنبح كلابها وأفر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابي وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان أدرب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦
ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأقلت فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم : فقال له أجدهم كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما ياكلون بدمتهم^(٢) الا ثمن ولا يدخلون الاسلام . . . يقفون على من حاربهم حتى يأوا عليه : فقال هرقل : لئن صدقتي ليرثن ما تحت قدمي هاتين :

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين وقد ذكرناه في

سيرة خالد (٢) يعني من أهل البلاد التي دخل أهلها في دهم

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع في فاتح من الفاتحين هي التي مهدت
 لأوائك الأبطال تدويح الممالك الشاسعة وقلب كيات الدول لا عددهم القليل
 وعتهم الضعيفة بائزاء عدة الروم والفرس وعتيدهم وضحامة ملكهم ومناعة
 حوزتهم ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من
 عود ملكه في الشام وما يليها اليه فوق للاباء عنها بالحسر ان وعاد بالخذلان وقال
 مؤدعائك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتمع بعده ولا يعود اليك رومي أبداً الا
 خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وياليت له لا يولد ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم :
 وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام يا سورية
 تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته
 لم يولد :

(فتح حلب وانطاكية وغيرها)

بعد أن تم لأبي عبيدة فتح حماة وقتسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب
 وعلى مقدمته عياض بن غنم القهري فوجد أهلها متحزين فنازلهم فلم يلبثوا ان
 طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي
 بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم ووضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما
 انتهى اليهم أبو عبيدة أنفذ صلحه وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحداً من مقاتلة بحاب
 وإن أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح
 عادوا الى مدينتهم وبينما أبو عبيدة في حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه
 اليهم السبط بن الاسود الكندي فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وسار الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها
 ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب وكان حاضر قنسرين يجمع أصنافاً من العرب
 فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وحاولوا العبد وفاة الرشيد
 العباسي الاستيلاء على حلب فاستنجد أهل حلب من حولهم من العرب ولم
 يستطيعوا استنجد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الأمين فيها فأنجدهم العباس بن
 زفر الهلالي ونازل أهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين
 فجاءهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فتقوم نزوات كريت وقوم
 ارمينيا وغيرها

ثم قصد أبو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير
 من قالة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا بجيش منهم الى مبروبة
 على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقى أبو عبيدة هذا الجيش فقبضه وأجأهم
 الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلأ فجلا بعضهم
 وأقام بعضهم فأمهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً أو جريب حنطة وسار عنهم
 فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحيب بن مسلمة القهري ففتحها على الصلح
 الأول ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقصت بعد رجوع
 أبي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من إيلياء عمرو بن العاص ففتحها ومن قال هذا
 البلاذري في فتوح البلدان وما تخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانها وتوقها على مدن
 سورية عظيمة الذكر والامر عند عمرو وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر
 الى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأي يربط فيها
 وان لا يجبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والى الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم
القطائع قفعل

وبلغ أبو عبيدة بعد فراغه من أمر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرفة
مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرق خيوله في أنحاء البلاد
ففتحت بوقاوسر مين وتيزين وجميع أرض قنسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب
وقد نقض أهلها فنازلهم وأخضعهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً
وفتح تل عزاز ومنبج وسير عياضاً وحبيا في جيشين من المسلمين فأتما فتح
سورية الى حدود القرات شرقاً وأسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل
كورة فتحها عاملاً وضم اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن
مسروق العبسي الى أطراف أسيا الصغرى فلقى جمالاً روم معهم عرب من تنوخ
وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الأشتر النخعي مدداً
من قبل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسير جيشاً آخر الى مرعش مع
خالد بن الوليد ففتحها وأخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاها الى اخرابها عدم
وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والآخر بما يكون
أخرب حصنها فقط لئلا يعتصم بها أهلها بعد وينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجرة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد
حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونهما من العناء
وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان
لرجال قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم
مالم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخاله
ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من
صناديد قريش وأشرفها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً
فقد روى الطبري أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرة ابنة
أبي سفيان (القرشية) في جولة، وقال البلاذري: وقاتل يوم اليرموك نساء من
نساء المسلمين قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول
: عضدوا العلقان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالاً شداداً وصادموا أعدواً
استمات في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه إذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل
ثباتاً وإقداماً وجرأة من العرب بذلك على هذا ما ظهر من الروم في الواقع
الأولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها وعدا هذا
فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها في الشرق والغرب
وسار أبو عبيدة عن انطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحبس وغيرها
من استخلف من القوادم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على
البلاد السورية في سنة (٥١٧) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة
والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر
واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا
اليه إنقاذ عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا نصروا وكان أبو عبيدة في حمص فاستمد
خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل
وحاصر هذا أبو عبيدة في حمص فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة
وأشار غيره بالكتابة الى عمرو وطلولة هرقل ريثما يأتي منه الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين الفاً على ما رواه الطبري وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبي وقاص في العراق ان ابعيد قداً حيط به ولزم حصنه فبث المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حصن وكان عمر أعد في كل مصر قدراً من الخيل لكون ان كان وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بث بالجند مع القمقاع بن عمرو وعبد الله بن عتيان وسهيل بن عدي وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصدوا حد قرقيسياً والآخر الرقة والثالث نصيبين والرابع حران والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممدداً لأبي عبيدة حتى نزل الجابية وكان القمقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فنهزم عن امداد هرقل فذب الفشل في جنوده وراسل طائفة من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لا يحب الغلبة الا بقل صفوف الاعداء وانهما جزتهم في الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا اني في سلطان غيري ما باليت أقلمت أم أكثرتم أو أقم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فأنفثوا^(١) كما انفث أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لأبي عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاجرح بنا هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لا تتكلم فقال: قد عرفت الذي

(١) يقال انفث الرجل أي فتر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي : قال : فتكلم فاني أسمع منك وأطيك : قال :
فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعني الروم) وبالعدد يتقاتلون
وانما قاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تخفك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا لجمع
أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له ما بعده أمان حيي منكم فانه يصفو له ملكه
وقراره وأمان مات منكم فاتها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرهن اليكم
الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فاني
أشهد وليس أوان الكذب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من
مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة :

وكأنما كان في الناس عقل^(١) نشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس
على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال
فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلاً في مائة وانهم أهل قنسرين بالروم فركبهم
المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين
واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم
مثلهم حديثي عهد بالبداهة وما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال
لا تشكروا^(٢) ولا ترهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقينا أحدكم احديثكم

بهذا الحديث !

وتوفي اليه آخر أهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الوقعة فكتب المسلمون
الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا منه الحكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) قال في القاموس نكل نكص وجبن

في ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون
حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

(وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس)

كل مسلم اكتبه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من
آياته العظمى في الترغيب والترهيب ما لو احسن استعماله ووضع في موضعه الكافي
لازعاج النفوس الشريفة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها
ولجعل النفوس البارة نوراً على نور والبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلي وقد
جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثاً للنفوس على العمل الصالح وجاء
الثواب الاخروي الذي أعد الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج
النفوس في مدارج الاستباحة طمعاً في عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب والترهيب
لترسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون
لها منها داع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع
والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشريد كرها بالعقاب ويمكن
منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتمطيل وظائف الحياة
ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتزاف المنكرات (١) : على
ذلك الاساس بُني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ما جاء منه في الحديث
النبوي فالمراد منه عين ما اراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد اطلع كثير من علماء
المسلمين بالافراط في الوعظ تزغياً وترهيباً وحملاً عامة الناس على طريقهم في

(١) لنا بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تبيين الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية

والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فأكثر وأمن حمل الحديث بروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده
 ووضع كل شيء منه في محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغرر العامة
 بمقيدة الإباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة
 كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والأيام وفضائل التلاوات وجلها
 إن لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لا اعتقادهم بأن من
 صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل يوم كذا محيت سيئاته إلى كذا
 ولقد بلغ بعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل
 ما لم يجعلوه للقرآن فقالوا إن البيت الفلاني منها لشفاء الأسقام والآخرة
 الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري إذا اعتقد العاصي أن
 تلاوة بيت من قصيدتي كفي لمحو كل ما يقترفه في يومه من الآثام فإلى أية درجة
 ينتهي فساد أخلاقه وشرور نفسه وماذا ينفعه القرآن بأوامره ونواهيه ووعد
 ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم إن هذا الغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الإسلام ومنشؤه
 اضطراب الأفهام وتلبس الحقائق بالآوهام منذ أخذوا موضوعون بالكذب على
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه يضاف إليه إلا كثر
 من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له في مواضعه التي أرادها الشارع
 وقصدتها الإسلام ولو تتبع العلماء مسيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين
 لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لرأوا كيف أنهم
 كانوا يقلون من رواية الحديث إلا للخاصة أو ما تعلق منه بالأحكام حتى بلغ بعمر
 رضي الله عنه أن كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما ستري بعد
 وما ذلك إلا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كثرت

الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه
من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه في الدين
والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الأمة وقد
سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً بما لم يسمعه منه أحد من الصحابة
أو سمعه بعض الخاصة فرأى هذا الأمين أن يطوى هذا الحديث بين
الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن
عقول العامة يلابسها الاعتزاز ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم
بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أخرى ولكن لما ألبأته الضرورة
القصوى وهو محصور مع المسلمين في حصن ورأى منهم فتوراً عن الحرب
لأنهم في نفوسهم أوجين أصابهم كلا وانما هول رعبه الخالق التي تمكنت من
اقتداسهم وقلوبهم وأخافهم من الموت لذاته بل لما بعدة قام نخطب فيهم ونلى
عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً
لهممهم وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها
مما دون الشرك اذا تابوا وانابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لا يتعدى اسماعهم لا اعتقاده انهم
اذا خرجوا لمسكافة الروم لا يبقى منهم أحد يحدث به أو يلبس نفسه بأثر منه
لكثرة من كان على حصارهم من جنود الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن
العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشي من ان يعلق في نفوسهم شيء منه
مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

(لا تنكروا ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوم يبلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص في اليقين من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وجملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والنفقة في الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب الغلو معهم في الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلبس عقولهم من القوة والضعف وأنى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بالاتفة فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجترار الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نهى في عصره الذي هو خير المصور عن الاكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلي عصره من المصور

ذكر الخافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الاندلسي في كتابه جامع بيان العلم^(١) وفضله في باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفیان بن عیینة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم: قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا: فقال: انكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

النحل فلا تصدوهم بالا حاديت فتشغلوهم . جودوا القرآن وأفلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهضوا وأنا شريككم : فإما قدم قرظة قالوا أحدنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فحشى عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك : ثم قال بعد ذلك أيضاً : ان نهيه عن الاكثار وأمره بالاقبال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً أن يكونوا مع الاكثار محدثون بما لم يتقنوا حفظه ولم يعو له لان ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الاكثار فلهذا أمرهم عمر من الاقلال من الرواية اه

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمر بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان وأخوه معاوية وحبيب بن مسلمة الفهري وعياض بن غنم الفهري وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش إلا الاخير فانه حليف بني زهرة من قريش وأما غير هؤلاء ممن ليس من قريش فهم ذوالكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو^(١) والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مجرز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العمي

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووقدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئهم من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكية وقيل قباها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيش والمأمهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للأمراء في كيف يسرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر إلى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلّة في هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان بجزء طبيعي منها عرف العرب طريقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف إليه أن قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مضر وكانت صلة الاختلاط والتجارة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد إلى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد إلى سورية أكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوى علاقة تجارية بسكانها

﴿ فصول جغرافية ﴾

(ونظرة اجتماعية)

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن تأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية نضمها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديما وحديثا مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه ونجائته كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا القرات

والبادية وجنوبا جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بنى اسرائيل وغربا بحر الروم
 أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد
 الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين^(١) والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم
 من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا
 قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين
 والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من
 الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء
 دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ ق ٠ م الى سنة (٦٣٣ م) حيث ابتداء الفتح
 الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (٨١٧) وفيها تقلص
 ظل الروم عن هذا القطر وقد كان عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة
 اقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها
 وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين
 فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم
 الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة اقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون
 الرشيد العواصم وهي حمص وقتسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت
 عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صوراً حوالي سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا
 وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا
 معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة
 قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط
 وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا
 لهذا العهد

حمص والقسم الثاني دمشق والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الأردن
 (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم
 حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم
 اقسام تدعى كوراوسياتي الكلام على هذا بالتفصيل في غير هذا المحل ان شاء الله
 وقد توفرت في هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة
 والصناعة والتجارة لخصب اراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا ان
 هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة في هذا القطر ومن
 المقرر ان عمر ان الممالك تابع لترقي الدول وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد
 الفتح الاسلامي دولة لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن
 الروماني العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الديني والاختلاف المذهبي الذي
 أودى بحياتهم السياسية وفرق جامعتهم المليية ولما تولى الامبراطورية هرقل
 سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية في أشده فحاض الامبراطور نفسه في
 غماره واشتغل بالامور الدينية تاركاً أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب
 دولته ومن ثم ظهر الوهن في الدولة في أتم مظاهره فنزتها دولة الفرس
 واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيمها وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد
 الامبراطور هرقل يزايل بكرسيه الامبراطوري القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة
 عاصمة له لو لم يمنعه عن هذا العزم بطريك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية
 بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكها كما تقدمت
 الاشارة اليه فيما مر من هذا الكتاب

ولاريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه
 حظ عظيم ونكبت كما نكب ذلك الملك المريض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لاسيا وانها كانت حديثة عهد بعمارك القرمس التي لم يكن مضى عليها
لحين الفتح الا بضع عشرة سنة: اذن فهذه البلاد لم تكن لما دوحها المسلمون واقية
مراقى العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلا ان
استعدادها الطبيعي لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية الغابرة تكفل برقى
أهلها في مراقى السعادة من بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان
نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هذه البلاد
من الرقى على عهد الخلفاء الراشدين والامويين في صدر الاسلام ليمان أخبار تلك
المصورات هب الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنيًا به في ذلك
العصر إلا ان هناك من الأدلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد
السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقى في أصول المكاسب الثلاثة
الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الجباية
ورفع عن الرعية العسف وخففت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحرية توفرت لهم
أسباب الراحة ونشطوا من عقال الجمول فهبوا للاخذ بأسباب المكاسب
وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان
البلاد كانوا يصلحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل
والاستطاعة وروعت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان
هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين
والامويين وصدر أمن خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهد التي
بأيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السرف لقرب عهداها
بالبداءة وجدهتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثر من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة في عهد الامويين على ترقى العمران في البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار

الاردن ١٨٠٠٠٠

فلسطين ٣٥٠٠٠٠

دمشق ٤٠٠٠٠٠

العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعمهم) ٨٠٠٠٠٠

الجمع ١٧٣٠٠٠٠

وهذا المبلغ ليس بشئ بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد في عصور تقهرها أكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها في العمران وقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها أكثر من جبايتها في صدر الابلام كما سترى

وهذا دليل على تناهي الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم في الرعية يضاف اليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتأسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل والمنقطعين وترتيبها في الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة وتشيد الوليد بن عبد الملك الملاجئ لازمة للمجذمين وأمره ببناء الفنادق للمسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته أي الوليد بأصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة وإطلاق الخلفاء حرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم
ويثرون بين الرعية تآثرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة
والأمن ودواعى الترقى والعمران يدلنا على رقى البلاد على عهد الخلفاء الراشدين
والأمويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران التي لم يتمتع بها
هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم
والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها تداول هذا القطر السوري عدة
من الدول كالفاطميين والأتراك والاکراد والجر ا كسة أخذ بالانحطاط تبعاً
لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار
الاسلامية اذهاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب
واستمرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين الله أعلم بما
أصاب في غضوننا هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها
في نصف القرن السابع للهجرة وتخریبهم للمدن والامصار وفعلهم في البلاد
وأهلها الافعال الكبار ونال ذلك هجوم تيمورلنك عليها في أواخر القرن الثامن
بعدا كتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل وأجلى
عن دمشق خاصة أهل العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند
على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب
وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها ذمء الحياة وأمان أهلها على تحمل المصائب فلم
تخط الى الدرجة التي تفقد معها أصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق
الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع المعجم والهند
وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضاً اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق
وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد
ملوك الطوائف يداننا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضاً لوجود أثره الذي ينبيء
عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الأقمشة الحريرية والقطنية كأقمشة اللبس
المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو الغزاية والالاجا والحامدية وغيرها
وكأقمشة الزينة كالستائر والمتكثات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن
المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديماً بالدامسقاوي غير ذلك من أنواع
الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن
وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومثابة النسيج وبهاء الالوان
وتناسب النقش وقد اقتصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من
البلدان السورية كحلب وحمص ودمشق وطارابلس والذوق (من لبنان)
وغیرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص)
وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقى الآن فتعدت الصدف الى النقش
بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر اليها الا منقوشة بالدهان
لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه ان النقوش انما هي
اجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الابد اعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها
وصناعة الصابون ومعاملها لم تنزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق
ونابلس وغيرها

وصناعة النشا وفي دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات لم تنزل لهذا
الهدم تصنع كميات عظيمة من النشا الا انه قل تصديره الى الخارج بسبب راحة

النشا الا فرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كصر وغيرها
وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا انها ساذجة لم
تترقى الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي
الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوروبا
وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً ناتئة أو مجوفة وهي صناعة
قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية
الى الآن والظاهر انها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وويلها
للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلامهم من الدول في سورية كان ظاهر
الفخامة عظيم الضخامة منقن النقش والترتيب كما يكمل بملك الذي بلغ العناية في
إتقان البناء والتصوير الناتج على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نر
أثراً يشبههما إلا و آخر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في
العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن إتقان البناء وكان
أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروفة
لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه
الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده من هاني بعض المساجد التي بنيت على عهد
الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون
المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى
هذا العهد وقد نبى في العام الماضي محراب للجامع الأيوبي كله من القطع الرخام
الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها وإتقان صنعها وترتيب أشكالها
معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذي أقيم في جانبه وعلى نمطه أيضاً
وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومعالمها وجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنب وهي ترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الندرية في بيروت وحماة وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً ناتئة ومحفورة وكانت قدمت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الأوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة الهليات والصناديق الجلد وغيرها: فهذه الصناعات الباقية إلى الآن في سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصناعات التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقى هذه الصناعة في البصور المتأخرة ترقياً عظيماً خصوصاً في القرن التاسع والعاشر إلى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة حتى آخر فردها بتعليم هذه الصناعة لسواه وماتت فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض إلى اليوم عند الدمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها إلى قيشان المحرفة عن قاشان بلد في فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً في أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية في القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وإنما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشاتو) من التل المعروف بتل الباب الشرقي خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشر سنة فوجدناها متشابهة ما اكتشفته جمعية البعثة الأثرية الفرنسية في مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة في عهد الفاطميين والجرانكة^(١) وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لي الماني وعليها اسم العامل بالعربية إلا أنني لم أعثر في القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره في مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة السيفاء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الأنهار والأشجار والأبنية الجميلة وهي من أنفس الصنائع التي وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل أن الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الأموي بدمشق استجابها من القسطنطينية ورصف جدرانها كلها بالسيفاء على أشكال شتى تمثل الجامع والأشجار والأزهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانها السيفاء إلا قليلاً منها في الحائط المقابل للمنبر في الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمال في الحرم الخارجي فإما ما كان منها على الحائط الداخلي فقد تناثر بهضه في الحريق الذي حدث منذ بضع سنين وإما ما كان

(١) راجع مذكرات البعثة الأثرية الفرنسية المطبوعة باللغة الفرنسية

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفولتي وقد تشعت القناطر الحامية
للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفساء إما عمداً عن جهل بقيمته
الاثريّة وإما اضطراراً فكان يجمعه الأولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه
للسياح. والظاهر أن صناعة الفسيفساء استمرت في الشام إلى ما بعد القرن السابع
بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بپرس
بدمشق إلا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها
من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لثلثها في الجامع الأموي وهو يدل
على انحطاط صناعة النقش بالفسيفساء يومئذ انحطاطاً انتهى إلى تركها تماماً.

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها
ومضائها وقد دثرت منذ أجلي تيمورلنك صناعاتها إلى سمرقند على أنه لم تزل
إلى هذا العهد صناعة الأسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن
سورية إلا أنها منحطة عن مرتبتها الأولى

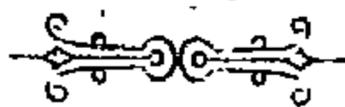
وصناعة الأتواب البيض المعروفة (بالحام الصالحاني) وكانت خاصة
بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثرت وارد البضائع
الأجنبية التي من نوعها إلى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق
ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتياً يقول إن الصالحية
منذ أربعين سنة فصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك
الأتواب البيض من القطن المغزول بالشام وإن أهل الصالحية جميعهم كانوا في تنم
وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لقد هدمتهم
أولدم الحاجة إليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك أسواق دمشق وكل سوق منها لأرباب

صناعة مخصوصة كسوق الشعاعين واللبادين والغلاينية^(١) والخراطين وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياية والقبارين وغير ذلك من الاسواق التي لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس وعهد طاهس اللحم الالعلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناقى على أشكال بديمة ويذهب بعضها وبعضها يلوّن بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لا مائلاً ذاهباً ورواق مهمات طاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ما هو موجود في منزل أسد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا و منزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهياً جميلاً كما تصنع بالامس . والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التي لم يعمد عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ما يحتاج اليه من النفقات التي لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقير الذي ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائلون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرأ عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السققيين الذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صنائع الغلايين التي يستعمل بها التبغ

الزاهية تخالف أصل الصناعة إلا أنه جاء جميلاً وافياً بالعرض لا عيب فيه
 هذا ما أرادنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقى لنا كلام عن
 حالتها لهذا العهد من حيث الترقى أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو
 في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها
 منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى
 غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما أنها تابعة في
 هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية
 التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونشكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله
 تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن التروال بأن يرشد رجالها الى
 طرق الخير ويزرع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن
 لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي
 أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولي على نفوس
 العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم ذمء من الحياة وأثر من الشعوب فباتوا
 يتقلبون على مضاجع الآلام وتساورهم الهوم الجسام ولا سبيل لهم الى إصلاح
 الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رُموا بالحياة واذا صدقوا خرجوا
 في عرف الجهلاء من عهد الامانة وهي حالة يارتباه تؤذن بتسفل الاخلاق
 وضعف العقول وموت الوجدان فأتقنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ
 من عارها الذي جعلنا عبرة في الآخزين والعموية في أيدي التريسين انك
 محيب الدعاء



❦ باب ❦

❦ فتوح العراق وفارس ❦

(إنتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الأمرين الأولين فقد بسطناها فيما سبق وأما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذي أدت به موته إلى تملك سابور ثم قتله وقيام آزره يمدحت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسمع إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحداً لأن وجه فارس كان أكره الوجوه إلى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فأما كان اليوم الرابع عادفانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تجبجنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد (يعني الشق الغربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها انه وقام عمر (رض) في الناس فقال

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة^(١) ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك
 ابن الطراء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في
 الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه
 وممزن ناصره ومولي أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون اه
 فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وثي سعد بن عبيد وسليط
 ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمر عليهم رجلا من المهاجرين والانصار
 فأبى وقال إن من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمر أبا عبيد على
 الجيش وقال له: إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر
 ولا تجهد مسرعاً حتى تبين فاتها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث
 الذي يعرف الفرصة والسكف^(٢) ولم ينعني أن أوامر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب
 وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان والله لو لا سرعته لأمرته ولكن
 الحرب لا يصلحها إلا المكث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى أو أوائل جمادي الثانية سنة (٥١٣هـ)
 ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عدي بن النجار والمثنى بن حارثة
 الشيباني فتقدمهم المثنى إلى الحيرة وكان استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم
 من خراسان وتوجهه وجعلت إليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم
 إلى دهاقين السواد أن يشوروا ودمس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جنداً
 لمصادمة المثنى وبلغ المثنى ذلك فضم إليه مسالحه واجتمع إليه المسلمون فسار بهم
 إلى خفان ونزلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من سار من الدهاقين جابان في فرات

(١) النجعة طلب الكلاء (أي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأن الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكيف

بأدقلى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالتمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس

﴿ وعظة ﴾

لما انهزم الفرس أسر جابان أسره مطرب بن فضة التيمي فخذعه جابان بأن وعده بشئ يعطيه له فأمنه وخلقى عنه فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه الملك وأشاروا عليه بقتله فقال: انى أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم: فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا: قال وان كان لا أغدر فتركه

أنظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذى ملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين وأثار عليهم نائرة البلاد وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فأبى أن يقتله لمهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ ان أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فإين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوة حتى باتوا الباعلى بعضهم وحراباً على أنفسهم يتمزقهم الاعداء ويتقلب عليهم الفاتحون وأمرؤهم فى تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه انفراداً باسم الرياسة وطاعة طوى النفس الشريرة وما يتمنون فى الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطعمون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت أخلاق الامراء وتفشى الجهل فى قصور العظماء وتنوسيت أصول الدين وغلبت الشهوات وتقلب علينا الأمم وحسبنا من جزائك العادل ما القيناك من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا

فاهدنا من الحق والمعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما امرت فتوثق عرى
الاخاء وتبذ من كانوا سبب التقاطع والشحناء ونجدد عهد النالف وتمسك
باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من التمارق ولحقت بكسكر حيث ينخيم قائداً اسمه
نرسي من الاسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل
بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجي الجالينوس مدداً
لهم من قبل رستم فما جلهم أبو عبيد والنو انما كان يدعى السقاطية فاقتلوا قتلاً
شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو
عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فروخ وفرودنداد
المثنى بن حارثة وطلباه منه الجزاء والذمة عن عن باروسما ونهر جو بر فأبلغهما بأبي عبيد
فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفرودنداد جاءه بآية فيها انواع
أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كراهة أكرمناك بها
وقرئ لك : قال : أكرمتم الجنود وقرئتموهم مثله : قالوا : لم يتيسرو ونحن فاعلون
: فقبل أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فدود وخرج حتى نزل باروسما
فأناه الاندزغر بمثل ما جاء به فروخ وفرودنداد : فقال : لهم أكرمتم الجنود بمثله
وقرئتموهم : قالوا لا : فدود وقال لا حاجة لنا فيه بشئ المرء أبو عبيد ان صحب قوماً
من بلادهم اهر اقواد ناء هم دونه أولم يهريقوا سنائر عليهم بشئ يصديه لا والله
لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مما يأكل أو ساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يفعالون ويمثل هذه الاخلاق يمتازون
 وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء بوصفون ويمثل هذه الحاصل
 الجميلة يسودون لا بالاستئثار بغير المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا
 باستلاب مال البلاد التي احرزها المجاهدون بسيف وفهم وأسألوا على جوائزهم
 وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في
 أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخطط للوصول اليه زعماء هذا
 المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوتهم فيه غلوت
 الجاهل بخوافيه اذقاتهم ان البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر
 وأن الانسان اذا أفسدت الحضارة تحيزته وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه
 استحال تقويم أود نفسه وإرجاعه عن غلوائه والاقبال من اثرته وكبريائه والاخذ
 على أيدي قاداته وزعمائه ما لم يكن هؤلاء هم الربوبون لشعوبهم القائمون على تقويم
 أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها
 الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة
 الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الاثرة بالنفي والجاه والفتخفة
 الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رض) وبلغ بعد ابن الخطاب (رض) بغضه بداء
 حب الاثرة وكرمه لا كتناز البعوض للمال دون البعوض الآخر ان كان يحصى
 مال عماله قبل ان يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن
 مقتناتهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يردده على المسلمين وبلغ على بن أبي
 طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى
 التثمن وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتابا يطويلا بما جاء فيه قوله
 أيها المعدود كان عندنا من ذوى الألباب كيف تسبيغ شرابا وطعاما وانت

تعلم أنك تأكل وتشرب حراماً وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى
والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرزهم
هذه البلاد. فأتق الله واردد الى هؤلاء القوم أهولهم فانك ان لم تفعل ثم امكنتي
الله منك لا عذرن الى الله فيك ولا ضربتك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً
الأدخل النار الخ

فإن هذا الخليفة في مشربه القويم ومذهبه المستقيم في تأديب العمال
بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السرف في أموال العباد ممن يربى
عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم في أموال الناس بل ويحكمهم في رقاب
الرعية ويذني فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب
الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات:
ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا صبغ اديم الارض بنجيع الانسان وتبدل الاشرار
بالاخيار وذلك أمر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدم المثنى في تعينته حتى قدم الحيرة وكان
الجالينوس رجع الى رستم ومن أقبلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين
فوجه بهم من جاذويه ورد الجالينوس معه فاقبل بهم من جاذويه ومعه راية كسرى
(درفش كايان) وكانت من جلود لتمر^(١) وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمرحة على

لهذه الراية قصة عجيبه جاءت في أخبار الفرس وما يخصها أن أحد ملوك الفرس
جار على رعيته واسترسلت حكومته في الظلم الى حد لا يطاق فقام من رعيته يوماً رجل
حداد خامل بين قومه عظيم في نفسه فخرج من حاتوته ورفع على عصا طويلة الجلد
الذي يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى في الناس من لا يطبق الظلم فإيتبعني فاتبعه
عامة الناس فقتلوا ذلك الملك ورجال دولته وأسس ذلك الحداد الدولة الكسروية =

ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه
بهم من جاذويه إما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبركم اليكم
فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشد ما أوجع عليه بعدم العبور سليط بن
قيس فأبى قبول اشارتهم وترك الرأي وقال لا يكونوا أجراً على الموت منا وعبر
ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلاً للمسلمون

وهذا وان يكن اقدم من أبي عبيد رضى الله عنه وشتم وشجاعة لا يصدران
عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لا مريد لله وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل
أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضر به فخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف
في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال
المسلمون جولة ثم انهزموا واوركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه
قصداً رجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم
فهاقوا في القرات ولما رأى المشي بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادروا
ونفر من الشجيمان فحى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم
فأقاوا وبالمروحة والمشى جريحاً وهرب الناس على وجوههم وقتل سايط بن قيس
الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقي المشى في جمع قليل ولما انتهى الخبر الى
عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب
فقال: عباد الله اللهم ان كل مسلم في حلٍ مني أتائته كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان
عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يسقتل لكان له فئة:

واذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى في الكتاب

— فاتخذ ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوا من جلود النمر وسموها درفش كايان
وكانوا لا يخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكريم (ومن يؤلهم يومئذ ذريرة الامتحر فآلقتال اومتحيزا الى فئة فقباء
 بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون
 والانصار جزعاً شديداً ودارأى عمر رضى الله عنه جزعهم قال : لا تجزعو ايامعشر
 المسلمين اناقتكم انما انحزتم الي: وبلغ الجزع بماذا القارىء احد بنى النجار ان كان
 اذا قرأ هذه الآية بكى فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ اناقتك وانما انحزت الي :
 وذلك تخفيفاً لروعه ودفماً لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها
 من الله واشدها تمسكاً بالكتاب وأجزعها من الوقوع فى الخطأ ورضى عن عمر بن
 الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية
 ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمشي ومن بقى معه من الجند القليل جاء
 الفرس ما شغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر ان الناس بالمداين قد ثاروا برسم
 وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المشي من جمع القبائل التي
 حوله واهمده عمر (رض) بجري بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أوزاعاً متفرقين
 فى قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بنى عبد
 ابن الحارث الضبي فيمن تبعه من بنى ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم
 أحداً الا رمى به المشي وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه بنو كنانة وطلبوا ان
 يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيته ووه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد
 قوم قد حووا فنون العيش لذل الله ان يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من
 عاش من الناس فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما
 لقومه يا عشير تاه احييو امير المؤمنين الى ما يرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا
 لهم عمر بخير وامر على بنى كنانة غالب بن عبد الله وعلى الازد عرفجة بن هرثمة

وسرّحهم فخرج هذا في قومه وهذا في قومه حتى قدما على المثنى
وقدم على عمر (رض) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب
فوجهه وقدم عليه المثنى الجشمي جشم سعد فأمره على بن سعد وسرحه وجاء اليه
ربيعي في أناس من بني حنظلة فأمره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن
حارثة فرأس بعده ابنه شيبث بن ربيعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء
العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى
ابن حارثة جمعوا كلمتهم وجاء الفيروزان ورستم الى بوران وأخبراهما انهما اتفقا على
أن يرسلوا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعث مهران
بجندة حتى نزل من دون الثرات والمثنى وجندة في محل يدعى البويب على شاطئ
الثرات لا خرو كانت الجنود اليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممدّا في
أناس من نصارى الثمر وقدم عبدالله بن كليب التغلبي المعروف بمردي الغندقي
أناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالمعجم قالوا اتفقتل مع قومنا
وانضموا الى جند المسلمين ولله ماتقبل الجامعة القومية في النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا اليينا
وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا اليينا فعبروا اليهم وجاء وهم من قبل نهر
بنى سليم في صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثنى للمسلمين ان الذم
تسمعون فمثل قالوا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنبيه بشير وبسر بن أبي
رهم وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النسيرو على
الرداء مذعور وكان على مجنبيه مهران الآزدي ومرزبان الحيرة ومرزبان شاه ثم

خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم^(١) ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ولكأهم يقول انى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسي شىء الا وهو يسرنى لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً لاسيما وأنه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميموناً النقية فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبر وكبر المسلمون وكان واعدتهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثنى كلما رأى خلافاً صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلاً يقول ان الامير يقرأكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويتدلون ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه انس بن هلال ومردى الفهر وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميته واضطربت صفوف الاعاجم ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعض الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى الجسر ففتح سرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذي أظهر من البراعة والشجاعة فى هذه الواقعة ما يخدله طيب الذكر الا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال : لقد عجزت عجزه ووقى الله شرها بمسأقتى اياهم الى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فاني غير عائد (يعنى الى مثل هذا الخطأ) فلا تمودوا ولا تقندوا بي ايها الناس فانها كانت منى زلة لا ينبغي احراج احد الآمن

(١) حضضهم كحضضهم أى حثهم وأحاثهم عليه كما فى القاموس

لا يقوى على امتناع: هذا من حسن بصيرته وسديده رأيه ونايته للحق رضى الله عنه
ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا أجرحوا في هذه الواقعة ناس منهم خالد
ابن هلال ووسعود بن حارثة واخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال والله انه ليهورن علي
وجدى (أي اسفه وحزنه) أن شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم
ينكأوا . وأن كان في الشهادة كفارة لتجاوز الذنوب

وكان أشد الناس بلاء في هذه الحرب من شهدوا واقعة الجسر مع ابي عبيد
لاستحيائهم من الفرار في تلك الواقعة ولما انهزم الفرس في البويب انتدب المثنى
جرير بن عبد الله البجلي لبعور القررات وتبع انفارين فانتدب معه من شهد واقعة
الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبري ان المثنى وعصبة وجرير أصابوا في أيام البويب غنما
ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلتوهن بالقوادس
والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا انصيب
العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن ببيعة فلما رُفِعوا (أي ظهروا)
للسوة فرأى الخيل تصابحن وحسبها غارة فقم من دون الصبيان بالحجارة والعمد
فقال عمرو ابها جأهن: هكذا ينبنى لنساء هذا الجيش: وبشروهن بالفتح: وكان
على الخيل التي اتهم بالثزل (الضيافة) النسيير فأقام في خيله حامية لهم

ولا جرم فلولم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نساين وامكان دفعهن
العدو المفاجئ لما تركوهن في القلعة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس وقد رأيت
كيف كان النساء المسلمات في اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن في
القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضنن جراحهن ويمرضنهن

ذكر الطبري في معرض كلامه على فتح ميسان ان المغيرة سار الى أهل ميسان وخلف الاثقال فلقى المدودون دجلة فقالت أزدة بنت الحارث بن كلدة (طيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (أي عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذت النساء من خمرهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا ان مدداً أتى المسلمين فانهزموا وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمرى غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن ان يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب أدورد جيون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن: إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطمع بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احدهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أي انسان يريد هابسوء

ولقد صدق فيما قال والآفا كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يعنين عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام ساع للقائين بتخفيف الحجاب في هذا العصر أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويمطونها حقوق الرجال والآن فالكلام غيب لا يجدى والموقف حرج ينبغى للخروج منه اناة

وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشدت جنود الفرس وعاد جري بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفربها المسلمون بما شاؤوا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقفوا العرب في قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الامم وأشد خطرا على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب الممالك وتشعث بناء الدولة وقل ما انتهت الدول في أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الأفراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطتها وقد كانت دولة الفرس أصيبت في أواخر عهدها بهذا الداء المضال والمرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز في أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجلا على استخلاص بواقي الخراج ففسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحوّلت انظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى بابل ومنعهم من التصرف فانتمت عظماء المملكة ضعيف سيطرة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحضر وامن بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحسن بضعف نفسه وأصابه وسواس أفضى إلى أن أمر بقتل أخوته
وكانوا سبعة عشر أخاً ذوى مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت
على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه فملك القرمس عليهم
ابنه ازدشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتعلمين إلى الرياسة من أرباب
الدولة واسمه بهادر جنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم
استشارته في تولية ازدشير فأتخذ ذلك ذريعة إلى التعنت وبسط يد القوة وطمع
في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الأكرسة فدخلها وقتل جماعة من
الرؤساء وقتل ازدشير فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم
يمكث في الملك إلا أربعين يوماً وقتله أشيع ازدشير فملك بعده بوران ثم ملك
بعده راجل اسمه خشن شبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت
وخطبها إلى خراسان فاحتالت عليه حتى قتله فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده
إلى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران
فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة ونفشت
الفوضى في الملك وظهر الحلل والضعف على الدولة ولما انتزع المسلمون منها
العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الإسلام للوثوب على عرش
الأكرسة دب في عامة الشعب الفارسي ديب الشعور بخرج الموقف الذي
وقفت فيه دولتهم وأحسوا بالخطر الذي جره عليهم أمر أوثم وقادتهم فهبوا من
سباتهم العميق فأقبل رجالهم وذوو الرأي منهم إلى الفيرزان ورستم وقالوا لهما : لم
يرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وأنه لم يبلغ من
خطر كما أن يُقر كما فارس على هذا الرأي وإن تعرضنا للهلكة ما بعد بعدا ذومسا باط
وتكريت إلا المدائن (يعنون البلاد التي احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو

لنبداً أن يكما قبل أن يشمت بنا شامت ووالله ما جرت علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر
 الرؤساء لقد فرقتم بين أهل فارس وبتطنوهم عن عدوهم ولو لا أن في قتلكم
 هلاكنا لمجئنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنهوا الهلككنكم ثم يهلك وقد اشتفينا منكم
 لما سمع رسستم والقيروزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشياً
 هلاكهما فبحثنا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه
 كلمة الناس فوجدوا يزيد جرد بن شهر يار في اصطخر وقد كانت أمه غيبته هناك
 وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاءوا به وملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة
 الآينه كان ضيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء
 شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في
 معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العمدة والعديد
 لقتال المسلمين

﴿ استعداد مثنى ﴾

(ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق)

لما بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزيد جرد وتجزؤهم لحرب المسلمين
 كتب الى عمر (رض) وبيناهو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالمهد وتمضوا
 ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذي قار
 حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه . (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم
 وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة
 أحداً ولا مضرو ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا جلبتموه
 فان جاء طائفاً والآحشرتموه . احموا العرب على الجدة اذا جد المعجم فلتلقوا
 جدم بجدكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربي والتدبير
 فنزل بذي قار وفرق الجند على خط واحد من الجبل وشراف الى غصي^(١) حيال
 البصري فكانوا في آواه العراق من اولها الى آخرها مسالح^(٢) بعضهم ينظر
 الى بعض ويعيث بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد متمد من حيال
 البصرة الى شراف والجبل أي من اول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من
 بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد القرس
 كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وياتوا خائفين هائبين والمسلون
 متحمسون وهم كالأسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على
 استنقار العرب وكل من له نجدة وبأس فضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى
 المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى
 وخرج عمر في اول المحرم سنة (١٤) فمسك على ماء قرب المدينة يدعى حراء
 والناس لا يعلدون بشئ مما يريدون كانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعمان
 أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شئ مما يريدون ثثوا بالعباس
 فسأله عثمان عما يريدون عن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم
 الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال الماء سيز وسير بنا ملك فقال استعدوا وأعدوا
 فاني سأرا إلا أن يجي رأي هو أمثل من ذلك ثم بث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

(١) في معجم البلدان جبل موضع بالبادية على إجابة طريق القادسية الى زبالة
 بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلاً وهو بينها وبين الرمانتين وشراف بين واقصة
 وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغصي تصغير الفضلاء لعامر بن ربيعة وقيل حيال
 البصرة (٢) جماعة المسلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سأترفاجتمعوا جميعاً وأجمع ماؤمهم على أن يبعث رجلاً من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والآعاد رجلاً آخر وندب جنداً آخر حتى يجي نصر الله

﴿ الحكم النبائي في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدولة هي أعظم دول الارض رهبةً لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والآ كان الخطر على المسلمين عظيماً والامر جللاً بعد اذ هيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد ان لا يفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأمرهم أرغب وخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع علي وطلحة رضي الله عنهما لان الأول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة الجيش فرأى ان لا تفوتهما الشورى فاستدعاها وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال

أما بعد ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسكون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم
ورضوا به لهم . يا أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي
منكم عن الخروج فقد رأيت ان أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من
قدمت ومن خلقت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهم لم يحضروا الرأي الأول
كما ذكرنا

لعمر كأي ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضى
واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا
الامر فانه تبع لذوى الرأي منهم) فجعل نفسه تبعاً لذوى الرأي وجعل المسلمين تبعاً
لهم فيما يرون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابي الذي تقوم به سعادة
الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم إلا بعد جهد وجهاد مع قادتهم
المستبدين وأضرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به أبو بكر وعمر
رضي به واخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في أمر دنياهم إلا ان هذا
الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان
الخلفاء وإخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه
يترقى بطبعه بترقى الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمان لهذا لم يستمر إلا باستمرار
دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم القطري للحرية يقضيان
استمرار الحكم النيابي في الدول العربية وانما أرغم القوم على مخالفة الفطرة
البدوية منذ قامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاعجمية وخالط خلفاؤها
الاعاجم من الفرس والروم ورواها مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة في الرعية
وسلطتها القاهر الذي هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل
لا المحكوم منهما والنفس تلون أحياناً بألوان البيئة وتبديل أخلاقها بتبديل المنشأ

والمكان فراق أوامك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم لوسط
فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط في السيادة حتى بلغ
بعبد الملك بن مروان أن خطب يوماً خطبة أشار فيها الى أن من راجعه في أمره
فقد تعرض للقتل مع أن عصر بني مروان هو العصر الذي كان يرجي به استثمار
البذور الديموقراطية التي بذرها الخلفاء الراشدون لاستغلاظ شأن الاسلام
يوماً ثم تفرغ الناس الى النظر في الشؤون الادارية بمسئولياتهم في الشؤون
الحربية واشتغالهم بالفتح وما نخل الباعث للأمة العربية على الانقلاب اشهوات
الملوك من بني مروان الا ذلك المزيج الذي تألف منه جسم المجتمع الاسلامي
يومئذ وأخصبهم الموالي من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن
أبي سفيان رضى الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر في الحقيقة فقد
غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بفرق عصبيتها وتشتت قبائلها في فارس
والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم ينعهم ذلك الفتح عن استبداد
خلفائهم الذين خبلا لهم الجود وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن
يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لانماثة في عصر الحضارة الاسلامية واجتلاء ثمراته
الشهية فيسطوا ايد القوت وتبسطوا في الاستبداد ولو عدوا ان الحكومة النيابية
شرط في بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما تزعموا منازع
ببيروت وهدموا ركن الشورى اذ مطبوع نظر الشعوب ومناط سعادة الناس
الحرية والعدل ومتى كان هذان أساس الحكم في دولة من الدول فقد تحصل الناس
على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من
وراء ذلك غرض الا الذود عنها والذب عن حوزتها ذوداً عن حوضهم وذبا عن
راحة مجتمعاتهم

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح في حكم
الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار اذن والله
لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً في دولتهم وهمل يلجئ الناس الى
التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم
وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمر ك لو أحسن بنو مروان السياسة والتسو او سائل سلامة الدولة
لجعلوا لا خلفهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التي وضعها لهم الخلفاء
الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها
بقوانين خاصة ترسخ عليها دعائمها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلاً
عليهم لو اتسوا اليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاورينهم من الروم الذين قامت
لا سلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة
لذلك الجيل من الروم محفوظة في مؤلفات القوم والذي أتاح لهم وللخلفاء
الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الأصول الادارية وغيرها عن الروم
والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضع له للدواوين على أصول الفرس
والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الامور
التي لم يكن لها اثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول
التجارب التي عاينها غيرهم من الأمم التي سبقتهم في الحضارة لو اخلصوا النية
ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا الوضوء والدول الاسلام
أساساً ثابتاً في نوع الحكم لا يتأتى لاية دولة اسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله
البتة لا سباب عديدة أهمها الضيق الفقهاء بعبء كل شئ بالدين وحظرهم على الأمة
العمل بأي أمر نافع الا ما سبق للصحابة والتابعين وكان عندهم كالتنزيل لا يجيد

عنه أحد من المسلمين ولو نخر عظامهم فسادا لحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم
 وذهب بسلاطنتهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقى عند الأمم الأخرى كما
 انتفع الأوربيون من المسلمين في كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب
 الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود إليه في
 محل آخر إن شاء الله

﴿ عود إلى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار عامة الناس ونهاه
 العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني: أقم وابتعد جندا فقد
 رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبسوقه أن يهزم جيشك ليس كهزيمتك
 وأنتك إن تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون وإن لا يشهدوا
 أن لا إله إلا الله أبداً :

ونعم هذا الرأي والاختلاف من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إذا ن
 المسلمين يومئذ كانوا أحوج إلى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل في الجزيرة
 والفتنة لم تترك فلو أصيب عمر بشئ لصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لأن هيبة
 عمر وعزيمته وإناة أبي بكر قبله ورويته مهدت لمن جاء بعدها السبيل ومكنت
 للاسلام والمسلمين السلطان في الارض

بيننا المسلمون في المشورة وافى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص وكان عامه
 على صدقات هو ازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس وهم الف فارس
 فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته : قال فن : الاسد عادياً : قال من
 هو : قالوا سعد : فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه فقدم عليه فأمره على حرب العراق
 وانتدب معه الناس فكان أهل اليمن يزعون إلى الشام وكانت مضر تزع إلى

العراق فقال عمر (أي لأهل اليمن) أرحمكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر
لا تذكر أسلافهم من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمر عمر سعداً رضي الله عنهما أوامره فقال

يا سعدُ سعدُ نبي وهيب لا يفرّك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب
رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السي بالسي ولكنه يمحو السي بالحسن
فإن الله ليس بينه وبين أحد نسيب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات
الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر
الامر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقتنا فالزمه فإنه
الامر . هذه عظمتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عمالك وكنت من
الخاسرين

ثم لما أراد أن يسرّحه دعاه فقال

اني قد وابتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد
كريبه لا يخلص منه إلا الحق . فموت نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم
ان لكل عادة عتادا فعتاد الخير الصبر . فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابتك
يجتمع لك خشية الله . واعلم ان خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب
معصيته وإنما أطاعه من أطاعه بغير الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه
بحب الدنيا وبغير الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً . منها السر .
ومنها العلانية . فاما العلانية فان يكون حامده وذامه في الحق سواءً . وأما السر
فيرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحنة الناس فلا تزهد في التجنب فان
النبيين قد سألوا محبتهم وإن الله اذا أحب عبداً أحببه واذا أبغض عبداً أبغضه .

فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حميضة بن النعمان البارقي وشداد بن ضمعج الحضرمي وعمرو بن معدى كرب على مدحج ويزيد ابن الحارث الصدائي وبشر بن عبد الله الهلالي وشرحيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضي الله عنه إلى الأعوص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وإن ينهوا مشورتهم إليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتي الخطبة في باب خطبه إن شاء الله

سار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرد من أرض العرب مما يلي العراق وأمهده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً انضم إليه من جند العراق الذين كانوا مع المشي ولما رحل سعد عن زورد كتب إليه عمر (رض): أن ابعث إلى فرج^(١) الهند رجلاً ترضاه يكون بحياته ويكون ردة لك من شيء أتاك من تلك التخوم: فبعث المغيرة بن شعبه في خمسمائة فسكات بحيال الأبله من أرض العرب ونزل على جريرو وهو مرابط هناك يومئذ. ولما بلغ سعد شراف نزل وكتب بمنزله إلى عمر بن الخطاب (رض)

(١) هو الثغر وموضع الخفاة والأبله هي التي كانت ثغر العراق يومئذ لقربها

فكتب اليه عمر: اذا جاءك كتابي هذا فشر الناس وعرف عليهم^(١) وأمر على
أجنادهم وعبيهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقد رهم وهم شهودهم وجههم الى
أصحابهم وواعدهم القادسية واضم اليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب الي
بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فاتوه فقد ر الناس وعباهم تسمية تشبه بسائر
ترتيبها تسمية الجيوش في هذا العصر وسنأتي على تفصيل الخبر عن هذا في غير هذا
المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب
وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً
بمركه ما لم يأخذها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة
المدوّ ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعدّ سعد لكل شيء عدته وفرغ من تسمية جيشه كتب بذلك الى عمر
وجاءه في غضون ذلك المعنى بن حارثة أخو المثني وزوجته خصفه التسمية بوقاة
المثني ووصيته لسعد وموذاها أن لا يقاتل سعد عدوه من أهل فارس اذا اجتمع
أمرهم وملوهم في عقر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب
ولما انتهى الى سعد رأى المثني ووصيته ترحم عليه وأمر أخاه المعنى على عمله وأوصى
بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثني على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر
الماضية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب
من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه فيه إلا خالد بن
الوليد وكان منذ وفوده على أبي بكر في أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى

(١) قال في القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس

ولاه قتالهم ثم ولي خالدًا فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرى بسهم المسلمين مملكة الأ كاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤاله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أباعبيدة فكان منه ما كان من الافراد بالرأي والوقوع في الهلكة وما زال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثم حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويتحقق أمله في تدوين بلاد الفرس فحسر المسلمون بوفاته شهماً مقدماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد بوصيه به بمثل وصية المثنى

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل الربيعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب بوصيه فيه بأن لا يقاتل الفرس الا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالامانة والصبر والثبات وان يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة الكتاب في كتبه ان شاء الله

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعديب المهجانات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه بوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعن يلى أمر الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما أمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالمهدد والذمة وبأن يفي بأمان من يؤمن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهمها وظنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فاناراً لنا أن تأتي به هنا ضرورة إirاده وهو بنصبه (عن تاريخ الطبري)

إني قد ألتقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هنرتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التيقية عليه فان لاعب أحدكم أحداً من العجم بأمان أو قرهه (١) باشارة أو بلسان كان لا يدري الا عجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فاجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضحك . والوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء ببقية وان الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم واقبال ربحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اه
﴿ كلمة في التاريخ الاسلامي ورافة عمر بالمحاربين ﴾

هذا الكتاب يدلنا على أمرين الامر الاول أن الرافة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة في هذا العصر وحدها بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الامم وحسبك من ذلك أن من شرط الاستئمان في الحروب القانونية عند الامم المتعدنة لهذا العهد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو أن مجرد الاشارة ولو

(١) قال في القاموس لاعب أي لعب معه والقرف بالتحريك من المقارنة

نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان
والامر الثاني ان ما يتخرص به بعض المؤرخين من الفريين وما يدكرونه
من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامي منشؤه اما الفيظ والضعينة واما سوء
الفهم المتأني عن تشويش التاريخ الاسلامي وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام
على عوامه و خلطهم غشه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون
الحربية والسياسية يومئذ وتفریق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار
إلا ان يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وما ذلك
إلا لتجنب مؤرخي الاسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتألف من
الحوادث وتوسعهم في أخبار الحروب الاسلامية دون الذرائع العامة التي
ترقت بها الامة في الشؤون الاجتماعية والعمرائية والسياسية حتى أن المدنية
الاسلامية التي طبقت شهرتها الافاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء
آثارها وآثار أهلها الى الان أشبه في الغموض بمدينة الامة البائدة التي ينقب
الباحثون في تاريخها عن دقائقها الارضية وآثارها العافية ليقنوا على تاريخها الغابر
بل بلغ غموض تاريخنا وغموض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان أحدنا
لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك
سبيلا هذا فيما قرب عهده من العصور فما بالك بالقديم والآفين هو لعد رأيك
التاريخ الذي يفصل لنا أخبار السلف التي تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم
وصنائعهم وعوائدهم وأزيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والفضاء
والسياسة والجنديّة وأصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق
بترقي هذه الامة وحالتها الاجتماعية التي أدهشت أهل المغرب أيام الجروب
الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط في العمران والقيام على شؤون

الادارة والحرب ما لم يخطر لهم في بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق
العرض مستوراً في ثنايا الاخبار وربما ألم ببعض المؤرخين بشئ من ذلك
كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير الا اننا لسوء الحظ لم
نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة في تضاعيف الكتب والاصل مفقود
العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفى الغليل
فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامي في عصور الترقى والحضارة وذلك
شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار
الحروب فلا جرم ان يظن الجاهل والعدوان ان الامة الاسلامية انما وجدت
لازعاج العالم بالحرب والقتال وان تشوش الحقائق المنسججة في أخبار التفتح
فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامها في عصر
الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل
الذي وصانا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة اصولاً بلغت الغاية من
الرافة والمدل لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء
والسلاطين في كل عصر وأضافوا اليها ما تمس اليه الحاجة التابعة لترقى الدول
والزمان لما وجد الاعداء سبيلاً للقدح في الفتح الاسلامي وكذلك لو عني
المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقى الاسلامية
لكانت لهذا العهد منوالاً تنسج عليه الامة او منبهاً يحرك فيها باعث الجد
لاسترجاع مافات والتوثق من حفظ استقلالها وصور حياتها مما هوآت

﴿ خبر القادسية وغيرها ﴾

لما انتهى سمد الى عذيب الهجانات قدّم امامه زهرة بن الجوية الى

القادسية^(١) وجاء على أثره بعد أن ترك خيلاً وجنوداً تحوط الحرم فلم يجسد في
القادسية جنوداً من الفرس فأخذ يبت السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه
موقف المدافع تبعاً لإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيوناً
إلى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولى رستم بن
الفرخزاد الأرمي حربه وأمره بالمسكرة فكتب بذلك إلى عمر (رض) فكتب
إليه عمر

أما بعد لا يكره بك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل
عليه وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم
توهيناً لهم وقلجاً^(٢) عليهم وكتب إلي في كل يوم

وأما رستم فإنه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل
أوزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد إلى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر
وأرأه وعليهم مهابة فبعثهم إلى يزدجر يدعونه إلى الإسلام أو الجزية وهم النعمان
ابن مقرن وبسر بن أبي رهم وحملته بن جوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي
وفرات بن حيان العجلي وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارمة بن النباش وعطار
ابن حاجب والأشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن
معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة نخر جو امن العسكر حتى قدموا
المدائن دعاة ليزدجر دفتور وارستم حتى انتهوا إلى باب يزدجر فخبسوا رثما جمع

(١) القادسية على جافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر
لمقام خيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهر
أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والتصر

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم اذن لهم فادخلوا عليه وجري بينه وبينهم كلام طويل سيرد معاني سيرة سعد بن وقاص (رض) ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين ارسل سعد المغيرة بن شعبه الى رستم وكان رجلا داهية ذابصيرة ووراثي الا انه ابي ان يجيب الى الاسلام او الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين الى ان قُتل حروب شديدة انتهت بفلج جوع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا شهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية اقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لاثني عشر يوماً من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش الفرس في مكان يدعى برس فهزموه فانضم الى قالة القادسية في بابل فأرسل اليهم زهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي بهر سير^(١) ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن ما لا يعد ثم دعاسعد الدهاقين الى الاسلام او الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سوادى الآمن واغتبط بملك الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وان سعداً ليصلى فيه بالناس والتمايل من الجص قائمة فيه ثم ارسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان ومانسبدان فاقتنحهما وفر كسرى من حلوان الى الري وقيل

(١) المدائن هي عاصمة الاكاسرة وتوموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي

من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسمىها الافرنج اكلزيفون

الى اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعدى المدائن الى سنة (١٧) وفتحت
جيشه في غضون تكريت والموصل ثم تحول الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر
عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره في محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

(كيف يكون الاستعمار)

ان من الاصول السديدة في الفتح والاستعمار ان يؤسس على مبدأ حفظ
الثروة المحلية لاهلها لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً تنمو بنمائه
ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسط أهل المملكة في العمران
وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم ما لم يجد في الوضوب معين ثروتهم
وانكسبت عن العمل أيديهم وقل ان تراعى الدول الفاتحة هذا الاصل السديد
والبرعى البعيد في الممالك المفتوحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد
التي أخذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز اقتزاع الثروة من أهلها بطرق الاكراه
التدرجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغنى منها وطنهم على زعمهم ولم نعهد في هذا
العصر دولة من الدول المتعدنة الاوربية تراعى حفظ الاصل في الثروة لأهل
في المستعمرات الافريقية والاسيوية الا دولة انكلترا فربما كانت أحسن الدول
قياماً على ذلك الاصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة وأخفهن وطأة على
الرعية مع ان دعوى التمدين العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات
من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البلاد
المفتوحة كما هي مرعية في الممالك الاوربية وهيئات هيئات فان غلبة الشهوات
تمحى عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء في ديار المدينة وليت جهلة
الكتاب من الافرنج الذين يرمون الفتح الاسلامي وأهله بوصمة التخريب

والتدمير ويسمونهم بسامات البساوة يبحثون في التاريخ الاسلامي عن اصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتقدمة في وضع اساس العدالة وحفظ اصول الثروة لأهلها في الممالك المفتوحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب إنما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لمهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله في الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروة الافراد وخصب الارض وجدها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتلون في ارضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك ما رواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبد الرحمن ان شريك بن أبي سمي المطيفي أتى الى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تمطوننا ما يحسبنا (يكفيننا) أفأذن لي بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك : فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمي المطيفي زرع بارض مصر : فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث اليه فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكاً : فقال شريك لعمرو وقتلتني يا عمرو فقال له عمرو وأنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج من غير كتاب ولك عهد

الله ان اجعل يدي في يده (يعني انه لا يهرب) فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال : توأمتني يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سمي : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لا جعلناك نكالا لمن خلقك : قال أو تقبله بني ما قبل الله من العباد : قال أو تفعل : قال نعم : فكتب الى عمرو أن شريكاً جاءني تاباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لما افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فاننا فتحناه عنوة بسيف وناقبنا وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته إن تنفاسدوا بينكم في المياه : قال : فاقروا أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسوق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب الى سمعدين أبي وقاص حين فتح السواد (أمابعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألك ان تقسم بينهم ما فاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما جلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال او أكراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه وبلغ من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ان أحد بني الحارث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يفتل^(١) فيها خيله فكتب الى ابي موسى الأشعري ان ابا عبد الله سألني أرضاً على شاطئ دجلة يفتل فيها خيله فان

(١) في القاموس فلا الصبي والمهر قلوأ وقلاء عزله عن الرضاع او قطمه

كانت في غير أرض الجزيرة ولا يجزأ اليها ماء الجزيرة فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المنيرة بن شعبة في ولايته كتابا غير هذا وهو بمعناه كما راه في محله ان شاء الله وهذا وايم الله من الاغراق في العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها في هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيئات هيئات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزيرة والخراج في العراق فهو انه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى انوشروان الا انه خوفا من احجاف العراقيين او تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتفرز اجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقير فبعث عثمان بن حنيف الانصارى الى العراق العربى وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعما عليها الخراج بنسبة حالها وخذرعها فجعل على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتب بذلك الى عمر فأجازه وفي رواية لابي يوسف انه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج ابو يوسف والبلاذري عن الشعبي ان عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجدته ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أي ستة وثلاثين مليوناً) وفي رواية انه استثنى النخيل وفي رواية ان عمر الفخري النخيل في ولاية المنيرة بن شعبة على العراق

(١) في القاموس الجريب اسم لمكيال ولا زرعة واما مساحته فقد ذكر الطبري في تاريخه ان المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولاً وستين عرضاً قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد
لانه مادة التجارة في العراق .

وبلغ خراج العراق في ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة
مليون درهم) وذلك عد الصوافي التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل
كسرى أول من هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي
سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافي بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد
فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخصاً فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين
وأربعة وعشرين وأثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا في هذا العدد
متوسط الجزية الذي هو أربعة وعشرين درهماً فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر
مليوناً ومائتي ألف درهم إذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافي
فيكون مجموع الجباية في العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين
مليوناً درهماً ومائتي ألف درهم^(١) كانت تنفق في اعطيات الجنود وازقاق المسلمين
مما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لاصلاح الجسور
وحفر الأنهر ومن الأنهر التي احتقرها عمر في العراق النهر المعروف بنهر معقل
قرب البصرة ونهر سعد ابن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرها

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في مناقب عمر عن عمر بن ميهون

ورأيت في مناقب عمر للامام أبي الفرج بن الجوزي ان جباية العراق العربي
المعروف بالسواد والعراق العجمي المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليوناً
(واق) قال والواق درهم ودانقين ونصف هذا ما قاله ابن الجوزي واما الدانق فقد
كان كل درهم اربعة دوانق وهو الدرهم البغلي واما الدرهم الطبري فقد كان ثمانية
دوانق وقيل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض ما لا تطيق : قالا لا فقال عمر ائن سلمنى الله لا أدعن أرا من أهل العراق لا يحتجن الى أحد بعدى أبداً فماتت عليه الأربعة الا أصيب وروى أبو يوسف فى الحراج ان عمر كان يجبي الحراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد: وهل بهد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله. هكذا كان مايسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب اذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح واصلاً ثم نمائه ثروة الدولة وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهى قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما ألع عليه بعضهم بقسمة الارضين فى العراق والشام أبى ابقائهما بيداهما وانتفاع المسلمين بخرابهما فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا برأى وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً فى كتاب الحراج لابي يوسف وقال انى قد وجدت حجة الله تعالى فى كتابه وتلى الآيات التى نصت على الفى وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهى ما أفاء الله على رسوله) الى ان قال بعد ذكر ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والانصار) والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) وقال لهم عمر (رض) هذه الآية عامة لمن جاد بعدهم (أي بعد من ذكر وافي الآيات) فقد صار هذه الفى بينهم جميعاً فكيف

نقسمه لثلاثة (يعني الفاتحين) وندع من تخلف من بعدهم بغير قسم فاجمع على تركه وجمع خراجهم ووافقته على ذلك المخالفون وتم الامران تبقي الارضين بيد اهلهما لتكون مادة يستمد منها اهلهما والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل واساسه المتين

لما تمهد امر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بهت عتبة بن غزوان واليا على البصرة وولى سعد بن ابي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبه ثم ابا موسى الاشعري ثم عمر بن سرافة وغيرهم وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا اخاه على ماسقتي الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن اسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحوا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان الملاء بن الحضرمي اُحداً يظال حروب الردة عاملاً لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب بمبايلي خليج فارس وكان يباري سعد بن ابي وقاص اصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في ايام حروبه في الردة فله اظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستولى وجاء بأعظم مما جاء به الملاء رأى الملاء ان يباري سعداً ويؤثر اثرأ في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بنحوض جيوشه في البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما الملاء فقد تسرع وندب الناس لهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيش أعدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن الملبى والسوار بن همام
وعلى الجميع خُليد بن المنذر بن ساوى فحملهم في البحر الى فارس فخرجوا الى
اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهريذ فاعتم ان قابلهم الفرس
حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً
وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوار
فاسمات ابناهما عبد الله بن السوار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل
خليد يومئذ يرتجز ويقول

يال تميم اجمعوا النزول وكاد جيش عمر يزول
وكلكم يعلم ما أقول

فزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مئة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة
وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلاً وأخذ الفرس عليهم الطرق
فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا المدومدافعة الابطال الصناديد
وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته
ما يصير اليه من الهلاك في تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب
اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك ان ينضم بمن معه الى سعد بن أبي
وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عتبة بن غزوان والى البصرة بالخبر وأمره
ان يندب الناس الى نصرتهم قبل ان يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم
بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن
والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا في اثني عشر الفا
على البغال يجنبون الخيل كي لا يقنوا الركب وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد
بنى مالك وساحل (أى شى على الساحل) أبو سبرة والمساحل فى الاهواز وهم

ودء له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده
 الليوث البواسل فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم
 من كل فج فالتقواهم وأبوسيرة وتوافقت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم
 فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقتلهم المسلمون وغنموا منهم
 غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأي عمر وأخذ الحيلة اللازمة
 لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لأهل البصرة فضل عظيم بانقاذ
 جيش الملاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش إلى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه
 استغفاه فإبى أن يعفيه وعزم عليه أن يرجع إلى عمله فانصرف على غير رضاه
 فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر ووفاته فاشي عليه بفضله وولى مكانه أباسيرة بن
 زهم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبه في السنة الثانية فاستترفها إلى أن جرى
 بينه وبين أبي بكر ما جرى مما سيأتي في محله إن شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه
 أباموسى الأشعري

✽ خبر الهرمزان ✽

✽ وفتح الأهواز وأستر والسوس وغيرها ✽

كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد التادسية
 مع الفرس وانهمز بهزيمتهم فجاء إلى الأهواز^(١) وتولى أمرها وأخذ يغير على

(١) الأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص
 هنا ما ذكره في شأنها ياقوت في معجمه وهو

الأهواز جمع هوز وفي قول جمع خوز فهي على القول الأول محرقة عن حوز
 والحوز مصدر حاز الرجل الشيء بحوزه خوزاً إذا حصله وملكه والخوز في الأرضين
 أن يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق فذلك الحوز.

أهل ميسان فقلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأتاه بنعيم بن
مُقَرِّن و نعيم بن مسعود وأمرها أن يأتيها على ميسان ودست ميسان ووجه عتبة
سُلَيمي بن القين وحرمة بن مرَيطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض
ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم نواليم بن مالك فاتفقوا معهم على
المعاوضة وأن يشوروا بالهرمز أن وكان من زعمائهم غالب الوائلي وكليب بن
وائلي و نعيم و نعيم وبلغ ذلك الهرمز أن فسقط في يده فانهزم فتبعه المسلمون
وقتلوا من قومه ماشاءوا حتى انتهى الهرمز أن إلى جسر سوق الأهواز فعبه
وأقام بها ونزل المسلمون بحباله فلما رأى ما لا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا إلى
عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة إلى الصلح على الأهواز كلها ما خلا نهر تيرى
ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فانه لا يرد عليهم وجعل سُلَيمي بن القين
على مناذر مسالحة وأمرها إلى غالب وحرمة على نهر تيرى وأمرها إلى كليب
فكانا على مسالحة البصرة وكتب عتبة بذلك إلى عمرو ووفد إليه وفداهم سُلَيمي
وحرمة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا ووفد معهم بعض وجود أهل البصرة
وفيهم الأحنف بن قيس فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم فكلهم قال : أما العامة
فانت صاحبها ولم يبق إلا خواص أنفسنا : فطلبوا لأنفسهم إلا الأحنف بن
قيس فانه تكلم فأعرب وأعرب عن حاجات البصرى بن فاجابه عمر إليها وقال :
هذا الغلام سيد أهل البصرة ثم كتب إلى عتبة بن غزوان فيه بأن يسمع منه

وعلى القول الثاني الأخواز مواضع في خوزستان - وموقع الأهواز بين البصرة
وفارس وكورها أي أقسامها سوق الأهواز ورامهرمز وايندج وعسكر مكرم وتستر
ونجديسابور وسوس وسُرَّق ونهر تيرى ومناذر وكان خراجها ثلاثين ألف ألف
(٣٠ مليون) درهم وكانت الفرس تقسط عليها خمسين ألف ألف وعاصمة هذا
القسم هرمزدار ساپورا وسوق الأهواز

ويشرب برأيه ! وقيل بل احتبسه عنده في المدينة وسيأتى الكلام على هذا في
في سيرة الأحنف ان شاء الله

ثم ان عمر رد سلمى وحرمة وغالباً وكلياً الى مناذروته تيرى فكانوا عدة
فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين
فحضر ذلك سلمى وحرمة لينظر فيما بينهم فوجدا غالباً وكلياً محقين والهرمزان
مبطلاً فخالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضاً ومنع ما قبله واستعان بالاكراد
فكتب جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدتم
عمر بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وامره على القتال وعلى ما غلب
عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر الى رامهرمز وافتتح حرقوص
سوق الاهواز واقام بها واتت له بلاد سوق الاهواز الى تستر ووضع الجزية
وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزء بن معاوية في اثر الهرمزان بأمر عمر فانهى الى
قرية الشفر وأعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دوزق (وهي مدينة سرق) وفيها
قوم لا يطيقون منعها فاخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا
من هرب الى الجزاء والمنعة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص بن معاوية بن
زهير بلزوم ما غلب عليه وبالمقام حتى يأتيها أمره وذكر الطبري في غضون هذا
الخبر ان جزء بن معاوية استأذن عمر (رض) في عمرات البلاد فاذله فشق
الانهار وعمر الموات : وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء
بالمجبة والتدمير والتخريب فانهم ما وطئوا أرضاً الا عمروها وأنصفوا أهلها
في الحكم والمعاشرة والجوار

واما الهرمزان فاقام في رامهرمز وطلب الصلح فصوّل على ما لم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنونه وان غار عليه اكراد فارس منهوه وكان ذلك في سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أي جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرّضه على العصيان وحرّض أهل الاهواز عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصرة فكتب عمر الى سعد ان ابعث الى الاهواز بعثا كثيفامع النعمان بن مقرن وعجل وبعث سويد بن مقرن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له . وكتب بمثل ذلك الى أبي موسى الأشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرح الى الاهواز جنداً كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبي سبرة ابن أبي رهم فخرج النعمان في أهل الكوفة فاخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهري جازها ثم جاز سوق الاهواز وخلف حرقوصا وسلمى وحرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدة ورجأت يقتطعه وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس . وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم يستتر فالتقى النعمان والهرمزان بأرهلك فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهم زام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فامدهم بأبي موسى والظاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم أشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز في غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك . جزأة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من

أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان
يدله على مدخل للمدينة فنذب النعمان نقرأ من الشجعان فدخلوا معه المدينة
وأثناء وامن على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرأى
القلعة واعتصم بها ثم طالب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا أفاء الله عليهم فكانت سهم الفارس ثلاثة
آلاف وقتل ليلئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلتها
الهرمزان بنفسه

وخرج أبو سبرة في أثر الفل الى السوس وأحاط بها بجندة وكتب بذلك
الى عمر فكتب عمر برد أبي موسى الى البصرة وان يسير زر بن عبد الله بن كليب
الى جندي سابور وأمر على جند البصرة المقرب الاسود بن ربيعة أحد بني
ربيعة بن مالك

ثم ان أباسبرة أوفد الى المدينة وقد أفيهم أنس بن مالك والأحنف بن
قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلة الملوكية وتاجه ودخلوا
به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير
المؤمنين فوجدوه نائماً في يمينه المسجد متوسداً برأسه فجلسوا دونه وليس في
المسجد غيره : فقال الهرمزان ابن عمر : فقالوا : هو ذا : فقال ابن حرسه
وحجابه : قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغي ان يكون نبياً :
فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوي جالسا
ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان : قالوا نعم : فتأمل ما عليه وقال :
الحمد لله الذي اذل بالاسلام هذا وأشياعه يامعشر المساكين تمسكوا بهذا الدين
واهدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فاتها غرارة ثم قال هيه يا هرمزان كيف

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله : فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلق بيننا وبينكم فقلبتنا لكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا : فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا

هذا هو القول الحق الذي لا مرء فيه اذ ما حق الامم وذهب باستقلال الشعوب الا التفرق ومأمهد للمسلمين سبيل النصر على الدول الاجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعري الاخوة والوثام هذا على اغراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عري اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لما تطرق اليهم الوهن ولما فقرت منهم الهمة ولكن سيطر عليهم أمر أوهم فقرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الأعداء وتناسوا إنا رباهروا بباطل الأخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوثام وأقفر للالبتام منهم في هذا العصر الذي ملا فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخاملة بواعت الشعوب بما هوآت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظم العبر يفرقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنية تراجماً على اسم الرياسة وتواطوا مع الزمان على هذه الامة الاسلامية التي تمزقها الأعداء والفتاحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحر ان الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو والقاهر لا تلمس لها مخرجا من هذا الضيق ولا تفتأ تبدر رؤساءها الذين

قد فو بها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين
ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وما حاجتك في انتفاضك
مرة بعد مرة فقال اخاف ان تقتلني قبل ان اخبرك قال لا تخف ذلك فاستسقى
الهرمزان ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لومت عطشاً لم أستطع ان اشرب
في مثل هذا فأتى به في اناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني اخاف ان أقتل
وأنا اشرب الماء فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه : فاكفاه فقال عمر :
أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لي في الماء انما
أردت ان أستامن به فقال له عمر : اني قاتلك : قال : قد آمنتني : فقال كذبت :
فقال انس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنتته : قال ويحك يا انس انا او من قاتل مجزأة
والبراء والله اتأينني بمخرج اولاً عاقبتك : قال : قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني
وقلت لا بأس عليك حتى تشربه : وقال له من حضر مثل ذلك فاقبل على الهرمزان
وقال خدعتني والله ولا أتخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين
وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفدهو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من
القتل والآن فانه يعلم من اخلاق العرب الوفاء الى هذا الحد والله أعلم
خشي عمر رضي الله عنه ان يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة
مرار مع كونه عاهدم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل
ذمتهم في فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم
عن ذلك وقال لعل المسلمين يقضون الى اهل الذمة بأذى : فقالوا لا مانع الا وفاء
وحسن ملكة : قال فكيف هذا وما سبب غدر اهل فارس : فلم يجد عند احد منهم
شيئاً يشفيه ويصبر به مما يقولون الا ما كان من الأحنف بن قيس فقال : يا أمير
المؤمنين انا اخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في

أيدينا وإز ملك فارس حي بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتهما حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنالم تأخذ شيئاً بعد شي الأبا نباعهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجهم من مملكته وعز أمته فهناك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشاً: فقال عمر صدقتي والله وشرحت لي الأمر عن حقه ونظر في حوائجهم وسرحهم . وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند فحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد أن كان متوقفاً فيه لقتلة جيوش المسلمين بالنسبة لأهل فارس وعظيم قوتهم و ضخامة سلطانهم

قدمنا ان أباسيرة ذهب في أثر المهزمين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الأشعري وكان يزجر دبعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلاً من أشرف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بهامن أحب فضى سياه الى السوس وقد سلمت ودخلت في حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراستهم أنهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم: قد علمتم أنا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيفلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيوطهم بشجرها وقد غلبوا على مارأيتم وليس يلقون جنداً إلا قلوبه ولا يزالون يحصن إلا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيتك قال فليكني كل رجل منكم حشمة والمنقطعين اليه فاني أرى ان تدخل في دينهم . وانما أمرهم بان يكفوه الجند تلافياً لما عساه يحدث منهم

فما لو أسلم أشرفهم فلبى الرؤساء أمره ثم وجهوا أخدمه واسمه شيرويه إلى أبي موسى
 في عشرة من الأساورة فقدم عليه وقال له : أنا قدر غبتنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل
 معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمو تامنه ونزل
 حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقوا بنا بأشراف العطاء (١) ويعقد لنا الأمير
 الذي هو فوقك بذلك فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا قالوا لا نرضى :
 فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه أن أعطيهم ما سألوه ورأى منهم مرة
 تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا إليه بقلة العطاء فكتب بذلك إلى عمر
 (رض) فكتب إليه أن ألقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شي أخذه
 العرب : فقرض مائة منهم في الفين ولستة منهم في الفين وخمسة مائة فقال الشاعر
 ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتي من الأمر أبصراً
 فسن لهم الفين فرضاً وقد رأى ثلاثين فرضاً عليك وحميراً
 وفي هذه الآيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحقاق القوم
 بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قبلهم ولا جرم أن الانتفاع
 بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذي أدهش بحسن سياسته يومئذ
 ملوك الفرس والروم فرضى الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خيراً الجزاء

﴿ غير جندي سابور ﴾

(وأمان عبد امضاء جيش المسلمين)

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله بأشرف العطاء أي اعلاء أو بالأشرف من أهل

العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية وسيا تي الكلام عليه في هذا

جندى سابور وزير بن عبد الله بن كليب محاصره فاقاموا عليها يغادونهم
ويراوحونهم القتال فلم ينجأهم يوماً الا وابواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج
الاسواق وابتأ أهلها فخار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوه ان مالكم :
قالوا رميتم الينا بالامان فقبلناه وقررنا لكم بالجزء على ان تمنعونا فقال المسلمون
ما فعلنا فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا
عبيدعى مكثفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم : فقالوا انما هو عبد : فقالوا
انا لانعرف حر كم من عبدكم قد جاءنا امان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبذل
فان شتم فأغدروا : فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم
ان الله عظم الوفاء فلا تكونون اوفياء حتى تقوا مادمتم في شك اجيزوهم

وفوا لهم : فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم يعلم هذا العبد من اخلاق اولئك العاتجين السابية انهم يجيزون امانه
وان اخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه
بالامان واستنزلهم من المعقل ولو انصف جهالة المتعصبين من المؤرخين وتبعوا
اخبار هذا الفتح ومجثوا عن سيرة اولئك العاتجين واخلاقهم البارة بالانسانية
لكفوا انفسهم وثة التهم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهوجية والتخريب في
ايام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لا تعنى الابصار ولكن تعنى القلوب
التي في الصدور

(الانسياح في بلاد فارس)

أشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح (١) الجيوش
الاسلامية في بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس وقد انتهى

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى رأي الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش وأمر الأمراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة أي آخرها فيكون هناك حتى يبعث اليه وبعث بالوية من ولّي مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الأشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس : ولواء ازدشير خرمه وسابور الى مجاشع بن مسعود السلميّ : ولواء إصطخر الى عثمان بن العاص الثقفي : ولواء فسا وداربجرد الى سارية بن زعيم الكناني : ولواء كرمان مع سهيل بن عدي : ولواء سجستان الى عاصم بن عمر : ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبي : نخر جواني سنة (١٧ هـ) فمسكر واليسير والى هذه الكور فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدّهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة : فأمدّ سهيل بن عدي بعبدة الله بن عبد الله بن عثمان : وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النضر وعبدة الله بن أبي عقيل وبرئعي بن عامر ويا بن أم غزال : وأمدّ عاصم بن عمرو بعبدة الله بن عمير الأشجعي : وأمدّ الحكم بن عمير بشهاب بن الخارق المازني

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس سنين أعنى الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاء وحراب فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية بلو خستان أي السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند واحسن الفتح فتح خراسان : فامفتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا ترجي الكلام عليه الى سيرة الأحنف بن قيس : واما فتح نهاوند فقد كر طرفاً

من خبره هنا لأهميته ولكثرة ما عاناه المسلمون في هذا الفتح من المشاق وما
لاقوه من شدة العدو وعدته فنقول نقلاً عما رواه الطبري في تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذي هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس
وخوفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك اذا
لم يهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش في
نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشر والجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠
مقاتل فلما انتهى الخبر الى هوبدان حلوان كتب بذلك الى سعد بن أبي وقاص
وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة
واستشارهم في الامر فنهض منهم من أشار عليه بالهوض بنفسه الى فارس ومنهم من
أشار عليه بالمقام ويتسرح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك ومن رأى ان
يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان (رض) فانه قام فقال (١) بهد ان تشهد
أرى يا أمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب
الى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصريين
البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم
أحدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى
عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضي بهم البحث لاختلافهم في
المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة وبين أهل
شورى وجهتهم واحدة وأخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه أحدهم رأي الآخر
ولا يتناول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الأدب والرياسة فان قبل كان بها
والأقل فيه أن يقول ما يشاء

وعندك . قل في نفسك ما قد تكاثرت من عدد القوم وكنت أعزَّ وأكثَر .
يا أمير المؤمنين أنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتع من الدنيا
بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فاشهد برأيك
وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال

إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فتكلموا : فقام علي بن أبي طالب رضى

الله عنه فقال

أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم مبارت
الروم الى ذراريهم . (٢) وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم مبارت الحبشة الى
ذراريهم . وأنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من
أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات
والعيالات . أقررهؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها
ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرْمهم وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا
ينقضوا عليهم ولتسر فرقة الى اخواتهم بالكوفة مددًا لهم . إن الاعاجم ان ينظروا
اليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكبهم وألبتهم
على نفسك . وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو اكره لسيرهم منك وهو
أقدر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى

(١) يريد لا تبالي بنفسك اذا أصيب العرب بشئ وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة

دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره
الصحابة ورأوا لزوم اعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على
المسلمين (٢) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم
يسبغون الى الشام حيث لا يبقى الا النساء والاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكننا كنا نقاتل بالنصر :

فقال عمر : أجل والله إن شخصت من البلد لتنقضن علي الأرض من أطرافها واكنافها وإن نظرت إلي إلا عاجم لا يفارقن العرصة وليمدنتهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فإذا اقتطعتوه اقتطعتهم أصل العرب فأشيروا علي برجل أواه ذاك الثغر غدا واجعلوه عراقيا : قالوا أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة وأنت أعلم بأهل العراق : فقال أما والله لا ولين أمرهم رجلا ليكونن لأول الأُسنة إذا لقيها غداً : فقيل من يأمر المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن الزني : فقالوا هولها :

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمدهم بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان علي خراج كسكر وكان كتب الي عمر يستغفبه من اماره الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان اماره الحرب كانت أحب الي اقبال الصحابة من اماره الخراج لا اعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الي اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقنال . واليك كتاب النعمان الي أمير المؤمنين ومنه ترى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم أما بعد ان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الي جنبه موسى تلوون له وتطرارة فأشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الي جيش من جيوش المسلمين

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأب بن طابخة المزني نسبة الي مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربع مائة من مزينة وقيل هاجر . ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بها وند

فكتب اليه عمر أن اتت الناس بنهاوند فاني قد وليتكم حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماء فاني قد كتبت الى أهل الكوفة ان يوافقوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسراى الفيرزان ومن تجمع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثر وأمن قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقى بالنعمان فتكون له اماراة الجيش وكتب الى سلمى بن القين وحرمة بن مريطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق المعجمى وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند امداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر ان معك حد العرب ورجالهم فى الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم فى العلم بالحرب واستمع بهم وأشرب برأيهم وسئل طليحة وعمر أو عمر أو لا تولهم شيئاً

ويعنى بالعدين عمرو بن معدى كرب الزبيدى وعمرو بن أبى سلمى العنزى وهما وطليحة بن خويلد الاسدى من زعماء العرب فى حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأييدهم لانه رضى الله عنه كان لا يرى تأييد احد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما سناخ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم فى إبان الفتح والحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين فى البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن أبى سلمى وطليحة الأسدى

لاستكشاف حال العدو ونخاف عمرو والتوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان
بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بأن ليس بينه وبين نهاوند شي يخشاه
فقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائداً اسمه الفيرزبان وآخر
اسمه بهمن جاذويه ووافى النعمان بمداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة
وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام قبلها من أهل
الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بأشراف أهل
الكوفة فبنوا له فسطاطاً (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان
وعصبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصة وحنظلة الكاتب بن
الربيع وابن الهويز وربيعة بن عامر وعامر بن مطر وجري بن عبد الله الحميري
والأقرع بن عبد الله الحميري وجري بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس
الكندي وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر فلم يُرَبَّنْهُ فسطاط بالعراق
كقولاء وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي جعلها الإسلام بين أشراف العرب
وأنشبت النعمان القتال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في
ذلك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس إلى خنادقهم وحصرهم المسلمون فقاموا
عليهم ما شاء الله والاعاجم لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على
المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الأمر فجمع النعمان أهل الرأي والنجدة للشورى
فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الأسدي أن يبعث
النعمان خيلاً تفاجئ الأعداء في خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم
حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانهى النعمان إلى
رأي طليحة فأمر القمقاع بن عمرو وكان على المجردة فعمل وأنشبت القتال مع
المعجم فلما خرجوا انكص وما زال يتأخرنا كصائبه المهزم حتى اقترب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبئة فاخذ يمر على الصفوف ويحرض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ثم حمل النعمان وجمال الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وكانت وقعة لم يسمع بمثلا قط وسال الدم في ارض المعركة فزلق به الناس والدواب واصيب فرسان من فرسان المسلمين في ازلق وزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه وتناول الراية نعيم ابن مقرن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتبوا مصاب أميركم كئلا بين الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا في الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدماه فاردكه عند ثنية همدان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في اثره واخذ دولما بلغ الفل همدان جاءت خيل المسلمين في آثارهم فزلوا عليها فخرج اليهم خسرو شنوم فاستأمنهم وضمن لهم همدان ودستبي وان لا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل في وقعتها وندناس من المسلمين ويقال ان ممن قتل يومئذ طليحة الأسدي وعمر بن معدى كرب الزبيدي ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس وانحتوا واماقيها وماحولها وجموا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١) وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهزبذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فاعطاه حذيفة ذلك فأخرج له تلك الذخيرة في سفطين (٢) وهي جوهر ثمين

(١) امين المال والغنائم (٢) قال في القاموس السقط محرقة كالجوالق أو القفاه قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو ما يسميه الشاميون الآن العيدل أو الكيس وما يسميه المصريون الزكية

كان أعدته لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ورفع ما بقى من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بنخبر الفتح وهو طريف بن سهم اخو بني ربيعة وكان عمر متمللا ينتظر اخبارها وندفما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته وترجم على النعمان وكان رضى الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القواد يحزن حزنا شديدا اذا أصيب أحد منهم ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت في المسجد وأمر عمر نفر آمن أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وأخبره خبرهما وان الناس رضوا بان يكونا له عمر: يا مليكة والله مادروا هذا ولأنت معهم فالنجا النجا عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمها على من أفاءها الله عليه: فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامها فباعها فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة الابين)

هذه هي العفة التي قل أن تكون في بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال لله من ان عمر ليس بنبي ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقا ان هذه الاخلاق اخلاق الانبياء الذين استهانوا بالديار ومتاعها والآفاي خرج على عمر رضى الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيهم ومما غنموه بسيو فمهم لو لم يكن متخلقا بأخلاق النبوة المحمدية مخلصا لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغانم وراحتهم فرضى الله عن نفسه الطاهرة مما أشر فيها وأسمها ومن للأمة بعمر ثان

يرداخراها الى اولها ويبدل نفسه في سبيل سعادتها
ثم لما جئ بسبي نهاوند الى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقي
منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي: وكان نهاوندياً فأسرتة
الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعد فتنسب الى حيث سبي
ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماهرذان وماه دينار وطلبوا من
حذيفة الامان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته
(عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار
أعطاهم الامان على أنفسهم وأموالهم وأرضيتهم لا يُغيرون عن ملة ولا يحال بينهم
وبين شرائعهم ولهم المنعة ^(١) ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين
على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقتة . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا
الطرق وقرؤا (أضافوا) جنود المسلمين من مبريتهم فأوى اليهم يوماً وليلة
ونصحوا . فان غشوا وبدلوا فدمت انهم بريئة . شهد القعقاع بن عمرو وتميم بن
مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهد أهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ولم
نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محرقة هي الحماية والامتاع بالعشيرة وكان المسلمون
يشترطون على أنفسهم للذمة المنعة أي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب
ومن كل من أراد به سوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين
في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح
وهذه هي العلة في أن الدول الاسلامية لاتعمم احكام الجندية ولا تأخذ من أهل الذمة
عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع اعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال
يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات
الاسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

وما يستنبط من هذا الكتاب ان العرب لما آمنوا في بلاد فارس وكثرت
مخالطتهم للفرس والروم أخذوا باصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك
وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الأمم التجارية
والحربية اجبارياً على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض
ابن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها
نهاوند والماء وربما كانوا أو الطرق في التشعث والحراب تابعة لسائر العمران في
مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كاتنا عليه من التناهي في الظلم وانغال شؤون
العمران فاشتروا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما
أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لاننا لم نر في كتب العهد السابقة على
ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا
عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا أضفنا اليه انصراف
همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة
الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رأيت وسترى
في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماء مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن
واسمه دينار وبه سمي الماء الواحد ماء دينار وكان سبب صلحه ان أحد ابطال
المسلمين وهو سماك بن عبيد العيسى أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من
عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه الى الامير ليصالحه على
بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله فوفى
للمسلمين بالمهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تابعاً للعامل
الكوفة فاختر اخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العيال ومنايذة
 الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال
 يا معشر أهل الكوفة أنتم أول ما مروا بنا كنتم خيار الناس فميرتم بذلك
 زمان عمر وعثمان ثم تعيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخيل وخب (أي خداع)
 وغدرو ضيق (الشك والتردد). ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في
 مولدكم فعلمت من أين أيتيم فاذا الحب من قبل النبط والبخل من قبل فارس
 والندم من قبل خراسان والضيق من قبل الأهواز:

وانما أحببت إيراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ
 ولت بالتاريخ من جهة تعير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في
 أيام الخلفاء علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن بعدها وسأبسط الكلام على هذا
 في محله إن شاء الله

والى هنا تقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد المعجم اكتفاء بما أجمناه
 من خبر انسياح الجنود الإسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة
 عمر رضي الله عنه وانما توسعنا في بعض الأخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض
 الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح
 والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا
 عليها الشروح وتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في مسيرة
 أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي هذا من المشقة ما ربما يبطل بنا
 كثير آفي إيراد هذا التاريخ على أن الفائدة التي قصدناها حاصله إن شاء الله وفي القليل
 أحياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

﴿ فتح الجزيرة ﴾

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فإنه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة وهضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من ازمان منطاولة قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يد عبد الله بن المعتم وربيعي بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يد عياض بن غنم^(١) لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ و سنة ٢٠ وتحرير الخبر أناذ كرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وأن عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بان يمدأبا عبيدة في حمص بالقمعاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القمعاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا ووا حاصر عياض بعض مدن الجزيرة

(١) قدم معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتح الجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو سعد وقيل أبو سعيد وابو عبيدة بن الجراح بن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة بالشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلاً شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لانه كان يطعم الناس زاده فاذا نفذ نحر لهم جملة وكان اسلامه قبل الحديبية رضي الله عنه وارضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابية شخص للسلام عليه هو وخالده وأبو عبيدة
ومعظم الامراء فطلب أبو عبيدة من عمر رضي الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل
وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة في طاعون عمواس سنة (١٨) استخلف عياضاً
فورد عليه كتاب عمر بتوايته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقتسرين وأضاف اليه
الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحها فسار ومعه من القوادميسرة بن مسروق
العبيسي وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وصفوان بن المعطل السلمى ويقال
وخالدين الوليد والإصحح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة
وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفي هل سار
من قبل سعد وهو في العراق أم من قبل أبي عبيدة والصحيح الذي يستتبع من
مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي
فتحت هي الرقة والرها (أوزفا) ونصيبين وحران وساميساط وسنجار
وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة القهري) وسروج وجسر
منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا
وكرديستان شرقاً ثم دخل الدرب^(١) فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان
وجازها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد فضعن صاحب بدليس خراج
خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ فولى عمر مكانه
سعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الا قليلاً حتى مات فولى عمر عمير بن سعد بن
شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أباه سعد

١٥ قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى

الروم اهو والقصود يقولهم أدرب أى دخل الدرب

يوم القادسية

فتح عمير عين الوردية ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الحبابور ويصب في الفرات ثم سلك الحبابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الأول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ النأوسه والوسه وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو ما فوق الانبار فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضى الله عنه أعطى كتاباً في الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم معاني أو اخرج باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران في عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة اصلاح الطرق والجسور وهانحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرها وهو بنصه عن فتوح البلدان (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على ان تؤدوا الي عن كل رجل دينار أو مديني فتح فاتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيداً:

باب

﴿ فتح مصر وبرقة ﴾

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً في فتحها لانه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية في سنة (١٨) اختلى به وفتحها بما في نفسه وهو ن عليه أمر مصر
ورغب اليه أن يوليها فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الأمر لأن جيوشه متفرقة
في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى
استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر
وأنا مستخير الله في مسيرك وسياتيك كتابي إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابي
وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف
وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره
فسار عمرو بن العاص ووافقاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه
حتى دخل أرض مصر وسيأتي الكلام على هذا في سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى
بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحو أم من شهر فهزمهم وتقدم إلى القواصر ولا يدافع إلا
دفاعاً خفيفاً ثم إلى بليس ثم إلى أم دين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمدته
بأربعة آلاف ثم استمدته مرة أخرى فأمدته بأربعة آلاف آخرين وكتب إليه أني قد
أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد
ابن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أن معك اثني عشر
ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة :

كان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو
بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس
مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد أن تم الصلح شخص عمرو وبجنده إلى
الإسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة
وكتب بالفتح إلى عمرو واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب
خراجها وتقرير أسباب الراحة والأمان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد رأينا ان نرجح تفصيل الكلام على فتح مصر
وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى
سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو والامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي
واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بتغازي فصالحه اهلها على
الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن
الخطاب : اما بعد انا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين افريقيا ^(١) تسعة ايام فان رأى
أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل : فنهاه عمر فولى على برقة عتبة بن نافع
الفهري وعادور بما ذكرنا ذلك في سيرته بيان أطول ان شاء الله :
انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

﴿ باب ﴾

تعبية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق أن نورد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبئة
الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفنيهم في أساليب الحرب ووقاؤه
بالوعدا فردنا هذا الفصل لهذه الغاية وليبيان أصول التجند وديوان الجيش على
عهد فنقول

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم
أيضاً والظاهر ان الجغرافيين سمو القارة كلها بهذا الاسم بعد من قيل تسمية الكل
باسم الجزء

اعلم ان العرب أمة حربية قل أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والاقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نومة الاظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وأتلافهم للقتال وحبهم للغارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية إلا أنه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أسلحة آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الا هواء المنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح افرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لحصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقهم في الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والالتقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهر وافي قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم في كل مكان فمن ذلك أنهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يعمنون في داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم رداءً أي مدداً يحمي ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردهم يزيد بن أبي سفيان وعند مسير الجيش الى اصطخر لا تقاد العلاء حيث قامت المسالخ من البصرة الى الأهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لا يحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حص دمشق وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالده ويزيد بن أبي سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدؤون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقحام صحاري بلادهم كما رأيت ذلك في عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون أن يجمعوا هذه الوقائع الأولى كيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم ما دون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدها من النصر انما تأتي عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم واضعاف قوتهم في هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم في اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد في فتح دمشق واستعمال التائي والحيلة في الحرب توصلها للفتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الارطبون بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليوقف من حال جيشه على مالم يقف عليه بواسطة الرسل

وكا صنع عبادة بن الصامت في فتح اللاذقية باظهاره القبول عنها وحفره الاسراب
لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصده غاراته
كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف
المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشئ من ذلك فأدرت عليه الجنود من جهتين
من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر
في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يتمكنوا من المهاجمة ولا الوصول
الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمدبعضها بعضاً
عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فانسرت
القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصره هرقل ريثما تمت هزيمته
وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر
الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك
في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما يسر لهم هذا
الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق
المواصلات بين تلك الجيوش وبين الرذذ الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان
هذا واشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كلها
تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم في أساليب الحرب وأصول القيادة
على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده
عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد في الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من أعظم قواد الجيوش في العالم هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالأيذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم في المهالك والتريث في الحرب والتبصر في أمور القتال الى غير ذلك مما صرنا به في هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

وأما تسمية العرب للجيوش في إبان الفتح الذي مر ذكره في هذا الكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق معنا ذكره في هذا الكتاب من تسميتهم للجيوش في وقائهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم في فنون الحرب ومكانهم من البصيرة في تسمية الجيوش التي تشبهها من كل الوجوه تسمية الجيوش في هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والرذء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المباشرة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو فصاروا في الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون في المراتب فمنهم الامير العام (المشير الآن) ويليهِ خليفته (القريق الآن) ويليهِما امراء التسمية كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهِم خلفاؤهم (الميرالايات الآن) ويليهِم امراء الكراديس (الصفوف) ويليهِم المرعاء وامراء الاعشار (الجاويز) والنقباء ولعلمهم رؤساء المائة وفضلاً عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذي يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضي وأمير الاقباض أي الذي ينتهي اليه حفظ الغنائم وقسمة الفى والترجمان

والكاتب والاطباء لداوة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تسمية
الجوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه ان خالد بن الوليد عتي جيش المسلمين يوم اليرموك
تعبية لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة
كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل اليسرة
كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس
قائداً فجعل القمقاع بن عمرو وعلي كردوس من كراديس أهل العراق ومدعور بن
عدي علي كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس
منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي ومهيل بن عمرو القرشي
وعكرمة بن جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش وأما من كان من غير قريش
فمنهم ذو الكلاع الحميري والسبط بن الأسود الكندي وضرار بن الأزور
الاسدي وجارية بن عبد الله الأشجعي واضرابهم من صناديد العرب الذين
نضرب صفحاً عن ذكر أسماؤهم جباً بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء
والقاص^(١) أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قباث أشيم الكناني وكان على
الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القاري المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ
سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويخرض
المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبئة الجيش على اليرموك وأما على القادسية فربما كانت
أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري ان سعد بن أبي وقاص قدر

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصه ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى

الصفوف ويأتيه بأخبارهم

الناس وعبأهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمر أمراء الاجناد وعرف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات ازمان النبي صلى الله عليه وسلم: قال الطبري وكذلك كانت الى ان فرض العطاء: وأمر على الرايات رجالاتاً من أهل الساقية وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالاتاً من الناس ولهم وسائل في الاسلام وولي الحرب رجالاتاً فولي على مقدماتها ومجنباتها وساققتها ومجرباتها وطلاتها ورجالاتها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فاما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبد الله بن قنادة بن الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب: واستعمل على المينة عبد الله بن المعتم: واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره في ذلك في سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمري على الساقية وسواد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الاسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الحثمي فكان أمراء التعبية يلون الامير (أي بعده في المرتبة) والذين يلون أمراء التعبية أمراء الاعشار والذين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقوادير وس القبائل: قال الطبري وبعث عمر الاطبة^(١) وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمه النبي وجعل داعيتهم^(٢) ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجري والكاتب زياد بن أبي سفيان

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الحيش ولو عدداً قليلاً لمداوة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اي الذي يدعو الي دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذي يرتادهم مواضع التزول

وأنت ترى من هذا أن تسمية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت واقية بالعرض من كل الوجوه وما يخال ان تسمية جيوش الدول المتعددة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تسمية جيوش المسلمين وإنما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فإن العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق^(١) والمجانيق والسلاالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا إلى استعمالها في حروبهم معهم كما رأيت ذلك في الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما أنهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضاً أنواع السلاح الجيد الذي كانوا ينمونونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وإنما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ في قلوب الأمم كما رأيت ذلك في أخبار الفتح يضاف إليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المراقبة وإقامة المسالح في الأطراف التي يأتي من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالأخبار وشحن الأماكن المخوفة بالجنود وإقامة الحراس على المناظر التي توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التي يقبل منها العدو، وبالجملة صرفه العناية في كل ما يعود بالقوة والمز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك في هذا الكتاب. ويضاف إليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم في أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الآخروي الذي كان يحب إليهم الموت في ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الأعداء: وصبرهم على المكاره وتحملهم لشغف الجيش

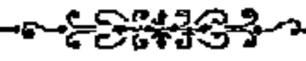
ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوباً أو كثروا
واعتمادهم بالحصول على النصر الذي وعدم الله به اذا نصره الحق وعدلوا
بين الناس

كل هذه من الاسباب التي رجحت جانب المسلمين على جانب الاعداء
ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذي وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع
العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت
ذلك مما قاله عمر لاهل مزيان وهو : انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا :
وحسبك في مهاجمة الأمة العربية لدولتي الفرس والروم وإقدامهم على التغفل في
أحشاء الملكتين القديمتين في آن واحد ومهابتهم التي خامرت النفوس دليلاً
يؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهد أيضاً يشهد بفضل الاسلام الذي جمع على
كلمته تلك القبائل المتفرقة التي ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك
الاجتماع : هذا وأما أصول التجنيد في عهد عمر (رض) وأعطيات الجند وديوان
الجيش فالكلام عليه طويل وانما يجزئ عنه بما يأتي

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة
الاسلام الا انه من فروض الكفاية التي اذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى
هذه القاعدة بنى التجنيد في الاسلام فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد
فمن أجاب كان جندياً له حظ في الفى والغنائم واستمر ذلك في ولده الى ما شاء الله
ولا يؤخذ من هذا أن الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضاً
اجبارية وللخليفة اذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة
وكان أبو بكر رضي الله عنه يسوي بين الناس في قسمة الفى ويضرب في الغنائم
للقارن منهم ثلاثة أسهم سبعة لغيره وسهم له وللراجل سهم ولا يفضل الخيل

بعضها على بعض وبقى الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أي إلى سنة (١٥) حيث دُونَ عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة النبي بين الجندي بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبري أن عمر لما فرض العطاء فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسية (أي الحروب التي كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لأهل البلاء (أي الذين عرفوا بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد البرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هي الأصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض هؤلاء الروادف على درجاتهم للمثني منهم خمسمائة وخمسمائة ثم للروادف الثلث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قوتهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجندي من الخمسمائة إلى المائتين وجعل للصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت إعطيات الجندي في ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) في ديوان يقيده في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضي الله عنه ومن بعده يزداد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والأحوال كما سترى بعده وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوي بين الجنود الاعاجم من الفرس
والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم في طبيقته باعتبار السابقة أيضاً
بل وبما يميز بعضهم أحياناً في العطاء ناليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه القارمي
وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك في خبر فتح تستر والسوس
وكانت أصول اعطاء العطاء لاهله على ما في رواية ابن جرير الطبري هكذا
يدفع العطاء الي أمراء الامبياع وأصحاب الرايات والرايات على أيادي العرب
فيدفعونها الي العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونها الي أهله في دورهم : ولنا كلام
آخر على تدوين الديوان والنهي وحكمه سيأتي في باب آثاره في الخلافة ان شاء الله



باب

(علاقته مع الملوك)

كانت علاقته مع قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفي رضي
الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد في بلاده وتدوخ ملكه وأما علاقته مع
ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر
(رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية
وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا
هل كانت مع هرقل الأول الذي انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثاني
المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الأول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة
(٨٢١) وتولى الملك ابنه المذكور في هذه السنة أي قبل وفاة عمر (رض) بسنتين
وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الأول أو الثاني فقد بلغ من توثق
عمرى الفلألق الحبية يومئذيين الفريقين ان كانت تردد بينهما الرسل بالمكاتبة

وان أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت
مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى
أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذبة في نظيرها عقداً نقيساً من
الجواهر فأخذها منها عمر وردة الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال
وأما الطبري فذكر ان أم كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية
الطبري يتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها
العلم كله فكتب اليه أحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك
الحكمة كلها واعتبر الناس بما يابيك تجتمع لك المعرفة كلها الى ان قال بعد ان
أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما وبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى
ملكة الروم بطيب وشارب واحفاش من احفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه
لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمت نساءها وقالت هذه هدية امرأة
ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبها وكافها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقداً فاخر
فلما انتهى به البريد الى عمر أمره بيا ساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلي بهم
ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم من غير شوري ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن
أمر العقدة فكلمهم أشار بدفعه لام كلثوم فقال ولكن الرسول رسول المسلمين
والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال ورد على أم كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على
غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه
وسأله وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك قرأى
هرقل ان سألته خير من مناواته ففعل وكان من الغائبين

— باب —

(أهم الاحداث في عصره)

أهم الاحداث في خلافة عمر رضي الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فاما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبري انه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وقتك بالناس فتكا ذريعا ومات به في الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأنه خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فاما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال ثم خرج وخرج الناس فتمرقوا في الجبال ورفع الله عنهم وروى الطبري عن ابن عباس ان عمر خرج في تلك السنة غازيا وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سرغ واقاه أمرأه الا جناد في الشام وأخبروه وخبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرايت لو ان رجلاً هبط واديا له عدوتان (ضفتان) احدهما خصبة والاخرى جديبة اليس يرعى من رعى الجديبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فيينا الناس على ذلك اذا أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخفياً عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندي من هذا علم : فقال عمر فانت عندنا الامين المصدق فماذا عندك : قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقده، واعليه واذا وقع وانتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فله الحمد انصرفوا اليها الناس فانصرف بهم^(١) ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما اصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضع المواريث قدم الشام ونزل الجاية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما ستري ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم ان طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين واقتى منهم أكثر من عشرين ألفاً وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي اصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقده عن مهاجمة المسلمين خصوصاً اذا كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم البادل وسيرتهم الطيبة المسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الي هذا ملل القوم من الحرب واخلاصهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرمادة فسمى بذلك لريح كانت تسفي تراباً كالرماد وصاب الناس بالحجاز جماعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمناً ولا عسلاً حتى يمحي الناس ويكونوا ياهم

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية

الحجر الصعي المعروف بالكورنتينا

سواء بالخصب والجذب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً
 عكة سمن ووطب^(١) من ابن فاشترها غلام لعمر بأربعين درهماً ثم أتى عمر فقال
 يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق ووطب من ابن وعكة
 من سمن ابتعتها بأربعين درهماً فقال عمر تصدق بهما فاني أكره أن آكل اسرافاً
 وقال كيف يعني شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم وكتب عمر إلى أمراء
 الأمصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام إلى المدينة وبعث أمير الشام
 بأربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا إنه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لأن عام
 الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذي توفي به أبو عبيدة بن الجراح وبذلك على
 هذا إرسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وإنما كان فتح مصر بعد الطاعون
 إذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمه
 الموارث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨
 والذي دعا عمرو بن العاص لاختفار الترع الموصلة بين النيل وبحر القلزم إنما هو
 عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الأثير إن عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه
 الطعام وهو غير مفهوم وإنما أرسل الطعام في البر ثم استأذن عمر بحفر الترع
 ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة
 بين المدينة وبين مصر وسنستقصي الخبر عن ذلك في سيرة عمرو بن العاص
 إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالباس ودعا ودعا معه العباس
 رضي الله عنهما ففرجها الله على الناس وأرسل عليهم من سمع رحمة السحاب
 الثقال فسقت الأرض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة والحديث

(١) العكة القرية الصغيرة والوطب سقاء اللبن أي وعاؤه

الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لانهج الخوض فيه فليرجع اليه من شاء
في كتب المحدثين

باب

﴿ آثاره في التاريخ ﴾

(كتابة التاريخ الهجري)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم
فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلاً وولد فلان
بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك في الاسلام الى مضي سنتين ونصف
من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أي الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها
رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح
ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال في الحكومة الاسلامية فجمع
الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أي يوم نكتب التاريخ فأشار
عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التي هاجر بها
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان رة كانت
دولة الاسلام في خلافة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر في مبادئ الظهور
وسداجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة
التي كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء (١) وأما المعانم والتي فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم النبي في الاسلام ووجوه صرفه التي أبانها

تخرج أخصائها التي يبعث بها المدينة الى صرف العناية في ترتيب الشؤون الادارية على اصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم وانما كانت العناية منصرفه الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا

الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة تشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنها تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا وهي ليست كافي من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمي الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاية الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين بسهم وللغارمين وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو اب مملوك أو اخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين: في كلام طويل يرجع اليه من شاء في كتاب الحراج وانما نقول هنا ان الأمة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن وأي شريعة في العالم تقضي على الأمة بوقاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واطالة فقرائها وموانستهم بقسم من مالها وأي شريعة في العالم تأخذ من الاغنياء قسما من مالهم لتشتري به الارتقاء وتجعلهم أحراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فحسروا وكانوا من التادمين قاتنا لله وانا اليه راجعون

في المالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناجي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمراته بضبطها ولا قبل لهم بأحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الأضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدتها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان: أرى مالا كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ من لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا^(١) فدون ديوانا وجند جندا : فأخذ يقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو دفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسماه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامه على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسماه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الأردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

عن أحد كتاب الروم أمر أساءه فأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله ان يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كثيراً فلقية قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله له الى العربية هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زاذان فروخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردان شاه بن زاذان مائة الف درهم على أن يظهر المعجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة سترد في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تحتاج في جسمها فتدير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على اصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب العربية عن لغتهم مع ما في هذا من العيب الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وانما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الاعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراسي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران اذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الامر كما لم يروا مانعاً في الدين يمنعهم من مبارات الأمم في اصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس: ومن البلاء ان الصق ببعض الفقهاء بعد كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحره واعلى الأمة العمل بأي شيء يافع مادام

لم يصنع بصيغة إسلامية ولو تمحلاً: ولو كان الدين يضيق على هذه الأمة إلى الحد الذي توهمه أولئك الفقهاء أما قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد المدد الحربية نحو ذلك وإذا قيل إن عمر رضي الله عنه مجتهد له أن يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى الأمة أن تعمل فكيف ساع مثل الحجاج بن يوسف أن يسدل أمراً اجتهد به خلفاء الراشدون وأقرؤه فأصبح شرعاً لا ينبغي لأحد سواهم التصرف فيه والمدول عنه .

ألهم إن طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقي في مراقب السكالك وشأن الأمم هذا شأن الأفراد في إحرار العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذ الله أن يرضى الإسلام بالخرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب وإنما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شيء بصيغة الدين جعلنا نحكم بقولنا القاصرة في الدين ونعتقد أن الأخذ بأي سبب نافع من أسباب المدنية التي توصل بها إلى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيف عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الأمر الذي يدعونا الدين إليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق الكبرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الأوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الأصول العلمية والإختيارات الفنية نقشى السلطان أن هو لم يأخذ بأصول الجندية

الجديدة ولم يبار بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الاوربية ان تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة اذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع اهالي المورة لثورة فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية والمسكرية والبناء الجندية النيجرية ورأى ان تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود النيجرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير الدولة العثمانية للزوال وهو شتم وعلو نفس واقدام قل ان صدر مثله عن أحد من الملوك الا فيما ندر اذ معظمهم يجلون حياة الدولة والملك فداءً عن حياتهم الشخصية ولا جرم فان لكثير من افراد هذه الاسرة العثمانية كثير امن الايدي البيضاء على الامة وكل امرئ يذكر بفعله واجهل المؤرخين من نعمت فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدم وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره فخر ضوا عليه العامة واثار واعليه الضغائن بحجة انه يريد التشبه بالافرنج وما زالوا يكافونه مع النيجرية ويكافهم حتى تغلبوا عليه وخلصوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود كان قصارها إهراق سيول من الدماء اشد بعدد السلطان محمود رحمه الله بما ضى عزيمته إرادته في الاصلاح وقضى على نظام النيجرية وأهلها شر قضاء وتالله لولم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على أمرها واتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لا جرم أنها كانت ذهبت لا قدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلاً في الغابرين ولو
سئل ساعد عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد ثلاثي المسلمين لا جايك
بالبراءة إلى الله من ذنبه واستغفر إلى ربه

على أن الدولة العثمانية حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقيل وقبالت من
الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ما جعلها تدخل في مصاف
الدول الأوروبية وان كانت الأمة العثمانية لم تنزل في دور الانحطاط وأما غيرها من
الدول الإسلامية كدولة مرآكش مثلاً فانهالم تنزل إلى الآن على ما كانت عليه منذ
مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للإدارة ولا للقضاء وليس عندها
مدارس تعلم الناشئين العلوم الحديثة والاصول الحربية وتكسب الأمة ملكات
العلم بحاجات العصر وترشد الدولة إلى أسباب المنعة والقوة والمانع من هذا كله
هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد
هلاك الأمة والمانع من ترقى المسلمين ولو كشفت الأمة المرآكشية عن بصائر
حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام
الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بمحظ من اصول المدنية النافعة لكانت
أحسن دول الإسلام حالاً وأعظمهن قوة لحول بلادها من أهل الملل من غير
المسلمين الذين تجعلهم الدول الأوروبية في الممالك الأخرى ذريعة لمديها إلى
الشؤون الداخلية والتعرض بالأذى للدول الإسلامية وتالله أن أمة يبلغ عددها
الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد ورزقها الله تعالى ساعظم النفس
عالي الهمة محباً للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته
في إعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب متينة الجانب ولكان لها جيش
منظم يزيد عدده عن التصف مليون محمي ديارها ويرد الغارة عن ديارها ولو لکن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل
 هذا وأما فرض العطاء فإن عمر أمر بأن يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك
 بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة
 والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين
 والنساء والأطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الأحاديث والتاريخ وقد
 أشرنا إليه في باب ديوان الجيش: وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت
 في بيوت الأموال عدّة لكون إن كان: فقال كلمة ألقاها الشيطان على
 فيك وقانى الله شرها وهي فتنة لمن يعدي بل أعدّ لهم ما أمرنا الله ورسوله .
 طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا إلى ماترون فإذا كان هذا المال ثمن
 دين أحدكم هللكم:

على أن العطاء على ذلك الوجه لم يستمر إلا مدة الخلفاء الراشدين ثم بالتغير
 حال الدول وانتشر الإسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخمس
 بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها الأعلى نسبة التي كلف أي خصصوا لهذا قدرًا
 مخصوصًا من التي يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في
 وجوه المصالح العامة لأن العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار أنه في أخذوه
 بسببهم إذ كانوا كلهم جنودًا محاربين فأمحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة
 مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضًا واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد
 الأموال وادخارها في بيت المال لاتفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها
 الدول وتقتضيها أهية الملك هذا بقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف
 الدولة وشبهوات الملك لا ب هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفة وشره
 وامسالك وبذل

وأما الكلام على النبي الذي هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وما هو
وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث
فبسط في كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع إليه من أحب
وانما زيادة في الفائدة نقول هنا إن النبي هو كل ما صالح عليه العدو بعد
وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس إلى الامام ليقسمه بين أهله
الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين في
الثغور والقائمين على حراسة الدولة إلا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أي
لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد
واعلم أن الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف النبي أي وجوه
الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع ما يعرف الآن (بالبودجه)
ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة فقد روى الطبري في تاريخه
عن ابن عباس قال: لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا
فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر
وعلي على أن يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى)
يعني من الخمس (فله وللرسول) من الله الأمر وعلى الرسول القسم (ولدى
القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها
(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الأربعة الأقسام
على ما قسم عليه الخمس فيمن بدى به وثني وثالث وأربعة أخماس لمن أفاء الله
عليه المنعم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً: بقوله تعالى: (انما غنمتم من شيء فإن لله
خمسه) فقسم الأقسام على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعلي وعمل به المسلمون بعد
هذا ما ذكره الطبري وإنما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

وأما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما
توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء في مناحي الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب
كما علمت هذا مما تقدم ووربما بدأ هذا التغيير في عهد ولاية معاوية علي الشام كما
سترى في قصته مع أبي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

﴿ ترتيب العمال ﴾

(وتقسيم الولايات)

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة في الشام وكان الامراء
من علمنا مما تقدم في محله فجعل امارة ما يفتح من الشام الى أبي عبيدة وجعل امارة
الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل امارة الحرب في دمشق ليزيد بن أبي
سفيان و امارة الأردن لشرحبيل بن حسنة و امارة فلسطين لعمر بن العاص وقد
مر تفصيل ذلك وبيانه الا ان الامارة العامة كانت لأبي عبيدة فالخبايرة والصلح
وكل ما يتعلق بأمور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت
فيها قدم المسلمون ابقى ابا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه
جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم
وولي جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبي
سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الأردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه
الى قسمين أحدهما حاضرتة ايلياء والآخر حاضرتة الرملة وقد مر الكلام على
ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجنده هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند
يقبضون ارزاقهم منها جنداً فبدلاً من ان يقولوا ولاية قنصرية مثلاً يقولون
جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كوز وروى الطبري في أخبار
سنة (٨١٧) ان عمر لما جاء الشام في هذه السنة رتب الشواتي والصوائف

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وستفروج الشام
ومسالحها^(١) وأخذ يدور بها واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كل
كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق أو غيرها)
وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى
دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الأردن معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين
علقمة بن مجز وعلى الأهرام^(٢) عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً
فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبته عمر (رض)
إلى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان أن معاوية كتب إلى عمر بعد موت أخيه يزيد
يصف له حال السواحل فكتب إليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة
الحرس على مناظرها^(٣) واتخاذ المواقيد لها

(١) تقدم معنى المساح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال النى

(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناظر هي قباب مبنية على رؤس الجبال العالية

بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان
يقام فيها حراس يوقدون النار عند ما يرون أقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس
المنظار الذي يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المساحة في
زمن قليل فيسرعون لإمداد الجهة التي أقبل منها العدو ولم تزل آثارها قائمة إلى
الآن في كثير من أنحاء سورية وقد شاهدت بنفسى المناظر القائمة على الجبال بين
دمشق وحماه إلى ما فوق ومعظم الموجود من بقاياها إلى الآن هو من آثار الدول
التركانية والكردية والجراسية التي شيدها في أيام الحروب الصليبية وغنوا بها اعتناءً
عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبه ثم أبو موسى الأشعري وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عمالة عامل هذا القسم أي قسم الكوفة كما في زواية ابن جرير الطبري تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسيا إلى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم إلى أقسام عليها أعمال من قتل عامل الكوفة وكانت مسالحتها وتورها مما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسيا وتورها فيما يلي فارس تابعة لتقدم الجيوش في الفتح وتجاوزها حد ود البلاد الإسلامية بالطبع وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضي بين الناس كما رأيت في باب تسمية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي العنائم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض في حرب فارس السائب بن الأقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره وقد مر بيان ذلك في غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى أن ذلك الترتيب هو غاية في إصابة الغرض وبعد النظر في تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر وروى عن عمر (رض) في بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئي ساذجاً ثم ترقى ترقى المسلمين وتقدمهم في الفتح في خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب في سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الإسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك إلى أن جاء الإسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدرهم البغلي وهي دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (٥١٨هـ) ضرب عمر الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم زنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقرئ في النقود الإسلامية الآن أن عمر (رض) لم يضرب الدينار وإنما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان. وأما نسبة الدرهم إلى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك في سيرة عبد الملك بن مروان إن شاء الله. وأما نسبة الدرهم والدينار إلى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً إلى الوقوف على نسبة حقيقته لأجور العمال بالدرهم في صدر الإسلام ليقاس عليها مثله في هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ الدرهم وتقاس على مثله في هذا العصر وكل ما قيل من هذا القبيل إذا لم يبن على ذلك التقدير الصحيح فحس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء لأن الدرهم من الفضة ذنبي القيمة الآن أذر بما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا بهذا المهد قيمة أجره عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجره أربعة عمال إلى الثمانية من ذوى المهن لا ما يسمونه العامل البسيط فالدرهم والدينار لا يصح أن تكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الإسلام كقيمتيهما الآن بل أعلى وربما كان الدينار أجره عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم إلا من تحقيق عمل العامل في ذلك الوقت وعسانا نتوفق إلى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الإسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان إن شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعه وابه الآز فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على ما يقال من وضع الفرس والذي رتبته دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما أتى على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الإسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاية مكاف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاية والبلاد لدار الخلافة وإن يكتب المهم من هذه الأخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاية وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عامها صاحب الأخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا إلى الكلام على دولة الخلفاء من بني أمية وبني العباس إن شاء الله

وروى المؤرخون أن أول من وضع البريد في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبته على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والآل فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية إذ قد جاء ذكره كثيراً في سيرته ومنه ما مر في فصل علائقه مع الملوك عندما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم أنه يريد المسلمين وفي مناقب عمر للإمام ابن الجوزي أن عمر لما أبعده نصر بن حجاج عن المدينة إلى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به فلق نصر الرجوع إلى المدينة وكتب عمر إلى عامله بالبصرة كتاباً فكتب الرسول عنده أياماً ثم نادى مناديه ألا إن يريد المسلمين يريدان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتاباً ودسه في الكتب إلى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد في الإسلام هو عمر
ابن الخطاب لأنه ربما لم يكن على الوجه الذي كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه
في عصر الامويين والعباسيين وإنما هو بدى ساذجاً ثم ترقى بترقى الزمان
﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصرت البصرة سنة (٥١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب وكان في مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمتع
العرب من العيث ومصرت الكوفة سنة (٥١٧ هـ) عن يد سعد بن أبي وقاص وكان
البناء أولاً بالقصب فدب الحريق في الكوفة والبصرة فأرسل سعد إلى عمر نقرأ
يستأذنون في البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا
تطاولوا في البنيان وكتب إلى أهل البصرة بمثل ذلك فحططو المناهج (الشوارع)
على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين ذراعاً والأزقة سبعة أذرع والقطائع
ستين ذراعاً بنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تشرع الشوارع وكان أمرهم
عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه لأنه لما ازدحمت السكان في المدينتين
أخلوا بذلك الأصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا في البناء في الشوارع
والساحات حتى ازدحمت المنازل وضائق الشوارع واختلت أصول التنظيم التي
وضعها لهم عمر رضي الله عنه وإنما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب
الحضارة وعدم مراعاتهم لأصول التائق في البنيان لقرب عهدهم بالبداءة وقد
عقد العلامة ابن خلدون فصلاً بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام
فليرجع إليه من شاء

(التوسعة في المسجدين)

في سنة (٥١٧ هـ) حج عمر (رض) فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبو ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التي على الطريق بين مكة والمدينة في ان ينو منازل في هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم ان ابن السبيل أحق بالظل والماء . وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه
(جملة ما أثر)

ومن ما أثره ان أقام دور الضيافات وأدر عليها الارزاق : عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يمين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من ينقطع به وفي بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين فقرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التي وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر في عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها في سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمي (ومنها) ما تقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا في سيرة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما نأثي على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله في غير هذا الباب ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(أخلاقه ومناقبه)

﴿ سياسته وعدله ﴾

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأثفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الأمة ولما جاء الإسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقفهم على حقائق الدين وإشرا بقلوبهم حب الإيمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم لاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا ينزعها إلا تهادى الزمان لهذا لم يسع أبابكر الصديق رضي الله عنه إلا أن يعاملهم بالقوة المزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من أن يحدو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حدو أبي بكر خوف النزوع إلى الثورة والخروج عن حدود الإسلام وقيود الأخوة والرجوع إلى الفرقة والشقاق والعصية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديدا بطبعه فساس أولئك الأقوام بعز يد الشدة والارهاب لما كان يتوقمه من حصول الفتن والفساس ولو لم يقابل شدته اغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والبقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما أنه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولحيف من حصول فتن كبرى تشكش لها أعصاب الإسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه إلا أنه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر

ما يوازي الضرر الذي كان يتأتى عنهم فيما لو حصل ذلك في أوائل خلافة عمر (رض) وإنما خف ضرر تلك الفتن بعد ذلك لان الاسلام كان ملاً اكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بامور الفتح وذاقوا الذلة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك المريض الذي استحال ان تدك أساسه عواصف الفتن في خلافة عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم وإنما كان الفضل في هذا العمر بن الخطاب الذي أخذ على الأمة سبيل النزوع الى الجاهلية الأولى وودعها في غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها ورباهما على الخضوع لأولى الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجب على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل ان علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيوناً حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء^(١) ويأويح العامل الذي تبذر منه بادرة أذى لاحد من

(١) هكذا حال الدول عند ما تبدأ في سبم الصعود ومتى انقلبت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأساً على عقب فجعل الامراء العيون على الرعية لاعلى العمال ليكونوا عوناً للولاة على الرعية كما هي الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لا يستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى أوغل الولاة في الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخرّبوا العمران وانتشر أمر الدول الاسلامية في الشرق والغرب واحتل الملك وقوى عايبها العدو ويأويح من تبذر منه بادرة شكوى من هذا الخطب فانه للحال يزوج به في ظلمات السجون أو ينفي من الارض وهذا ما جعل الامم الاوربية لهذا العهد تسلط على الممالك الاسلامية وترى المسلمين بوصمة العجز عن ادارة شؤون الحكومات

الرعية أو يهفو هفوة في شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأيب من حيث لا يشعر فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الحوزي في المناقب عن عمر بن مرة قال : لقي رجلا من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفي ذلك ظلم . قال لا . قال فزادني الله في صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يحدث قال : مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبه .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نقرأ من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كتم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر : فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد كنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتدت عليهم حتى خشيت الله في ذلك . وايم الله لا أنا أشد منهم فرقا (خوفا) منهم مني : وأخرج بن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر : فإن المخرج وقام بيكي يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك : والظاهر ان عمر رضي الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعله باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الامم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود ولقد شافهني مرة أحد علماء الالمان بكلام من هذا القيل علمت منه مرتبتنا في نظر العالم المتمدن بين الامم وكنت والله لا أعلم اننا انتهينا في نظرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم
يدلك على هذا ما رواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال : كلم الناس عبد
الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب في ان يلين لهم فانه قد اخافهم حتى اخاف
الابكار في خدورهن : فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال : يا عبد الرحمن اني
لا اجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة
لا خذوا ثوبي من عاتقي : والذي زاد عمر هيبه في النفوس انه كان لا يراعى في الحق
كبيراً ولا يمالئ شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضى به الضرورة السياسية وهذا فيما
لا يمس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جيلة بن
الايمم ملك غسان فانه لما اسلم ووقد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشيه تلقاه
عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوماً وطى على ازاره اعرابي من بني فزارة
فضربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جيلة وقال له
اما ان ترضيه واما ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جيلة وقال الا تفرقون
بين الملك والسوقة : قال لا قد جمع بينكما الاسلام : فاستمعه الى الغد ثم أخذ
قومه وفرز بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من
يسترضيه فأبى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية واقادتهم حتي من
الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ومن بدائع أخباره في
انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله في حسن المحاضرة عن انس قال أتى
رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائد بك من
الظلم : قال عدت معاذاً : قال سأقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني
بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين : فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقعود عليه
ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر أين المصري خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرميين ثم قال للمصري ضعته على صلعة عمرو : قال يا امير المؤمنين انما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً : قال يا امير المؤمنين لم اعلم ولم يأتني (يعني) المصري

هذا منتهى الانصاف للارعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا امير الا دون الشريعة حتى نفسه رضى الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء في كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين ابي بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلاً . فجملا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر آتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخل عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا امير المؤمنين . فقال له عمر هذا اول جور جرت في حكمك ولكن اجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى ابي وانكر عمر فقال زيد لا بني اعف لا امير المؤمنين من اليمين وما كنت لاسأله الا حد غيره فحلف عمر ثم اقم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لا حلم أحب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقة ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأييه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يعطى الظفر في أمره والذل في الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية وخلا : هذا فقد كان رضى الله عنه حريصا على ان لا يشكى منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الامة وتشكيب طرق الخطأ أو الجور حتى يبلغ به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضائرهم من جهة سياسته في الرعية ولا يأتي قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء في كثر العمال عن النعمان بن بشير ان عمر بن الخطاب قال في مجلس وحواله المهاجرون والانصار . ارايتم لو ترخصت في بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكنوا فقال ذلك مرتين او ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك فومناك تقويم القدح } وهو السهم المموج قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . انتم اذن انتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال قال عمر (رض) وهو على المنبر انشدكم الله لا يعلم رجل مني عيبا الا عابه فقال رجل نعم يا امير المؤمنين تدل بين البردين وتجمع بين الاديان ولا يسع ذلك الناس قال فما ادال بين بردين ولا جمع بين ادمين حتى اتى الله . وقوله يدل بين بردين اي يلبس قيصا ويخليه ويلبس غيره (و ذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوما فقال . ايها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيفنا . فقال عمر . الحمد لله الذي اوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

الا اني لم اقف على سند لهذه الخطبة وهي ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لا خطبة . وانت ترى من هذه الاخبار الى ايه درجة بلغت حرية الضائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ و نهاتهم انما سادوا بقول الحق وتمشق الحرية واستقلال الضائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيد العبودية التي ماتقيد بها قوم الاضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الامم كما سودت الغربيين الان على ما ترى مليون من المسلمين اتخذوا رؤساءهم اولياء من دون الله فقد فواهم الى هوة الدمار واقتصر وامن آثار ملكهم العظيم الديار .

وفي كثر العمال عن سلمة بن شهاب العبدي قال قال عمر بن الخطاب ايها

الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وأنه ليس شيء أحب
إلى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم إمام ورقيقه وليس شيء أبغض إلى الله تعالى من جهل
إمام وخرقة

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الأعمال
وإن لهم ما تكنه السرائر ما جاء في كثر العمال أيضاً من حديث عتبة بن مسعود قال .
سمعت عمر بن الخطاب يقول . إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع وإنما أخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن
أظهر لنا خيراً آمنا وقرناه وليس لنا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره .
ومن أظهر لنا شر المأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريره حسنة . وإنما يعرض
بهذا بالمنافقين تنبيها لهم إلى أنه مراقب لأعمالهم

ومع أنه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الأعمال
فإنه كان يحذرهم من خيانة السرائر ونبههم عن التردد في الأمور ويرشدهم إلى الجمع
بين العزيمة والنية سوقاً لهم إلى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج
ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن الخطاب قال . قال عمر بن الخطاب القوة في
العمل إن لا تؤخر عمل اليوم لغد . والامانة أن لا تخالف سريرة علانية واتقوا
الله عز وجل فإنا للتقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه .

وهكذا رضى الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤوف يواليهم بالنصائح ويرشدهم
إلى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتألف والاجتماع ونبههم عن
التخزب والتفرق وخصوصاً قرينها فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة
من نصيحة لأنهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغني أنكم

تخذون مجالس لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى
تحميت المجالس وأبم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في
ذات بينكم ولكاني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام
اقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معافانه أدوم لأتقتكم وأهيب لكم في
الناس اللهم ملوني وملتهم وأحسست من نفسي واحسوا مني ولا ادري باينا
يكون الكون وقد اعلم ان لهم قبلا منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا
مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله ابا عبيدة بن الجراح وكان
عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسمد بن أبي وقاص وعتبة
ابن غزوان وحذيفة بن ليثان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الأبعض القواد فر بما
كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضى الله عنه
فتمد كان يوصى عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به
كرهه للايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الأشعري وقد اشتد في
العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حجة (أو عمرة) فاذا نحن
برابك : قال عمر أرى هذا يطلبنا : فجاء الرجل فبكي : قال ما شأنك ان كنت
غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك إلا ان تكون قتلت نفساً فنقتل بها وان
كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم : قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم
وان أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لا تجالسوه
ولا توادواكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث ، أما ان اتخذ سيفاً فأضرب به أبا
. موسى . وأما ان آتيتك فتحولني الى الشام فانهم لا يعرفونني . وأما ان الحق

بالمدوناً كل معهم واشرب . فبكى عمر وقال ما يسرني انك فعلت وان لعمر كذا
وكذا واني كنت لا شرب الناس لها في الجماعية وانها ليست كالزنا . وكتب
الى ابي موسى ماصورته

سلام عليك أما بعد فان فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم
الله اني ان عدت لا سودن وجهك ولا طوفن بك في الناس فان أردت ان تعلم
حق ما أقول فعد . فأمر الناس ان يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته .
وجمله عمر (أى أركبه) واعطاء مائتي درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين
وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياهم للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب
ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم
يستدعي ذوى امانته من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم
ويستقصى سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه ان عمر (رض)
كتب الى أمير البصرة ان يبعث له جماعة من ذوى الرأي والبصيرة فارسل اليه
وقد آفهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً
فاجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يشق بصداقه
ثم صرفهم

ومن أجل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في كثر العمال ان عمر مر بشيخ
من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية
في شيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه
ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بان لا يمسكوا الجندي الغزواً أكثر من أربعة
أشهر وسببه انه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراة بابها تقول

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأزقتني أن لا خليل إلا عبه
فلولا حذار الله لأشيت مثله لزحزح من هذا السرير جوانبه
فكتب عمر إلى عماله أن لا يغيب أحد بالفرز و: ونعم الرأي

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن
أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألا لا يجلدن
أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن
يلحق بالكفار

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من
كان لا يستعمله خوفاً على دينه من أن يدنس بالولاية فقد أخرج ابن سعد
عن عمران بن عبد الله قال قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعماني:
قال أكره أن تدنس دينك

ومنها من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن تحمده
نفسه بالامارة إذا لم يدع عن مراقبته وهو لا يهمل بنو هاشم لما كان يفرسه فيهم من
التطلع إلى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس أن عمر
أرسل إليه فقال يا ابن عباس إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل
الخير قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أراه منك وأعياني
ذلك فما رأيك في العمل قال إن عملت حتى تخبرني بالذي في نفسك . قال
وما تريد إلى ذلك . قال أريد أن كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها
الذي خشيت وإن كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك
هنالك فأنيت فلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته : فقال يا ابن عباس انني خشيت أن
يأتي علي الذي هوأت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم :

انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم : قال (أى ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أى عمر) والله بأأدري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد قرعت لك فما رأيتك قال : (أى ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قدى في عينك قال : فأشر عليّ ! قلت انى أرى ان تستعمل صحابانك صحيحالك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع في البلاد المفتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الأول كي لا يزارح المسلمون أهل الذمة والعهد في أرضهم ويضيقوا عليهم في معيشتهم والامر الثاني كي لا يألف الجند الاعمال في الارض في إبان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطرأح لآمه القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كي تبقى الارض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتقدم مادة القوة عن الدولة الاسلامية فيما بعد ولا تجرد من المال ما يكفي لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه في غير ما محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمر بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فضل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة بأهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفي باب اجلاء عمر لاهل نجران وسرى في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع أهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حائلا لعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم
 فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض
 ارباب السير ونقله الحديث خبرين عن عدريته لكان بأهل الذمة احدهما امره
 لعماله في العراق بنحتم رقاب اهل الذمة من الفرس بالرصاص والثاني تقدمه الى
 العمال ان لا يحدث النصراري في امصار المسلمين (اي التي مصرها المسلمون خاصة
 كالبصرة والكوفة) بيمة ولا يرفوا صليبا على ان هذين الخبرين وما شابههما قد
 وهن روايتها اهل الحديث وحفاظه وقالوا انها موضوعة وقد اورد الامام
 الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف
 بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حش وهو
 ضعيف. ويريد بحش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلاندرى ما هو الباعث لفرق الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث
 اهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين
 الشعوب (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكروا نثي وجعلناكم شعوبا وقبائل
 لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شئ دس في الاخبار وتناقله الرواة
 مع العقلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين او المنافقين او الجاهلين ان يدسوا ماشاؤا في
 الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الاعلام على علاجها كما
 نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على
 ضعفه وانما جربلاء التشيع ونفت زوح التفرق وانسى المسلمين اصول التألف
 والتحاب حتى بين انفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والاخبار في كتب
 الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وانما دعاهم الي نقلها وهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله بارشارهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية لا بايذاء الغير في دينه وحريةه والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الا سلام ايداء الذي في حريةه الدينية والشخصية لامر باكره اهل الكتاب على الاسلام كما امر باكره مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) او عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لوصح الخبر عنه بمصر مخصوصا اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فرما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل جوارهم من الكتابيين بشئ من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية وانعراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم صمير الى عماله بعدم احداث النصارى بيعا في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاختيار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين واهل الكتاب لاسيما والمخدور الذي كان يدور في خلد الصحابة ومخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال اسبابه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الاجاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذي يأمر أهله بمعاشره أهل الذمة
بالمعروف و نه ما عليهم بالانصاف وعدم ابدائهم في حال من الاحوال لهم
مالمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء
الذين يضعون الامور موضع النقد والمحكمة قاييل وآفة السلم الفهم بما يوافق
الهورى لا الحق والسلام

﴿ أخباره مع عماله ﴾

﴿ وصاياه لهم ﴾

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم
وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافقونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من
من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً
لآثارهم فاذا شك أحد من الرعية أحد من العمال أرسل محمد المذكور يقتص الخبر
ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السرى لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية
هفتري فيذهب ويجمع اليه الناس فى المسجد ويربمطاطف عليهم فى أحيائهم يسألهم
عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبرى فى
تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاود فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل
بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى
نهاوند ولم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجزاح بن سنان
الأسدي فى نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر به وضمكم فى هذا الامر
وقد استعد لكم من استعداد وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا
(يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للاعاجم
والاعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار

من شكى زمان عمر ^(١) فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة
والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاود فطوف به على مساجد أهل
الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السر من شأنهم اذ
ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الا قالوا لانعلم الا خيرا ولا
نشهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : الا من مالا الجراح بن سنان
وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوا الى ان قال الطبري وخرج محمد به
(أى بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه
الشكوى فأنكرها ولم يسمعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا بقى سعد على الكوفة
أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطا وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له
عبد الله بن عبد الله بن عثمان فأقره

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه من اقبال عماله كثير التحقيق عن أخبارهم
لا يتعجل في أمرهم اذا جاءه شكاية على أحد منهم بل يثبت الخبر بنفسه ويحققه
بمواجهته فان ثبت عليه شئ مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة
مع عماله وبمئاته على شئ منها في سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء
الله تعالى

وكان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين
القوي والضعيف أخرج بن جرير الطبري عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد
اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول هل يعود
مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه
بالضعيف وهل يجلس على بابيه فان قالوا لا عزله

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضى الله عنه لا ينقل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً في أن
يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبنوا أو يهدروا ومن ذلك انه لما وفد
عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة في ولاية البصرة وصرّفه كما تقدم
الخبر عن ذلك في الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة
يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون
منكم أو يغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم
اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً
وبلغه مرة إن حرقوا صاعاً من له على الاهاز نزل جبل الاهاز والناس
يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رآه فكتب اليه باصورته ثقلا عن
تاريخ الطبرى في حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغنى أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة
فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقيم في أمرك على رجل تُدرك الآخرة
وتصف لك الدنيا ولا تدركك قرة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب
آخرتك

هذه لعمرى الرافة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة
الناس فاللهم ان خليفة لا ينقل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلفه الزمان
ولا يوهن له سلطان ولا يمحي ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه
ومن وصاياه للمال ما أخرجه الطبرى عن أبي عمير الجونى قال كتب
عمر الى أبي موسى انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك من
وجوه الناس ومحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف في الحكم وفي القسم

ومراد به هذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألقوه ويرفعوا
إليه حوائج المسلمين وأمر بالضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل
الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسمة ولا يفوت عدله فرداً من أفراد
الرعية الذين لا يصلون إليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس اني
والله ما أرسل عمالاً إليكم ليضربوا أبقراطكم ولا يأخذوا أموالكم ولكني
أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية ويقضوا بينكم بالحق
ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذي نفس
عمر بيده لا أقصه منه ^(١) فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايت ان
كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأذّب بعض رعيته أنك لتقصه منه :
قال إي والذي نفس عمر بيده اذا لأقصه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين
فتذلّوهم ولا تجرّوهم فتفتنّوهم ولا تمنّوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم
الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رباحة قال كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : اجعلوا الناس
عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم أياكم والرّشا والحكم
بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار
ورى الطبري أن عمر كان يقول في عماله : اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا
أبقراطهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني : ومع كل هذا التشديد على العمال
فانه رضى الله عنه كان دائماً قلماً على الرعية خائفاً من ان يجاز عليهم بأمر لا يصله

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقص له منه

خبره لهذا عزم قبيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليجت عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم : فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب ائن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولا فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني أماعمالهم فلا يرفعونها الي و أماتهم فلا يصلون الي فأسير الي الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الي الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الي مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الي البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الي الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الي البصرة فأقيم بها شهرين . والله نعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الي أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والنفقة طريقه فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار يبرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند هك اذا همت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذا قسمت : فجعل سلمان يبكي فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا تقطمها الا المحقون وأرى هذه الاسودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت الادوية وركوة ومطهرة وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجاني فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين و حولنا اعداء فغير من زيئك وأصلح من شارئك : فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامه على حمص سيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه
وسأله عنله : فقال عمر اللهم لا تقل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه : قالوا
لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحد أبليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا
: فقال عمر علي به فلما جمع بينه وبينهم فقال ما تنقمون منه : قالوا لا يخرج الينا
حتى يرتفع النهار : فقال ما تقول يا سعيد : فقال يا أمير المؤمنين انه ليس لأهلي
خادم فأعجن عجبني ثم اجلس حتى يختبر ثم أخبر خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم :
قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا
اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له
يوم في الشهر لا يخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففته فأسي
: فقال عمر الحمد لله الذي لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم
خيراً . ثم إن عمر بعث إليه بألف دينار وقال أبتعن بها . فقالت له امرأته قد
أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى
فصرها صرراً ثم دفعها إلى من يشق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى يتيم بنى
فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه إلى امرأته وقال أنفقي هذه
ثم عاد إلى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادماً
فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضي الله عنه فكيف لا يكون عصره أسعد
المصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار
من العمال إلا الصالحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون
طرائق ملوكهم فإن كان الملوك ظالمين ظلم العمال وإن كانوا عادلين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه ان عاملاً احتجب عن الرعية نكل به أشد نكيل فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه ما لم يقل وقالوا قال سعد سكن غني الضويت وبلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرحه الى الكوفة وقال اعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتى سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أرسل لهذا الشأن وبعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل اليه رسولاً بان أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصرًا اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يبني بيوت الاموال وأغلقه ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت :
خلف له سعد ما قال النبي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى اذا دنا من المدينة فني زاده فبلغ بلجاء الشجر فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه : فقال عمر ان اكل الرجال رأياً من اذالم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره محمد بن سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو اصدق ممن روى

عليه وأبلغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث
عماله شرط عليهم أن لا يركبوا برذونا ولا تأكلوا ثيابا ولا تلبسوا رقيقا ولا تغلقوا
ابوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم
يشيعهم فإذا أراد أن يرجع قال: اني لم أسلطكم على دناء المسلمين ولا على أعشارهم
ولا على آبشارهم^(١) ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولا لكي بعثكم لتقيموا
بهم الصلاة وتقسوا وافيهم فيهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء
فارفعوه اليّ: ألا فلا تضربوا العرب فتدلوها ولا تجمروها^(٢) فتفتنوها ولا
تعتلوا عليها فتحرموها جود القرآن: (وفي رواية) وأقلو من الرواية

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمرؤة عزله في الحال ففي المناقب
لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال: كان عمر بن الخطاب أمير النعمان
ابن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال:

الأهل أتى الحسنة أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنم
في أبيات يقول في ختامها

لعل أمير المؤمنين يسؤه تنادنا بالجوسق المهتم

فلما بلغ عمر قوله قال: نعم والله انه ليسوني من لقيه فليخبره اني قد عزاته:
فقدم عليه رجل من قومه فاخبره به فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئا مما
قلت ولكن كنت أمراء أشاعر أوجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال
عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت. وفي رواية عن عثمان الخرامي عن أبيه قال

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جره تجميرا جمعه والقوم

على الأمر تجمعوا الى ان قال والحيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تزييل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير . أما بعد فقد بلغني قولك
 لعل أمير المؤمنين يسوءه . تنادى بنا بالجوسق المهتم

وايم الله انه ليس وني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصى اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال منك في هذا الوجه فصيرته في بيت المال . وروى ان خالداً لما أذرب هو ووعياض الى بلاد الروم اتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف فدعاها وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الحقيين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبل أبي عبيدة لا من قبل عمر قتي رواية أخرى للطبري ان عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بمخرج من خرج من الشام وبجائزة من أجزت فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعلمته ويتزع عنه قنسرته حتى يعلمهم من أين أجاز الا شئت أمين ماله أم من اصابه اصابها (يعني من المنعم) فان زعم انها من اصابة اصابها فقد أقر بخيانه وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال وأضم اليك عمله . فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمين مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى أكثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم إليه فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعمله بهامته وقال ما تقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالى فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولا تنا ونفخهم ونخدمهم والينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أم مزول هو أم غيره مزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب إلى خالد بالقدوم عليه فكتب خالد على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة انى والله ما كنت لأروئك ما وجدت لذلك بدا وقد علمت ان ذلك يروئك . ثم ان خالد ارجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك فى أمرى غير مجمل ^(١) يا عمر فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الانفال والسهمان ما زاد على الستين الفألك فقوم عمر عروضة ^(٢) فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال يا خالد والله انك على كريمة وانك الى حبيب ولن تمانى بي بعد اليوم على شئ . ثم ان عمر كتب الى الامصار انى لم اعزل خالد عن سخطه ولا خيانه ولكن الناس فتنوا به فحقت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحييت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا برض ^(٣) فتنة . ويقال انه عوضه عما أخذه منه وكتب الى الناس : وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر ابا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضرب به وصادر غيرهم أيضاً وردت أموالهم لبيت المال . وهذا امر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بد ان يكون له فى هذا رأى سيدى وصرعى يعيد ولعل الخامل

(١) مجمل من أجل فى الطلب أتادوا عدل ولم يفرض (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الاغنياء ويتعالموا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذي لا اله الا هو (قالها ثلاثا) ما من أحد الا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنافيه الا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه (كفايته) في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت لياتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لا أخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا وأن من الأغراض التي ترمي إليها جعل الأموال حقا يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك الآن بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرق في ان المسلمين يعتبرون هذا الحق في ثمره رأس المال وهي النضول وان الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ أدام اليه الافراط والتلو كما شرحنا ذلك في كتابنا تنبيه الافهام . وبالله لو علم اولئك الناس ان الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تضادم نواها في الاجتماع وان أهله باتوا لا يعرفون شيئا من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم المليية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربماتبه قادتهم وزعماءهم الى قبول
الاسلام وجعله أساساً للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم
بمؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والحصام
﴿ كلمة في الحرية والطاعة ﴾

(أوالحكومة العسكرية والحكومة القانونية) ﴿

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارى من
الاخبار التاريخية المهمة ما لم أردفه ببيان مفيد لاسيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل
صورة الفضائل والردائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا
النظرة فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في
الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والمدل في صورة من
الكمال تنزل لها أقدام الظلم وتمشع امامها قوى الكون البشري الهابطة من أعلى
عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون
الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر
وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية التي سوغها العقل وقضت بها اصول
الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تتحرك بارادة
سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لاخر محرمانه منها مالكا لأمته لا سلطان لاخر في
سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار
كالحيوان يتعب لياكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسمى لموت هو ومجيا من عداه
ربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس
لارادة النفس على ما يعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما ان القيد يربط
بالحرية طرف للردية كذلك الاقراط فيها ايضا وفي كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقدت فضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيدت قيده بل قيدان وهما
 القيد النفسي والقيد الخارجي فاما القيد النفسي فهو اما الزاجر الديني واما الفضيلة
 الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع
 للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق
 الانسان بالبهائم في مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف
 عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون
 الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا ارشد اليها وحث عليها والشرائع انما هي
 شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس
 بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهر النفوس ولا يجبر على الارادة بل يماشي الارادة
 ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا
 ياباها المقل ولا يهضمها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة
 القانون الذي هو اصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه أمراً
 بهواه وشهواته لا ما موراً من القانون ومهيئاً عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من
 الاغراق في الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه
 الأمة لان حب الحرية خلق تآصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع
 مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الإفراط نشأ اسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا
 أشتاتاً في التجزؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس وليس ثمة وازع يضمنهم
 الى كلمة واحدة فكانوا يفرعون عند الحاجة الى العصبية بان تتحد العشيرة الواحدة
 ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصد الغارة أو جلب المنعم ومع باقي هذا الأمر من
 ضعف النظام الاجتماعي وفتنة الرابطة القانونية فانهم كانوا به ولعين وعليه

حريصين لانه نتيجة مغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد. ولما جاء
الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شيتهم الى رايته
كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم
لاصول الطاعة وامرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا ايداً واحدة وقوة واحدة
ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي
الامر منكم » وانما ارادهم على الطاعة لاولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه
سعادتهم بردم في الحرية الى جدال الوسط بلاشطط عليهم في التقييد ولا ارسال
لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزرعهم به من الشرع العادل
يدلك على هذا قول اول خليفة في الاسلام وهو ابو بكر (رض) في احدى خطبه
التي مر ذكرها في الجزء الاول « اطيعوني ما اطعت الله (في تنفيذ امره) فيكم
فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) اعينوني
على نفسي بالامر بالمعروف و الاحضاري النصيحة واعينوني على انفسكم بالطاعة
وقوله انه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » ان يطاع في معصية الله وكثير من
امثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت
البداءة اصلاً في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً
يضم اشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يفي عن
العصية مع استبقاء ما النهوه من الاصول الديموقراطية في حالهم الاجتماعية لم
تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا للحكم الاسلام واجتمعوا
على الرضى بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء
الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشرعية لا بالسيف وبعبارة
اوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الالهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتحل وستان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تني أو تنحل وتهوي بالذلة الى خضيق الضحال وتماجلها بالانحلال

لما علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستتثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فالتواطعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه امر أمير المؤمنين بالشخص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتل وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره ان يأمر فيه بأمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالى رسول الله (صل) فزرع عمامة عن رأسه وعقله بها وسأله ما سأله حتى أجاب فأعاده قلنسوته الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولا تنا (يعني عمر) ونفخهم موالينا^(١) يعني خالداً هذا كله على ملا الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي أسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين هذا على ما عرف به من طول النفس

(١) المولى يطلق على السيد وعلى العبد

وياء الضيم

أسكته أمران الأول علمه أنه لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بأنه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولاءه فلو بوله على أمره بل هو حر في أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر (رض) ولو لا أن يعلم خالد أن له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر واردة لا يغلبه عليها الا الحق لاستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك الشدة لما عرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلاً على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة الا ان يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملا المسلمين دفعا لشبه الضمائر وإعلانا لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً فخطب فيهم خطبة في شأن العطاء : رواها ابن الجوزي في المناقب : قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاد ذالبأس وذال شرف وذال اللسان فزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (بن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحمدت سيفاً سله رسول الله « صل » ووضعت أمراً نصبه رسول الله « صل » وقطعت رحماً وحسدت بن العم

فقال عمر (رض) انك تقرب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك .

ثم نزل ولم يزد على ان رد عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية ما يقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنائه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له مهيماً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدث خالد نفسه بشي من ذلك مادام لأمر يومئذ للقوة وإنما كان الأمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بقرتين من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا العلي رضي الله عنه قولهم المشهور « لا حكم الا لله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة ومنفكو ادماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الأمر الى قنائهم كما ستري بعد

اذا تمهد هذا علمنا ان حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وان الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وتدعوى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهد هاهما مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وقل جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ومذاختلط العرب بالاعاجم وابدعوا في اطراف البلاد وفرقوا على قلوبهم في الممالك وضعفت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوسلين على الخلافة والدلالة في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألقوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقضت صلة لاتفاق بينها وبين رعيها فأصبحت ورعيها على طرفي تقيض تريد على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً اذا ليزال يضرب الامراء عقلاءها بجملاتها وفضلاءها بسناتها حتى يفنى الفريقان كما فئت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الأمة أفئدة تهوي الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقى الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عمرها فيذهب بقواها ويميت أعضائها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا يدها والمال الى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع وحسبك دليلاً على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوزية التي آل اليها ذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وأذان يسمعون بها فاذا ذكر وايدكرون لما خضعوا لهذا الاستعباد وكانوا أئداد الأمم الاوربية في مضمار المنافسة الحيوية ولكن يا لحرقة القوادق ومنافى واد والغريون في واد

(حظه الناس على الكسب)

الانسان مدني باطبعه وان على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليأدله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتهل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك
الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس
في الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في
الطلب والاسلام من الشرائع التي حثت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا
انهما أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجا بالكسب أقوى
والقناعة لجر ثومة اليأس أقطع والزيمة على السعي أمضى واذا كان عمر رضي الله
عنه أعلم الصحابة بالدين وأتقهم فيه وخشي أن يلبس نفوس العامة شي من
ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على
محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل
والكسب ومن ذلك ما جاء في كثر المال عن معاوية بن قرة قال : لقي عمر بن
الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون : فقال كذبتم ما أنتم
متوكلون انما المتوكل رجل أتى حبه في الارض وتوكل على الله . وفي المناقب لابي
الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب
المنرب فأتى علي ومعي رزيمة لي فقال ما هذا معك فقلت رزيمة لي أقوم في هذا
السوق فاشترى وأبيع فقال يا معشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة
فانهائلك الامارة

وفيه عن جواب التيمي قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا معشر القراء ارفعوا
رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين
وفيه عن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه من تاجر في شي ثلاث مرات فلم
يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

وفيه عن الاكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك ان يحتاج احدكم الى مهنة

وفي كثر العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عائلة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر م كسبة فيها بعض الدناءة خير

من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر اذا اشترى احدكم جملا فليشتره عظيماسمينا

فان اخطاه خيره لم يخطه سوجه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتى

فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد : قال عمر بن الخطاب لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول

اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وان الله تعالى انما يرزق الناس

بعضهم من بعض وئلا قول الله جل وعلا (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في

الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)

وفيه : قال عمر بن الخطاب يا مشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة

على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءاته خلقه

﴿ نزيه عن التنطع ﴾

(وتحذيره من الابتداع)

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى

العبادة وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على

صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد عدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع لهذا لما انتشر الاسلام في أنحاء الارض وعم
سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من
الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيهم العرب على ذلك
ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في المقدم الفريد عن
الاصمعي قال . قدم أبو مهدية الاعرابي من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية
أتوضئون بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا توضحنا التوضئة الواحدة
ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم)
فجعلت تليق استأها بالماء كما تلاق الدواة .

وانما أراد بقوله فكفينا التوضئة الواحدة الخ الاغراق بالهكم على تنطع
الاعاجم لانهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن
يكونوا في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا
الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم ان التنطع أمر لا يريد به الدين وانما
كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو
(لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع ان الحديث يتضمن الندب
والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً
مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا
التنطع حتى فيما ليس من الدين .

كان من الصحابة نفرولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التجهد لكن بما لا يخرج
عما جاء به الكتاب ورواه من نبيهم عليه الصلاة والسلام نفثي عمر أن يسري الى
العامية حب الاقطن الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تطيل لوظائف
الاجتماع الدنيوية وتوسع في التأويل وتجروء على الابتداع فجعل ينهى الناس عن

التنطع ويحذروهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا . ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن أبي عمر والشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخففته وجعل يقول كل يادهر كل يادهر وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطفوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا يخبر ما فعلوا اذلك ولم ينتظروا النجوم انتظروا أهل العراق وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريرم يا أمير المؤمنين أقرأ القرآن وانت غير طاهر . فقال له . مسلة (هكذا) أمرك بهذا

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال . أما والله لو لا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال : اني لا علم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال : كلن الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحبها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها
فقطعت : وهذا الاثر يوافق ما تقدمناه في فصل (لا وثنية في الاسلام)
وايت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه
المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع
تحته رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجوز
في مصر والميس والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند
الوثنيين القدماء فقدم عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحته فلان الصالح
وتلك لسافلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة
عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فان الله وإنا اليه راجعون
وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله
عنه رجل فقال : يا امير المؤمنين اننا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام عجب :
قال أمن كتاب الله : قل لا فدا عبالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات
الكتاب المين انا انزلناه قرآنا عريا بالعلم تعقلون) الى قوله تعالى : وان كنت
من قبله لمن الغافلين : ثم قال انما اهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم
وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسوا وذهب ما فيهما من العلم اه

(ادبه وتأديبه)

(أدبه مع رسول الله)

تقدم معناه في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحببه
له وقيامه دائما بين يديه يعني عن الاسهاب في هذا الباب وحسبه أدبا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانيا اذهله عن حقيقة موته فقال في ذلك اليوم
(من قول إن محمد أقدمت علوت رأسه بسنني هذا) والقصة طويلة من معناه في

هذا الكتاب، لمخصها

أدب مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول ويبنى وبينه جدار :
 عمر بن الخطاب أمير المؤمنين **بِحِجِّ بَحِّ** والله لتتقن الله ابن الخطاب أولي عهدك الله
 وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنه من
 الارض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني . وعن
 سفیان بن عيينة قال : قال عمر بن الخطاب أحب الناس الي من رفع الي عيوبي .
 وأخرج الطبري عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جيت
 من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعت في غير حقه فأنت ملك غير
 خليفة فبكي عمر : ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان
 بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يابها الاسلام وتنتهي
 عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

(تأدب مع نفسه)

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة
 التي قيل فيها « لِدِرَّةِ عَمْرٍ أَسْبَغَ مِنْ سَيْوفِكُمْ » ومع هذا فقد كان سريع الانابة
 رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهاره وجدانه وسلامة قصده .
 اخرج الحافظ عن الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيى بن عبد
 الملك بن سلامة بن صبيح التميمي قال : قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر
 ابن الخطاب فلقبه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني على فلان فإنه قد
 ظلمني فرفع عمر الدرة فحقق به رأسه : فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض
 لكم حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيموه اعدني اعدني : قال فانصرف

الرجل وهو يتدمر قال « اي عمر » علي الرجل « اي ردوه علي » فألقى اليه
المخفقة. وقال امثله « اي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله واكن ادعها لله
ولك : قال ليس هكذا اما ان تدعها لله ارادة ما عنده او تدعها الي فاعلم ذلك : قال
ادع الله : قال « اي الاحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دنل منزله ونحن
معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعاً
فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب
الناس فجاءك رجل يستعديك فضر به ما تقول لربك غداً اذا أتته : قال فجعل
يعاتب نفسه في ذلك مائة حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن
الخطاب « رض » في السوق ومعه الدرّة فخفني بها خفقة فاصاب طرف ثوبي
فقال أمط عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال . ياسلمة تريد الحج .
فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فأعطاني سمانه درهم وقال استعن بها على
حجك واعلم انها بالمخفقة التي خفقتك . قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا
ما نسيها :

هذه هي القضية وذلك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة
العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وإنما قصد
تدبيره الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آذوا وان
الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة
المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب
بدرته حد التنبيه الى إمطة الضرر عن الطريق فإين هذا الانصاف والرحمة من
جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا يد القوة بعد على الناس وتحكموا فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع: وسيعلم الذين ظلموا
أي منتلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بأداب النبوة
ان كان إذا أراد تبخيرهم الى امر نافع وصر فهم عن امر ضار يتقدم الى أهله بذلك
التنبيه ليكونوا قدوة للناس وأسوة للمسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن
جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد
المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان
الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا
اضرفت عليه العقوبة لمكانه مني

وزوي عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل
ولبت ثياباً حسناً فضر به عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيت
قد أعجبت نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته
لغلاظ القلوب ما جاء في كثر العمال عن أبي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن
الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عمده فأتى عمر ببعض ولده فقبله .
فقال الاسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبلت ولداً قط : قال عمر
فانت والله بالناس أقل رحمةً هات عمدهم لا تعمل لي عملاً أبداً : فرد عمده

جوزي هذا العامل بالعزل والابعاد بتأعن العمل « التوظيف » لكامة
قالها لعمر (رض) أحسن منها عمر بغلظة فؤاده فخشي ان هو عهد اليه بالعزل ان
يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان الامراء والسلاطين من بعده

بصر بصر ون به أو سمع لسمعون به فيعلموا أن عمر بن الخطاب الذي أُرهب
أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم
الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء انما ساسهم
بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفا كرافة الوالد بالبنين وعليهم عطاوفا كمطف
المرضع على الطفل

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيبون الذين ساسوا
وعمر واولجاء غيرهم فخر بواو دمر وافكانوا صواعق من العذاب انقضت على
المسلمين فقضت على ماشيده غيرهم بالدمار وشوشت نظام الملك وقتلت العقول
وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتهارشدتها وأفسدت اخلاقها
وذهبت بعلومها وطمأنت من اشرافها وأفقدتها عزها وشممها فاذلتها ذلالها نحن
اولاء نشاهد نتائجها الآن بالعيان حيث نظم ونهاز من كل انسان وليس فينا روح
تدب ولا نائم يهب بل كذا أموات يحسبنا اعالم المتمدن من الرفات قلوبنا متفرقة
وأهواؤنا شتى ونفوسنا خامدة الا عن السفاسف وخطانا قاصرة الاعن أما كن
الفساد وشائنا كله شاز من رضي بالذل وانعمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى
ساعة الفناء قلت

ومن يتم عن شؤون كل ما خطر فليس يخطئ من ينعيه للناس
ومن تأديبه لاشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء
والسيادة مارواه ابن الجوزي عن الحسن قال حضرياب عمر (رض) سهيل بن
عمر بن الحرث بن هشام وأبوسفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك
الرؤوس . وضييب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدرأ فخرج اذن عمر فاذن
لهم (أى للموالى) وترك أولئك . فقال أبوسفيان لما أَرَ كالיום قط ياذن

لهؤلاء البيد ويتركنا على بابها لا يلتفت اليها فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا
 أيها القوم اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم
 دعي القوم ودعيتهم فأسرعوا وأباطم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة
 وتركم : وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر إسلامهم
 الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن
 أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . يأمر المؤمنين أبو سفيان حبس
 مسيل الماء علينا لهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب
 أحجاراً فقال ارفع هذا فرمعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة
 أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبو سفيان
 ببطن مكة فيطيعه : ومن علم ماهي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان يحكم قريش
 في رقاب الناس علم فضل الاسلام في تأسيسه قاعدة مساواة وعدله بين الناس
 ومحوه آثار التفاضل بالانساب ؛ ومن أخباره في التأديب ما نقله في العقد
 الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومه ك : قال انا : قال كذبت لو
 كنت كذلك لم نقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

إذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لبالكبرياء
 وسودهم على الأمم لبالعطرسة والتجبر وجبهم الى الناس لبالخيلاء فاسمع
 ما أخرجه الطبري في تاريخه عن الحسن قال : قال عمر اذا كنت في منزلة تسمني
 وتعجز الناس فوالله ما أتلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس
 هذا الخليفة العظيم الذي دوخ ملك فارس والروم وأرهبته سطوته الأمم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وأفريقيا الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه ان هذا هو العدل الذي ليس فوقه عدل ولا جرم فيمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملا الأذهان خبره حتى عتد المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى اننا نفخر به على ملوك الارض فرضى الله عنه وأرضاه ومن تواضعه ما أخرجه الطبري عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت دار آمن دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطري يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم ان كعب الاحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين ! فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس وفي المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم اتقول لا أمير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقله الي نعم ما قال لا خير فيكم اذ لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم تقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين ووجوب انتصاح الامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر آرباب السيران عمر (رض) كان أيام القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ويتسبها ثم يرجع الى أهله فلما اتبعه البشير سأله من أين فاخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدو : وعمر يحب معه

وليستخبره والآخريسير على ناقه ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس
يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فملا أخبرتني رحمتك الله انك أمير
المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا ان عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع
عليه فامسكها بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت
صنيعاً عظيماً عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أو اواه
لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس
فأعزكم الله بالاسلام فهما تطلبوا العزة بغير الله بذلك الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً
حتى اذا دنا منها سجد عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير
غلامه وعلى رجليه فرو ومقابوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه أوائل الناس
قالوا أين أمير المؤمنين : قال أمامكم يعني نفسه وذهبوا هم الى أمامهم فجازوه
حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها
فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم أمامكم : وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه
يشير الى ان الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان
حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار
ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة ابل الصدقة فقال
عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب : فقال هذا والله
القوي الامين

وفي كنز العمال عن الفضل بن عميرة ان الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز (١)
بعباة يهناً (٢) بمير آمن ابل الصدقة فقال يا احنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير
المؤمنين على هذا البعير فانه من ابل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين
فقال رجل يضر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك
هذا : فقال عمر : يا ابن فلانة وأي عبده هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من
ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من
النصيحة وأداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا الخاق يعاوب صاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها
أحد من الخلق والسلاطين ومن يد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها
اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات
أمورها وكليات سياستها الجدير به ان يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم وحقيق
بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمري جباراً على الظالمين رحماً
بالمستضعفين قوياً على الحق كريم على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر
لتنام ويجمع لتشبع ويفتقر لتستغنى فنسأل الله الرحمة والرضوان كأنسأله
لأنفسنا العافية من الظلم والسيامة من عاقبة الجوران انه عجيب السؤأل

﴿الاهتمام بأمر الرعية﴾

(وعسفه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقد هم بنفسه ويهتم
بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته وبلغ ذلك به ان كان لا ينام عنهم بالليل كما

كان لا ينقل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره في خدمة الرعية سواء اذ كان اكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويشفق احوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من امر الهيمنة على القانوت خدام للرعية مسؤولون عن راحة الامة وسعادتها الا ان الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبري في تاريخه عن بكر بن عبدالله الزني : قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى ادخل البيت واجلس مجلسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شيء فانت به طعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلي : فقال له تجوز ايها الرجل فسلم عبد الرحمن حيثئذ ثم أقبل عليه فقال : ما جاء بك في هذه الساعة يا امير المؤمنين : قال رقيقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرمهم : فانطلقا فأتيا السوق فعمدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرجع لهما صباح فقال عمر المانة عن المصابيح بعد النوم : فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل اليه فقال يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب : قال وما علمك يا امير المؤمنين : قال شيء شهدته : قال اولم ينهك الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبدالله وانما هي عمر عن المصابيح لان الفارة تأخذ القملة فرمي بها في سقف البيت فيحترق وكان اذ ذلك سقف البيت من الجريد وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنا بصرار اذا نار تورت (تقد) فقال : يا أسلم اني أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا : فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقد منصوبة على النار وصبياتها يتضاغون (تصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار : قالت وعليك السلام : قال أأذنو : قالت اذن بخير أودع ، فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر : قالت ما أسكتهم به حتى يناموا . . . الله بيننا وبين عمر . . . قال أي رحمتك الله ما يدري عمر بكم : قالت يتولى أمرنا وينقل عنا : فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال أحمله عليّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل غني ووزري يوم القيامة لا أم لك : فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فالتقي ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذري عليّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أضحج وأدم القدر ثم أنزلها وقال ابني شيئاً : فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعمهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقتت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين : فيقول قولي خيراً أنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتي هناك ابن شاء الله ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مريض السبع : فجعلت أقول إن لك شيئاً غير هذا وهو لا يكمنني حتى رأيت الصبية يصطرون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو محمد الله ثم أقبل عليّ فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فاحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للإمام أبي الفرج ابن الجوزي عن أنس بن مالك قال :
بينما عمر يسير المدينة إذ مر برحبة من رحابها فاذا هو بيت من شعر لم يكن

بالامس قد نامنه فسمع اثنين امرأة ورأى رجلا قاعداً قد نامنه فسلم عليه ثم قال
من الرجل فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله :
فقال ما هذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق برحمك الله ل حاجتك قال على
ذاك ما هو قال امرأة تمخض قال هل عندها احد : قال لا قال (اي انس) فانطلق
حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لك في اجر
ساقه الله اليك : قالت وما هو : قال امرأة عربية تمخض ليس عندها احد :
قالت نعم ان شئت : قال فخذني معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن
وجيئيني بيرة وشحم وجبوب : قال فجاءت به فقال لها انطقي وحمل البرمة ومشيت
خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال
له اوقدي نارا ففعل فأوقدت تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته :
يا امير المؤمنين بشر صاحبك بسلام : فلما سمع (أي الرجل) يا امير المؤمنين
كأنه هابه فجعل يتنحى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعتها على الباب
ثم قال (أي لام كلثوم) أشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب
فقام عمر رضي الله عنه فاخذها فوضعا بين يدي الرجل فقال كل ويحك فانك
قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال لارجل اذا
كان غد فاتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازته وأعطاه

لله أي نفس طاهرة بارة هذه النفس وأي حنان خالص من شوائب
التصنع هذا الحنان وأي خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ويضع
نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام
بافراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتزل
عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة التساوي بأفراد الرعية وهيئات هيئات

فان الجبروت ملكة في نفوس الملوك لا يحوها الا الرغبة في الله كرهبة
عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيته لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي
العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الا من كان له سبيل
للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي
تاجراً وانما هو كما بي بكر رضي الله عنهما ترك التجارة لما ولي امر المسلمين واقتنع
من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في
المطاء اقام نفسه مقام الاجير واخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي
في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح
القاذية ودمشق فقال اني كنت امراً تاجراً وقد شغلتموني بامرهم هذا فماذا
ترون انه يحل لي من هذا المال فاكثر القوم وعلي رضي الله عنه ساكت : فقال
يا علي ما تقول : قال ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر
غيره : فقال القول ما قال علي بن ابي طالب

واخرج ابن اسلم قال : قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال يا محفل
لك من هذا المال : فقال ما اصيلحني واصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة
للصيف وراحلة عمر للحج والبرقة ودابة لحوائجهم وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضي عمر لنفسه وفرضه له المسلمون
لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة
والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لغيره في رزقه من بيت المال فها هو امقابلته
بذلك فاتوا بنته حفصة وامروها ان تخبره بالخبر وتري رأيه فيه ولا تذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت
لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوت وجوههم أنت
بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما أقتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك
من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب
فيهما للجمع قال فأبي الطامام بالله عندك ارفع : قالت خبزنا خبزاً شعير فصبينا عليها
وهي حارة أسفل عكة^(١) فجعلناها هشة^(٢) دسمة فأكل منها وتطعم استطابة
لها : قال فأبي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ^(٣) قالت كساء لنا ثخين
كنا نرتبه في الصيف فنجمه تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدرنا بنصفه
قال يا حفصة فأبلغهم عنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول
مواضعها وتبلغ بالترجية واني قدرت فوالله لأضمن الفضول مواضعها
ولا تبغى بالترجية^(٤) وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلثة سلكوا طريقاً
فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأقصى إليه ثم اتبعه
الثالث فأنزلهم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير
طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف
مما يسد الجوع ويستريح العري وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس
وهو خليفة وعليه أزار فيه اثنتا عشرة رقعة . وفي المناقب أيضاً عن أبي عثمان
النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه أزار فيه اثنتا عشرة رقعة
أحدها من بادم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على

(١) قرية السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلغ بكذا

أكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحده وهو ضد اليأس

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم في احتباسه وقال انما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا امير المؤمنين لو لبست ثوبا هو الين من ثوبك هذا واكلت طعاما هو الين واطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق واكثر من الخير . فقال اني ساخصمك الى نفسك امانا ذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقي من العيش . فما زال يذكرها حتى ابكاها

ومن هذا وغيره من اخبار عمر الكثيرة في الزهد تعلم انه (رض) . انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتشعب وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسط كي لا ينفسوا في النعيم ويسترسوا في الشهوات فتفسد اخلاقهم وتفترهمهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتأعن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتعطل امور معاشهم ومن يرى كتابه الذي كتبه الى ابي عبيدة ابن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته في منع المسلمين عن التتم بتضح له مذهبه في حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدد على المال فقط في النهي عن التتم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتسخطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في اسباب الرفاه فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت اخدم حاجة السرف الى تناول المال من غير طريقه المشروعة فتأذي بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شي في الدنيا احب اليه منه

﴿ كلمة في بيت المال ﴾

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتعففه طريق النبوة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجة للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم المطاء له حالة معيشتهم ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيسته بنسبة حاله فيما لو ترقت اصول معيسته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في النقشف والزهد ويتأدب مثلهما باداب النبوة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول اموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جازله ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقنير

وقدر أيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيسته وتقضي بتلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بقبول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أو أمر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في ذاتها بممانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستثثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها
المشروعة التي بها تقوم الأمة كلها الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود
المعقولة في دول الاسلام مبلغا يدهش عقول الباحثين وما نظن الا ان اكثر البلاء
الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشى
عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست
هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي
تفاوتت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتباين تبين صفة
الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية
لسلطتهم توصف وانما هم ارباب اليد المطلقة في أموال الرعية يأخذون منها
ما شاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الأمة
رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عنيد وقلما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم
وبهذا البلاء من التسلط الآفى زادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول
الاسلام سيأتى في هذا الكتاب وأما من دول أوروبا فيمكن فيه ان يقال ان
الامبراطور شارل كان الذي قام في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر بعد
المسيح ومثل معظم الديار الأوروبية وتسلط على سائر الشعوب والدول الممالك
يكن لسلطته حد في بيوت الاموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك
في عصره ما لا يدخل تحت حساب حتى اذا أحس بالمعجز عن سياسة ذلك
الملك المريض لتقر بيوت أمواله وانها كه قوى رعيته أنزوى في دير من
الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الأوروبية ظل
الاسبانيول وان ذلك أساس ما ابتناه شارل كان لنفسه من الملك الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبته الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً
لسلطة الرؤساء والامبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت
الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منه بنسبة حاله في المعيشة وحال بلاده من
الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء في صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر
خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية
واعترت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة قبسطت جناح السلطان
على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة في الامم اذا دب دبيبها في جسمها
ونبتت دورة الدم في عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور ان يدالحا كم متى أطلقت في بيت المال يتفشى الخليل
في سائر فروع الحكومة تفشياً وبيلاً بحيث لو اراد الحاكماً نفسه ان يتلافى ذلك
الخلل لتعذر عليه ذلك بأي سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً او مملكته غنية
واقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان في عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي
الاسبق في مصر من الخلل العظيم في سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه
على اموال الحكومة وسرفه فيها وتبديدها في الوجوه التي لا تستلزمها حياة
الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل في الحكومة والجندى في السكنة
لا يتناولان مرتبهما الا كل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثورتها ومع ما حملها
من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولما أحس بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استعدو ذعلى
مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ في تنظيم شؤون البلاد تمذراً
عليه ذلك مع طول باعه في السياسة وحضكته في الامور وجود رجال يساعدهونه
على ذلك التصدي ثم فشل فشلاً المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن امانة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما ولي الامارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جليل لا يقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به أن كفيده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك بإشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن في المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثم ظهرت في الحكومة علامة الاصلاح وبدأت في الحال ثمره تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من أسباب الثورة المرابية واحتلال الدولة الانكليزية في البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية في نمو وجباية البلاد في ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفاً ونيقاً من الجنيهاً وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسد لها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كفاية الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا واما واضع بيت المال في الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر في سيرته وانما كان ساذجاً تحشر اليه الاموال من التقي والصدقة ثم توزع في اماكنها المشروعة وعلى الوجوه التي أمر بها الله في الكتاب الكريم الذي وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد في ديوان وقدر أيت فيما مضى من سيرة عمر رضي الله عنه كيف نهض لو وضع الديوان لما كثر التقي والحراج وازدادت الجباية ضبطاً لامور بيت المال وتقييداً للثغرات وانما كان ديوان بيت المال هو الدقر الذي

يضبط فيه الحساب ثم ما زال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كإدارة ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الأئمة والفقهاء بعد في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابن يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الا ان امريوت الاموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طرق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإيداً ومحوراً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبه ﴾

أصل الحسبة هي مشاركة السوق والنظر في وازينه ومكاييله ومنع النش والتدليس فيما يباع ويشري فيه من المأكول والمصنوع وغيره وتسعير السوق ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الأزقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على ما يظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق : وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقى الحسبة في الاسلام ترقياً عجيباً حتى كانت من اهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل امر معروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء شيخ الاسلام ابن

تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في إقامة الصلوات الخمس في مواقيتها
وتماهد الأئمة والمؤذنين وإلزامهم بإداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته
في جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الإسلام
المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصها وما يستفیده المتولي بالولاية يتلقى من الاتفاظ
والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في
بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر
وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اهـ

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها
وإتقانهم لهم حتى اننا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الصاطيين قطعاً
مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها
وزن واف او ماهو وبمعناه ومثلها للاوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والي
الحسبة او المحتسب على تعبير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم
والدنانير والاوزان على ما يظن منعاً للتلاعب والنش الا اننا لم نقف على التاريخ
الذي النى فيه اسم المحتسب ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية
وسنتكم عليها في مكان آخر باوسع من هذا ان شاء الله

اما حسبة عمر رضى الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع
ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشرف السوق ويراقب المكابيل
والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن
الخطاب رضى الله عنه يضرب جمالاً ويقول جملت جملك ما لا يطيق

وفي كثر العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره
وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب
التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكاك أسلم ويقول
لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي أنه كان يأمر بالمشاعب^(١) والكنف تقطع عن طريق المسلمين
وفيه عن القاسم بن محمدان عمر بن الخطاب مر بمحاطب بسوق المصلّى وبين
يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرهما فسر مدّين بكل درهم فقال له عمر :
حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما أن ترفع في
السعر واما أن تدخل زبيك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه
ثم أتى حاطباني داره فقال ان الذي قلت ليس بعزيمة ولا قضاء وانما هو شيء
أردت به الخير لاهل البيت فحيث شئت فبيع وكيف شئت فبيع (أخرجه
الشافعي في السنن)

وله اخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضى
ابوبكر وعمر رضي الله عنهما فلا يرى حاجة للمزيد هنا الا بعض اخبار عمر في
القضاء فانانا في بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غير من اهل بيته من رؤوف
من ان القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له ان يتولاها بنفسه

وأن ينبها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريره في
انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوى والمدل ويعلم
ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقصد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك
ابن عمير قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة
أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين
وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال: من استعمل فاجراً وهو يعلم انه
فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدل يتحرى العلم
والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهه

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل
قاض من أنت قال قاضي دمشق قال كيف تقضى قال أقضى بكتاب الله : قال فاذا
جاءك ما ليس في كتاب الله قال أقضى بسنة رسول الله : قال فاذا جاءك ما ليس في
سنة رسول الله قال اجتهد رأيي وأمر (أي أشاور) جلسائي : قال أحسنت :
وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك أن أفتي بلم وان أقضى بحكم . وأسئلك المدل
في الغضب والرضى : قال فسار الرجل ماشاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر :
فقال ما رجوعك قال رأيت الشمس والقمر يقبضان مع كل واحد منهما جنود
من الكواكب فقال مع أيهما كنت : قال مع القمر : قال يقول الله عز وجل
(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا
وانما غزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع
عماله رضى الله عنه

وكان لا يحب تمجيل الفصل في الحصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضى الله عنه انه قال ردوا
الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس. وأما كلامه
في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شرح القاضى ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يفتنك عنه الرجال فان
جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان
جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه
الناس فخذ به . فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم
يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت . ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم
فتقدم . وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيرا الاكاه (من كنز العمال)
وأما قضيه فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب
الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة
فلم يؤخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المنعة وقد أحلت في ظروف
مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة
مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب
الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحسن بالم الحكم بوقوع الطلاق
الثلاث وغير ذلك من الأحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين
اقتداءً بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة
والمحدثين من شاء

﴿ كتابه في القضاء الى أبي . وسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم

اذا أدلى اليك^(١) فإنه لا ينفع تكلم بحق لانه لا ينفذه آس^(٢) بين الناس في مجلسك
 ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك^(٣) ولا يخاف ضميم من جورك
 والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً
 حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنحك قضاء قضيتك بالامس واجعت فيه نفسك
 وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من
 التماذي في الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجج^(٤) في صدرك مما يبلغك في كتاب
 الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه وقس الامور
 عند ذلك ثم اعمد الى احبها الى الله واشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً
 أو بيته أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بيته أخذت له بحقه
 والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنق للشك وأجلى للعمى وأبلغ في المنذر.
 المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور
 أو ظنيماً^(٥) في ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم
 اياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتكر للخصوم في مواطن الحق التي
 يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخرفانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله
 تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم
 الله خلافه منه هتك الله ستره وأدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)
 وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

(١) رفع لك الامر وجي به اليك (٢) اعسك وساو (٣) الحيف الجور والظلم

كافي القاموس (٤) اتعاجج التردد في الكلام كما في القاموس (٥) هو التهم بسبب

قرابته أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضى الله عنه حديداً ذكاءً شديد الفراسة يكاد يفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ما تكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له النفوس رغبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قریش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناها ألكنه ضمائرهم ليحسن إلى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال قيم انتم قلم يجيؤه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ما هو دأب بينهم من الكلام فقال لهم: انكم تقولون ما أخوفنا على قریش من العرب: قالوا صدقت: قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قریش حجر أدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى ما في هذا الكلام من المغامر خلافاً فيه من الاستخفاف بقوة العرب وإنما أدرك ما خامر نفوسهم من أخبار الردة فإراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافة أبي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب وبين لهم أنهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وشيق بها العرب إلى ما سيقوا إليه ودخلوا مع قریش إلى حيث دخلوا كما هو معروف في

التاريخ وسنشير اليه في محله ان شاه الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان امر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتمدها بعد ذلك فلتة وفي الله المسلمين شرها كما ستري في احدى خطبه التي تجي في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كانت يفرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويأويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كانت الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه انه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سنناً وأضعفهم عصية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبية الكيرة فكانوا باجمهم عصية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفنون بحق طاعته لا سيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير امر الخلافة الانصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما هم تراحموا على الخلافة بعد لا عتزاز كل فرد منهم بعصيته أو سابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها . أي كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجبلهم كلهم راضين به العلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولا طمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا الذي دعانا لرتياحهم

جميعاً لخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي
الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه
في العقد قال : قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى
عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم
يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل النبي صلى
الله تعالى (وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه
ذلك عمر من قبل

هكذا كان يبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان
يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة وأثارة غبار الفتن والاستخواذ على ذلك
المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة
المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له
عملاكي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره
في العقدان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس
تحبها خير من ولاية لا تحبها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما يستعملهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم وقد جاهر به امير المؤمنين
عباس مراراً ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له : يا ابن عباس اني خشيت
أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عمالك فتقول علم الينا ولا علم اليكم دون غيركم

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك وحرمانهم الخلقاء على الخلافة وأسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهراقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية، وتأتى عن هذه المزاجحة من التشويش في أمور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم: على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصر فها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل كانوا اذا استبرأ في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد، نصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه مما اذا الله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في ابان نشأة الاسلام وعز الحرية وحقيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فتوهم ان يسلبهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير مبالين لاستخلاف احد منهم بذلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال: ماشيت عمر ابن الخطاب يوما فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وانتم اهل البيت خاصة: قلت لا أدري: قال لكنني أدري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وان افضل النصيين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم
وان نزلت على رعم أنف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نبت من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما اخرجته في المناقب عن الاحنف بن
قيس قال وفدنا على عمر رضى الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت في مكان كذا
فقام معنا حتى انتهينا الى مناخره واحلنا جعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم الله
في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً ألا خليت عنها فاكات من نبت الارض :
فقلنا يا امير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا الترع الى امير المؤمنين بما يسه
عن نافع قال دخل شاب قومي المسجد وفي يده مشاقص^(١) وهو يقول من
يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأتى به فقال من يستاجر مني هذا يعمل في أرضه
فقال رجل من الانصار : انايا امير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا
وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في ارض الرجل اشراً ثم قال عمر للرجل : ما
فعل أجيرنا : قال صالح يا امير المؤمنين : قال اتيتي به وبما اجتمع له من الاجر :
فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالان اغز
وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلاً للعمل فاعطاه لمن
يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر الودرات وكتبات ما يمس
بشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نعل عريض او سهم فيه ذلك والتصل الطويل او

سهم فيه ذلك يرمى به الوحش

ابنتي كنت وأدتها^(١) في الجاهلية فاستخر جناها قبل أن تموت فأدركت معنا
الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها
وأدر كناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة
حسنة وهي تخطب الى قوم افاخيرهم بالذي كان : فقال عمر (رض) اتعمد الى
ماستره الله فتبديه والله ائن اخبرت بشأنها احداً من الناس لا جعلك نكالا
لاهل الامصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن أخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض
ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتني عمر بن الخطاب بفتى
أمرد وجد قتيلا ملق على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له
على خير ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان
رأس الحول أو قريبا من ذلك وجد ضي مولود ملق موضع القتل فأتي به عمر
فقال ظفرت بدم القتل ان شاء الله فدفع الصبي الى امرأة وقال لها قومي بشأنه
وخذى من نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى
صدرها فاعليني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي
بعتني اليك تبشئ الصبي لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وانامك
فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأتها اخذته فقبلته وضمته
اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة
فاشتغل عمر على سيده ثم اقبل الى منزلها فوجد اباهم متكئا على باب داره : فقال يا ابا
فلان ما فعلت ابنتك فلانة : قال يا امير المؤمنين جزاها الله خيرا هي من اعرف

(١) الؤد هو دفن النبات وهن احياء وكانت عادة الؤد عند العرب في الجاهلية فليما جاء

الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصياها والقيام بدينها فقال عمر
 قد أحببت أن أدخل اليها فإزيدها رغبة في الخير وأحبها على ذلك فقال جزاك الله
 خيراً يا أمير المؤمنين أمكث مكانك حتى أرجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل
 عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معها أحد
 فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت علي رسولك
 يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : أن عجوزاً كانت تدخل علي فأتخذتها أمماً
 وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك
 حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه ان تضع
 وقد أحببت أن اضمها اليك حتى أرجع من سفري . فمهدت الي ابن لها شاب
 امره فبها ته كهيئة الجارية وأنتى به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية
 من الجارية حتى اغتفلني يوماً وأنا نائمة فاشمرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي
 الي شفرة كانت الي جنبي فقتلته ثم امرت به فأتني حيث رأيت فاشتملت منه على
 هذا الصبي فلما وضعت القيته في موضع أبيه فهداؤ الله خبرهما على ما أعلمتك : فقال
 عمر صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لا يهابارك
 الله في ابنتك فنعمة الابنة ابذك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله
 يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿ فنون شتى من أخباره ﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا

فاغنانا وأخشاننا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدى عليه فقال : اللهم اني

لا أحل لهم اعشارهم ولا ابشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا

أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذله القود)

وقال المغيرة بن شعبه وذكر عمر فقال كان والله فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يتخدع

في كثر المال عن طاوس أن عمر قال أرايتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أفضيت ما علي قالوا نعم قال لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية الى الامام ما أدى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر إلا رجل فيه أربع خلال الدين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسباحة في غير سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما ظن ان خليفة تصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريبا من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يراعي النعم فاجابه الراعي : فقال له اني مررت بمكان هو اخصب من مكانك فان كل راع مسؤل عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بان يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيئات هيئات فان الشهوات غلبة ومحبة الذات خلافة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا

الامر بعدي فليعلم ان سير يده عنه البعيد والقريب وايم الله ما كنت الا اقاتل
الناس عن نفسي قتالا

وأخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحيى بن جمدة قال : قال عمر لولا اني
أسير في سبيل الله أو أضع جيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب
القول كما يلتقط طيب التمر لا حبيت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال : قال عمر والله ما أدري أ خليفة أنا أم ملك فان كنت
ملكاً فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين ان بينهما فراقاً قال ما هو : قال
الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف
الناس فيأخذ من هذا ويطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولاً كانوا اوشبانا
وفيه عن الاوزاعي قال : بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه
غيره فقال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فصر بها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها
ناائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوتكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها
تؤدي أموالكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم . انها تنهى عن الصبر الذي أمر الله
به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال : ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجيء
به ويقول ادع لي فانك لم تذب بعد : وفيه عن محمد قال : كان عمر يشاور حتى المرأة
وفيه عن أبي امامة بن سهل قال : كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما
علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه أراد بهذا التليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر
وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لتلك العصر

وأما في هذا العصر فلو ازم الحرب كثيرة ومنها تعلم فنون الكيمياء لاجل
 عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيات أي علم
 صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من
 لوازم القوة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها
 ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين
 على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها وعلان الحرب على
 أهلها (ومن الغريب) ان يقوم مهندسين بعض علماء المسلمين في مصر معلنين
 على ملائ الناس ان ادخال أهون هذه العلوم في أصول التعليم في الأزهر وهو فن
 تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤون كل يوم مئات من مثل هذه الآثار
 والاخبار تدعو الى الحوض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مباراة
 الاعمم في مضمار الحياة والقوة وكانهم لا يقرؤون من ذلك شيئاً ولا يعلمون فان الله
 وانا اليه راجعون

وأخرج الطبري عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض نجسلاً
 وانما هي المواساة

ومن ما تور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده : أشقى الولاية من
 بشيت به رعيته : أعقل الناس أعذرهم للناس : ما الخمر صرفاً باذهب لعقول
 الرجال من الطمع : لا يكن جبك كلفاً ولا بنضك تلقاً : مر ذوى القرباب ان
 يتزاوروا ولا يتجاوروا : قلما أدبر شئ فأقبل : أشكو الى الله ضعف الامين
 وخيانة القوي : من لا يعرف الشركان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب
 وثمر الآداب)

ودخل عدي بن خاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين انا

عدي بن حاتم فقال : ما أعرفني بك آمنت اذ كفر واووفيت اذ غدروا وعرفت
اذا أنكروا وأقبلت اذ أدبروا (عنه أيضا)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيرا منها كذب : وقوله تعلموا المهنة
فانه يوشك أحدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال : قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن
فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون في الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق
حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الاخلاق الحسنة فاتق
عثرات الاشياء :

وفي المناقب عن عبيد أم كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنيكم من
الرجل طنطنته^(١) ولكن من أدنى الامانة وكف عن اعراض الناس فهو الرجل
وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة في ترك خلطاء السوء : وما
أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد
وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال : حسب المرء
دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله في بيان فضيلة الكسب ما ذكره في المناقب عن عطاء قال : قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن أموت بين شعبي رجل (هو قتب الجمل)
أسعى في الارض أتبعني من فضل الله كفاف وجهي أحب الي من ان أموت
غازيا (كلمة اجمالية في أخلاقه)

هذا ما أحببنا ايراده من مناقب عمر (رض) وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم
كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأتم ويقتدي بسيرتهم
 أرباب الهم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع
 والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل ان تجتمع في عدد عديد من
 الرجال وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل
 أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع أو التكلف ولو
 أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لا نعجزنا هذا الأمر كما أعجز كثير غيرنا من
 الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتبوع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمشارها
 ومن أحسن وصفه موزع وصف به عمر ما روى ان معاوية بن أبي سفيان قال
 لصمصمة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلاً في قضيته عارياً من الكبر قبولاً للمعذر سهل الحجاب
 مصوناً الباب متحرراً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا
 جافٍ للغريب :

وكان من أخص صفاته الجدل المصحوب بالخزم مع الثاني في الامور
 والاستشارة في جليلها وحقيقتها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من
 الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها في خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان
 على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبها من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب
 هذا التوفيق هو الجد والخزم وعدم التردد في الأمر وتمحيص الاشياء شأن كل
 رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة
 لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجلاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي
 ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية
 والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

برجالها فنحن لا نبالغ اذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم واذا كان هناك
مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غير تام من سير رجال الأمم المشهورين
على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وأنا أضع له خيدي في
التراب اعترافا بالحق وإقراراً بفضل ذوى الفضل من رجال العالم
نعم ان من مشهورى الرجال رجالاً أسسوا ملكاً عمر أيضاً أوسع من ملك
عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق
مانال ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً
لا عن ضعف شجاعاً غير متهور قوفاً غير شره زاهداً غير تصنع حليماً من غير جبن
تقياً غير منتطع كلاً ما نظن ان أوصافاً كهذه تجمع في رجل واحد غير هقط لاسيما
اذا نشأ في بيئة كئيثة وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم
عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وأنا والله لتعني
لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب
الزمان وغدتهم لبيان السياسة بعضاً من أخلاق عمر يحملون بها الأمة على طريق
الحير والسعادة ويربونها على الجد ويتكبرون بها طرق المهالك التي ساقها اليها
يد الظلم والاستبداد والجهل بأصول سياسة الرعية والله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ما هو من
أوليائه ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه :
فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن
قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من
ضرب في الحمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الأحمر) إلى المدينة وأول من احتبس صدقة^(١) في الإسلام وأول من أعال الفرائض^(٢) وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله علي) وأول من قال أيديك الله (وقاله أيضاً) وأول من اتخذ الدرّة وأول من استنقضى القضاة في الأمصار وأول من مصر الأمصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب أولاً من خليفة أبي بكر أو من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرة إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلد ين يسألهما عن العراق وأهله فبعث إليه يزيد بن ربيعة وعدي بن حاتم فقدا المدينة ودخلا المسجد فوجد عمر وبن العاص فقالا استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال عمر انما والله اصبيا اسمه فدخل عليه عمر وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال ما بذلك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فخرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد وزيد عليه أنه أول من ضرب النقود في الإسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل وأول من أقام والياً للحسبة وأول من شق الترع وأقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجنود في الثغور وسمى الاجناد وأول من أمر بالعبادة بالمناظير وأول من عين شخصاً مخصوصاً لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق

(١) أي وقف وقفاً (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي أن تزيد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن سلمة وربما كان له اوليات
أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا منفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

بَابُ كِتَابِهِ

كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام
أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا
من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي
يحق عليك لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده (١)
لهم وتعلم كيف ما أتاه ولا تبث سرية الا في كتف من الناس واياك والقاء المسلمين
في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فانمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها
واياك أن تهلك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة
هذا الكتاب في تاريخ الطبري ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهي بنصها
(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي
عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه
محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من
الحق وانى أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه الذي استخرجك
من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض
الحيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبث سرية الى جمع كثير
ولا تقل انى أرجو لكم النصر واياكم والتفرير والقاء المسلمين الى الهلكة وانمض
عن الدنيا عينك وأنه عنها قلبك واياك أن تهلك كما أهلكت من كان قبلك فقد
رأيت مصارعهم واحترت سرايرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم
اليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلاً من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها
زهارتها فأحرم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في شرك ونجواك وتفكر في زاد
التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الخنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق
وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الحس والسلام انه

٢

وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب
 (بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح
 سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله
 عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرتني ما سمعت من الفتح وعامت
 من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى التواحي التي
 قربت من انطاكية فهذا بنس الرأي أتترك رجلاً ملكك دياره ومدينته ثم ترحل
 عنه وتسمع أهل التواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأي فيضعف رأيك
 ويغلو ذكرك بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها
 فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فبث الخيل في السهل والسعة واكفها
 في المضائق والخيال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن
 سالمك فسأله والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا
 ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله
 وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اهـ

٣

وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بأنه لا يريد الاقامة بانطاكية لطيب
 هوائها وخوف اخلاص الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه
 (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح
 سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله
 عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة
 للمتقين ولم يزل معيناً لطيفاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز
 وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز
 (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب
 عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم ويريحون الابدان
 النصبه في قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنظر أمري الذي أمرك به ان تدخل

(١) يتوسعون ويتعمون

الدروب خلف العدو فانت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت
 بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً
 فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك
 الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد
 ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك
 أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته
 (نقله والذي قبله في حقائق الاخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)



وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه
 من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد
 فانه لم يقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس
 منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة (٣) ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)



وكتب الى ابنه ينصحه
 بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه
 ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه
 لاعمل لمن لانية له ولا أجر لمن لاحسبة له ولا جديد لمن لاخلق له (العقد الفريد)



وكتب الى أبي موسى الأشعري يوصيه
 بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان للناس نفرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني
 وأياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متعبة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة
 من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة
 على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفذ والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

(١) قوله حصيف العقدة اي محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل
 ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة
 (٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحنق على جرة اي لا يحنق على رعيته
 وقلان لا يحنق على جرة اي لا يحنق على رعيته

وأخف الفساق واجعلهم بدأ بدأ ورجلا رجلا واذا كانت بين القبائل نائرة (١) وتداعوا بال فلان فلان فاما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيثوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بال ضبة واتي والله ما اعلم أن ضبة ساق الله بها خيرا قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فانهمكهم عقوبة حتى يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا والصق بغيلان بن خرشة من بينهم وعد مرضى المسلمين واشهد جئناهم واقترح بابك وياشر امرهم بنفسك فاما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حملا وقد بلغ أمير المؤمنين انه فتاك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البيعة التي مرت بواد خصب فلم يكن لها همة الا السمن وانما حثفها في السمن واعلم ان للعامل مردا الى الله فاذا زاع العامل زانت رعيته وان اشق الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)



وكتب الى معاوية وقيل الى ابي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونسى خيرا . اياك والاحتجاب وأذن للضعيف وأذنه حتى تبسط لسانه وتجرى قلبه وتعمد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستين لك القضاء واذا حضرك الحصان بالينة العادلة والايامن القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)



(كتابه لاهل ايلياء . . . القدس)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أمانا لا تقسم وأموالهم ولسكنائهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا يهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن

١ قوله نائرة أي عداوة وقوله يفيثوا أي يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا أي يخافوا ويفزعوا واذا كانت بتشدد الراء فتعناها يفرقوا

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (٢) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبري)

٩

(كتابه إلى أهل لُد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولبكتائسهم وصلبهم وسقيتهم وبريتهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يتقص من حيزها ولا ملها ولا من صلبيهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لُد ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان يخرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره (عن الطبري)

١٠

« كتب إلى سعد في اليوم الذي يرثل فيه من شراف »
أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب
الهجانات وعذيب القوارس وشرق بالناس وغرب بهم « عن الطبري »

١١

(وكتب إليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث نيتك بالموعظة والنية والحسبة ومن غفل فليحدثهما « ١٣ » والصبر الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجز على قدر الحسبة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسيله وأسألوا الله العافية واكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله . واكتب إلى ابن بانك جمعهم ومن

« ١٤ » وفي رواية والصرس وهو الظاهر « ٢٥ » هكذا في الاصل « ٢٥ » هكذا في الاصل
والاحداث الابداء فليحرر

رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقرعاه امر عدوكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارزجبه ولا تدل بشيء واعلم ان الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الامر بما لا تخلف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

« وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه »

اما بعد فيسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على امرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم قاضية وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلاً كثوره لبحوره وفيوضه ودآده (١) الآن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخذعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغب خصب رحيب دونه قناطر وانهار ممتعة فتكون مسالكك على انقابها ويكون الناس بين الحجر والمدرة على حافات الحجر وحافات المدر والجراخ بينهما ثم ازم مكانك فلا تبرح فانهم اذا أحسوك انقضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدمهم وجددهم فان اتم صبرتم لعدوكم واحسنتم لقتاله وتوتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثاهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدياركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها اجراً وبها أعلم وكانوا عنها اجين وبها جهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

١٢

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فآتم مكانك حتى ينفذ الله عدوك واعلم ان لها

« ١ » كثوره اي ضربه وفيوضه اي مياهه . الناضية والداداء جمع دأداء وهو القضاء الواسع وتوافقوا اي تلاقوا : غيضاً من فيض أي قليلاً من كثير : النقب الطريق يكون في الجبل والثقب وجمعها انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا انقاب القناطر التي على الانهار : والحجر والمدرة كناية عن البادية وال عمران او المدن والقضاء لان المدرة هي المدن والحجر هي قناطر الرمل وقوله انقضتهم اي حركتهم

مابعدها فان منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها
ان شاء الله (الطبري)

١٣

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر
ابن الخطاب سلام عليك فانا محمد اليك الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فانا عهدناك
وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحرها وأسودها يجلس
بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف
انت يا عمر عند ذلك وانا نمحذرك يوماً تفوقه الوجوه ونجب (١) له القلوب وتقطع
فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجهوته والخلق داخرون (٢) له يرجون رحمته ويخافون
عقابه وانا كنا نتحدث ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان
العلانية اعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا
فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة طاهر بن الجراح
ومعاذ بن جبل سلام عليكم فاني أحمدا اليكما الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فقد
جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة أحرها وأسودها يجلس
بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبنا ان انظر كيف انت يا عمر عند
ذلك وانه لاحول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبنا تحذرا اني ما حذرت به الامم
قبلنا وقد يما كان اختلاف الليل والنهار بأجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد
ويأنيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفي كل نفس
بما كسبت ان الله سريع الحساب كتبنا تزعمان ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها
ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذلك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان
ذلك حين تظهر الرغبة والرغبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ورغبة
بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبنا نعوذ اني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل
الذي نزل في قلوبكما وانما كتبنا نصيحة لي وقد صدقنا فتعهداتي منكما بكتاب فلاغني

بي عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في غضون أخباره وكتب أخرى كتبها الى عمرو بن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائدة ان نرجي ذكرها الى سيرة عمرو بن العاص لان ايرادها في سيرته أنسب لاشتمالها على تبادل المكاتبه بين الاثنين في شؤون خاصة سترى في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملاً بأمر كتابهم وهدى نبيهم ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للإمام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون أن النصيحة به أجرى وله أولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة أن لا يغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو : فذ الأمة الاسلامية ونحر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغنم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامسك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لمسأله عما اذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لوفعلت لقومناك تقويم القدح) أى تقويم السهم الموعوج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بحميل نصيحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال ان استرشاده بأراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أو مس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما لصحاه في آخر كتابه (قد صدقنا قنصهداني منكما بكتاب فسلامي غني بي عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر وقوله للمعترض دعه فلا خير فيكم اذ لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الأمير أولى بان ينصح ويستصح بسبب ما وسد اليه من أمور الملك التي ليس من طوق الآحاد

القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الآرة وأطاعوا هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمانة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور أن الامارة مرتبة لا ينبغي لها أن تكون الا في مصاف الملائكة المقربين أو الانبياء المعصومين وحبذا لو تحقق هذا التصور لانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهربون منه والتعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه أودى بدولة بني مروان في اتيان شبابها كما أودى بكثير من اضرابها

التناصح بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي تربي فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتنظف الاعراق وتثبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها أثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفوياً بلا أجر وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكرام فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل وتم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وأبي عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالتناصح والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرتهم انظار الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة وناهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الاوربية حرية الضمائر والافكار ورفعهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الامم فلكوا ثلاثة أرباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحووا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبيرة والجاوي والقريم وبنخاري وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

ليس بعجيب أن يضرب المسلمون في أسر الدول المتغلبة ويتقلص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم في المناصح والقيام على الحق ما ذكر ثم بلغ ترك المناصح والمخطاط النفوس والاخلاق يفريق كبير منهم أن صاروا يعبدون المناصح بالمعروف

خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمده عدلاً ولا يذمه جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١) ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بان يقول المسلم للعدل المحسن عدلت وأحسننت ولا جائر على نفسه أو على غيره جرت وأساءت فاستقم كما أمرت وهو من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الأغراق في الجهالة والتأهي في الأخطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودواتهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واجلبوا عليهم بالجيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخواتهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارقاء غيرهم وتفهقروهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الأسباب وحكمهم في التفريق بين خطيئها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماء بعضهم بأنواع الزور وتقرب بماله واهله ودمه الى ولاية الامور رجاء نيل الخطوة عندهم والتزاف اليهم واكتساب رضاهم وان اتعصب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لا وازع من النفس ينهيه ولا فضيلة تلوى عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والأعمال بناتى على بيانها في محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتى والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطى الرذيلة اقدام الفجار

باب

خطبه

أوردنا عند ذكر استخلافه اول خطبة خطبها ورأينا في رواية اخرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابنة ورواها غيره من المحدثين من طرق

اخرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله واتى عليه وقال
(اللهم اني شديد قلبي واني ضعيف فقوتي واني يجيل فسختي) وقد رأينا هذه
الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لا تخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب
خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأنى عليه ثم قال
ايها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخدامه وجلوازه (شرطيه) وكان كما
قال الله تعالى بالمومنين رؤفاً رحباً وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني
او ينهاني عن امر فأكف عنه والا اقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على
ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد
رسول الله وكان من قد علمتم في رغبة ولبنة فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف
المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بلبنة الا ان يتقدم الي فاكف والا اقدمت
فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم
صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الي غيره فكيف به
لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لا تسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد
عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ما قد عرفت وما اصبحت نادماً على
شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سأله واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت
أضعافاً عن الاول علم الظالم والمتعدي والاحذ للمسلمين لضعيفهم من قوتهم واني
بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لأهل العقاف وأهل الكفاف ان كان بيني
وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه الى من أحبه منكم فينظر فيما
بينني وبينه : فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر
واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم ١

(١) تصرفت تصرفاً طفيفاً ببعض الالفاظ الواردة بهذه الخطبة لان الناسخ الذي نسخ لي سيرة
عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشة والمتشابهة
لنقائمة خط التاريخ

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب
صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً للمجلس أبي بكر فزل مرقة فحمد الله
وأتى عليه ثم قال : اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله ووزنوا
أنفسكم قبل أن توزنوا وترتّبوا للعوض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تحفى منكم
خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله « ١ » إلا واني أنزلت نفسي
من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ان استغيت عفت وان افقرت أكلت بالمعروف



وفي الحراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا أنها أطول وأجمع رواها عن
طلحة بن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأتى عليه ثم صلى على النبي صلى الله
عليه وسلم وذكّر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه أن
يطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الاّ خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق
ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا وما لكم كولي اليتيم ان استغيت استغفت
وان افقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى
أضع خده على الارض وأضع قدمي على الحد الآخر حتى يدعن للحق ولكم عليّ
أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليّ أن لا أجبي شيئاً من خراجكم
ولا بما أفاء الله عليكم الاّ من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني
الاّ في حقه : ولكم عليّ أن لا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم :
ولكم عليّ أن لا أقيكم في المهالك ولا أجركم (أحبسكم) في ثغوركم . وقد اقترب
منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامل يعمل فيه أقوام للآخرة
يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الخطب الاّ من أدرك ذلك

« ١ » يعني بذى الحق نفسه وهو الحق والسلطة الذي لا يتعدى ما أمر الله من العدل الى ما
تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبي بكر « رض » في إحدى خطبه اطبعوني
مأظمت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها للحق والعدل والزما للشرعة
الاتصاف مع الرعية

منكم فليثق الله ربه وليصبر : يا أيها الناس ان الله عظم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جيارين ولكن بعثكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم قذلوهم ولا تحمدوهم ففخوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فإيا كل قويم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقتلوا بهم الكفار طاقهم فاذا رأيتم بهم كلاله فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوكم : أيها الناس اني أشهدكم على أمراء الامصار اني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأثم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اه
 هذه الخطبة من أجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته ومحدد وظيفته وتبين مقاصده وتبي عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشده على الظالمين ورافته بالظالمين الي غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه



﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وُليتُ عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأفواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكني عمر مهتماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير قربي المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأيدته (تاريخ الطبري)



﴿ وخطب فقال ﴾

ان الله عز وجل قد ولاّني أمركم وقد علمت أنفع ما يحضرتكم لكم واتي أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقتي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم أن عمر تغير منذ ولي : اعقل الحق من نضي وأتقدم وأبين لكم أمري فأيتما

رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلماً أو عتب علينا في خلق فليؤذني «١» فأما أنا
رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سرركم وعلايتكم وخرماتكم واعراضكم واعطوا
الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا اليّ فانه ليس بيني وبين أحد
من الناس هوادة «٢» وأنا حبيب اليّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم وأتم أناس
عامتكم حضرّ في بلاد الله وأهل بلدي لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه وان
الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أماتي وما أنافيه ومطّيع على
ما يحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أكلمه إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالامناء
وأهل التصح منكم للعامه واست أحمل أماتي إلى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

وخطب أيضاً

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان
بعض الطمع فقر وان بعض اليأس غنى وانكم تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا
تذكرون وأتم مؤجلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
تؤخذون بالوحي فمن أسر شيئاً أخذ بسريره ومن أعلن شيئاً أخذ بعلايته فأظهروا
لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه من أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريره حسنة
لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا ان بعض الشح شعبة
من النفاق (فاقفوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)
أيها الناس أطيّبوا مشواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القباطي
فانه ان لم يشف فانه يصف «٣» أيها الناس اني لوددت أن أمجو كفافاً لالي ولا علي
واني لأرجو ان عورت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم ان شاء الله وان
لا يبقى أحد من المسلمين وان كان في بيته إلا آناه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل
إليه نفسه ولم ينصب «٤» إليه يوماً وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في
رفق خير من كثير في عتف والقتل حتف من الختوف يصيب البر والفاجر والشهيد

«١» أي فليعدني وهي من آذنه بالامر أي أعلمه به «٢» هوادة بالفتح الصلح والاختصاص
بالميل «٣» القباطي أثواب مشهورة وشف رق فخى ما تحته ويصف لعله من الوصف أو من
التواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض «٤» ولا يعمل إليه نفسه أي لا يجهد نفسه إليه
أي يأتيه بلا طلب . ولم ينصب أي لم يتعب

من احتسب نفسه واذا أراد أحدكم بعيداً فليعتمد الى الطويل العظم فليضربه بعصاه
فان وجده حديد الفؤاد فابشتره (تاريخ الطبري)

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحج فيما
آتاكم من كرامة الآخرة والدينا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم
تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً ان يجعلكم لاهون خلقه
عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ (١) عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَحَمَلَكُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن
نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم
خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت
الى امرئٍ خاصة الا لو قسم ما وصل اليه منها بين الناس كلهم اتعبهم شكرها ودفحهم (٢)
حقها الابعون الله مع الايمان بالله ورسوله فاتم مستخافون في الارض قاهرون لاهلها
قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا أمتان أمة مستعيدة للاسلام وأهله
يجزون لكم يستصفون معائشهم وكداثمهم ورشح جياهم (٣) عليهم المؤونة ولكم
المنفعة وأمة تنتظرو قائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس
لهم معقل (٤) يلجئون اليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل
ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش (٥) واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور
باذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان
الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى ان يبلغ مع هذا شكر
الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها
ولا يقدر قدرها ولا يستطيع أداء حقها الابعون الله ورحمته واطفه فتنسأل الله الذي
لا اله الا هو الذي أبلانا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمشاركة الى مرضاته واذكروا

(١) أفاض (٢) اقلهم «٣» قوله يجزون أي يعطون الجزية : وكداثمهم أي سعيهم أو مكاسبهم :
ورشح الجيا عرقها (٤) حصن ومجأ (٥) رفاغة العيش سعته وخصبه

عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثني وفرادي فان الله عز وجل قال لموسى (أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) وقال لمحمد صلعم (وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاككم (١) به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرى ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره قبله اما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذا ذكركم الله الحائل بين قلوبكم الاما عرفتم حق الله فعمائم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولا تقاتلها ووجلاستها ومن تحويلها فانه لاشيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر امن للغير ونماء للنعمة واستجاب للزيادة: هذا الله علي من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

✽ وخطب لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ✽

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به . وان للعدل امارات وتبشير فاما الامارات فالحياء والسخاء واللين واللين واما التبشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحاً فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً واكتف بما يكفيك من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكايتكم اليها فمن لم يستطع فالي من يبلغناها ناخذله الحق غير متعنت (٢) (تاريخ الطبري)

(١) استشلاء دعاء ليحيي من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعنه أي تنله وحركه بعنف أو أكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نهر يقولون لو مات عمر لبايعنا فلانا اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت ببيعة نهر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وخرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال .

قد بلغني ان فلانا منكم يقول لو مات عمر بايعت فلانا فلا يعترن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتة الا وانها كانت كذلك الا ان الله وقي شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابي بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا تؤمهم حتى لقينا رجلاً صالحاً فذكر لنا الذي صنع القوم فقالا ابن تريدون يا معشر المهاجرين قلت تريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لا تهربوهم واقضوا امركم يا معشر المهاجرين فقلت والله لنا بينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأتى على الله بما هو اهله وقال (أما بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان تختزلوننا من اصلنا وتحضوننا من الامر فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زورت مقالة أعجبتني أردت ان اقولها بين يدي أبي بكر وقد كنت ادارى منه بعض الجد وهو كان احلم مني وأوفر فقال ابو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم مني والله مارك من كلمة أعجبتني في تزويري الاقالمها في بداهته وافضل حتى سكت فقال

اما بعد فماذا كنتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الخبي من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين ايهاا شتم . فأخذ بيدي ويبدأ أبي عبيده بن الجراح فلم أكره مما قال غيرها وكان والله ان أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من ثم احب الي من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدافة الجيش يدفون نحو العدو : والاختزال : الاقطاع وتحضوننا تكفوننا

فقال قاتل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير
يامعشر قريش وكثر اللغظ وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقات ابسط
يدك يا ابا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الانصار أما والله ما وجدنا
فيما حضرنا امراً هو اوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن
بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على ما لأرضى واما ان يخالفهم فيكون
فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لا بد منه وما الطمع فيما لا يرجي وما الحيلة فيما سيزول واتما
الشيء من اصله وقد مضت قبلنا اصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله إنما
الناس في هذه الدنيا اغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصب المصائب مع كل جرعة
شرق وفي كل اكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يستقبل معمر من
عمره شيئاً الا يهدم آخر من اجله وانتم اعوان الختوف على انفسكم فأن المهرب مما
هو كائن واتما ينقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة
غداً واكثر جنبه الجانب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى على حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله
وما عنده الا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا
فأريدوا الله بقرائتكم وأريدوه باعمالكم فاننا كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي
صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
فانما نعرفكم بما أقول لكم الا فن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً واتينا به عليه ومن
اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبفضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها
فانها طلعة فانكم الا قدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرئي وان

« ١ » في أساس البلاغة وخرجوا ان النضال وهم يتناضلون ويتضلون : ومعناه يتراءون
ويتبارون « ٢ » قوله اقدعوا أي كفوا وقوله نفس ظلمة تكثر التطلع الى النبي

الباطل خفيف وربي، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة
وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل مخترم (١) وأجل منتقض وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت
ليس فيه تعريج فرحم الله امرءا فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال
ذنبه بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعذك اياكم والبطنة
فاتها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم
فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى
يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند أوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ألا اني قد وُليتُ عليكم وقضيت الذي علي في الذي
ولأني الله من أمركم ان شاء الله قسطنا بينكم فيكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا
مالديكم فجدنا لكم الجنود وهيئنا لكم الفروج وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيكم
وما قاتلم عليه من شامكم وسمينا لكم أطماعكم وأمرناكم باعطيائكم وأرزاقكم
ومعاونكم فمن تعلم علم شئ ينبغي العمل به فبلغناه نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا
بالله (تاريخ الطبري)

﴿ باب ﴾

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤؤة غلام المغيرة
ابن شعبه شكاه اليه ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولا المغيرة وطلب اليه

(١) مخترم اي منتقض وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانشكاث

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيرا وعزم أن يلقى المغيرة في تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان في كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما رأى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال فتوعد الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال يا امير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة ايام: قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة: قال اللهم لا ولكني أجده صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك: قال وعمر لا يحس وجماعا ولا المأفلا كان من الغد جاءه كعب فقال يا امير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا مازال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . ومن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جزير الطبري في تاريخه رواه عن المسور بن مخرمة وروى في أسد الغابة عن أبي رافع ان أبالؤلؤة لما طلب الى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى . ولاك ومن نية عمر ان يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجرا له رأسان وشحنه وسوه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لا تضرب به أحدا الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا اقيمت الصلاة يقول اقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجاءه (طمعته) أبو لؤلؤة في كتفه وجاءه في خاصرته وقيل ضرب به ست ضربات فسقط عمر وطمع أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة

وفي رواية ان أحد المسلمين أتى على أبي لؤلؤة برنسا ليتمكن من القبض

عليه فلما أحس أنه أخوذ اتحرر بخنجره: وفي رواية الطبري وغيره أن عمر لما سقط
قال أتى الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس : فصل
عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم اجتمع فأدخل داره فدعا بعلی
وعثمان والزبير وسعدوا أمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أنا حكم
طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من
الامر شيء فوافقوا تشاوروا واولى صل بالناس صهيب: ثم قال لا بی طلحة الانصاري
يا أبا طلحة ان الله اعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع
هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم: وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتوني
في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وابي
واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وابي الاثنان فاضرب
رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا
بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما
اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق
من ربك فلا تكن من المترين) قدأبأنتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة
وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون
على عمر لما طعن فيسلبون عليه ويقول لهم أعننا منكم كان هذا فيقولون معاذ
الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك ان القول ما قال لي كعب
وما بي حذار الموت اني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانياً من اهل الحيرة أتى به سعد بن ابي وقاص ليعلم الناس
 الكتابة وقتل الهرمزان وان سبب قتله للثنين الاخيرين ان عبدالرحمن بن ابي
 بكر قال غداة قتل عمر : رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم
 يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو
 الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لاقتلن رجلا ممن شرك في
 دم ابي يرض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيياً فبعث اليه عمرو بن العاص فما
 زال به حتى اخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن ابي وقاص واخذه وحبسه في داره
 هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن امعن
 فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكته عهد المسلمين قبل اسره المرة
 بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار
 نهارند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم
 المسلمون ولما قدم سي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صنيراً الا
 مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار
 يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الخندق على عمرو وتدوينه لبلادهم وقهره
 لهم ولماو كهم كانت تغلي في صدورهم هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر
 لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبدالرحمن بن ابي بكر
 وان السبب الظاهر الذي اختلقه ابو لؤلؤة تحتها اسباب اهم واعظم وهي الغيظ
 والحقد على المسلمين وان ابا هريرة كان واقفاً على امر هذه المؤامرة فانذر عمر
 بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فتقوله لعمر انه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير
 معقول يرفضه العقل بتأويل ليس عليه دليل كما انه ليس لابي هريرة ان يعلم الغيب
 وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لابي هريرة يد في هذه المؤامرة الا

انه علمها و اراد ان يعرض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيرآله ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لانعلمه الا ان عمر رضى الله عنه لم يعبا لسلامة صدره بقوله ولم يشدد عليه في السؤال و ربما لم يخظر له ذلك الامر في بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربهم وعجمهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمنا غائلة الناس وغدر الغادرين و خصوصا عمر بن الخطاب الذى يحكى انه جاء مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائما على الارض متوسدا الخصاص فقال: لله انت عدلت فأمنت فتمت . ولكن قُدر على المسلمين ان يفعلوا عن مضررة وجود امثال اولئك الدخلاء في المدينة في مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض وتشل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيء بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل ابى لؤلؤة والمهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغي ان يحسن بهم الظن الامع الاحتياط والتحذير ثم يتناسون ثأرهم وتضفف في نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين . يالفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم في الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الاعاجم في المدينة فلا تدري لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج في المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج احدا جرت عليه المواسى فلما طعنه غلام المنيرة قال الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احدا فقلتموني: فربما كان على علم وبينه مما يبطنون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه مادام قائما فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلتى فقال ساعة ثم جاء فقال غلام المنيرة بن شعبة: قال الصنيع: قال نعم: قال قاله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكانه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، أما هو رضى الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ما هو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعدها فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض قفيل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتمجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا بطيب ينظر في جرحه فجاءه بطيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطيب يا أمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقتي أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك : فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان با كياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد : قال لما طمن عمر اجتمع اليه البديون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلمهم عن ملاءمكم ومشورة كان هذا الذي أصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله ولوددنا ان زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في أيام طمئنته وهو مضطجع على وسادة من آدم وعنده جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن علي اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيبياً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه . وأشد من العريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول
واقدرت زهرتك كما هي ما ليستها فأخلفتها . وثمرتك بانعة في أكلها ما أكلها
وما جنيت ما جنيت الالكوم ما تركت ورائي درهما معدا ثلاثين أو أربعين درهما :
ثم بكى وبكى الناس معه : فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وإن المسلمين
راضون عنك : قال (أبي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو أن لي ما بين
المشرق والمغرب لا فتيت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له
يا أمير المؤمنين لو استخلفت : قال إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وإن
استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً
لا استخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان
سالم مولى حذيفة حياً لا استخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالمًا
ليحب الله حباً ولم يخفه ما عصاه قيل له فلو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه أهل في
دينه وفضله وقديم إسلامه قال : بحسب آل الخطاب إن يجلس منهم رجل واحد
عن أمة محمد ولو ددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لآلي ولأعلي : ثم واحوا
فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت أجهت بعد مقاتلي لكم إن أولي
رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي بن أبي طالب ثم رأيت أن
لا تحملها حياً ولا ميتاً فليكن هؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم
أنهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن
السة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم واليا فأحسنوا وازرتة (أي معاونته) في
حديث طويل سيأتي معناه هو نعمناه في قصة الشورى إن شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤوليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤولية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضي الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين اخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً قال ان وفي له مال آل عمر فأدوه من أموالهم والأفسل في بني عدي فان لم تق أموالهم فسل في قريش ولا تمدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه : فقالت كنت أريده لنفسى ولا وُثرت به اليوم على نفسى : فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء : قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال مالك قال الذي تحب قد أذنت : قال الحمد لله ما كان شئ أهم الي من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما نقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلى ويلى أي ان لم يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلى عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك على عثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكم على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصل

قال في أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد أنه قال طعن
عمر يوم الأربعاء لاربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم
الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر
واحد وعشرين يوماً قال : وقال عثمان بن محمد الأحمسي هذا وهم توفي عمر لاربع
ليالٍ بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة
وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل أقل والأول أصح الأقوال في

عمره

(وصيته لمن يخلفه)

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر أنه قال : دفع
إلي عمر كتاباً فقال إذا اجتمع الناس على رجل فادفع إليه هذا الكتاب واقرأه مني
السلام فاذا فيه

أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين : الذين
أخرجوا من ديارهم وأهلهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله
ورسوله : أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين
تبوا الدار والائمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم
حاجة مما أتوا) إلى قوله تعالى : المفلحون : أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن
مسيئتهم وأن يشركوا في الأمر . وأوصيه بذمة ^(١) الله وذمة محمد صلى الله
عليه وسلم أن يوفي بعهدهم ولا يكفوا فوق ظاقتهم وأن يقاتل من ورائهم
(أي يحميهم) اه

١٥ وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضى
بدفع الجزية للمسلمين فصارت ذمة له ما لهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد أن فتح الممالك
ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط في العرب
وأسس لهم ذلك الملك العريض وقل بهم جيوش فارس والروم ورياهم على العفاف
وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررت شريعة
محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم في
طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعمدون له ولم يكن
لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذر الطيب الذي بذره في المسلمين
أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية
والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام
فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين
لما توفي عمراً أكثر الشعراء من مرأيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت

زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجته وغيرها

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أسير يسرا يعمل بكتا يديه وكان أصلع طويلاً
قد فرغ^(١) الناس كأنه على دابة وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق^(٢) تعلموه
حرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه أكثر من أكل الزيت وحرم
على نفسه السمن واللبن حتى ينجسب الناس : وقال بعضهم انه كان أسمر شديد
السمره وهو إلا أكثر عند أهل العلم

(١) علام (٢) الابيض لاحمره فيه

بَاب ٥

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبدالله وحفصة أمهما زينب بنت مضمون : وعبيدالله (وهو الذي قتل الهرمزان وجفينه) وأمه مليكة بنت جرجول الخزاعية : وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حى الدير : وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : ومجير واسمه عبد الرحمن : وأبوشحمة (وهو الذي حده أبوه في الخمر فسات) واسمه أيضاً عبد الرحمن : وبنات أخر وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبدالله وعبيدالله وعاصم ومجير وعقب مجير هذا باءوا ولم يبق منهم أحد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أى السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي . وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثقفي وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة وعلى البصرة أبو موسى الأشعري . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان . وعلى حمص عمير بن سعد وعلى البحرين وماحولها عثمان بن أبي العاص الثقفي وعماله في الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له معيقيب أيضاً وعلى بيت ماله عبدالله بن أرقم وحاجبه يرفاً مولاه

بَاب ٥

(الحالة الاجتماعية على عهده)

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غير ما على عهد أبي بكر رضي الله عنهما إذ

توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الأمم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة المليمة مع انها بادية الظهور وتمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطاتها وتغلقت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وأجأت لانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأنقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة مصر ظلها وهي تتقدم في داخل بلادها وتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت في تلك الممالك جزور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التي كان يقاتلونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها يد الامبراطرة والملوك وخنق الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي في الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دماهم حب الحرية حتى ما يطبقون علو أمير المؤمنين عليهم واستشاره بشي من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفتوا في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم في أيدي الغالبيين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا ينحطون في الخقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لنا هين رجل مصري من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه
منه ولم يعد الا بعد ان استنزل أباه عن منصبه إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا
ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده في غير هذا المحل وما نعلم ان
قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوما مبلغها في ذلك العصر وتمتعوا بالعدل مثل ذلك
العدل وهو حال ما أهنأ لتلك الأمم يومئذ من حال رفعتهم من حضيض الذل
والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد
خالط العرب هذه الأمم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة
الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة وليس لديهم من ذلك إلا
الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج
من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاورينهم في العادات وبدأوا
يبارونهم في مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاورينهم
في الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلو القوة بمثلا
ويلعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية
فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودون الدواوين على نحو ما هو موجود في
الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال
وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف النبي في غير سرف ولا تقدير
ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر اصول الجباية بلا اجحاف في حقوق
الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى في أنحاء المملكة
وانهال النبي والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم
مع الاخذ على الشكايم والتخوشن في المأكل والملبس والتوسط في العيش
والقصد في الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد إذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشرف العرب كما رأيت في باب سياسته مع العمال هذا من وجه ومن وجه آخر فإن عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بعد إذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم إلى ميدان الحروب وقتاً للاخلاق إلى الراحة والأيواء إلى ظل التمتع والسكون تحت كنف الأمصاير بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بأدخار المغنم عن التمتع بهار ثمايفل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الأمم المنلوقة وكان له بهذا ما رزب أخرى أيضاً وهي اشغال العرب في الحرب وزجهم في مضمار الفتح ليأثسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتبديل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والالتقاء إلى العصبية الداعية إلى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الأشعري في الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب في حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العبرية لكن اندفاعهم عنهم للفتح وتفرقهم في أنحاء الممالك وتعجلهم في ذلك الظهور قبل تأصيل الدين في غايتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتوحة مع دخول أهلها في الاسلام وإنما اختفت هذه الآثار حينئذ بدأت تظهر ثانية من صبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الأماجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره في هذا المقام . ومنه سرعة تفهم الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية إلى غير ذلك من الأمور التي ربما يمر معنا ذكرها في هذا الكتاب ومع هذا فإذا نظرنا من جهة أخرى إلى سياسة عمر في تعجيل الفتح نرى لها فوائد كثيرة في حينها وذلك لأن دفعه للقوم إلى الفتح في إبان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدوين الممالك لاسيما وانه كان من ورثهم جزاء
الله عناو عنهم خيرا الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على الفناعة والقصد ويحبب فيهم
الامم ويغل أيديهم عن التناول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسبة الناس وحماية
أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع
الاقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج اياء لحكمهم أو تظلماً
من سياستهم مع حداثة عهدهم في الفتح وقلة الحماية منهم بين ظهراني الشعوب
الحاضرين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أنفاق
الكنوز وملكوا ممالك من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم
يُغرمهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبترهم المال ولم تخطبهم الحضارة الا خطي
قليلة الى الامام فكانوا اوسطا في المعيشة في كل الامور ذلك لان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه كان يريد على البطء في السير في طريق الترقى ويحملهم على التوسط
في العيش فلا يمنهم منعا ولا يدفعهم دفعا للهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم
على طريقته في التقشف وشطف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا
الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعري الذي يقول له فيه : بلغني
انه فشت لك ولا هلك هيثة في المطعم والملبس : وينصحه بالتزام القصد. وتأنيبه
لسعد بن أبي وقاص على ان سمي داره في البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره
الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذونا الخ
باجاء في باب سياسته مع العمال وأماعامة المسلمين فكان لا يريد لهم على هذا الحال
ولا يمنهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق
الوسط وحسبك دايلاً على هذا كتابه الى أبي عبيدة بن الجراح الذي يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنم المسلمين فيها
 وأما انه كان يزيدهم على البطء في السير في طريق الترقى فبذلك عليه مارواه
 عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة
 بكلام دل على سعة عقله فاحتبس عنده حولا وأشهر أئمة سرحه وكذلك فعل
 مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة
 اللسان احتبس عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت أن أحمل الناس على
 فضل عقلك ، وإنما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقى التدريجي حتى في
 المدارك على أن مخالطتهم الأمم وسكنى الامصار غير ولا شك من أخلاقهم وألأن
 من طباعهم وزاد في معارفهم ولا يعقل ان قوما كانوا يظنون الكافور ملحا أيام فتح
 المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستعداد عظيم في
 قوى المدارك كمن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال
 بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والحتل المشهور بها أهل الامصار في ذلك
 العصور وفي كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سداجة فطرتهم
 ووجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر
 رضى الله عنه الذي دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول
 السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب
 في أسباب الظهور على الأمم بذلك على هذا ما رواه الطبري في أخبار القادسية ان
 رسم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علم
 هؤلاء حتى علموا وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس
 شيئا مذكورا البعدهم عن أسباب الحضارة واغراقهم في الجهالة ولما اجتمعوا
 على كلمة الاسلام وانكفوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي القرس والروم عرف رستم وأشياؤه من زعماء الدولة
 الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية
 المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم
 فلا خلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم
 في تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة
 عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد
 والاستقامة والمزينة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي
 انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها
 وقفة المستريح من وعناء سفر شاق المتلذذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل
 وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك
 ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الامن السفاسف
 والاهام وكل اشتغال الا بالباطيل وكل سعى الا وراء الرتب والالقب التي
 أضحكت علينا الأمم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الى هوة العدم:
 والغريون يثمنون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم
 والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى
 كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً
 الا في تهاير ولا يحسون منا حركة الا الى تدابر قد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى
 ما نطبق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسفنى الى المجد وهي
 حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتندربشق الجيوب فواغوثاه وواعمره

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الأمة العظيم عمر بن الخطاب
رضي الله عنه واني لا أرجو بما بذلته من الجهد وما عانيت من التعب والفكر
في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار
واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل
ما خطه قلبي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لا اغرض
لي ارمى اليه سواه ولا أرغب في هذه الحياة الا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك
ما أتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردالي خطأي ونهني الى
غلطي لا صلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي ما رأيت من قومي في جميع
الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي
ودافعاً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مما
عانيت من المشاق ولا قيت من التعب اذ كل شيء سهل بعد رضى قومي عن كتابي
هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي رجاء عظيماً في تحقيق أميتي التي قصاراهاتني به
العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين
يمثلون صورة الحياة العالية في اجلي . مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال
في النفوس الخامدة يزعمها عن مواطن الخمول والذيلة وينهض بها الى تناول المجد
من قته الشاغحة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب
هذا وقد كنت وعدت قراء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً
على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الا اني لما
انتهيت من سيرة عمر رضي الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي
قدرناه له ولو اضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعنا الوفاء

بشرط بيع الاجزاء ثمن هين ولخالف ذلك رغبتى في تسمية الكتاب لاسيما وان
كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن
الخطاب لهذا رأيت ان اصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال في
خلافة عمر رضى الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما
اسأل الله التوفيق انه اكرم مسؤول

﴿ كلمة للجرائد ﴾

(وشكر للمنتقدين)

التست في الجزء الماضي من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على
ما في ذلك الجزء من خطأ بما يدربه القلم لاصححه في هذا الجزء فسبق بهذا التفضل
من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة
المعارف والعلم منذ أنشئت الى هذا العهد فطلبت الى الاولى ان اوسع النظر في
تواريخ العربيين واستقصى منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامي لا توسع
في بيان الملل والاسباب التي اوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفي
الحقيقة فان هذا الامر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليفة بالنظر
والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التي كتبت عن العرب والروم في
ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادوردجيون الانكليزي وتاريخ
العرب للمؤرخ الفرنسي دي فرجي والذي رأته فيها وفي غيرها من التواريخ
مالاتمخو منه كل دولة في مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم
وحب الشهوات ونبد القانون وتجاذب اطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في
الدولة البيزنطية تفاهم خطب المجادلان الدينية التي اودت بحياة القوم السياسية
الا ان الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة في حال

ضعفها ذلك لانه من أعظم الملوك البرنطين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائمه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم وهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغب عنه ذلك الكفاح شيئاً في جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على ان الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين في عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفي المؤرخ أن يستخرج المال والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت في هذا الجزء جهد المستطاع في تتبع العلل السياسية والاجتماعية التي دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولتي الفرس والروم يومئذ ولم أَدع خبراً من الاخبار الأردفته بما خطرت لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخية لأمثل ذلك المصرف في صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا فتوق كل ذي علم عليم وللمقتطف في تبهي الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاماً آخر من كتابي ومآلني بياناً عما هو المسؤول عن بعض الحوادث التاريخية التي جرت في بعض أنحاء القطر السوري في منتصف القرن الماضي والجواب عن هذا علاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي في محله ان شاء الله وأما مجلة الهلال فعند انتقدت علي قولي في الجزء الماضي أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامي حاضرة بني غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلاً مخصوصاً في هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لتغير اسماها شكري ومشاركتها في أجرى لانها كانت السبب في استقصائي للدلالة

التاريخية التي اذا لم تفدني بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين
وحذو وحدت حذوها بين المجلتين كل المجالات العربية في انتقاد الكتاب
وتتبع ما فيه من الخطأ أذن والله لرادني انبعثا لتحقيق الاخبار وبسط الافكار
ونبهتني الى ما ربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخية في بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها
عقل الفرد والامة جسم لا يتحرك عضو منه الا بالاستعانة باخيه فما بال مجلاتنا
التي هي عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا يفيض من كنوزها
على المؤلفين الا قول أحسن وأجاد العلماء تجهل ان مدرسة الامة العامة هي الكذب
والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتهددها بالنظر
والبحت فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير او شر وحق او باطل
اولمها تجهل ان معظم البلاء الذي حل بالشرقين عامة والمسلمين خاصة انما
كان منشأه الكذب التي شحنت بالباطيل واتزعت من النفوس ملكات العلم
الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر
اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعا لاهوا ان شئت جعلته
باطلا وضربت به وجوه العلماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الامة لم تستثن
من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها المؤلفين غير المدح والاطراء فلا تنبه
المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سر باطل

هذا وما خلا المجالات فقد انتقد على بعض الادباء اغفالي تفسير الالفاظ
اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضي على اني لم اغفلها الا اقتصاداً
لوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء
ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول فهو ما بقريته الجاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

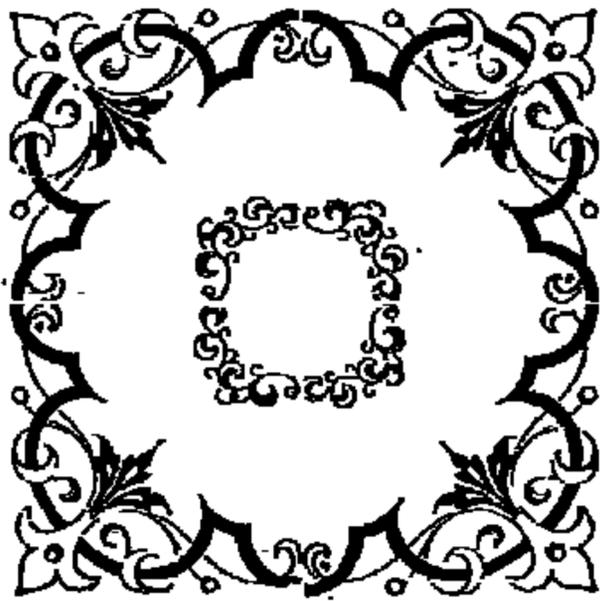
وقد نبهني بعضهم أيضاً إلى غلطات مطبعية غير ما صححته في آخر ذلك الجزء
فمزمت أن أضيفها إلى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء
وانتقد علي بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضى
بحجة أن التاريخ ينبغي أن يكون خلواً من ذلك الحشو إذ يقرأه المسلم وغير المسلم
ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلاح
عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وإن هو لواء من القضية الذاتية ما يفتيهم
عن مثل هذا التعظيم وإن أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم
يستعمل الدعاء في تاريخه إلا للكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضى وفيه
دليل على أن وجوب التعظيم إنما هو في القلب لا في اللسان والمؤرخ في الخيار
باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أربأ من أيراد ذلك الدعاء اقتداءً بالأئمة المحدثين إلا أني
رحمت إليه بحرفي (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن
شاء فلا : ولا يخفى على فطنة المثقدين ذلك المصراع ديني أكثر مما هو
سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الإسلام وضمير كل إنسان يستشعر
بشيء من وجوب التعظيم إن لم يكن باللسان في القلب عند ذكر كل رجل عظيم من
أي قبيل أو ملة كان فكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمة الكرام
الذين رفعوا أمتار الإسلام وأسسوا ذلك الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

نقلت عن منتخب كنز العمال كثير آمن الاحاديث في هذا الكتاب ولم
أذكر أسماء المخرجين اكتفاءً بالمزوالى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة
المخرج الذى ذكر فى الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت
عن السيرة العمريه لابن الجوزي التى جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى
باسم الصحابي فقط كثير آمن الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضى الله عنه وعزوتها
الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد
منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية بمصر



فهرست

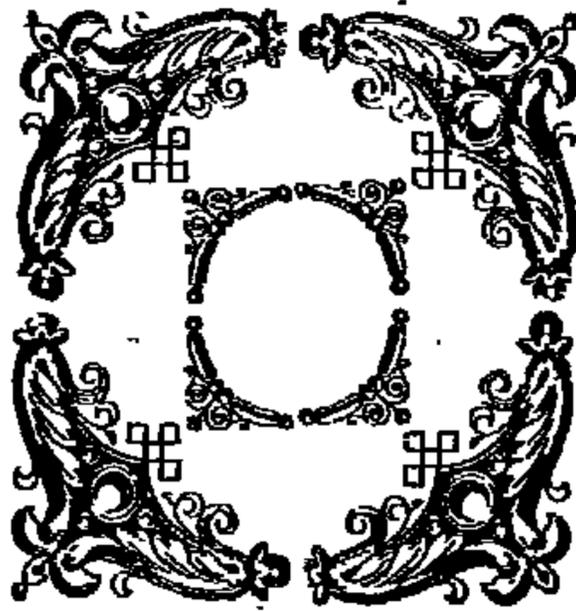
— الجزء الثاني من اشهر مشاهير الاسلام —

صحيفة	صحيفة
واختلاف المؤرخين فيها	عمر بن الخطاب
٢٤٥ فلسطين واجنادين	(باب) حاله في الجاهلية
٢٤٩ فتح بيت المقدس	نسيبه وأصله وشرفه وصنعبه
٢٥٣ لاوتية في الاسلام	١٨٦ مكانته عند قومه وسيرته فيهم
٢٥٨ فتح حماة واللاذقية وقنسرين	١٨٧ (باب) اسلامه وصحبته
٢٥٩ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية	١٩١ صحبته
٢٦١ فتح حلب وانطاكية وغيرها	١٩٦ (باب) خلافة
٢٦٣ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين	٢٩٩ (باب) أول أعماله في الخلافة
ما كل حديث يحدث به العامة وتدمر	٢٠٠ اجلاء أهل نجران
أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس	٢٠٤ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الأوربيين في المسلمين
٢٦٧ القواد الذين حضروا فتوح الشام	٢١٦ (باب) فتوح الشام
٢٧١ خلاصة جغرافية ونظرة اجتماعية	٢١٧ فتح دمشق
(باب فتح العراق وفارس	(بحث في الردة
٢٨٥) انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها	٢٢٦ بطلان خبر
٢٨٧ موعظة	٢٢٩ بحث في هل كانت دمشق قاعدة
(عود الى خبر أبي عبيد	النسائين
٢٨٨) موعظة أخرى	٢٣٥ وقعة فحل
٢٩٠ عود الى خبر أبي عبيد	٢٣٦ بيسان وطبرية
٢٩٥ شجاعة النساء المسلمات	٢٣٧ مروج الروم
(عود الى خبر المثنى	٢٣٨ ذكر بعلبك وحصن وسواحل دمشق
٢٩٧) كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح	٢٣٩ تحقيق خبر اجنادين واليرموك

صحيفة	صحيفة
٣٦٣ } كتابة التاريخ الهجري	٢٩٩ استعداد مثنى ومسير سعد بن أبي
٣٦٢ } تدوين الدواوين وفرض العطاء	وقاص الى العراق
٣٧٢ ترتيب العمال وتقسيم الولايات	٣٠١ الحكم النيابي في الاسلام
٣٧٤ ضرب النقود	٣٠٥ عود الى خيبر الشورى
٣٧٦ وضع البريد	٣٠٦ وصية عمر لسعد
٣٧٧ } تمصير البصرة والكوفة	٣٠٧ مسير سعد
٣٧٨ } التوسعة في المسجدين	٣١٠ كلمة في التاريخ الاسلامي ورافة عمر
٣٧٩ باب أخلاقه ومناقبه وسياسته وعدله	بالمخارين
٣٨٩ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة	٣١٢ خبر القادسية وغيرها
بأهل الذمة	٣١٥ مسح سواد العراق وترتيب الجزية
٣٩٢ أخباره مع عماله ووصاياه لهم	والخراج
٤٠٣ كلمة في الحرية والطاعة أو الحكومة	٣١٥ كيف يكون الاستعمار
العسكرية والحكومة القانونية	٣٢١ } عود الى خيبر الفتح
٤٠٩ حضة الناس على الكسب	غزوة فارس من البحرين
٤١١ نهي عن التطع وتحذيره من الابتداع	خبر الهرمزان
أدبه وتأديبه	٣٢٣ } فتح الهازوتستروالسوس وغيرها
٤١٤ } أدبه مع رسول الله	خبر جندي سابور
أدبه مع نفسه	٣٣١ } وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين
٤١٥ } تأديبه لنفسه	٣٣٢ الانسياح في بلاد فارس
٤١٧ تأديبه للمسلمين	٣٣٤ خبر نهاوند
٤١٩ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم	٣٤٤ (باب) فتح الجزيرة
اهتمامه بأهوار الرعية	٣٤٦ (باب) فتح مصر وبرقة
٤٢٢ } وعسسه بالليل	(باب) تعمية الحيوش وبراعة القواد
٤٢٦ ورعه وزهده	(باب) وديوان الجيش
٤٢٩ كلمة في بيت المال	٣٥٨ باب علائق عمر مع الملوك
٤٣٣ حقيقته	٣٦٠ باب أهم الاحداث في عصره
	٣٦٣ باب آثاره في الخلافة

صحيفة	صحيفة
٤٧١ (باب) مقتل عمر	٤٣٥ قضاؤه
٤٧٩ وصيته لمن يخلفه	٤٣٧ كتابه الى شرح القاضي وكتابه في
٤٨٠ صفته	القضاء الى أبي موسى الأشعري
٤٨١ (باب) ولده وعماله	٤٣٩ فراسته وذكاؤه
(باب) الحالة الاجتماعية على عهده	٤٤٣ نيد من قنون أفواله وأخباره
٤٨٨ اعتذار	٤٤٥ قنون شتى من أخباره
٤٨٩ كلمة للجرائد وشكر لالمنتقدين	٤٥١ أولياته
٤٩٣ تقيه	٤٥٣ (باب) كتبه وفيه ثلاثة عشر كتابا
	٤٦٢ (باب) خطبه وفيه أربع عشرة خطبة

﴿ تمت القهرست ﴾



﴿ اصلاح الغلط الواقع في الجزء الاول والجزء الثاني ﴾

صحيفة	سطر	خطاً	صواب
١٨	١٧	وتحملهم على	وتحملهم على
٢٠	٩	واخبار	واخبار
٢٥	٧	مسايج	مسايح
٢٨	١٦	عقلا	عقلا
٤٧	١٤	للحقية	للحقيقة
٥٦	١٠	العالمين	العاملين
٦١	٤	بنظام	بنظام
٥٠	١٣	طاثة	طاثة
٧٤	١٠	فجمعهم اليه	فجمعهم اليه
٧٦	١	قاتلت مع النبي	قاتلت النبي
٨٣	٦	برأسى	برأس
٥٠	١٦	السالة	المسألة
١٠١	١٣	اشتغلوا	اشتغلوا
١٠٤	عدد الصحيفة ١٤٠		١٠٤
١٠٤	٤	عصرة	عصره
١٠٥	٧	ليبره	ليبراً
١٠٦	٤	طرء على المسلمين ما طرء	طرأ على المسلمين ما طرأ
١٠٧	١٩	للفوضى	الفوضى
١١٢	٨	لااله اب هو	لااله الا هو
١١٩	١٦	بجبركم	بجبركم
١٢٠	٤	وأمن فيها	وأمن النظر فيها
٥٠٠	١٤	الشور	الشورى
١٢٦	٦	بتقوى والاعتصام	بتقوى الله والاعتصام

صحيفة	سطر	خطاً	صواب
١٢٧	٣	شر بعد الجنة	شر بعده الجنة
١٣٠	٦	واتباعه أمره	واتباع أمره
١٣٢	١١	دخلت عليه	دخلت عليه
٠٠	١٩	ولم يثنى	ولم يثن
١٣٨	٨	صدقت	صدقت
١٤٠	٨	مع المسلمين	مع الشركين
١٤٣	١	في المدينة	في المدينة
١٥١	١٨	وجلسه	وأجلسه
١٥٣	١٥	على الباطل	على الباطل
١٥٤	٢٠	جاءته الحيل	جاءته الحيل
١٥٥	١	مناياً	منايداً
٠٠	١٦	الى أبي بكر	الى أبي بكر
١٦٨	١٣	في اليرموك	في اليرموك
١٧١	١٦	بعزله	الى عزله
١٧٩	١٩	المعاهد	والمعاهد
١٨٥	١٦	انشغالها	اشتغالها
١٦٦	١١	بضحيان	بضحجان
١٩٠	١٢	على الحق	على الحق
١٩٤	٧	المشكات	المشكاة
٠٠	٨	بياناً	بياناً
٠٠	١٧	والجثمانية	والجثمانية
١٩٦	٦	عن بيعه	عن بيعته
٠٠	١٤	الكفافة	الكفاءة
١٩٩	١٥	يقعلان في العقول	يفعلان في العقول
٢٠١	٣	وشرط عليهم	واشترط عليهم
٠٠	١١	يتدينون	يدينون
٢٠٥	١٦	لحيانهم	لحيانهم

صحيفة	سطر	خطاً	صواب
٠٠	٢٠	أوتزعا	أوتزعا
٢٠٨	٥	غير المسألة	غير المسألة
٢١٠	٢٢	أسعرا لها	أسعرا لها
٢١١	١	قوة لقلب	قوة لقلب
٢١٢	٦	إذن	إذن
٢١٥	١١	لذي يظهر	الذي يظهر
٠٠	١٣	لا سلا	الاسلام
٢١٦	١٢	إن ترضى	أن ترضى
٢١٨	١٥	فقطرت الرو	فقطرت الروم
٠٠	١٦	الحديبية	الحديبية
٠٠	٢١	ابروز	ابرويز
٢٢٤	٢	بمالة	بمالة
٢٢٦	١٠	الملك	الملك
٢٢٩	٢٠	وليسوفى	وليسواقي
٢٣١	١٢	ولا يبعد	ولا يبعد
٢٣٣	٧	بالفسلاط	بالفسلاط
٢٣٤	١٣	المتوفى سنة	المتوفى سنة
٢٣٥	٦	درجات المدينة	درجات المدينة
٢٣٦	١٥	المساين	المسلمين
٢٣٨	٤	هذا الهزر	هذا الهذر
٢٤٥	١٦	وأخو حرامى	وأخو حرام
٠٠	١٨	فأمر الفيقار جلا	فأمر الفيقار جلا
٢٤٦	٧	عمر بن العاص	عمر بن العاص
٠٠	١١	عم تنفرج	عم تنفرج
٢٥٩	٥	قنرين قنصن	قنرين سار الى حاضر حلب قنصن
٢٦٣	٣	وبلغ أبو عبيدة	وبلغ أبو عبيدة
٢٦٦	١٧	ولا زهدا	ولا زهدوا

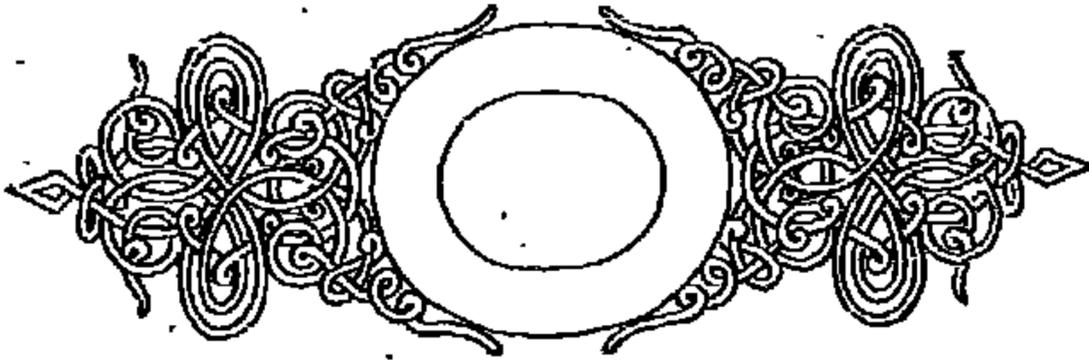
صحيفة	سطر	خطاً	صواب
٢٧٣	١٠	كان عهد الرومانيين	كان على عهد الرومانيين
٢٧٦	٧	وتوابعهم	وتوابعها
٢٧٧	٧	تداول	وتداول
٢٧٩	٣	تترقى	تترق
٢٨٣	١١	موجود	موجود
٢٨٤	٢	مارأدنا	مارأدنا
٢٨٨	١١	والذمة عن	والذمة عن
٢٩٠	١٧	جلودانم . . . تزل بالمرحة	جلودانم . . . تزل بالمرحة
٢٩٣	١١	الفرات لآخر	الفرات الآخر
٢٩٥	١١	وجبرير	وجبريراً
٢٩٥	١٨	بشجاعة نساين	بشجاعة نسايم
٠٠	٢١	ويضمن	ويضمن
٢٩٩	١٢	استعداد مثنى	استعداد المثنى
٣٠٠	١٨	على اجادة	على جادة
٠٠	٢٠	تصغير الفضا	تصغير الفضا
٣٠٢	١٥	جاجة الزمان	حاجة
٣٠٣	١	بمحكم لوسط	بمحكم الوسط
٠٠	٦	انها اكهم	انها اكهم
٣٠٥	١٩	الاسد	قالوا الاسد
٣٠٨	٢	وجهم	وجهم
٣١٥	٢٠	محمى عن	محموعن
٣١٨	٨	احجاف	احجاف
٣١٩	٨	خمين ألف شخصاً	خمين ألف شخص
٠٠٠	١٠	أربعة وعشرين	أربعة وعشرون
٠٠٠	١٣	مليوناً درهما	مليون درهم
٣٢٠	١٠	ثروة	ثروة
٠٠٠	١٢	ابقاها	ابقاها

صواب	خطأ	سطر	صفحة
للدين	للدين	٢٠	٠٠٠
جاء	جاد	٢١	٠٠
سراقة	سرافة	٨	٣٢١
أن يعفيه	أن يعفيه	٩	٣٢٣
لا يرد عليهم	لا يرد عليهم	١٠	٣٢٤
لم يبق	لم يبق	١٥	٠٠٠
واتسقت له	واتسقت له	١١	٣٢٥
وهو السرادق	وهو السرادق	٧	٣٣٨
فأدركه	فأدركه	٩	٣٣٩
فتح الجزيرة	فتح الجزيرة	٩	٣٤٤
بعضها	بعضها	٦	٣٤٩
رده آ	رداء	١٨	٠٠٠
بن أبي جهل	بن جهل	١٠	٣٥٣
آلاف ثلثة	لاف ثلثة	٦	٣٥٧
أيدي العرب	أيادي العرب	٦	٣٥٨
تشرح لك	تشرح لك	٤	٣٦٤
فقرأها ومواساتهم	فقرأها ومواساتهم	٢١	٠٠٠
سعادة الحياة	سعادة الحياة	٢٣	٠٠٠
في الممالك	في المالك	١	٣٦٥
فقد قطعها	فقد قطعها	٥	٣٦٦
مباراة	مبارات	٢٠	٠٠٠
ونحو ذلك	نحو ذلك	٤	٣٦٧
والأمة... مثل	والأمة... مثل	٥	٠٠٠
جزء من الجزيرة	حز من الجزيرة	١٤	٣٧٢
قلوبهم الاسلام	قلوبهم لاسلام	٨	٣٧٩
لتي رجل	لتي رجلا	٤	٣٨١
ابن عساكر	بن عساكر	١٤	٠٠

صواب	خطأ	سطر	حجفة
أهماتهم	أهمتهم	٣	٣٨٣
حذيفة بن اليمان	حذيفة بن ليمان	١٠	٣٨٦
اطراح لأمة	اطراح لآمة	١١	٣٨٩
ولا يخدم المال	ولا يخدم المال	١٥	٠٠٠
بارشادهم	بارشارهم	٢	٣٩١
وهو	وهومن	٩	٣٩٢
البعوث... نهاوند	البعوث... نهاود	٢	٣٩٣
ابن جرير	بن جرير	١٧	٠٠٠
وروى الطبري	ورى الطبرى	١٨	٣٩٥
فتفتوها	فتفتوها	٨	
وأقلوا من الرواية	واقلوا من الرواية	٩	٣٩٩
ابن الجوزي	بن الجوزي	١١	
المهدم	المهدم	١٥	
الاشعث	الاشعت	١١	٤٠٠
نخفت	نخفت	١٥	٤٠١
الآن	الآن	١٥	٤٠٢
فرقا	فرق	١٦	٠٠٠
بها حق	بها حق	١١	٤٠٤
أطيعوا الله	أطيعوا الله	٥	٤٠٥
تستند	تستندد	٢١	٠٠٠
فأعاد	فأعاده	١٧	٤٠٦
ابن عم خالد	بن عم خالد	١٧	٤٠٧
ابن العم	بن العم	٢٠	٠٠٠
لا حكم الا الله	لا حكم الا الله	١٢	٤٠٨
مرتبة	مرتبة	٩	٤٠٩
المساواة	لمساواة	١١	٤١٩
يتفتنى الخليل	يتفتنى الخليل	٩	٤٣١

صواب	خطأ	سطر	صفحة
عمر يقول	عمر يقول	٩	٤٤٩
ولامن صليهم	ولامن صليهم	٢٣	٤٥٦
٣٠ هكذا	٢٠ هكذا	٢٦	٤٥٧
يفض الله	ينفض الله	٢٤	٤٥٨
فقا بارز	تقد بارز	٣	٤٦٢
اجعل	اجعل	٨	٤٦٦
يتناضلون	يتناماضلون	٢٥	٤٧٥
نفس طلعة	نفس ظاعة	٢٦	٥٠٠
وعمرهم	وعمرهم	٤	٤٧٥
عمر بن	عمر ابن	١٠	٤٧٨
جذور	جزور	١٣	٤٨٢
والبحت	والبحت	٩	٤٩١

وردت لفظة الاردن في هذا الكتاب بتشديد الراء تارة وتشديد
النون اخرى والصواب تشديد النون فليتبه



ملحق للخطأ والصواب

قد وقع في هذا الجزء اغلاط أخرى غير الاغلاط المينة في فهرست الخطأ والصواب لم اطلع عليها الا بعد تمام طبع الكتاب لاني لم أنف على طبع قسم كبير من الانحراف لم بصحتي واضطرتني الى السفر ومنها انه جاء في صحيفة ٣٥٣ سطر ١٤ اسم أشيم وصوابه بن أشيم وفي الصحيفة ٣٦٧ سطر ٤ نحو وصوابه ونحو وفي الصحيفة نفسها سطر ٥ مثل والصواب مثل وفي الصحيفة ٤٢٩ سطر ١٦ وقتضي والصواب وقتضي وفي الصحيفة نفسها سطر ١٧ يقبول وصوابها يقبول وفي الصحيفة ٤٣١ سطر ٣ منه والصواب منها وفي الصحيفة ٤٣٦ سطر تقصد والصواب فقد وجاء في الصحيفة ٤٣٧ جملة طويلة بعد كتابه الى شرح القاضي اولها وأما أفضيته الخ الجملة وليس هذا محلها بل هي في حتام هذا الفصل بعد كتاب أبي موسى الأشعري وفي الصحيفة ٤٤٢ سطر ١٢ جملة لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة وصوابها يتوقف لجمع كلمة الامة وفي الصحيفة ٤٤٩ سطر ٩ أم والصواب بن أم في الصحيفة نفسها آخر سطر ١٨ عنوان فصل مخصوص لم يجعل وحده بين سطرين وسقط من الفهرس فليتنبه اليه وفي صحيفة ٤٥٣ سطر ١ سلمه والصواب مسامة وفي الصحيفة ٤٥٨ سطر ٢٤ ينقض وصححت في الفهرس يفض وصوابها ينقض بالغين وفي الصحيفة ٤٦٤ سطر ٦ لامرض والصواب للعرض وفي الصحيفة نفسها ٢٤ وهو الحق والساطة وصوابه وهو الحق الذي تعين به حد السلطة العليا الخ وفي الصحيفة ٤٦٥ سطر ٤ ولا تحمدوهم والصواب ولا تجمروهم وفي الصحيفة نفسها سطر ٢٣ لذي والصواب الذي وفي الصحيفة ٤٦٧ سطر ١٥ مستعدة والصواب مستعدة وفي الصحيفة ٤٧٠ سطر ٢٥ وخرجوا ان والصواب وخرجوا الى وفي الصحيفة ٤٧٢ سطر ٣ رأى والصواب أرى وفي الصحيفة نفسها سطر ١٨ وجاءه والصواب ووجاه بهمة فوق الالف وفي الصحيفة ٤٧٨ سطر ١٢ ولأوترت والصواب ولأوترن والصحيفة ٤٨١ سطر ٦ الدير والصواب الدير والصحيفة ٤٨٤ في سطر ١٣ لنفذ عنهم وهو زائد لا محل له وفي الصحيفة ٤٩١ سطر ١٧ سر والصواب سر دوام غاظ جاء في هذا الجزء في الصحيفة ٤٧٤ سطر ١٨ وما بعده وهو ابنم ابي هريرة بدل كعب الاحبار وهو سهو يدركه القاري مما قبله وإنما جاني عليه تشتت الخاطر وألم المرض ولم ينتبه من وقف على طبع الكتاب له ليصاحبه لما اني لم أعد نظري عليه حال الطبع لتعبي خارج القطر فأرجو كل من وقعت بيده نسخة من هذا الكتاب ان يصاحبه بقامه بان يضع اسم كعب الاحبار بدل اسم ابي هريرة وله الفضل . وقد جاء في الفهرست فصل بعنوان بحث في الردة وهو حشوم من الطباع اذ ليس في هذا الجزء فصل بهذا العنوان وإنما هو في الجزء الاول فليتنبه اليه ومتى نهدت نسخ هذين الجزئين فسنعيد طبعهما بأحسن اتقان ان شاء الله

كِتَابُ

الْمَسَائِدِ وَالْمَسَائِلِ

فِي

الْحَرْبِ وَالسَّبَبِ

تأليف

رفيق بك العظم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« الطبعة الثالثة »

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٤٠ - ١٩٢١

كِتَابُ

السِّيَرِ الْأَعْلَى مَسَابِرِ الْأَسْبَابِ

فِي

الْحَرْبِ وَالسَّبَبِ

﴿ تَأْيِيف ﴾

رَفِيقِ بَيْتِ الْعَظَمِ

— ❧ — الجزء الثالث من المجلد الأول ❧ —

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« طبعة ثالثة »

مطبعة مسندية بالموسكى بمصر

١٩٢١ - ١٣٤٠

أبو عبيدة بن الجراح ❦

(باب)

❦ حالة في الجاهلية ❦

(نسبه وأصله)

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة اشهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الامة وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض : وروى ابن عساكر ان أمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزيم بن عامر ابن عميرة وأما دعى بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وأدركت أمه الاسلام وأسلمت : وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن محمد ابن سعد : قال في الطبقة الاولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة - وهم آخر بطون قريش - أبو عبيدة بن الجراح

(سيرته في قومه ومكانته عندهم)

كان أبو عبيدة محترما في قومه مستشارا فيهم معروفا بالرأى والدهاء وكان يقال كما روى ابن عساكر في تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ولم تقف على زيادة تفصيل من سيرته في الجاهلية فنحن نكتفي عن ذلك بسيرته في الإسلام فان فيها ما يعني وهي المطلوب في كتابنا هذا

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

أبو عبيدة قديم الاسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية مذ دعاهم داعي الحق الى التوحيد . واستبان لهم طريق الخلاص من رتبة التقليد . فقد أخرج الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطاب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا في ساعة واحدة . وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم وقبل أن يدعو فيها . وكان اسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين

صحبه

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله في اسلامه فكان قوياً في دينه صادقاً في صحبته متفانياً في حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الامة . أخرج الحافظ الجزري في أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وان آمننا أيتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » : وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول (ص) إلا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص لله في سره وعلايته ولقد كان يعبده على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضی الله عنه وعنهم أجمعين . أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران الى النبي صلى

الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلاً أميناً : فقال : « لا بعثن اليكم أميناً حق أمين » : فاستشرف لها الناس (أى تظلموا) فبعث أبو عبيدة بن الجراح وفي رواية جاء العاقب والسيد صاحباً نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ابعث معنا أميناً حق أمين فقال رسول الله « نبعث معكما رجلاً أميناً حق أمين فاندتمشرف لها أصحاب محمد قال قم يا أبا عبيدة »

وانما نال أبو عبيدة هذه الخطوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره ودظيم حبه وطاعته له ومن أعظم ما يؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزري في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه أن أبا عبيدة لما كان بدير يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكره أبوه تصده قتله أبو عبيدة فانزل الله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون به واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية

هذا غاية ما يؤثر من صدق ايمان أصحاب نبي بنبيهم واشراب قلوبهم بفض الشرك وتيقنهم أن الاسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو صفحات القلوب حتى صورة الآباء اذا لم تشاكل بطهارة الايمان الابناء لا جرم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الامة الا لعلمه بصدق ايمانه وكمال يقينه لهذا روي انه صلى الله عليه وسلم طعن في خاصرة أبي عبيدة وقال : أن ههنا خويصرة مؤمنة : رواه ابن عساكر عن جابر . وروي عن موسى بن عقبة قال : قال أبو بكر الصديق : سمعت رسول الله (ص) قال لا بى عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قلن لي

أحبّ اليّ من حمر النعم : قالوا وما هن يا خليفة رسول الله (١) قال كنا جلوسا عند رسول الله فقام أبو عبيدة فأثبته رسول الله بصره ثم أقبل علينا فقال : « انّ ههنا لكتفين مؤمتين » (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن اننا كنا في شيء كرهنا ان يسمه فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : « ما من أصحابي الاّ وقد كنت قائلا فيه لا بد الاّ أبا عبيدة » (٣) وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابث لنا من يأخذ لك الحق ويبطئناه . فقال « والذي بعثني بالحق لارسان معكم القويّ الامين » قال أبو بكر : فما تعرضت الامارة غيرها فرفمت رأسي لأريه نفسي « فقال قم يا أبا عبيدة » فبعثه معهم : وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن ثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد ونزع الحلقة التي دخلتا في وجه رسول الله من المغفر يومئذ فانزعت ثنيته فحسنتا فاه وصار أهتماّ فما رؤي قط أحسن منه هتما

وبالجملة فقد صحب أبو عبيدة (رض) النبي خير صحبة وكان كما روى المحدثون من عالية أصحابه وأعظم المقربين منه ولاقى من قريش في صحبته ملاقاه أهل الهجرة وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر الى المدينة وكان ملازما لرسول الله شديد التمسك بأوامره حريصا على رضاه فتخاق باخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالاسلام والحنو على المساكين على جانب عظيم ولو بقي حيا لولي الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الاخلاق والتقوى والعدل فقد أخرج ابن عساکر عن عمر بن الخطاب انه قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئمت عنه قلت استخلفت أمين الله

وأمين رسوله

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الأثر في فتوح الشام ما بسطناه للقارئ في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وما ستلوه عليه مجملاً فيما يلي إن شاء الله

﴿ باب ﴾

— حروبته وفتوحاته —

(بالشام)

علمنا مما تقدم في الجزء الأول والثاني أن أبا بكر رضي الله عنه سلم أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها إلى الشام وأمره بقصد حمص وأنه ولي قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضي الله عنه وعزل عن إمارة الجيش خالد بن الوليد وقد اختلف المؤرخون في هل ولي الإمارة وهو في اليرموك أو على دمشق وذكرنا في الجزء الثاني رأينا في هذا الخلاف فلا حاجة هنا للمزيد وقد فصلنا ثمة أخبار حروبته في الشام وفتوحه فيه وإنما أحيينا أن نورد هنا مجمل فتوحه لملاقة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعمين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحاً ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الأمراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن إمداد دمشق كما ذكر في محله من الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق وبعد فتح دمشق استخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ثم سار إلى

فحل من أرض الاردنّ وفل هناك جيوش الروم وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ثم بعد ان وجه يزيد أبي سفيان الى سواحل دمشق سار الى حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن الاسود الكندي وقدمّ خالد الى البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ثم ذهب الى حمص فافتتحها أيضا ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص كما مر الخبر عن هذا وعن خلاف المؤرخين فيه في الجزء الثاني ثم سار الى حماه فصالحه أهلها ثم سار الى حاب وقدم خالد الى قنسرين وعبادة ابن الصامت الى اللاذقية ثم ترك حصار حلب وسار الى حاضرها فافتتحه ثم صار الى انطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب اليها عمر بالرجوع الى حاب وإتمام الفتح فماد وفتحها ثم رجع الى انطاكية فحاصرها وفتحها صالحا ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت الفرات شرقا وآسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ورتب فيها المراقبة والجيوش ونظم شؤون البلاد وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والائانة والرفق حتى بات سلطان المسلمين احب اليهم من سلطان الروم فكانوا عوننا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب وانما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للإمارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الامراء والعمال الذين كان يوليهم امور البلاد ويوسد اليهم قيادة الجيوش ومن لهم بمثلهم ومثله في هذا العصر بل وفي كل عصر

— كلمة في العمال —

اعلم ان عمران الممالك وترقي الدول يتوقف على امرين عظيمين هما صبغة الحكومة وامانة الرجال فالحكومة اذا كانت ذات صبغة دستورية اي حكومة مقيدة برأي الامة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الامانة في رجالها على الخيانة والعدل على الظلم وانما تغلب الامانة الخيانة في رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم اذ الظلم كمين في النفس القوة تظهره والعجز يخفيه وانما يمنع النفوس ان تنزع منازع الظلم مانع القوة وهو هيمنة الشعب القانونية هذا في الحكومات الشورية واما الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم احد امرين : اما الزاجر النفسي وهو الشعور الديني الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من بارئ النفوس : واما سيطرة السلطان وهذه لا تكون في الحكومات المطلقة الا من امير مستبد عادل اذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية فلا سيطرة له على العمال ولا يرجي منه الخير

ومما لامشاحة فيه ان الحكومة الاسلامية في مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما انها لم تخلو من صبغة استبدادية وكيف ما كان حالها فقد علمنا ان العمال احوج ما يكونون الى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنظم شؤون المملكة وسواء قدرنا ان هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة او من قوة السلطة القانونية او مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة اي قوة الهيمنة الشرعية ومانع الدين على ان

ينزع من نفوس العمال آثار الظلم وييسط بواسطتهم للرعية بساط الطأينة والعدل لتتمهد للمسدين سبل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الاسلام ويتفيثوا ظلال السكون ويتبسطوا في مناحي العمران فما كان يختار للحكم والامارة الا احد رجلين رجل له دين يردعه ، أو رجل عنده خوف يمنعه ، وكلا الرجلين بالاضافة الى غرض الرعية والامام واحد .

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الأمين والقائد العظيم من الاناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته كما لم يتساهل مع غيره ايضاً ممن هو في طبقة في الورع أو من دونه فيه وذلك قياماً على أوامر الشريعة واداءً لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضی الله والرعية

روى ابن عساکر ان عمر بن الخطاب أرسل الى أبي عبيدة باربعة آلاف درهم أو اربعمائة دينار وقال للرسول انظر ما يصنع فقسمها أبو عبيدة ثم ارسل بمثلها الى معاذ فقسمها معاذ أيضاً قالت له امرأته : نحتاج اليه : فلما اخبر الرسول عمر قال الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا هكذا كان عمر يمتحن حتى اتقى عماله وارفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس وأحكام الشرع لهذا بلغ العدل في عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد وامتد سلطان المسدين على قسم عظيم من الارض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل في عمله وظلم في حكمه بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الاسلام متمتة بالراحة آخذة في طريق الصعود الى قم

السعادة الاجتماعية ، والحياة المدنية ، آمنة من شرور الفتن التي يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ومن تصفح تاريخ الاسلام ووقف على اخبار دوله لا يرى سبباً لاختلال امر دولة قط الا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك في الاخذ على ايديهم اما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة شأن كل الدول ايضاً لا دول الاسلام وحدها . وانا لنعجب من غلو بعض المؤرخين في ذم الحجاج بن يوسف الثقي عامل دولة بني مروان على العراق وانما يهوج الى الحجاج من هو مثل الحجاج اذ العامل الخائن اذ افسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته يثير في نفوسها نائرة البغضاء على الدولة ويحفظ عليها قلوب الامة فتستعصي على الحاكم ويخرج امتلاك ازمته عن طوق الدولة الابلستعمال مثل الحجاج قوي الشكينة قليل الرأفة هذا في الدول المطلقة كدولة الامويين واما في الدول المقيدة فقل ان يكون شيء من هذا وذاك وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يعني عن استعمال القوة والانسان اسير الاحسان وغاية ما يرمى اليه الظلمة والامان وحسبك شاهداً على هذا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي لما نحا في الحكم والامارة منحي عمر بن الخطاب من حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتفاء اخيار الناس للولايات تألف قلوب الامة واستلست قياد الرعية بما ان اتضوا من حول بني مروان ثم لم يلبث ان عاد المرزيون بعده الى سيرتهم الاولى حتى ضف أمرهم وغلبوا على ملكهم لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك الا من نتائج اطلاق يد المال واما ان هؤلاء في الجور . هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الامويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل

نحيث لا يخرج عليهم خارج إباء لحكمهم أو تظلاً منهم وإنما ذكرنا بني مروان مثلاً في الدول التي أصابها الضعف وقضى عليها سوء الإدارة وجور العمال بالانحلال كما أنا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد منا من أخبار الدول في الغابر ، وعظة يتعظ بها الحاضر ، وأنا والله أصبحنا في عصر احوج ما محتاج اليه فيه معرفة الملل التي تمكنت من جسم الدول الاسلامية فأودت بحياتها الاستقلالية الى ما يعلم ويشاهد ورحم الله امرأ اتعظ واعتبر ، وقوما أثر في نفوسهم توالى العبر ،

﴿ باب ﴾

أخلاقه وسيرته

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة ومن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق بأخلاقه فكان متواضعاً زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب مخفوض الجناح عالماً بالشرع ذا ضربة في أمور الحرب نصوحاً في خدمة المسلمين وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انه أمين هذه الأمة : ومثله ما رواه ابن عساکر في تاريخه عن عمر ابن الخطاب انه قال يوماً جالساًه : تمنوا فتمنوا : فقال عمر بن الخطاب : لكنني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت ^(١) الاسلام : فقال ذلك الذي اردت : واخرج عن عبد الله بن عمر انه قال : ثلاثة من قریش اصبح الناس وجوهاً وأحسنها احلاماً ^(٢) وابنتها جناناً ^(٣) ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك . ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان . وأبو عبيدة بن الجراح

(١) اي مائة صته حقه (٢) عقولا (٣) قلباً

وها نحن اولاء ن نقل اليك شيئاً من سيرته وأخلاقه ليكون فيها وعظة
 وذكري ل قوم يتفكرون فيها (في الزهد والتواضع) ما اخرج به الجزري
 في اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال :
 قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقيه امراء الاجناد وعظماء أهل الارض فقال
 عمر : أين أخي ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يا أيك الآن : قال جاء
 على ناقه مخطومة^(١) بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس انصرفوا عنا فسار
 معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه فقال عمر :
 لو اتخذت مناعاً أو قال شيئاً : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ان هذا
 سيبلغنا المقييل

وفي رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر ان عمر حين قدم الشام
 قال لابي عبيدة اذهب بنا الى منزلك : قال : وما تصنع عندي ما تريد إلا
 ان تعصر عينيك عليّ : قال فدخل منزله فلم ير شيئاً : قال أين متاعك
 لا أرى إلا لبداً وصحفه وشنا^(٢) وأنت أمير أعندك طعام : فقام أبو عبيدة
 الى جونه^(٣) فأخذ منه كسيرات فبكي عمر . فقال له أبو عبيدة قد قلت لك
 انك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين يكفينك ما بلغك المقييل : قال
 عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا ابا عبيدة

(ومن كريم أخلاقه وجميل تواضعه) مارواه ابن عساكر عن قيادة
 قال : قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس اني ابرؤ
 من قریش وما منكم من احد أحمر ولا أسود يفضلي بتقوى إلا وددت
 اني في سلاخه)^(٤)

(١) قوله مخطومة الحظام زمام الناقة (٢) الشن هو القرية (٣) جونه أي سلمته (٤) أي في جلده

هكذا كان أمراء الامة وأئمتها لا يرون لانفسهم فضلاً على فرد من أفراد المسلمين الا بالتقوى كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الاسلام وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس تهديباً لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة فلا يزيدهم هذا التواضع الا شراً فاولعوا وامتلأوا كالأقلام على شكايم أرباب التتو والجبروت حتى دانت لهم الامم واعتلوا بدولتهم على كل الدول ومذاصيح الجبروت والكبرياء من شعار الامراء واستعمال القوة والعنف ديدن اولي السطة انقلب بدولهم الحال الى شرّ مآل مما سيأتي بيانه بجملاً أو مفصلاً في هذا الكتاب ان شاء الله

اذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السطة فيها ولي الولاية لا الدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطابق خدمة الامة ورجاء رضى الله كابي عبيدة بن الجراح الذي مات في ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سينه وترسه ولم يك في بيته ما يأكل الا كسيرات من الخبز فالى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك أخلاق عمالها؛ انها ولا مرء في الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها، ونشرت على الارض اعلام نصرتها، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط تغير خالق العباد، وناطقاً في ارجاء الارض يتناق بغير الضاد، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز في الارض مقامها (وتلك الايام نداولها بين الناس)

(ومن اخلاقه في الادب واين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن

موسى بن عقبة ان عمرو بن العاص لما كان في غزوة ذات السلاسل في مشارف الشام وخاف من جأبه الذي هو به بمث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فندب رسول الله المهاجرين والانصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب في سراة من المهاجرين وأمر عليهم ابا عبيدة بن الجراح وامت بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمر وقال : أنا اميركم وأنا ارسلت الى رسول الله استمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت امير اصحابك وأبو عبيدة امير المهاجرين : فقال عمر وانما أنتم مدد أمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلاً حسن الخلق لين الشيمة متبعاً لامر رسول الله (ص) وعهده : قال : تعلم يا عمرو ان آخر ما عهد الي رسول الله ان قال اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وانك ان عصيتني لا طيعنك : فسلم أبو عبيدة الامارة لعمر بن العاص

لا جرم ان ابا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهداً بالدنيا لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب في الامارة لذاتها بل لما فيها من الثواب في خدمة الاسلام والمسلمين . واما عمرو بن العاص فقد كان حريصاً على الامارة راغباً بالدنيا والآخرة يحب الظهور ويميل الى اتيان الاعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس جامعاً بين الاجرين أجر الاولى وأجر الآخرة كما سترى ذلك مبسوطاً في سيرته ان شاء الله

ومن أدبه ايضاً ما اخرج به ابن عساكر عن ابي البخري قال : قال عمر لابي عبيدة (اي يوم السقيفة) هلم ابايمك فاني سمعت رسول الله يقول انك أمين هذه الأمة : فقال أبو عبيدة كيف اصلي بين يدي رجل امره رسول الله ان يؤمننا حين قبض : يعني ابا بكر الصديق .

وأخرج أيضاً عن جابر قال : كنت في الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق : قال أبو عبيدة صلى بالناس فأنت أحق اتيتي تمديني : قال ما كنت لاصلي قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح (ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) ما رواه ابن عساکر عن أبي الحسن عمران أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في المسكر فيقول : الأرب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، الأرب مكرام لنفسه ، وهو لها عدو مهين ، ادراوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن : ربما تبادر الى ذهن القاري أن أبا عبيدة يتغالي في الترغيب بقوله للمسلمين فلو أن أحدكم ألح الحديث وليس الأمر كذلك هو يريد بتلك السيئات سيئات الجاهلية لأنه إنما يخاطب قوما حديثي عهد بالاسلام فكأنما هو يريد ان يظم لهم شأن الاسلام وانه يمجو ما قبله من سيئات الجاهلية اذا عمل احدهم بما امر به من آيات الحسنات والأف لو اراد غير ذلك لكان ترغيبه الى هذا الحد خلوا واغرافاً يتبرأ عن منله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأيت في فصل (لاوثنية في الاسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً في الترغيب . وكما اودى سوء الفهم لمثل هذه الاحاديث والاخبار الى تشويش عظيم في افكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمناولة في الترغيب الى مدارج الاباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين انما كان منشأوه سوء الفهم

— تنبيه —

قد أغفلنا باب الكتب هنا لانا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لاهل الذمة قد مرّ مثلها في هذا الكتاب للفاتحين اللهم الا كتاباً كتبه الى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل وقد مرت صورته في سيرة عمر وكتاباً آخر اورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله اليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخص الى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسادين بالشام وهذا نص الكتاب

اني في جنود من المسلمين ان أرغب بنفسي عنهم وأني قد علمت حاجة امير المؤمنين التي عرضت لك وانك تستبقي من ليس بباق فاذا اتاك كتابي هذا فخلني من عزمك وأذن لي في الجلوس

وقد اورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن ابي موسى الاشعري كان بودنا اراده في سيرة ابي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر ان ابن الاثير وهن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة

— باب —

(وفاته)

قلنا في باب الاحداث على عهد عمران من اهمها طاعون عمواس وعمواس بين الرملة وبيت المقدس وهي على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في ستة وثلاثين الفا من المسلمين فلم يبق منهم الا ستة آلاف رجل ومات به كثير من الاعلام منهم أبو

عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن ابي سفيان وقد اختلف في مكان وفاة ابي عبيدة فمن قائل انه في بيسان ومن قائل انه في عمواس ومن قائل انه في الاردن ففي اسد الغابة عن عروة بن رويم ان ابا عبيدة انطلق يريد الصلاة بيوت المقدس فادركه اجله بفعل فتوفي بها : وكذا في رواية ابن عساكر عن ابن رويم وزاد عليها انه اوصى قبل وفاته بقوله

اقراءوا امير المؤمنين السلام واعلموه انه لم يبق من امانتي شي الا وقد قت به وادبته اليه الا ابنة خارجة نكحت في يوم بقي من عدتها لم اكن قضيت فيها بحكومة . وقد كان بعث اليّ بمائة دينار فردوها اليه : فقالوا ان في قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها اليه وادفونني من غربي نهر الاردن الى الارض المقدسة ثم قال ادفونني حيث قضيت فاني اتخوف ان يكون سنة (اي بعده)

وفي رواية له ايضا عن سعيد المقبري قال : لما طعن ابو عبيدة بن الجراح بالاردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال

❦ وصيته ❦

أني موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير : اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا وانصحوا لامرائكم ولا تغشوم ولا تلبسكم الدنيا فان امرأاً لو عمر الف حول ما كان له بدٌّ من ان يصير الى مصرعي هذا الذي ترون . الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون . وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله ، يامعاذ بن جبل صل بالناس : ومات فقام معاذ في الناس فقال

﴿ خطبة معاذ ﴾

﴿ بعد وفاة أبي عبيدة ﴾

يا أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فان عبداً لا يلقى الله تاباً من ذنبه الا كان حقا على الله ان يغفر له : من كان عليه من دين فليقضه فان العبد مرتين بدينه : ومن اصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) اخاه فليلقه فليصالحه ولا يذبحي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث : والدين العظيم انكم أيها المسلمون فجمعتم برجل ما أزعم اني رأيت عبداً أبراً صدرا ولا ابعداً من الفائلة ولا اشد حبا للعامة ولا انصح للعامة منه . فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اه

ومن تبصر في وصية ابي عبيدة وخطبة معاذ رضي الله عنهما علم ان المسلمين انما سادوا يومئذ على الامم . بمثل هذه المناصحة وبتلك الاخلاق البارة ولانهم كانوا دائبين على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصي بالحق اميرهم مأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصي بالحق والتناصح بالمعروف ان يسودهم الله على الامم كما سود اولئك القوم البررة النصحاء الذين خلدوا للمسلمين فخرا كاد يجود عن صفحات الزمان اقوام عطل من الفضيلة بعيدن عن فهم القرآن مستغرقون في سبات الوسواس والاهوام سريعة خطاهم الى التبدي بطيئة عن الصعود لا يوافق نداء المنادي منهم قلوباً واعيةً ولا آذاناً مصفية لهذا قد أخنى عليهم الزمان فهم يسبون ظالماً وينسبون تقهقرهم اليه جهلا وما الزمان الا آية العبر ومستودع اسرار الامم ومظهر سنن الله في الخلق فهو مرشد

المائل ومردى الجامل وان في هذا البلاغ اقوم يعقلون
 روى ابن عساكر ان ابا عبيدة شهد بدرا وهو ابن احدى وار بين
 سنة ومات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة
 وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكتم وفي رواية انه مات ولم يعقب وفي
 رواية اخرى انه اعقب وانقرض عقبه رحمه الله ورضي عنه وجزاه وسائر
 الصحابة الكرام عن امتهم خير الجزاء
 ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل فتوفي بعده في
 الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص فارتفع بالناس الى الجبال
 فانكشف عنهم المرض

- كلمة في القبور -

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كائواويس والاهرام
 وما شاكلها من معالم الوثنية الأولى وانما نريد الوقوف بفكرة القارئ عند
 اختلاف المؤرخين في مكان قبر ابي عبيدة كاختلافهم في تعيين كثير من
 قبور جلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم وتملموا بتلك
 الشيم السماء وبلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها
 احد من الاولين ولا الآخرين . وقد بسط المؤرخون اخبار اولئك الرجال
 العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة في فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا
 في النفوس حاجة للاستزادة ونعم ما خدموا به الآمة والدين
 ان القارئ اذا وقف بفكره عند هذا الامر وقفة التأمل لا يلبث ان
 يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظيم واختماء
 امكنتها عن نظر نقلة الاخبار ومدني الآثار على جلاله قدر اصحابها وشهرتهم

التي طبقت الآفاق وملأت النفوس اعظاماً لقدروهم واكباراً لجلال أعمالهم
وشأنهم عليهم وتكريماً لذكر أسمائهم وشكراً لآلائهم واعترافاً بجميلهم وافراراً
بفضيلة سبقهم بالإيمان ونشرهم دعوة القرآن

لاجرم ان القاريء اقل ما تحدثه به النفس عند التأمل في هذا الامر
ان اولئك الرجال ينبغي ان تعلم قبورهم بالمتعيين، وتشاد عليها القباب العاليات
ذات الاساطين ، اذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الايمان
وصحبتهم للنبى عليه الصلاة والسلام فلما أتوه من كبار الاعمال ، التي تعجز
عنها اعاضم الرجال ، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين ، ودرست
اجداثهم التي تضم أ كابر الصحابة والتابعين ، حتى اختلف في تعيين أمكنتها
أرباب السير ، وعفا من أكثرها الاثر ، الأ ما علموه بعد بالحدس
والتخمين ، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين ، مع ان المشاهد عند
المسلمين صرف العناية الى قبور الاموات بما بلغ الغاية بالتأنيق في رفعها
وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الامراء
الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر في الاسلام ، والتمشيخة والدجالين
الذين كان أكثرهم مجهل أحكام الايمان ، ولا نسبة بينهم وبين اولئك
الرجال العظام كأبي عبيدة بن الجراح واخوانه من كبار الصحابة الكرام
الذين تلقوا الدين غضا طريا ، وبلغوا بالتقوى والفضيلة مكانا قصيا ،

والجواب عن هذا ان الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم باقل
تقديراً لقدرة الرجال وتعظيماً لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الابطال واخيار
الامة الا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الاموات وتعظيم الرفات
لتحققة النبي الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة

التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ومحو آثار التعظيم المفرات ، او العكوف على قبور الاموات ، ويرون ان خير القبور الدوارس وان أشرف الذكر في أشرف الاعمال . لهذا اختلفت عن أتى بعد جياهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين الا ما ندر ثم اختلفت نقلة الاخبار في تعيين امكانتها باختلاف الرواة وتضارب ظنون الناقلين . ولو كان في صدر الاسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الاموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ولما غابت عنا الى الآن قبور اولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الداجلة والمنمشخين التي ابتدعها بعد العصور الاولى مبتدعة المساميين وخالفوا فعل الصحابة والتابعين . حتى باتت اكثر هذه القباب تمثل هياكل الاقدمين وتعيد سيرة الوثنية باقبح انواعها وأبعد منازعها عن الحق . وأقربها من الشرك . ولو اعتبر المسامون بعد باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الاسلام لما اجتروا على اقامة القباب على القبور وتعظيم الاموات تعظيماً يباه العقل والشرع وخالفوا في هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدوا الينا أمانة نبينهم فاضعناها وأسرار شريسته فعبثاً بها : واليك ما رواه في شأن القبور مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الاسدي قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته : وفي صحيحه ايضاً عن ثمامة بن شفي قال : كنا مع فضالة بن عبيد بارض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي . ثم قل سمعت رسول الله (ص) يأمر

بتسويتها^(١)

هكذا بلغونا الدين وادّوا لنا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم
تأكيداً لهمد الأمانة بدأوا بكل ما أمرهم به الرسول بأنفسهم لئلا
يستهمم ونهتدي بهدي نبيهم ولكن قصرت عقولنا عن ادراك معنى تلك
الجزئيات . وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الإلهي
والامر النبوي القاضي بعدم تشييد القبور اتقاء التدرج في مدارج
الوثنية . فلم نحفل بتلك الحكمة وتحكّمنا بعقولنا القاصرة بالشرع فحكّمنا
بجواز تشييد القبور استحباباً لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات
وخرقاً في الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد اذ مازلنا نتدرج حتى جعلنا عليها
المساجد وقصدنا رفاتها بالندور والقربات ووقعنا من ثم فيما لاجله امرنا
الشارع بطمس القبور كل هذا ونحن لانزال في غفلة عن حكمة الشرع
نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين

انتهى ما احببنا ايراده من سيرة ابي عبيدة رضي الله عنه وهما نحن
اولاء نشرق بسيرة سعد بن ابي وقاص الذي هو من مشاهير الدولة
العمرية فنقول



(١) الاحاديث الواردة بالنهي عن تشييد القبور وتعظيمها ولمن من يتخذها
مساجد ويقصدها بالندور كثيرة قد استقصى الكلام عليها كثير من الائمة المصلحين
كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وامثالهما فلتراجع في مظانها من كتب النور
كالواسطة واغاة اللفهان وغيرهما

— سعد بن ابي وقاص —

﴿ باب ﴾

﴿ حاله في الجاهلية ﴾

﴿ نسبه وأصله ﴾

سعد بن ابي وقاص واسم ابي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب
(كما في اسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب
ابن لؤي بن غالب بن فهر بن النَّضْر بن كنانة القرشي الزهري يكنى ابا
اسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس

— مكانته عند قومه —

(وصناعته)

كانت صناعة سعد بن ابي وقاص كما تقدم في صدر الجزء الاول
بري النبل . واما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم نتف على شي منها إلا
ان مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه فانه كان قبل الهجرة
غنياً موسراً ويستدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روي في الصحاح
والسنن) عن سعد أنه شكى في مكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال يا رسول الله قد بلغ مني الوجع ماترى وأنا ذومال ولا يرثني إلا
ابنة أفاوصي بثني مالي : قال لا : قال فالباشطر : قال لا : ثم قال « الثالث
والثالث كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون
الناس وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا اجرت عليها »

﴿﴾ باب ﴿﴾

﴿﴾ اسلامه وصحبه ﴿﴾

(اسلامه)

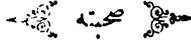
سعد بن ابي وقاص من السابقين الاولين الى الاسلام الذين وافقت دعوة التوحيد منهم قلوباً واهمية فبادروا لقبولها مبادرة الظمان للماء . والعليل للدواء . والنفس الحساسة من طبعها تتلمل من الشرك وتنالم من عبادة الاوثان وانما هي تترقب نوراً ينقشع عنه ظلام الوثنية . وميناً يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية وتتوصل لاطراح الآصار الجاهلية . وسعد رضي الله عنه لم يلبث ان طرق سمعه داعي السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة في الاسلام

روى ابن عساکر في تاريخه وابن الاثير في اسد العابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت ابي يقول : رأيت في المنام قبل ان اسلم بثلاث كآني في ظلمة لا ابصر شيئاً اذ اضاء لي قمر فآبعته فكآني انظر الى من سبقتني الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى على بن ابي طالب والى ابي بكر وكآني أسألهم متى انتهيتم الى هاهنا قالوا الساعة : وبلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفياً فلقيته في شعب اجياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمني احد الأهم : وروى ابن عساکر ان سعداً اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة

ليس العجب من مبادرة سعد الى الاسلام بعد ان استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبال الوثنية وانما العجب من هذا الدين الذي ما دخل قلباً الا تمكن منه تمكن الروح من الجسم .

ورسخ فيه رسوخ الاطواد فاستحال أن تدركه العواصف او تسطو عليه الاغراض شأنه مع المسلمين الاولين ومن بعدهم الى هذا اليوم . وان ما نال الصحابة من الاذى وما عانوا من انواع الشدائد في سبيل تمسكهم بعروة الاسلام الوثيق والتفافهم على صاحب الشريعة الغرالماتنوء به الجبال ومع هذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع . ولم يمنهم عن المضي في سبيل الهدى والرشاد مانع . ومن هذا القبيل ما روى عن سعد بن ابي وقاص قال : نزلت هذه الآية فيّ (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) قال كنت رجلاً برّاً بأُمي فلما اسلمتُ قلت : يا سعد ما هذا الدين الذي احدثت لتدعن دينك أو لا آكل ولا اشرب حتى أموت فتمتّرت بي : فقال لا تغفلي يا أمّ فاني لأدع ديني : قال فكشيت يوماً وليلة لاتأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت : والله لو كانت لك الف نفس نخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء : فلما رأيت ذلك اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : اخرجه ابن الاثير في اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن أبي عثمان النهدي : وفي اسد الغابة عن ابن اسحاق : قال كان اصحاب رسول الله (ص) اذا صلوا ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فيينا سعد بن ابي وقاص في نفر من اصحاب رسول الله (ص) في شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فانتلوا فضرب سعد رجلاً من المشركين باحيي جمل فشججه فكان اول دم اهرق في الاسلام : والصحابة الاولين من مثل هذا اخبار كثيرة تدل على صبرهم على

المكاره وتحملهم ضروب الالهانة من المشركين استمساكاً بحبل الاسلام
ووفاءً بهمداً الايمان وايقاناً بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام



كان سعد بن أبي وقاص من خيرة اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صفة مخلص في ايمانه وجاهد
بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه اذ شهد معه
المشاهد كلها وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث وكان
من ثبت معه يوم احد وقاتل دونه قتال الابطال . وروي عن الزهري انه
قال : رمى سعد يوم احد الف سهم : وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه
اذ قال له « ارم فذاك أبي وأمي ارم ايها الغلام الحزور »^(١) رواه في
اسد الغابة عن علي بن ابي طالب (رض)

وعابه يوماً بنو أسد في الكوفة فقال راداً عليهم : اني لاول العرب
رمي بسهم في سبيل الله والله ان كنا لنغزو مع رسول الله (ص) ما لنا
طعام الا السمر وورق الحبلبة حتى ان كان احدنا ليضع كما تضع العنز (وفي
رواية الشاة) ما بنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى^(٢) على الدين لقد
خسرت اذا وصل عمي : رواه ابن عساكر وابن الاثير عن قيس بن ابي
حازم : ومن اجل ما يورث عنه في صحبته ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن

(١) الغلام الحزور أي القوي (٢) قوله السمر وورق الحبلبة كلاهما شجر
وقيل ان الاول هو شجر الطلح والثاني نبات يشبه اللوباء . وقوله كما تضع العنز
أي كما ترعى يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام أن كانوا يرعون
ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله ما بنا خلط والخلط بسكون اللام وكمرها
التلوق وقوله تعزرنى من العزر وهو اللوم او التوقيف على باب الدين واحكامه كما في القاموس

عاصر بن ربيعة ان عائشة قالت: سهر رسول الله مَقْدَههُ المدينة ليلة فقال « ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة » فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال « من هذا » فقالوا: سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله (ص) « ما جاء بك » فقال سعد وقع في نفسي خوف على رسول الله فجت أحرسه: فدعاه رسول الله: قالت فنام رسول الله حتى سمعت غطيطة في نومه

وهذا يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر في تلك الليلة بخاطر على النبي (ص) كما شعر النبي بذلك أيضا فبادر ليحرسه بنفسه وبقية أذى عدوه شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون في خدمته ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته واعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء وقد كان من حب رسول الله لسعد ان دعاه ان يسدد رميته ويحجب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المحدثون كثيرا من الاخبار فيمن اصابته دعوة سعد رضي الله عنه

— ❦ — باب ❦ —

❦ حروبه وفتوحاته ❦

قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قريش وكما هم لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس ان أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه: انه الاسد عاديًا: كما رأيت في خبر مسير سعد الى العراق في الجزء الثاني فانتهي عمر الى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الاسلامية في حرب

الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى الى شراف وهناك عشر الناس وأمر على أجنادهم وعبّأهم وفرق المسالحي في الاطراف وسد الفروج المخيفة ولما أتم اكل شيء عدته ارتحل الى القادسية وهي المكان الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد مرّ تفصيل الخبر عن مسير سعد الى القادسية في سيرة عمر ونشير هنا الى ما كان بعد وصوله القادسية من اخباره مع الفرس فنقول

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) الى كسرى يزدرجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا ان أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا

علم يزدرجرد من وقائع العرب الاولى مع جيوشه التي دحرت في العراق أيام خالد بن الوليد والمنثى بن حارثة ان العرب بعد الاسلام ليسوا العرب قبله وان القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الابل أصبحوا من رعاة الاعم وقادة الفتح فلا ينفع معهم الا الجدد ولا يقاومون الا ببذل الجهد في اعداد العديد والعدة فاستدعى اليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب الرأي فيها وقال له اني أريد اني أوجهك في هذا الوجه فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله

كان رستم صاحب رأي ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى ان مقامه مع كسرى لندبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه صنناً بها عن مواقف الخطر. فرغب الى يزدرجرد استبقائه في عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأي وكان مما قاله له يومئذ: ان العرب لا تزال

تهاب المعجم ما لم تضربهم بي واملأ الدولة ان تثبت بي اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر ، والاناة خير من العجلة ، وقتل جيش بعد جيش أمم من هزيمة بكرة وأشد على عدونا :

فأبى عليه وأعاد رسمه كلامه وقال : قد اضطرني تضييع الرأي الى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدأ لم أتكلم به فأنشدك في نفسك وملكك دني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك وإلا بمننا غيره حتى اذا لم نجد بدأ صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حاءون فإني لا أزال مرجوا في أهل فارس ما لم أهزم : فأبى إلا ان يسير نخرج حتى ضرب عسكره بساباط : وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر فكتب اليه ان يستعين بالله ولا يجزع وان يرسل الى يزدجرد اولاً يدعوه الى الاسلام كما مر الخبر عن هذا في سيرة عمر رضي الله عنه : فأرسل سعد نفراً من أهل الرأي منهم النعمان بن مقرن وبسر بن أبي رهم وحمل بن حويبة وحنظلة بن الربيع وفرات بن حيان وعدى بن سهيل وعطارد بن حاجب والمغيرة بن زرارة بن النباش الاسدي والاشعث بن قيس والحارث ابن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبة والمغنى ابن حارثة دعاء . نخرجوا من المسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رسمه واستأذنوا على يزدجرد فقبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورسم معهم واستشارهم فيما يصنع واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له سلمه ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل اننا

تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء،
آثرته فقالوا بل تكلم فقال :

ان الله رحمتنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا
على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعده
عنه بها فرقة . ثم أمر ان نبتدىء الى من خلفه من العرب . فبدأنا بهم
فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاعتبط ، وطائع فازداد ، ففرنا جميعاً
فضل ماجاء به على الذي كنمنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا ان نبتدىء
بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف . فنحن ندعوكم الى ديننا وهو
دين حسن الحسن . وقبح التبيح كله فان أيتيم فأمر من الشر هو أهون
من آخر شر منه . الجزية . فان أيتيم فالمناجزة (الحرب) فان أحببتم الى
ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وقنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم
وشأنكم وبلادكم . وان بذلتم الجزى قبانا ونماكم وإلا قاتلناكم :

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لشكر ولاديين
يرى ان أصول الدعوة الى الاسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الامم
بلا إجبار ولا إكراه إلا ما يصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها
وإظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر
إلا بقوة أهله . والانسان أكثر ما يخضع للحس دون الوجدان إلا من
اطرح رداء التقليد، وأطلق عقله من قيود الاوهام، فوضع كل ما يرد عليه
موضوع المحاكمة والنقد ، وهؤلاء عددهم قليل ، في كل أمة وجيل
لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان فأجابه بجواب فظ يظهر

فيه امتهانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم بعد ان كانوا من افقر الشعوب وادنائهم واجهلهم : فأجابه المغيرة بن زرارة بان ما وصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق الا انه قد كان ذلك قبل الاسلام واما بعده فالحال صار غير الحال . ثم دعاه الى ما دعاه اليه النعمان من قبول الاسلام . او يدفع الجزية عن يد وهو صاغر . او السيف فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على اشرف هؤلاء . ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وقل ارجعوا الى صاحبكم واعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم بانفسكم بأشد مما نالكم من سابور : فتقدم عاصم بن عمرو وقال انا سيد هؤلاء وحمل التراب على عاتقه وخرج الى سعد وقال ابشر فوالله لقد اعطانا الله اقاليد ملكهم

قال يزدجرد لرستم بعد ان فارقه الوفد ما كنت ارى ان في العرب مثل هؤلاء . ما اتم باحسن جواباً منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنّه اولى من عليه . على اني وجدت افضلهم اتمتهم حيث حمل التراب على رأسه : فقال رستم أيها الملك انه اعقاهم وتطير من ذلك والعجيب في هذا الخبر ان يمتد يزدجرد ان القوم وعدوا أمراً هم مدركوه ثم يعامهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتهانه لهم واحتقار امرهم وهذا بلا ريب من الخرق في الرأي والتناهي في الكبرياء الباطلة وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك ويحدث قومه به : ولا جرم ان اكثر ما مهد للمسلمين يومئذ طريق الفتح والغلبة على الامم هو استصغار شأنهم من ملوك الارض

وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الامة البدوية قبل الاسلام من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة على انه كان في مظاهرهم واخلاقهم بمد الاسلام ما يكفي لاعتبار اعدائهم بتغير احوالهم وينذر بملو شأنهم على من سواهم والله في هذا شأن هو بالانه

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الاطراف ومناوشة مسالح الفرس وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس في اربعين ألفاً وخرج هو في ستين ألفاً وجعل على ميمته الهرمزان وعلى ميسرته مهران وكتب الى أخيه البندوان في مرمة الحصون واعداد العدة ثم سار فنزل بكوثي وأني له هناك برجل من المسلمين فقال له ما جاء بكم وماذا تطلبون : فقال جئنا نطلب موعود الله بمثل أرضكم وأبنائكم ان أيتم ان تسلموا : قال رستم فان قتلتهم قبل ذلك : قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين : فقال رستم قد وضعنا أذن في أيديكم : فقال أعمالكم وضعتمكم فأسلمكم الله بها فلا يفرنك من ترى حولك فالك لست تحاول الانس انما تحاول القدر : فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعات جيشه في النواحي وغضب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقموا على النساء وشربوا الخمر فضج أهل برس الى رستم : فقال يا معشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا الا أعمالنا . والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم . ان الله كان ينصركم على العدو ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان . فاذا تغيرتم فلا أرى الله الا مغيراً ما بكم وما أنا بأمن من ان ينزع الله سلطانه منكم : ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه

وكنا نحسن اليكم ونحفظكم: ويخبره عن صديقهم مع العرب فقال له زهرة: ليس أمرنا كما رأيتك. أنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه: فقال لرسوله أني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه احد الا ذل. ولا يمتصم به أحد الا عز: فقال رستم: ما هو؟ قال: أما عموده الذي لا يصلح الآبه فشهادة ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله: قال وأي شيء أيضاً قال واخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وام: قال ما أحسن هذا: ثم قال رستم رأيت ان أجببت إلى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجمون؟ قال أي والله: قال صدقتني أما ان أهل فارس منذ ولي ازديشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرفهم: فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا: من تأمل في هذه المحاوره علم ان دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الاخاء والمساواة واعتناق الطبقات الدنيا من ريق العبودية لاسيما في الامم القديمة التي كانت دولها عريقة في الاستبداد واشراف مملكتها مستعبدين للشعب كان أصعب شيء على الامراء والملوك قبول هذه الدعوة لما يتوقعونه بمداهم من وجوب كسر يد القهر والقوة التي هم باسطوها على الناس لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الاسلام

ويزجون بالعمامة في غمار الحروب لا دفماً عن الدلالة بل منعاً عن الخير
 واستئثاراً بالسلطة وتشبثاً باسم السيادة المطلقة على الشعب بدليل ما سمعت
 من هذه المحاوراة وما نتلوه عليك من تيمة ما كان من الخبر عن رستم فانه
 بعد ان سمع ماسمع من زهرة أحب ان يسمع أشرف أئمة وقواده من
 المسلمين مثل ماسمع لعلمهم ينزعون الى اطلاق حرية الشعب والتسامح
 بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ليكونوا جميعاً اخوة في الدين سواء امام
 العقل والعدل : فدعا رجال فارس وذاكرهم في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم
 ذلك لهذا أرسل الى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا فدعا سعد
 جماعة ليرسلهم اليهم فقال له ربي بن عامر متى نأتهم جميعاً يروا انا احتفلنا
 بهم فلا تزدهم على رجل : فأرسله وحده فسار اليهم في أبسط زي من
 اللباس والعدة واقتحم بفرسه بساط رستم ونما رقه ثم دنا منه وجلس على
 الارض ولم يشأ ان يجلس على البسط والنمارق فسئل ما جاء بك؟ فدعاهم
 الى الدين أو الجزية أو الحرب وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهله
 لينظر وقومه في هذا الامر فأمهله ثلاثاً فقال له : وهل أنت سيد قوهك؟
 قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أديانهم على
 أعلامهم بخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاماً أعز وأوضح من
 كلام هذا الرجل؟ ترغيباً لهم في اجابة دعوة الاسلام : فقالوا معاذ الله
 ان نميل الى دين هذا الكاب أما ترى الى ثيابه؟ فقال ويحكم لا تنظروا
 الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام والسيرة ان الحرب تستخف
 باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم
 ولعل رستم استمال أمراءه بعد ذهاب ربي بن عامر أو أراد تردد

رسل المسلمين عليه رجا، اختناع قومه منهم فلما كان من الغد أرسل الى سعد بن أبي وقاص أن ابعث الينا ذلك الرجل : فبعث اليهم حذيفة بن محصن فأقبل في نحوزي سابقه ووقف على رستم راكباً قال : انزل : فأبى فقال له ما جاء بك ولماذا لم بجى الاول ؟ : قال : ان أميرنا يجب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء : ثم سأله رستم عما جاء بهم فأجابه مثل الاول فصرفه ثم بعث من الغد أن ابعثوا الينا رجلاً : فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره فأقبل اليهم وعليهم التيجان والسياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (مري سهم) لا يوصل الى صاحبهم حتى يمشي عليها فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريريه فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضاً فظننت أنكم تواسون قومكم « أي تساؤنهم بأنفسكم والخطاب كما لا يخفى للامراء » كما تنواسي فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، واني لم آتكم ولكن دعوتوني ، اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول :

قال المغيرة ما قال على ملا الناس بن جندى وأمير وهو يسمع بصوته الجمهوري كل الناس فسرى كلاه في الرؤوس تسرى الشرارة الكهر بائية في الاسلاك وانتفض لها القوم كما ينتفض العصفور بلله القطر
ماذا كان بعد هذه الهزة الكهر بائية . والدعوة الاسلامية ؟ كان ان السفلة هبوا هبوب السديم من سبات عميق فنادوا : صدق والله العربي

فيما قال : واما الدهاقين فكانه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة : ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أي أشرف البلاد وسادة الامة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم كما رأيت من قول اولئك الدهاقين الا ان أصروا على الحرب ورفض ما دعاهم اليه المسلمون فانضى ذلك الى زوال دولتهم وذهاب ملكهم وانما حال بينهم وبين الاسلام واستبقاء ملكهم في أيدي ملوكهم حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التي أرادهم على تركها المسلمون وعبرهم بها المغيرة وسابقوه . وكم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمر من الممالك وليس اشأم على البشر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل في رجالها حب الاستبداد وبسطيد القهر على طبقات المحكومين ، واستفحل فيها شأن الاشراف فكانوا أربابا والرعية مرهوبين ، تساق بايديهم الى حيث تلاقي الختوف وتعاني أنواع الشقاء

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشرف الفرس وغيرهم من الامم القديمة فجاء الاسلام يدعو الى الحرية وان البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وانما أمر الشعوب في الامم القديمة الى اشرافهم كما رأيت فهم لاصرائهم تبع ولذوي السيطرة عليهم مقلدون قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة اولئك الجبارين ، فان تصل اليهم دعوة الاسلام الى المساواة في الحقوق والاخاء في الدين ، وعدم التفاضل إلا بالعلم ، إلا بآباهاب قادتهم ، وقهر سادتهم . فهل يؤخذ على الاسلام وهذا شأنه في اسعاد البشر ان جعل أساس الدعوة الموعظة وحياطتها

القوة ، لا والله ان في هذا المنتهى الحكمة بالاضافة الى اخلاق تلك الامم وحياتهم التي هي ذل محض ولده طول الصبر على الضيم والرضوخ لسيطرة الامراء الجائزة وسلطانهم القاهر حتى أصبح مملكة من ممالك النفوس تظهر حيناً وتختفي آخر واليك الدليل

دعا المسلمون رجال الفرس الى ما دعوهم اليه فأبوا واستكبروا ومنشأ الالاء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية والخوف من محو آية التفاضل او النهوض بالسفلة الى مقام الحرية الذي ياحقهم بالاشراف ويقضي على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال فزجوا بالعامية في غمار الحرب والحقوا بدولتهم الهلاك : لهذا اذا نظرنا الى الدعوة الاسلامية يومئذ نجد انه قد نشأ عنها امران عظيمان — أمر ظهر أثره في الحال ، وأمر ظهر أثره في الاستقبال ،

فأما الامر الذي ظهر أثره في الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للاسلام ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم خوفاً من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل ايدي الاشراف حتى كان من ذلك توقف انتشار الاسلام بالدعوة الابعده حمايتها بالقوة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحو آثار الوثنية من البلاد :

وأما الامر الذي ظهر أثره في الاستقبال فهو ان الرضوخ لسيطرة الاشراف لما صار مملكة في نفوس الاعاجم كانوا لها اطوع ، واليها اميل ، ولما بسطت عليهم دولة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الاسلام اغتبطوا حيناً بساطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب في الشرق والغرب وتفرقت عصبيتهم في انحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهري الاعاجم وافضوا

الى هؤلاء بأموال الملك وشاركوهم في شؤون الدولة بحكم الوحدة الاسلامية والجامعة للملّة ، نزع الأعاجم الى سيرتهم الأولى ونبض فيهم عرق القوّة فتحزبوا أحزاباً تنازىء الدولة العربية وتحاول هدم أركان حكومتهم الديمقراطية واستبدالها بحكومة الاشراف الارسطوقراطية ولم يروا اعون لهم على هذه البغية إلا الدعوة لآل البيت النبوي الشريف فبثوا منهم الدعاة في الآفاق الاسلامية يدعون لآل البيت في السرّارة والعلانية أخرى حتى تمكنوا من كبد الدولة المروانية وأوغروا عليها صدور الامّة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية فكان ما كان من تتبع هؤلاء لاهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين فنألبوا على قلب دولتهم مراراً عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الامور لانصارها من الاعاجم الذين لم يلبثوا الا جيلاً أو بعض جيل حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعمانهم ملك العباسيين العريض فأعادوا سيرة الاشراف الاولى لاقبح ما كانت عليه من قبل في سوء الاحدوثة والايغال في الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس وسنم بشيء من هذا البحث فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

❦ وقائع الفادسية ❦

دعا رستم قومه الى مسالمة المسلمين بمد كلام طويل جرى بينه وبين المغيرة فأبوا عليه وأراد سعد أن يباشر الحرب انذاراً للقوم آخر مرة فأرسل ثلاثة من ذوي الرأي الى رستم يدعونه وقومه الى الاسلام : فقالوا له ان أميرنا يدعوك الى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل

مادعائك اليه و نرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك وليس بيننا وبين ان تغبط بهذا الامر إلا ان تدخل فيه

هذه كانت آخر دعواهم له ان يقبل الاسلام و يحفظ بدولته وملكه وملكه و يبقى في أرضه و يرجعون الى أرضهم و سلطان الفرس لهم و عليهم لا يضارون في ملكهم ولا يمس جانب سلطانهم و لهم من ذلك الحماية و الدفع من المسلمين . ان هذا لغاية الانصاف و منتهى السعادة لقوم انغمسوا في حماة الوثنية و استناموا لزعماء الجور . لكن رستم رفض هذه الدعوة و غمط هذه النعمة مجاراةً لزعماء الامة و قادة الجيش و دهاقين البلاد فرد الرسل كما جاء و اول مرة و انذر المسلمين بالحرب و هو في باطن الامر لا يريد لها و لم يتقدم لها إلا مكرهاً عليها علماً بمصير قومه بعدها فامر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعداً : أتعبر الينا أم زبر اليك ؟ فأجابه أن اعبر و أرسل سعد الى المسلمين أن يقفوا مواقفهم و يأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا و عبر اليهم الفرس من العتيق و جعل رستم بينه و بين يزدجرد بريداً ينقل الخبر بالصوت أي وضع رجالاً في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث اذا نادى الواحد يسمعه الآخر فيصل الخبر الى يزدجرد في أقرب وقت كان بسعد يومئذ مرض عرق النساء و قروح في ألتيمه لا يستطيع الركوب فبقي على سطح القصر و هو مكب على وجهه في صدره و سادة يشرف على الناس و الصنف في أصل حائطه فعابه بعض الناس بذلك و ذكره في شعره و قال :

فقاتل حتى أنزل الله زعمه وسعد باب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم
فبلغت آياته سعداً فقال اللهم ان كان هذا كاذباً وقال الذي قال رياء
وسمعة فاطمع عني لسانه ثم نزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه
وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من
ذوي الرأي والنجدة منهم المنيرة بن شعبة وطليحة الأسدي وعمر بن
معديكرب وأمثالهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وأمر سعد
الناس بقراءة سورة الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم
وعرفوا السكينة مع قرأتها فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا ما وقفكم
حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا
سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط
فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم: فاما
كبر سعد الثالثة خرج اهل النجدات فانشبوا القتال ودارت رحى الحرب
واعتور الطمن والضرب وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلاً
فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيائها. وأرسل سعد الى بني
أسد ورثيسهم طليحة ان دافوا عن بجيلة نخرج طليحة بن خويلد في كتابها
فباشروا الفيلة وقام الاشعث بن قيس في بني كندة فحرضهم على القتال
فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم
وفيهم ذو الحجاب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من
سعد واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف
اليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة

والميسرة فكانت الخيول تحميد عنها فأرسل سعد الى عاصم بن عمرو التميمي ان يكفيه وقومه شر الفيلة فتقدم عاصم بجماة من شجيمان قومه ورماتهم فمقطعوا وضمن الفيلة فموت وفرت برجالها ونفس عن أسد فردوا جنود فارس عنهم الى موافقهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع الفريقان وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم - وهو يوم أرمات - بلاءً عظيماً

لما اصبح القوم في اليوم الثاني - وهو يوم اغواث - وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم واما القتلى فدفنوا هنالك وبيئنا هم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعهم القمقاع بن عمرو الذي قال عنه أبو بكر: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب الى ابي عبيدة برسالة الى أهل العراق الى العراق كما تقدم في سيرته فارسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أخي سعد ويمرف بالمرقال وكان القمقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم اغواث فعهد الى أصحابه وهم الف ان يتقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدي البصر سرحوا عشرة . ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرصهم على القتال وقال اصنعوا كما اصنع ثم خرج وهو ينادي بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وطلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القمقاع ثم خرج المبنذوان والفيروزان فانضم الى القمقاع الحارث بن ظبيان أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القمقاع الفيروزان وقتل الحارث المبنذوان ثم ما زال يتبارز الاقران حتى انتصف النهار فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم فكان من حسن مكيد القعقاع أن بات تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقه فيه وقال إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان أقبل هاشم (يعني ببقية الجيش الآتي من الشام) فذاك وإلا جددتم للناس رجاءً وجداً وأصبحوا على مواقفهم فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطنن فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فأخبر بما صنع القعقاع فمبى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم إلى العتيق وكان الفرس باتوا يعملون توأيتهم ويعدون فيلتهم وأقبلت الرجالة تحميها أن تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها وكان يوم عماس شديداً على العرب والفرس وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو وأضربهم من أنجاد المسلمين قتالاً شديداً وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها وما زال القتال دائرة رحاه حتى أمسوا فلما أمسى الناس اشتد القتال وكانت ليلة (الحرير وكان الفرس لا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير اذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له ان لم يستأذني : ثم ان سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الاولى تقدمت أسد ولقد رأسد على حسن بلائها في هذه الحرب فقال :

اللهم اغفرها لهم وانصرهم : ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ثم زحف
الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وأمراء
الاعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ولما كبر سعد الثالثة تلاحق
الناس بعضهم ببعض وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالاً بعد
ماصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم الى الصباح
وأفرغ الله الصبر عليهم افراغاً وبات سعد بايلة لم يبت بثلمها ورأى العرب
والعجم أمراً لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح اتى الناس (أي
انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الاعلون وأن المسلمين هم الظافرون
وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقى صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائداً أربعة وخمسة وواحداً
نحسب فوق اللبد الاسودا حتى اذا ماتوا دعوت جاهداً
الله ربي واحترزت عامداً

وأصبح الناس من تلك الليلة التي تسحى ليلية الهيرير وهم حسرى لم
يغمضوا أجفانهم فسار القعقاع في الناس فقال ان الدائرة بمد ساعة لمن بدأ
القوم فاصبروا ساعة واحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من
الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه فلما رأت ذلك القبائل قام
فيها رؤسائهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجسد في أمر الله منكم ولا هؤلاء
(يعنون الفرس) أجراً على الموت منكم فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام
قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهريزان فتأخرا وثبتنا حيث
تهيا وانفرج القلب وركب عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة
رستم فهوت في العتيق وانتهى القعقاع ومن معه الى السيرير وقد قام عنه

رستم وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ونادى اليّ اليّ قتل
رستم فأطاف به الناس وانهمزم قلب الفرس فقام الجالينوس على الردم
ونادى الفرس الى العبور وأماماً لمقتنون بالسلاسل فمهافتوا كلهم في العتيق
وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كايان وهو العلم الاكبر الذي كان للفرس
(مر خبره في سيرة أبي بكر) فعوض منه ثلاثين ألفاً ونفل سعد سلب
رستم لقاتله هلال

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ وقتل
فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة وأما من قتل من الفرس فعدد
كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرّة الفرس وقتل حدهم
وتشتت جندهم ودخل الوهن على نفوسهم كما كان ذلك مع الروم في رقعة
اليرموك . والغريب في هذا ان عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشا كل
عدة الفرس العريقين في المدينة الماهرين في الصناعات لاسيما في الادوات
الحربية حتى لقد روى المؤرخون ان الفرس كانوا يشبهون سهام العرب
بالمغازل فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال:
حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك)
نني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالنا أمرنا :

وقد غنم المسلمون في القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ولما
جمعت الاسلاب والاموال جمع شيء لم يجمع قبله مثله وأمر سعد القعقاع
وشرحبيل بن السمط باتباع الفارين وخرج زهرة بن الحوية التميمي في
آثارهم في ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهمزمين والجالينوس
يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وأمعنوا فيمن لحقوه قتلاً وأسراً ورؤي

شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس وهو دليل على ما أصاب القرم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتال المساميين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجان رأى سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحوية وليس له أن يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك فكتب الى عمر في ذلك فأخذه عمر على استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب اليه: تعمد الى مثل زهرة وقد صلي (سابق) بمثل ما صلي به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تفسد قلبه؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة: ونعم ما فعل عمر رضي الله عنه فقد أنصف الرجل من جهة ونه سعداً من جهة ثانية الى وجوب تأنف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكاً لقلوبهم وتقديراً لقدرة خدمتهم

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية مارأوا من ظفر المسلمين وهالهم أمر الاسلام استأمن قسم عظيم منهم على أن يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جندشمانشاد (ولعلمهم من المرسلين) استأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء ما أعطوا الذي سألوه وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف: نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان وهي اذا صحت تدل على جواز استخدام الذمي في الجند الاسلامي اذا طلب ذلك ولا يعترض هنا ان الفرس من الجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين فان عمر كان يعامل الجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها فقد روى البلاذري أيضاً عن جعفر

ابن محمد عن أبيه قال كان للمهاجرين مجلس في المسجد «المشاورة» فكان عمر يجلس معهم ويحدثهم عن ما ينتهي اليه من أمر الآفاق «ايستشيرهم في الامور»: فقال يوماً ما ادري كيف اصنع بالجوس فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال: أشهد على رسول الله (ص) انه قال «سنوا بهم» (أي بالجوس) سنة أهل الكتاب»

ومن هذا الحديث نعلم ان الجوس في المعاملة الشرعية كأهل الكتاب لهذا عامهم عمر رضي الله عنه معاملة أهل الكتاب

﴿ فتح المدائن ﴾

عاصمة الاكاسرة

ان وقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيداً للوصول الى عاصمة الاكاسرة التي كانت أم البلاد القادسية ومعقل الاسرة الكسروية لهذا كان ما كان من سعد في القادسية من طول التأمني والترث في أمر الحرب وأخذ العدة ومطاوله العدو حتى أضجر رستم من طول المكث وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليأس من الظفر بعد ان رأى مارأى من ثبات العرب ورزاتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب: ولما انتهى أمر القادسية الى ما انتهى اليه اقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكتب عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وان يخفف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جنداً كشيفاً وان يشركهم في كل منم ما داموا يخفون المسلمين في عيالاتهم: ففعل ذلك وسار من القادسية لايام بقين من شوال سنة خمس عشرة وقدم امامه عبد الله بن المعتّم

وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط فلقبهم في برس جمع من الفرس
 فهزمهم المسلمون ففروا الى بابل وفيها قالة القادسية ولما هزموا اقبل بسطام
 دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل
 فارسل زهرة الى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة
 واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال بن أخيه واتبعه هو ببقية الجيش
 فنزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون وكان فيهم عدة من
 القواد الكبار منهم النخيرخان والهرمزان ومهران فانطلق هؤلاء القواد
 كل الى جهة فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من
 الفرس في كوثي فهزموهم ثم ارتحلوا الى بهرشير وهي المدائن الغربية فلما
 وصلها المسلمون ورأوا الايوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض
 كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما
 وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة وكان نزولهم عليها في ذي
 الحجة سنة خمس عشرة وانما كانوا يكبرون لتحقيق وعد رسول الله لهم
 بملك كسرى : والذي أخذ بافئدة العرب فاستكانوا للدعوة واخلصوا
 للاسلام النية وتفاؤوا في سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك
 انما هو تحقيق وعد النبي (ص) لهم بمصير ملك فارس والروم اليهم حتى
 ان هذا الامر كان من أعظم البواعث على اخلاص كثير من المنافقين
 وحسن اسلامهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من
 اعوان الاسلام وقادة الفتح بعد : والله الحجة البالغة على الناس أجمعين
 نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو
 شهرين وهم يرمون العدو بالمجانيق ويدبون اليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل

عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقا حتى ضيقوا على أهلها الحصار
وباتوا في صنك شديد فأكلوا الكلاب والسنانير وصبروا من شدة الحصار
على أمر عظيم وبالنهاية غادروا المدينة وقطعوا الى المدينة الثانية فاخذها
سعد وانزل المسامين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة

أقام سعد في بهرشير اياما من صفر وهو يفكر في كيفية العبور الى
المدينة الثانية التي فيها ايوان كسرى فأتاه عاج فدلّه على مخاضة تخاض الى
صاب الفرس فأبى وتردد عن ذلك لان النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة
تقذف بالزبد فجاءه آخر وحرصه على العبور وقال ان بقيت ثلاثة أيام فان
يزدجرد يذهب بكل شيء في المدائن فهبجه ذلك على العبور فجمع الناس
حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

انّ عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه
ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون
ان تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الايام وعطلوا نفورهم . وقد رأيت من
الرأي ان تجاهدوا العدو وقبل ان تحصدكم الدنيا . ألا اني قد عزمت على
قطع هذا النهر اليهم :

فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس الى
العبور وقال : من يبدأ ويحبي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لسكي لا
يمنعهم من العبور ؟ فالتدب عاصم بن عمرو وذو البأس في ستمائة من أهل
النجادات فاستعمل عليهم عاصما فقدمهم عاصم بستين فارسا على الخيل
الذكور والاناث ليكون أساسا لسياحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رأهم
الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتمحوها عليهم دجلة

فانتموا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم : الرماح الرماح اشروعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطمّنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا فلحقتهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها . أذن للناس بالافتحام وتلاحق الناس في دجلة حتى اذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هار بين : وكان يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والالطاف شيئاً كثيراً مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم وذكر المؤرخون عما وجد في بيت المال مقداراً فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف الف الف الف وقد نقل هذا العدد ابن الاثير عن الطبري والطبري أعقل من ان لا يحكمّ العقل في اراد مثل هذا العدد وانما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس اذ وجود ثلاثة آلاف ألف أي ثلاثة آلاف مليون بلا تكرير ثلاثة مرات أمر يستبده العقل فكيف به لو كرر وقد رأينا كثيراً من أمثال هذه الروايات الكاذبة في التاريخ وانما يظهر كذبها بقليل من التبصر والامعان ومعظمها ناشئ عن التحريف في النقل والمسوخ في النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً الا حامية القصر الابيض وهؤلاء استأمنوا في الحال ودخل سعد الايوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ولم يغير ما فيه من التمايل وانه ليصلي بالناس والتمايل قائمة فيه : وقرأ سعد يوم دخوله الايوان « كم تركوا من جنات وعيون وزرع » الآية وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه

وناهيك بذخائر الالكاسرة . وقسم النبي على الجند فأصاب الفارس اثني عشر ألفاً وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالانخاس الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال : ان قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له علي رضي الله عنه انك عفت عفت الرعية

ولا جرم فانه مع اقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ وامتلأ أيديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس اليهم كانوا على جانب من عزة النفس والامانة والتعفف قل ما صدر عن جيش من جيوش الفاتحين وخذ لك مثلاً على ذلك ان رجلاً من المسلمين أقبل يومئذ بمحق (علبة) الى صاحب الاقباض فقال ومن معه : ما رأينا مثل هذا ما يعمله (يمائله) عندنا ولا ما يقاربه : فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه : فأتبعوه رجلاً فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء :

وقال جابر بن عبد الله : والذي لا إله إلا هو ما اطمعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كآماتهم وزهدهم وهم طليحة وعمر بن معديكرب وقيس بن المكشوح الى هذا الحد بلغت العفة والامانة من المسلمين يومئذ وانما كان الباعث لهم على ذلك أمور منها جودة الدين والاخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ما حصل واعتباره أنه نعمة عظي بالنسبة لما كانوا عليه

قبل الاسلام من شظف العيش وضنك الحياة يضاف الى هذا سداجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية حتى لقد روي ان بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ماحكاً وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة وبالجمله فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الامانة والاخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب حتى اثني الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب :

لما استتم لسعد فتح المدائن واستقرَّ به المقام أرسل في أثر المهزمين زهرة بن الحوية الى النهروان وأناه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على الجزية ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى اذ هذا صار فيئاً للمسامين ثم سير جيشاً عليه عبد الله بن المعتم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمر والخلاف بين المؤرخين في فتح الموصل هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ أم كان على يد عبد الله بن المعتم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ والارجح ان فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص وفتح عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم لان عياضاً تولى فتح الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة عمر في أخبار فتح الجزيرة فليراجع

وسير سعد جيشاً الى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة القادسية ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى وكان كسرى قد فرَّ منها منذ وصل المهزمون من وقعة جلولاء فنزلها القعقاع في جند من

الامناء والجرء (أي متطوعة الاعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبني القعقاع فيها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلققه القعقاع واستخاف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا . ويظهر من هذا ان المساميين لما توسعوا في الفتح اضطروا بحكم الضرورة الى مشاركة الاعاجم في الامور الحربية والادارية بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الاعاجم ثم تساميه ولايتها الى قباذ أيضا . على ان مشاركة الاعاجم في أمور الفتح وتدير شؤون البلادية ثم من أحسن ما رمت اليه سياسة المساميين لان القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجلية فيكونون عوناً للمساميين في تدويح البلاد وتدير أمور السياسة ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الاعاجم كانت من مميزات الفتح وأسباب سرعة انتشار الاسلام ورفع أعلامه في أقاصي البلاد اذ تسامح الفاتح ولايته لاهل البلاد وتخصيصهم بشي من الساطة من أعظم الاسباب الممهدة لسبيل الظفر للفتوحين اثم سعد بن أبي وقاص (رض) ما عهد اليه من فتح المدائن وقل جيش الفرس في القادسية وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم فانحدرت من شاقق مجدها المتائل فيما بعد الى هاوية الخراب حيث قامت مقامها في تلك الاصفق بغداد دار الخلافة العباسية ومنبع أشعة التمدن الاسلامي العظيم واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد على ان ما ضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم ترضه المدائن في عهد الدولة الساسانية . والفضل في هذا لسعد وأضرابه من أقبال الصحابة السابقين ورجال خلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين

﴿﴾ باب ﴿﴾

﴿﴾ تخطيط الكوفة ﴿﴾

﴿﴾ وامارته عليها ﴿﴾

أقام سعد بالمداين بعد الفتح فأضر بالعرب وخامتها وكان أوفد منهم
بخبير الفتح وقدأ الى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم
عن السبب فأخبروه انه وخومة البلاد فكاتب الى سعد أن ابعث سلمان
وحذيفة راثنين فايرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا
جسر: فأرسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الانبار فسار في غربي الفرات
لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى
شيئاً حتى أتى الكوفة (وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما
البقعة فنزلا فيها فصليا ودعوا ان تكون منزل ثبات ورجعا الى سعد بالخبر
فكاتب سعد الى القعقاع بن عمرو وعبيد الله بن المعتم ان يستخلفا على
جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة في المحرم سنة (١٧ هـ)
وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر وقيل أكثر فلما نزلها
كتب الى عمر ، فكاتب اليه بالبناء على الوجه الذي تقدم في سيرة عمر
(رض) وأقام سعد واليا على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف وكان
حسن الامارة كثير التبع لاحوال الرعية منصفاً بين المسلمين شديداً على
المعتدين : وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال
فوفد عليه مرة عمرو بن معديكرب الزبيدي فسأله عنه فقال : متواضع في
خبائه ، عربي في نمرة ، أسد في تاموره ، (عريته) يعدل في القضية ، ويقسم

بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويمطف علينا عطف الام البرة وينقل الينا
حقنا نقل الذرة .

الآن أهل الكوفة لما أخذوا الى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد
ويظهر التحزب وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لادلالهم بالفتح وطول
معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص
وآلبوا عليه وكان أكثرهم من بني أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح
ابن سنان الاسدي . وكان مما عابوه عليه انه لا يحسن الصلاة . فبعث عمر
محمد بن مسامة والناس في الاستعداد للفرس في نهوند فسأل عن سيرته
في الكوفة فكلمهم قال خيراً سوى من مالا الجراح فانهم سكتوا ولم
يقولوا سواً ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عيس فسألهم فقال أسامة بن
قتادة : اللهم انه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في
السرية : فقال سعد : اللهم ان كان قالمساريةً وكذباً وسمعة فأعم بصره
وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فاصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد
على اولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح اذ قطع بالسيوف يوم بادر
الحسن بن علي رضي الله عنه ليمتاله بساباط

وخرج محمد بسعد وبهم معه الى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه
الخبر : فقال كيف تصلي يا سعد : قال اطيل الاوليين وأخفف الاخرين :
فقال هكذا الظن بك يا أبا اسحق : ثم ان عمر دفماً للفتنة في وقت يريد به
تجهيز الجيوش لهاوند حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل
سعد وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان :
وأراد عمر على الامارة مرة ثانية فأبى وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون

اني لا أحسن أصلي : ولما طعن عمر أوصي الخليفة بعده أن يؤمر سعداً فأعادته عثمان رضي الله عنه الى الكوفة ثم عزله لانه اقترض من عبد الله ابن مسعود من بيت المال قرصاً وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيراً ولا تلن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة فاعتزل في منزله في العقيق قرب المدينة : وقد منا ان عمر رضي الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميراً من قبله على الكوفة شاطره ماله فقال له سعد لقد هجمت قال عمر : بأن تدعو على ؟ قال : نعم قال : اذا لا تجدني بدعاء ربي شقياً

— — — — —
 ❦ باب ❦

❦ نبذة من اخباره ❦

❦ واعتزله الفتنة ❦

(صدقه في الحديث) كان سعد رضي الله عنه صادق الحديث صادق الرواية لما فطار عليه من صدق الالهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مسح على الخفين وان عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : اذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنه غيره : وفي رواية : فلا تبغني وراء حديثه شيئاً .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث ان كان يضمن بالرواية خوف التحريف ونقل ما لم يقل ففي رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد الى مكة فاسمته يحدث حديثاً عن رسول الله (ص)

حتى رجعنا الى المدينة : وروي عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستهجم فقبل له في ذلك فقال اني أكره ان أحدثكم حديثاً فتجعلوه مائة حديث :

ومن البديهي ان سعداً ما قال هذا القول إلا لأنه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ووضع الحديث ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما في أيام الفتن العظيمة التي نارتها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباهم على تجنب رواية الحديث والزهى عنه إلا ما تعلق منه بالاحكام وحسب الامة ما أصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الاحاديث التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتميز جانبه ولو لم يكن من البلاء إلا ما دخل في نفوس العامة ووقر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لكفى ذلك وهناً على الأمة وهوناً لها لترك عامتها التذرع بالاسباب عند حلول كل حادث جليل اعتماداً على ظهور ذلك المنتظر وطالما تظاهروا أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة بأكاذيبهم المفتراة ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة إلا زيادة في البلاء وسفكاً للدماء وتفريقاً بين الامة وتشتيماً للكلمة ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الاخبار المفتراة ويزدجر عن غي النفس واضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الاخبار . وما أصاب الامة من جرائمها شاهد عدل يشهد بانهم لم يريدوا بها للاسلام خيراً . ومن كان هذا شأنه فأحرى به ان لا يحرص مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدي وما جرت من المصائب على الامة نرجئه لحل آخر وكلام أعم منه يجوز

في الضمير ويحجم عنه اللسان أدباً مع أسلافنا الغابرين وتفادياً من تهجم الجاهلين

(ومن محاسن أقواله) ما رواه ابن عساكر عن المدائني قال: قال سعد لابنه: إذا طلبت الغنا فاطلبه بالفناعة فإنه من لم يكن له قناعة لم يفته مال: (ومن جميل خلق سعد) ما رواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال: كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع في خلد عند سعد فقال: مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا:

وما أخلق بأهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين والاحخذ على أيدي المغتابين كما صنع سعد رضي الله عنه إذ ليس أفسد للتلوب رافصم لعري التالف وأدعى لبث روح البغضاء بين الافراد من الغيبة والتميمة ، وشر الناس الذين هم شرٌّ على المجتمعات النمامون المعتابون الساعون بالنفريق الدائبون على الوشاية. ومن أراد ان يعلم مصير الاقوام الذين يتنشى بينهم هذا الداء العضال والمرض القتل مرض الوشاية فليطاق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الاسلامية ليرى من تباغض الافراد وتناكر القلوب وتداعي أركان العمران وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والآء الجنسي والديني ما لا دليل على سوء مغبة التميمة أعظم منه

واعلم انه وان كان أكثر ما يؤثر على حياة الأمم ويبعث على زوال الدول هو فساد الاخلاق عامة إلا أن لفضل هذا الخلق «أي خلق التميمة والسعاية» خاصة أثراً قبيحاً في الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد

الاخلاق وفقد التربية لانه اذا فشا في قوم فأكثر ما ينزع اليه الامراء
توصلا بزعمهم الى اكتناه كنه القلوب ووقوفاً على ضمائر الرعية وهيهات
ان يجدوا وسيطاً لتل أخبار الناس اليهم الا من انغمس في حمأة الشر
واطرح رداء الحياء وغاب عليه حب الشهرة وفقد المروءة وتجرد عن
الفضيلة فيسمى في التفريق بين الامير والماور والحاكم والمحكوم لزانى
يريدها ودناءة يتوخاها وفي هذا من المضرّة ما لا يخفى على أعمى فضلاً عن
البصير اذ كلمة سوء واحدة تنق لساطان جأراً مثلاً تكفي لهدم ملك كبير،
واستشراء شر عظيم، وقيام فتن عمياء، تضطرب لها الدهماء، كما سيمر
عليك مفصلاً في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

(ومن أخباره في القادسية) ما رواه صاحب الاغانى ان عمر بن الخطاب
كتب اليه أن فض ما زاد من أموال الغنائم على حيلة القرآن فانه عمرو بن
معدى كرب فقال له : ما معك من كتاب الله تعالى ، فقال اني أسلمت باليمن
ثم غزوت فشنغت عن حفظ القرآن : قال مالك في هذا المال نصيب :
وأنا بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : ما معك من كتاب الله ؟ قال بسم الله
الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً فقال عمرو في ذلك :

إذا فُتّنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قریش ألاتك المقاديرُ
نعطى السوبة من طعن له نفذٌ ولا سوبة إذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أُنحِتُ بباب القادسية ناقتي وسعدُ بنُ رِقاصِ عليٍّ أميرُ
وسعد أمير شرّه دون خيرِه وخير أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنى فضة وحريرُ

تذكر هداك الله وقع سيوفنا
 عشية ود القوم لو أن بعضهم
 إذا ما فرغنا من قراع كتيبة
 ترى القوم فيها أجمعين كأنهم
 بباب قدّيس والمكرت عسير
 يمار جناحي طائر فيطير
 دلفنا لاخرى كالجبال تسير
 جمال بأجمال لمن زفير

فكتب سعد الى عمر رضي الله عنه بما قال لهما وما ردّا عليه
 وبالقصيدتين فكتب اليه ان أعطهما على بلائهما . فاعطى كل واحد منهما
 النفي درهم

﴿ اعتراله الفتنة ﴾

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلي وطليحة ومعاوية والزبير التي تحزب فيها
 المسلمون احزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها
 عقل الحكيم حائرا بين الاقدام على خوض عباها واستكناه كنه خباياها
 وبين الاحجام عنها والتقاء اخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى في
 ثناياها . لالا انها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلاً
 ان قيام الدرل واستصفاء الملك انما يتم بوجود احزاب ينصرون للنزاع
 الى الملك واعوان يتبعون القوّة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم
 وعصر . وانما صبغ الساف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث
 بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لجرى السنن الطبيعية في
 الدول اذ ما دامت شؤون البشر لاتستقيم الا بالوازع والمجتمعات لا تقوم
 الا بحاكم يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها بالخلاف على رئاسة
 الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه

في كل أمة وجبل وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الاشياء كما سنفيض في هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة وانما اجترأنا عنه بهذه المقدمة تمهيداً لما سيدلوه من الكلام في غير هذا المحل ان شاء الله رأى سعد بن أبي وقاص ان الامة انقسمت في أمر الخلافة الى أحزاب كل حزب يرى ان صاحبه على حق ، وانه بالخلافة أحق ، وان الامر لا ينقضي إلا بالمعالبة بين النفر المتطلبين الى الخلافة وهذا يجر الى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب وان فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوب ملوم فيها وليس في طوقه رتق فتق فتقه الطموح الى الخلافة وسد ثلثة اندفع منها تيار الامة فلم يسعه إلا اعتزال الفتنة والبعث عن مواقف الحرب حتى يجلي الغبار وتنتهي الامور الى حدها ، ويود السيف الى غمده ، فاعتزل خارج المدينة وأمر أن لا يخبروه بشيء حتى يجتمع الناس على امام واعلم ان سعداً من الحقيقيين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر وقد كان له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأبأها لاعتن ضعف بل عن حب للسلامة وتجنب للانغماس في الدماء بذلك عليه ان ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا ان يدعوا الى نفسه وقال له ابن أخيه ان مائة ألف سيف تريده على الخلافة فأبى

روى ابن عساکر عن بعض أهل العلم ان هاشم قال له : ان ههنا مائة ألف سيف يرونك انك أحق الناس بهذا الامر : فقال أزيد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً اذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً واذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده الى علي بن أبي طالب فكان في أصحابه وقاتل معه

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد انه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال : أي بني أفي الفتنة تأمرني ان أكون رأساً لا والله حتى أعطي سيفاً ان ضربت به مسلماً نبأ عنه وان ضربت به كافراً قتله وانما يريد بهذا انه يعلم ان التقاتلين جميعهم من أهل الاسلام وان له من صدق ايمان الجميع الظاهر وليس له ان يعلم السرائر ليقاتل الباغي بسيفه فاذا قتله فلا يأثم ولا يلام

ولما اشتد الامر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعانى من شيعته ما عاناه من أعدائه قام على منبر الكوفة فقال : قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتهموني : فقام اليه فتى آدم فقال : انك والله ما نهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا فلما كان منها ما تكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقل علي . وما أنت ومذا قبحك الله والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلاً فلما ظهرت الفتنة نجحت فيها نجوم قرن الماعز : ثم التفت الى الناس فقال يغبط سعداً وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة : لله منزل نزله سعد وابن عمر ائذ كان ذنباً انه لصنير مغفور ، وان كان حسناً انه لعظيم مشكور ، (أخرجه ابن عساکر)

وأما معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسامة وكاتبهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض ، وكان كتب الى سعد بن أبي وقاص ما صورته :

سلام عليك أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طاححة والزبير وهما شريكك في الامر ونظيرك في الاسلام وخفت لذلك أم المؤمنين

فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا وانما تريد ان نردها شوري بين المسلمين والسلام :

فأجابه سعد بما صورته :

أما بعد فإنَّ عمر لم يدخل في الشورى الا من تحمل له الخلافه فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه الا باجتماعنا عليه غير ان علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو باقصى المن . وهذا الامر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . وأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيرا لهما . والله يغفر لام المؤمنين ما أتت : وفي هذا الجواب من اعتدال الالهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين ما يعرف منه اجتماعه عن سوء الظن بأحد منهم وتبرأه بتاتا من أمرهم . وروي انه كتب اليه آيات شعر ولعلها كانت جوابا لكتاب آخر كتبه اليه وهي

معاوي دواؤك المدا العياء	وليس لما تجي به دواء
أيدعوني أبو حسن تلي	فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيراً	تميز به العداوة والولاء
أتطمع في الذي أعيا علياً	على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خيرٌ منك حيّاً	وميتاً أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الايات ان قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما لكنه رأى الحياد أسلم فلزمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال : ما بكيت من الدهر الا ثلاثة أيام يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويوم قتل عثمان . واليوم ابكي على الحق فعلى الحق السلام : رواه ابن عساکر

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال له أين كنت في هذا الامر؟ فقال: انما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسرون فاصابتهم ظلمة فقالوا: أخ أخ: فقال معاوية ما في كتاب الله: أخ أخ: ولكن في كتاب الله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأضلّوا بينهما فان بعت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » فبايعه سعد وما سألته شيئاً الا أعطاه (أخرجه ابن عساکر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر وربما جاء معنا في غير هذا المحل ان شاء الله

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال له: السلام عليك أيها الملك: فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت: يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جزلان ضاحكا والله ما أحب اني وليتها بما وليتها به: يريد انه ولبها بالسيف لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له « أيها الملك » استخفافا بشأن الملك وتعظيماً للخلافة التي ذهبت مع الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

﴿ باب ﴾

وفاته وصفته وولده

اجمع أهل الاخبار على ان سعدا رضي الله عنه اعتزل بعد الفتنة في منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ولما حضرته الوفاة دعا بخاق جبة له من صوف فقال: كفنوني فيها لاني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي وانما كنت أخبأها لهذا:

ولما مات حمل من العقيق على أعناق الرجال حتى أتى به المسجد
فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان
ابن الحكم وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين. وكان يوم مات
ابن بضع وسبعين سنة على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة
وأما على قول من قال انه أسلم ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته
ابن ثلاث وثمانين سنة. وهو آخر العشرة الكرام موتاً
وترك سعد ثروة حسنة لانه كان غنياً. قيل انه ترك مائتين وخمسين
الف درهم: وعن بنته عائشة انه أرسل مرة الى مروان بن الحكم بركة عين
ماله خمسة آلاف درهم

﴿ صفته ﴾

قال الواقدي قالت عائشة بنت سعد كان أبي رجلاً قصيراً دحداً
غليظاً ذا هامة شثن الاصابع^(١)

﴿ ولده ﴾

قال ابن قتيبة. ولد سعد عمر: ومحمد: وعامر: وموسى: ومصعب:
وعائشة: وغيرهم: فأما عمر فقتله المختار بن عبيد لانه كان أميراً على الجيش
الذي حارب الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتله: وأما محمد فخرج مع
الاشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً: وأما عامر فكان يروي عنه
الحديث ومات سنة أربع ومائة: وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث
ومائة وقد روي عنه الحديث: ومن أعقب من أولاده عمر: ومحمد: وموسى

(١) قولها دحداً أي قصيراً وقولها شثن الاصابع أي خشنها

انتهى ما أردنا إيرادَه من سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
 ويليهِ عمرو بن العاص وهو آخر من نذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال
 في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

—•••••—
 ✻ عمرو بن العاص ✻

✻ باب ✻

(حاله في الجاهلية)

— نسبه وأصله —

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو
 ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي وكنيته
 أبو عبد الله وقيل: أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عتره (وقيل عنزة)
 وأخوه لامه عمرو بن أنانة العدوي. وعمته بن نافع بن عبد قيس الفهري:
 وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال: سألني بنت حرملة تلقب
 النابغة من بني عتره أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكية
 بن المغيرة. ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان. ثم صارت إلى العاص
 بن وائل فولدت له فأنجبت فان كان جعل لك شيء نخذه^(١)

✻ صناعته ومكانته في قومه ✻

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا في صدر الجزء الأول جزاراً ثم كان
 يختلف بالتجارة إلى الشام ومصر ويقال إن سبب توجه فكره لفتح مصر
 هو ذهابه مرة إلى الإسكندرية وعامه بغنى البلاد وثورتها وأما مكانته عند

(١) كان عمرو بن العاص يعير بأمه لأنها كانت سبية لهذا قال للسائل ما قال

قومه فقد كانت عالية لشهرته بالدهاء، والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب في الجاهلية وقالوا ان دهاتهم في الاسلام عمرو بن العاص . والمغيرة ابن شعبة . وقيس بن سعد بن عبادة . وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتي فيما يلي من سيرته ان شاء الله

— باب —

﴿ اسلامه وصحبه ﴾

(اسلامه)

تأخر اسلام عمرو بن العاص الى ما قبل فتح مكة بستة أشهر أي سنة ثمان من الهجرة وأما سبب اسلامه فان قريشا أرسلته الى النجاشي في طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المساميين الذين هاجروا الى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له يا عمرو؛ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله انه لرسول الله حقاً؟ قال : انت تقول ذلك : قال أي والله فأطمني ففرج من عنده مهاجراً الى انبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساکر في تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي (ص) وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشي يكيد أصحاب رسول الله عنده وكانت له منه ناحية فقال له : يا عمرو تكلمني في رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران قال : وكذلك هو أيها الملك؟ قال نعم : قال فأنا أباعك له . فبايحه له على الاسلام ثم قدم مكة فلقني خالد بن الوليد فقال : ما رأيك قد استقام اليهم والرجل نبي : قال خالد : وأنا أريد (وتدكان

خالد بن الوليد (أهبة المهاجرة اليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : نخرجوا فقدموا على النبي (ص) قال محمد بن سلام قال ابان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لاستدبر أمرهما فبايعا على ان لهما ما تقدم من ذنوبهما . فاضمرت على ان أبايعه على ما تقدم وما تأخر فلما أخذت بيده بايعته على ما تقدم ونسيت ما تأخر

وفي رواية له أيضاً عن الحافظ أبي نعيم ان أصحاب عمرو لما بلغهم اسلامه أخذوه فغموه فاقلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي اسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله وردده عليه :

وبالجملة فان عمرو بن العاص أسلم بعد طول اناة وبعد ان تحققت لديه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع الى الاسلام بعد اذ ظهرت كلمة أصحابه ظهوراً لا يخفى على من له قلب او لقي السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » رواه ابن عساکر في تاريخه

واعلم انما أبطأ بعمر وواضرا به من قريش عن الاسلام التقليد والاستمسك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة في النفوس لا ينزعها الا أحد أمرين اما طول المعالجة والصبر ، واما القوة والقهر ، وهي ملكة من أقيح المالكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفوس فلا تصل اليه الا بعد عناء شديد ، واحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذي تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام وانما أبطأ بهم عن قبول

الاسلام تسلط العوائد واستحكام ملة التقليد يدلك عليه ما رواه ابن
 عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمر بن العاص ما أبطأ بك عن
 الاسلام وأنت أنت في عقلك : فقال أنا كنا في قوم لهم علينا تقدم
 وبين توازن حلومهم الجبال ما سلكوا جثاً فتبعناهم الا وجدناه سهلاً فلما
 أنكروا على النبي (ص) أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما
 ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا في امر النبي (ص) وتدبرنا فاذا الامر بين
 فوقع في قايي الاسلام فعرفت قریش ذلك في ابطأني عما كنت أسرع
 فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا اليّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله ان القوم
 قد ظنوا بك الميل الى محمد : فقلت له : يا ابن اخي ان كنت تحب ان
 تعلم ما عندي فوعدك الظل من حرا : فالتقينا هناك فقلت اني انشدك
 الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدي أم فارس
 والروم : قال اللهم بك نحن : فتمت أفنحن أوسع معاشاً وأعظم ملة أم
 فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعننا فضلنا عليهم في
 الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع
 في نفسي ان ما يقول محمد من البعث حق ليجزي المحسن في الآخرة
 باحسانه والمسيء باسائه . هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في
 التماذي في الباطل : وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه
 قال : قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص : لقد عجبك لك في ذهنك
 وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاوين : فقال له عمرو وما أعجبك
 يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستقر التخلص منه الا الى ما أراد الذي
 هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحبه

ان عمرو بن العاص وان كان ممن تأخر اسلامهم الا انه كان حسن الصحبة محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد روي عنه انه قال ما عدل بي رسول الله وبخالد ابن الوليد أحداً من أصحابه في حربته منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقتهم باسلامهما وكفائتهما في أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم في مصر والشام بعد وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك في غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها في سيرة أبي عبيدة لما نازعه ثمة على الامارة . وقد اظهر في هذه الغزوة من الكفاة وحسن المكيدة ما حمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى ابن عساكر عن اسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن العاص ان رسول الله بعثه الى ذات السلاسل فسأله أصحابه ان يأذن لهم ان يوقدوا النار ليلالبرد أصحابهم فمنعهم . فكلموا أبا بكر ان يكلمه في ذلك فاتاه . فقال لابي بكر لا يوقد أحد منهم ناراً الا ألقىته فيها : فاقوا العدو فهزمهم فارادوا ان يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش الى رسول الله شكوه اليه فقال : يارسول الله اني كرهت ان آذن لهم ان يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قاتهم : وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم (أي للعدو) مدد فيمطفئوا عليهم : قال فاحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان والياً على الصدقة وان يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فأمنوا وكان الذي ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندي وكان الملك منهما جيفر فاسلمها وخليا

بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الاغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقياً هناك حتى أتاه نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبي بكر مختوماً وفيه : ان لا يحل عقلاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقلاً عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطربت نار الردة شخص الى المدينة ومرّ منصرفه من عمان بمسامة فدعاها الى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله انك لتعلم اني أعلم انك كذاب : ثم انصرف فربقرة بن هبيرة وقال له قرّة : ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالانابة : فأجابه جواباً يدل على بعد نظره وقوة جنانه اذ أظهر استهانتته بردة العرب وهدد قرّة بالحرب احتقاراً لشأن العرب واظهاراً للجلد الذي هو أنفع شيء للمسلمين في مثل موقفهم ذلك وقد مرّ الخبر عن ذلك في سيرة أبي بكر رضي الله عنه

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعاً في اسلامه وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكذاب وسترى فيما يلي ان شاء الله : إلا أنه عيب عليه دخوله في غمار الفتنة العظمى وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي في محله ان شاء الله



— باب —

﴿ حروبه وفتوحاته ﴾

﴿ فتح مصر وبرقة ﴾

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية والفتح الذي فتحه في فلسطين لما كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ثمّة فلم نر حاجة لاعادة ذكر ذلك وانما أتى هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب لانفراد هذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم ما أثر ذلك الرجل الكبير في الاسلام فنقول

كان عمرو بن العاص محباً للإمامة طامحاً للعلاذانفس عالية لا ترضى بالحقير من الاعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات يدلك عليه اقدامه على دخول مصر بجيش قليل وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (ان عمراً لجري الجنان وفيه اقدام وحب للإمامة فأخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيمرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والإمامة أو في دخوله غمار الفتنة علم انه رجل فذقل ان تجب بمثله الامهات لولا طمع فيه ربما أخذ أحياناً عليه . على انه لم يكن طمعه في دنيا الامور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأي قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدويج ملك الفراعنة بجيش يقل عن الاربعة آلاف مقاتل يريد ان يقهر به أمة كان يربو عددها عن العشرة ملايين وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف مامعه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها

ان الذي اطمع عمراً بمصر ذهابه اليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات ارضها ولكن اقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام ان دولة الروم دالت وقواها خارت وان الله موف وعده للمسلمين قلوأ أو كثروا وان جدة الدين والدولة ونزوع العرب الى الفتح وتكاتفهم على اعلاء شأن الاسلام فرصة لا ينبغي للعامل تركها واستتمهاك عزيزة النفس في انهازها فافتحهم البلاد اقتحام الوثائق بالنصر العارف بأساليب الحرب المعتمد على كفاءة جنود المسلمين الواقف على شؤون البلاد فافتتحها من أدناها الى أقصاها ورفع اعلام الاسلام على ربوعها فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر

قلنا فيما سبق ان سبب رغبة عمرو في فتح مصر هو دخوله اليها في الجاهلية ووقوفه من أحوالها على ما يجب . وقد نقل القريري عن ابن عبد الحكم في سبب دخوله عمرو الى مصر ما خلاصته ان عمراً قدم الى بيت المقدس لتجارة في نفر من قریش فاذا هم بثماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح . وكان عمرو يرى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم ، فبينما عمرو يرى ابله اذ مرَّ به ذلك الشمس وقد اصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاها فسقاها عمرو من قربته له فشرب حتى روي ونام الشمس مكانه وكانت الى جنب الشمس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو وفتزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشمس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمر : ما هذه؟

فاخبره عمرو انه ربماها فقتلها . فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد احياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية : وسأله عما اقدمه هذه البلاد فاخبره انه قدم مع أصحابه للتجارة فرغب اليه ان يصحبه الى الاسكندرية ليكافئه على عمله فأبى وما زال به حتى قبل ان يصحبه الى الاسكندرية بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعده معه وانطلق الى اصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظروني ولكم علي ان اشاطركم على النصف مما أخذ : وأخذ منهم معه واحدا يأنس به فانطلق عمرو وصاحبه مع الشمس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه . ومضى الى الاسكندرية فنظر الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيداً عظيماً يجمع فيه اشrafهم في ملعب مشهور ولهم كرة من ذهب يترامون بها فن وقعت في كفة لم يمت حتى يملكهم وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ما وصفها فيه من مضى منهم وكان الشمس ألبس عمراً ثوب ديباج واجلسه مع القوم في ذلك المجلس حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كفة عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أن ترى هذا الاعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون ابداً : ثم ان الشمس وفي بـمـا وعد عمراً وجمع له من أهل المدينة الف دينار وأصبحه برسوم ودليل فانطلق عمرو الى اصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو الى مصر في الجاهلية وسواء

صححت هذه الحكاية او لم تصح فانه ليس فيها شيء من الغرابة الا قولهم

عن السكرة ان القوم اختبروا أمرها واعتقدوا ان من وقعت في كفة هذه السكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل أو ان بعض الامارات التي يتناوبها الاشراف كما مارة الجيش مثلا كانت لا تعطى إلا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخوا الحرب في النقل: وبالجملة فالذي أثار في نفس عمرو الرغبة في فتح مصر هو ما سبق له من دخولها والوقوف على أحوالها وأحوال أهلها يضاف اليه ما عرّض في نفسه من حب الامارة والاقدام على جلائل الامور كما قال عنه عثمان رضي الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر في سيرة عمر بن الخطاب (رض) عن كيفية مسير عمرو الى مصر وكان أول موضع قوتل فيه الفرما^(١) قاتلته الروم قتالا شديدا نحو من شهر ثم فتح الله عليه: وقيل انه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون الروم دولة وانّ ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمر وأعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمر وعلى فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة جدا. وفي رواية ان فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتديس ثم تقدم عمرو ولا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها

(١) اختلف المؤرخون في موقع الفرما فمنهم من قال انها كانت على البحر الرومي ومنهم من قال انها على بحيرة تديس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه والمرجح انها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقرئ عن يحيى بن عثمان قال كنت أرابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله. ويظهر من رواية ابن خرداذبة في الممالك والمسالك ان بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط اربعة وعشرون ميلا

حصاراشديدا ونقل المقريني عن الواقدي ان المقوقس زوج ابنته ارماتوسه من قسطنطين ابن هرقل وجوزها بأموالها وحشمها التسير اليه حتى يني عليها في مدينة قيسارية (من سورية) فخرجت الى بليس وأقامت بها وأرسل أبوها جنداً الى حدود الشام كي لا يتركوا أحداً من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل العرب في قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بليس حاصرها حصارا شديداً وقتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهمز من بقي الى المقوقس وأخذت ارماتوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بليس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس ابن أبي العاص السهجي فسر بقدمها . وكان هذا العمل من عمرو وعملا جميلا يدل على حسن سياسة وبعد نظر

ثم ان عمراً سار من بليس الى بابل أو باب ليون وهو حصن كان بناه الفرس أيام تملكهم لمصر وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة أو اللفسطاط ويقابله على الضفة الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الاعيرج وكان المقوقس على الحامية أيضاً وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فمنهم من قال الاعيرج ومنهم من قال الارطوبون ومنهم من قال المقوقس ومنهم من قال ان المقوقس كان في الاسكندرية كما اختلفوا في أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري والذي ظهر لي ان الاعيرج والارطوبون قائدان لان احدهما وهو الارطوبون كان على جيوش الروم

في بيت المقدس وفرا الى مصر لما اخذها المسلمون

وأما المقوقس فهو اير مصر بلا ريب من قبل الروم وكان قصدي استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جلية امره لكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب انجليزي الفه حديثاً احد علماء الانجيز وهو الدكتور بطر في تحقيق من هو المقوقس اغنانا عن معاناة البحث وخلاصة حكم المؤلف في هذا الكتاب على ما جاء في المقتطف ان المقوقس كان واليا و بطريركا على مصر من قبل الامبراطور هرقل وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذا لا يكون الا لمن بيده قوة السلطة الدينية على ان القرائن التي تحتف اخبار المقوقس مع القبط ومخبراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريركا نافذ الكلمة في القبط . وكلمة صاحب القبط التي جاءت في تواريخ العرب ومخبرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعودته وقومه الى الاسلام كافية لتأييد ما ذهب اليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لا يخلو من فائدة فايراجمه من احب

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم ولما ابطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمده بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم رجل مقام الالف : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد . وقيل ان الرابع كان خارجة ابن حذافة وكان عمرو يومئذ في عدة قليلة فكان يفرق اصحابه ليرى العدو انهم اكثر مما هم وقيل ان الزبير جاءه بائني عشر الف مقاتل : ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم اقبلا

يزيران فلم يلبث الزبيران ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر اخذه وابطأ الفتح وكان الزبير رضي الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : اني اهب نفسي لله ارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما على جانب الحصن ثم صعد فامرهم اذا سمعوا تكبيرة ان يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهام عمرو خوفا من ان ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم ان العرب اقتحموهم جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط الى الجزيرة (أي جزيرة الروضة) على مراكب أعدوا لذلك وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه كما رأيت لهذا ينكر بعضهم الفضل لعرو بن العاص في فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر لان فتح البلاد كلها انما كان بحسن قيادة عمرو ودرسته ولم يكن عمرو بأقل شجاعة من الزبير أيضا رضي الله عنهما وعن كل رجال الفتح فان لكل منهم فضيلة في عمل وخدمة جليلة للاسلام

رأى المفوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم وعلى انهم لا يزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير اليهم البلاد فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث الى عمرو يقول : انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والحجتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصابة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهازا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل (وكان

الوقت وقت الفيضان) وانما اتم أسارى في أيدينا فابعثوا الينا رجلاً منكم
نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على ما نحب وتجبون
وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تنشأكم جموع الروم

ولما أتت الرسل الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال
المسلمين ثم ردهم وأرسل معهم للمقوقس يقول :

انه ليس بيننا وبينكم إلا احدى خصال ثلاث اما ان دخلتم في
الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أيتتم . فالجزية وأما جاهدناكم
بالتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين

علمنا ان عمرأ حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم
عنه لعلمه ان سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم واتعاضهم
وتسليمهم بالأيدي للمسلمين وقد أصاب عمرو بهذا الامر الرمى ولم يخطئ
في الظن اذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة . والتواضع أحب الى
أحدهم من الرفعة . ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جاورهم
على التراب . وأكلهم على ركبهم . وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم
من وضيعهم . ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف
عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » :

هذه الاخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من أقدار القوم
وملأت منهم قلوب الاعداء وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصده
فكانت الشعوب لا تلبث ان ترى سيرتهم وتسمع بأخلاقهم فتمطيهم أيدي

الطاعة وتترك اليهم مقاليد الامور توخيًا للسلامة ورضى بسيادة قوم ذلك حالهم وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لو ان هؤلاء استقبلوا الجبال لازلوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحتهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقروا على الخروج من موضعهم . ثم أرسل الى عمرو ان يبعث اليه من يكلمه بشأن الصلح فبعث عبادة بن الصامت : وقيل بل طاب منه الاجتماع به وكان مما بعث به اليه قوله :

اني لم ازل حريصًا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت اليّ بها . فأبى ذلك من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي ان أفئات عليهم وقد عرفوا نصحي لهم وحي صلاحهم ورجعوا الى قولي فاعطني أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك جميعا وان أبيتهم رجعنا الى ما كنا عليه :

فاستشار عمرو أصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بان لا يجيبه الى الصلح وكان عمرو ينزع اليه ويعرف فائده فأخبرهم بمهد عمر اليه في ان من أجبه الى خصلة من الثلاث يصلح له : ثم اجتمع عمرو بالمقوقس واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شربهم ووضعهم من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصنير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر

من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها فشرط ذلك كلاء على القبط خاصة . وأحصوا عدة القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم بالايان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت قريضتهم يومئذ اثني عشر ألف دينار « اثني عشر مليون »

هكذا نقل المقرئزي رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية في سياق خبر الصلح مع المقوقس وفي هذا نظر لا يخفى على بصير اذ أن الذي يظهر من سياق الاخبار ان صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين لان من البلاد ما أخذ عنوة بمد عقد الصلح . وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل ان يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين مع ان البالغين الحالم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم ان يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليون . وهو بعيد عن الصواب . لا سيما وقد جاء في بعض الروايات ان جزية مصر وخراجها مبالغاً على عهد عمرو بن العاص التي ألف دينار « مليوني دينار » . ومنها ما رواه البلاذري في فتوح البلدان عن يزيد بن أبي حبيب قال : جى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها اثني ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح « في خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمر و : ان اللماح بمصر بعدك قد درت البانها : قال : ذلك لانكم أنجفتموها :

والفرق بين هذه الرواية والرواية الاولى عظيم كما ترى على انه جاء

في بعض الروايات أيضا ان الذي جباه عمرو هو اثني عشر مليوناً والذي جباه ابن أبي سرح أربعة عشر مليوناً . وكما يضطرب الفكر في مقدار تلك الجزبة يضطرب أيضا في قولهم ان الصالح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط في أسفل مصر وأعلاها وأحصوا بالايان المؤكدة مع ان هذا منقوض بالبداهة التي تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقرئ في فتح الاسكندرية . ان عمرو بن العاص انما صالح المقوقس لما فتح الاسكندرية وهكذا قل الطبري وابن خلدون وهو الاقرب للتوفيق بين تلك الروايات اذ ما نخل وقوع هذا الاحصاء سواء صح عدد أولم يصح الآ بعد فتح الاسكندرية وبقية البلاد واجراء الجميع مجرى الصالح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب في انه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم وروى البلاذري ان قري من مصر قانت فرقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة : وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج الى تمحيص وربما ننود اليه في الكلام على حالة مصر الاجتماعية ان شاء الله ^(١)

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ماتاهدا عليه شرط المقوقس للروم على ان يُخَيَّرَوا بين الرضى بما رضى به القبط . وبين اللحاق ببلاد الروم . وكتب

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذي أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطة في باب أخباره فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس في كتاب العهد على أهل مصر ان يعطوا الجزبة اذا اجتمعوا على هذا العهد أي اذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح : وبهذا انحل الاشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بمد الفتح ومن ثم كان الاحصاء

المقوقس الى ملك الروم بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين وكتب بنثل ذلك الى قواد الروم في الاسكندرية وغيرها فاعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم الى الاسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس ييده ويد القبط للمسلمين مع انه يوناني الاصل وأكثر الروم وتميئذ أبوا ان يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين في كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بهمهم لاتمام فتح البلاد

والذي يظهر للتأمل في أخبار فتح بابليون ان نظام الدفاع في البلاد المصرية كان مختلفاً جداً اذ ان عمرو بن العاص كان قليل الجند ولا يسمه نرك عامية من جنده في البلاد التي افتتحها في دخوله الى مصر لاحتفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام فهو بالضرورة جاء بكل جيشه الى بابليون واصبح في قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك في سورية لانكفأوا عليه من اطراف البلاد وحاصروه في مستقره حصاراً لا مناص له بعده من الموت أو التسليم واعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس وكان عمال الاطراف كل واحد منهم مستبداً على الآخر بعد أسباب الحيلة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الامر من أهم الاسباب التي دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والامان للقبط كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضاً - منها نفور القبط من ساطة الكنييسة الشرقية وتأفهمهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحق المقوقس من علوش أن المسلمين واستحالة

النخلص من الرضوخ لسيادتهم بعد ان درخوا الشام وازعجوا دولة الروم وقهروا الامبراطور هرقل وكسرى يزدجرد يدلك على هذا اجتهاد المقوقس في منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم في سورية خوفاً من ان يفت ذلك في عضدهم ويدخل الوهن والفرع على نفوسهم ومنها وهو الاهم تواتر الاخبار عن حسن سيرة المسلمين في البلاد التي افةتجوها واطلاقهم لاهلها حرية الفكر والدين وعدم مسهم بشي من الاذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك في هذا الكتاب وهذا مادعا البطريرك بنيامين الى ممالأة عمرو وتحريره القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ومحتمل أيضا ان تكون مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لانه من أصل مصري وكان ميالا للاستقلال منذ دخول الفرس الى مصر كما يقول جبون لو لم يوهن هذا الرأي اجماع أكثر المؤرخين على انه من أصل يوناني وجبون يقول انه كان من أشرف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على ان الدكتور بطريرى ان نفوذه على القبط انما كان كبيراً لانه كان والياً وبتريكاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم لما بعث الامبراطور الى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده وأعلمهم انه لم يصالح المسلمين الا صوتاً لمصلحة البلاد بسبب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة وما سبق لهم من قهر الامبراطور وجيوشه في سورية وما شاهده بنفسه من أخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم اني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه واني لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولي

ورأيي وتمنون لو كنتم أطعمتموني وذلك اني رأيت وعانيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة : ثم أقبل المقوفس الى عمرو فقال له : ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب اليّ والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقبتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطأني وقد تم صالح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصالح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال - لا نقض بالقبط وادخاني معهم وألزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلتي وكانهم على ما عاقبتك عليه فهم متمون لك على ما تحب، وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعدهم فينا وعبداً فانهم أهل ذلك لاني نصحتهم فالتفتشوني ونظرت اليهم فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت أن أمرهم أن يدفوني بحسر الاسكندرية : فأنتم عليه عمرو وبذلك وأجابه الى ما طلب على ان يضمّنوا له الجسرين وقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الاسكندرية فتم له ذلك وصارت القبط له أعواناً كما جاء في الحديث وأنت ترى ان هذا الكلام يوهم ان الصالح تم مع كل القبط في أعلا مصر وأسفلها مع ان عمرا تم بعد فتح بابلون فتح البلاد التي لم تذعن بالطاعة كما أشرنا اليه قبل فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على أمراء الروم بعدم التسليم والطاعة وبمجاربة المسلمين أم كان

الذين دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التي في البيا
واليك بقية أخبار الفتح فمحصها ان شئت

روى البلاذري ان عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد
ابن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها
مثل حكم الفسطاط . ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى ال
والاشمونين وأخيم والبشروقات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . و
عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودة
وبنا . وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال ور
مولاه صاحب سوق وردان بمصر الى سائر قرى أسفل الارض ف
مثل ذلك . فالتجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض
وذكر المقرئ ان الذي بعثه عمرو الى دمياط هو المقداد بن الا.

وان الذي بعثه الى الفيوم هو ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصديقي
أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان
دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاء المقداد
وقتل ابنه فانهزم وعاد الى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل
عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له
استغنى به أحد الأهداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهذا
العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد
لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع .
القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأي ان نعقد مع القوم صلحا لنا
الامن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوق.

هذه النصيحة ولا نذكران للحق نصيحة صادق عاقل وهي نافذة لو وجدت من الهاموك اذنا صاغية ولكنها لم تجد لانه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله وشرّ الاخلاق الحمق والتسرّع . وكان للرجل ابن عاقل أيضاً اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضاً اذا أصرّ على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للـ سور نخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ولما علم الهاموك بما وقع سقط في يده واستأمن للمقداد فتسلم المقداد البلد وجاءه شطا وأسلم ثم لكي يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج الى البرلس والدميرة وأشتم طناح فشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تيس^(١) وكان عليها رجل من العرب المنتصرة يقال له أبو ثور فبرز اليهم في نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهمزم أصحابه وامتلأ المسلمون بالبلد

قدمنا ان الامبراطور كتب الى من بالاسكندرية من الروم أن يأذنوا العرب بالحرب وبعث العدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر الحصار الذيل ليتمكن من الخروج ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الاسواق

(١) تيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة اميال منها وقد اطنب بذكرها المقرزي وذكر انه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة ، الا يوجد في بلد مصر وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداً ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تتحوج الى تفصيل ولا خياطة تباع قيمته ألف دينار ولم تزل تيس عامرة حتى خربها الملك الكامل في سنة أربع وعشرين وسبعمائة (مهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خراباً ولم يبق منها الا رسومها في وسط البحيرة

وأقاموا له الجسور وفيةً بالمعاهدة التي تمت بينهم وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستعدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح نخرج اليهم عمرو متوجهاً الى الاسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فتي فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالاً خفيفاً فهزمهم ومضى عمرو بمن معه حتى اتى جمع الروم بكرم شريك فاقتتلوا ثلاثة ايام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم اكدتافهم . ثم التقوا بالسكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوماً وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيرة فجاهه رسول آية يسأله عن جراحه فأشده :

أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي او تستريحي

ثم رجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو : هو ابني حتماً : وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة واتبعهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن . فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والملوفاة :

والذي أحسبه ان القبط انما ألجأهم الى الانحياز للمسلمين انهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الامبراطور هرقل خافوا ان يذنب منهم ومن المقوقس اذا هو ظفر بالمسلمين فكانوا عوناً لهؤلاء تخلصاً من سيادة الروم وتقادياً من الوقوع ثانية في شرك الامبراطور وان ينالهم منهم أذى على مما ألثمهم للمسلمين

اهتم الامبراطور هرقل لمهاجمة العرب للاسكندرية وحصارهم لها وخاف من تقاص ظل سلطانه عنها كما تقاص عن سورية فزم على الشخصوس

بنفسه الى الاسكندرية ويدينا هو يتجهز للسفر فاجأه المنون وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع انه توفي سنة (٦٤١ م) وهي توافق سنة (٢١ هـ) فعمل وفاته كانت في الحصار اثماني للاسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية واقتحموا الحصن نجاشت عليهم الروم وقتلهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقت عليهم الابواب وهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد واثان آخران فالتجأوا الى ديماس من حمايتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية ان يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومي هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غاب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وان غلب صاحبكم صاحبنا سيبيدكم الى أصحابكم . فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدهته فأراد عمرو ان يبارزه فزعمه مسلمة وقال ما هنا ؟ تخطي مرتين تشد من أصحابك وأنت أمير وانما قواهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ؟ مكالك ؟ ! وأنا كفيك ان شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك فر بما فرجها الله بك فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومي ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدري الروم ان أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرومي فاسمعه

عمرو وكلاماً يؤذيه فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم أخلاق مسلمة ما رأى استحيي عمرو منه وقال له استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له . وقال عمرو ما أخشت قط الا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة الا ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ووالله اني لارجوان لا أعود الى الرابعة

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو يلومه على الابطاء ويحذره من ان يحدث المسلمون في اخلاقهم ما يبغضونهم في الفتح ويأمره ان يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية وبقدم القواد الاربعة الذين ارسل له معهم المدد وهم الزبير والمقداد ومسامة وعبادة في صدر الجيش ويصدم بهم العدو صدمة واحدة : فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ما أمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك

وتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل الى الفسطاط فبلغه نكث الروم في الاسكندرية وقدم مراكب تحمل العدة والرجال وانهم قتلوا الحامية فماد الى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصرهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن بسامة طلب من عمرو ان يؤمنه على ارضه وماله ففعل ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو الى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب وارسل عمرو بنخبر الفتح الى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ثم كتب اليه يصف له حال المدينة وعمرانها وان المسلمين يطالبون

قسمتها بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بان يجعل الاسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عوناً لهم على عدوهم . ففعل وتحول عمرو من الاسكندرية الى القسطنطينية وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية وكان لا يغفلها ويكثف سرايطها خوفاً من الروم

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الاسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الاسكندرية وأما ما ذكره الافرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جيون فإنه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن يوتيوخوس المؤرخ القبطي ان العرب حاربوا على اسوار الاسكندرية كالاسود وانهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهراً وقتل ٢٣ الفا من المسلمين . على اننا لانسلم له بهذه الرواية لان جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ

— تحقيق الكلام في حريق مكتبة —

(الاسكندرية)

لفظ بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمرو بن العاص وأحرقها وهو خبر مختلف لا اصل له من الصحة واغرب ما فيه من الاغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته ان قالوا ان عمرو بن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الاربعة آلاف حمام التي ذكروا

انها كانت موجودة في الاسكندرية وانها كفتها ستة اشهر . فلوان ذلك الاخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لكل حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) بلغ عدد المجلدات التي احرقت ٧٢٠ مليون مجلد فأى مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب وأي عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي يتقض بعضه بعضاً على ان المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الاسلامي وان الذي بقي منها نقل بعضه امبراطرة الرومان الى القسطنطينية وما بقي احرقه الامبراطور تيودورس لما أمر بحرق الهياكل الوثنية في الاسكندرية وأيد هذا الرأي سديو في تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب

والذي يدل على اختلاق هذا الخبر انه لم يرد في تواريخ المتقدمين من اهل الاخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون أخبار الفتح وهي موجودة بين ايدينا الا تاريخ الكندي وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ومع ذلك فقد نقل عنهما المقرئ والسيوطي أخبار الفتح ولم يأت في تلك الاخبار ذكر لمكتبة الاسكندرية البتة . بل اغرب من ذلك ان يوتيوخوس الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة . وهذه كتب المحدثين التي احصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة وانما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج المطلي مع انه لم يرد في تاريخ احد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها . على ان الخبر على ما فيه من الزيادة والاغراق في الباطل الذي يكذب بعضه

بمضا قد صار عند علماء البحث مفروغا منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمر بن العاص وإنما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ أبي الفرج . وأنا زيادة في البيان ودفعاً للريبة نقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول

افرد جبون في تاريخه (سقوط الامبراطورية الرومانية) فصلاً مخصوصاً يبحث فيه عن حرق مكتبة الاسكندرية ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله: « بعد ما نُقل كتاب أبي الفرج الى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضياح كثير من العلم والادب فيها وأما أنا (يعني نفسه) فاني شديد الميل الى انكار الحقيقة والنتيجة: : يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر انه كان فيها شيء من العلم والادب وجاء في ذلك الفصل أيضاً قوله

والغريب ان هذه الرواية يكتبها رجل من أطراف مادي (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما يوتخوس الذي كتب تاريخ الاسكندرية في القرن السادس وجاء في ذلك الفصل أيضاً: ان تعاليم الاسلام تخالف هذه الرواية لأن تعاليمه ان الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لا يجوز احراقها وأما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فانه يجوز الانتفاع بها

ويقول في خاتمة ذلك الفصل: اذا كان ما أُحرق من هذه المكتبة في الحامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة

الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر:
 هذه خلاصة ماجاء في تاريخ جبون الا ان في حاشية هذا الفصل
 الذي كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عمرية (يعني
 في اروبا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ماجاء في تاريخ أبي الفرج وذكر
 من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادي وغيرها
 كما سترى بعد في الفصل الآتي المنقول عن رسالة شلي افندي النعماني
 أستاذ اللغة العربية في مدرسة على كده بالهند سابقاً وناظم مدرسة العلوم
 بحيدرآباد الدكن الآن

أف ذلك الفاضل رسالة باللغة الاوردية ترجمت الى الانكليزية في
 الرد على من قال بحرق تبرو لمكتبة الاسكندرية لا انا لم نظفر بتلك
 الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الضلال في سنتها الثانية
 قالت بعد مقدمة حسنة في تقر يظ الرسالة

وخلاصة ما أراد اثباته (يعني مؤلف الرسالة) ان أول من نسب حريق
 مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طيب
 يهودي اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) في ملاطية وكان ولده قد تنصر
 فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينوه أسقفا لمدينة
 جوبوا وهور في الحادية والعشرين من عمره وما زال يرتقي حتى لم يبق فوقه من
 الاكليريكية إلا منصب البطريرك ثم ألف تاريخاً في اللغة السريانية
 استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا
 التاريخ كتابا في العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه
 مسألة حريق الاسكندرية وتناقها عنه كتاب الافرنج الى هذه الغاية

حتى قام المؤرخ جيون الانكليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم) وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الأدلة عليه لأنه كتب بعد فتح الاسكندرية بستماتة سنة ولم يذكره أحد قبل ذلك فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول . غير ان المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الافرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا ان هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج نقيط وانما ذكرها المقرئزي وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم ان ابن خلدون أيضا قد ذكرها قال الهلال ثم أخذ صديقتنا (أي مؤلف الرسالة) في تفنيده هذه الاسانيد فقال :

أما ابن خلدون فناربخ متداول بيننا وكل من اطع عليه يعلم ان لا ذكر لهذه الحادثة فيه على الاطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فانتبت أولا انها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة لان المقرئزي ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة . أما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وانما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يفهم بالوحي وخوفهم من تسلط العاوم الاجنبية على عقولهم كانوا (على ما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي بفتتجونها . فيظهر من ذلك ان عبارة حاجي خليفة لا تقيد ما أراده لانه انما يريد الاشارة الى عدم اعتناء العرب بالعلم والكي يؤيد قوله ألمع الى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى وهذا نص عبارته « وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها

وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسططاليس وشيعته من بعده وانه دار العلوم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن الاوص بأمر عمر رضي الله عنه، فيظهر من نص العبارة انه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخزافة تتداولها الالسنة فذكرها على علاتها على ان عبارته هذه بجمتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث ثم أعقب هذا بالادلة على عدم امكن احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الامراء المسلمين وأثبت أخيراً انها انما احترقت قبل الاسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على بافيها بطاركة الاسكندرية قبل الاسلام :

انتهى ما لخصه الهلال عن رسالة شبلي افندي النعماني واليك ما كتبه المرحوم على باشا مبارك في الخطط التوفيقية في شأن هذه المكتبة نقلاً عن مؤرخي الافرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السير ايوم « بناء قديم بالاسكندرية ومحل يعرف بعامود السواري » انه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحمة بالسرايات . ويؤيد ذلك ما ذكره وتروف حيث قال انه كان بمدينة الاسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجودة في معبد السير ايوم ولبعدها عن الميناء لم تصالها الحريقة التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندرايين قيصر . وقد قيل ان عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباتره أضيف اليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فأخذها انتوان معشوقها وأهداها اليها وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة

الاسكندرية غيرها وبمدان كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألقا بمعبد السرايوم ومن ذلك الحين اتسعت شهرته الى القرن الرابع من الميلاد ، ونقل أمير الفرنساوي ان هذا المعبد احترق مرتين مرة في زمن القيصر ماركوبل ومرة في زمن القيصر كومول . وفي خطط الفرنساوية ان إحراق السير ايوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والاهالي ثم بنى محل السير ايوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر اركاديوس المتولي تحت القيصرية بعد القيصر تيودوز الاكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية وهي التي ينسب حرقها الى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك اليه فان هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك الا في القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب الى أبي الفرج بطريق حاب مع انه لم يذكرها في تاريخه العام ^(١) وفي النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانديستيتو) أي

(١) قوله لم يذكرها في تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م فهذا المطبوع حقيقة لم نرفيه ذكرنا لمكتبة الاسكندرية مع ان شبلي أفندي النعماني قد ذكر ان الجملة اما جاءت في تاريخ مختصر الدول هذا ! وجبون قال انها جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هي ترجمة تاريخه السرياني أم تاريخه العربي المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الامر اما ان الطابع تبرئة لأبي الفرج والصاقا لهذا الخبر باسمين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه وأما أنها جاءت في تاريخه السرياني وانه هو الذي ترجم الى اللاتينية ونقل عنه الافرنج والذي يظهر هذه الحقيقة اني نظرت عند صديق لي من المشتغلين بالتاريخ بالنسخة السريانية الا انها مكتوبة بالخط الكلداني الذي تصعب قراءته

المجلس العالمي من ضمن ما قيل في جلسة أغسطس سنة ١٨٧٤ ميلادية ان بولص أورو ز من تلامذة ماري اجستان وماري جيروم لم يجد شيئا من الكتببخانة حين مروره بالاسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر ان القول بان إحراق كتببخانة اسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو ومحض افتراء اختلقه قسوس النصارى فانه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الاسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الالعصر الخالية قد تحتها أيدي النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم في حرقها وانحصار تحقيقهم في زمن وقوعه قبل الاسلام لانه كان كذلك ومن المستحيل ان يبقى في هذه المكتبة مع توالي الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه يد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام

✽ عود الى خبر الفتح ✽

أثم عمرو رضي الله عنه بفتح الاسكندرية فتح مصر وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الفسطاط بعد ان أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشد هم قياما على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين فلم يدرك المصريين في ولايته

على من لا يعرفه جيداً وقد كانت صديقي بقراءة الخبر على فتح الاسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الاسكندرية فبقى ان الذين طبعوا الكتاب هم الذين خذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التي يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون ويتقصون

ما أدركهم في ولاية غيره من الجهد وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما وامارتها اليه محببة حتى شبه يوم امارتها بالخلافة اذ روي عن ابن لهيعة انه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لاهل الدولة من الروم وبين الفريقين نفور شديد لتباين في المذاهب والاعتقاد أدى الى العداوة وهي العداوة المذهبية التي ابتلي به كل أرباب الاديان فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذي عانوه على عهد الدولة الرومانية وكان أول ما بدأ به بعد ان استقرت له الامور ان كتب امانا الى البطريك بنيامين بطريك الاسكندرية وردده الى كرسيه بعد ان تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الامبراطور هرقل اليها ففسر ذلك العمل البطريك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقرئ .

وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو وقد ذكر هذا الخبر أيضا جيون في تاريخه وقال ان البطريك بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص وبقدر عمله قدره .

ولا جرم ان وجود البطريك بعيدا عن كرسيه مدة ١٣ سنة ثم عوده اليه على عهد الحكومة الاسلامية يوجد في نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ونحن لانشك بانها اذا كان هناك يد لاحد بمساعدة عمرو على فتح مصر فانما هي لذلك البطريك يدلك عليه ما نقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم انه كان بالاسكندرية اسقف اسمه أبو ميامين كتب الى القبط يدايهم بقرب زوال ملك الروم

وياًمرهم بتأقي عمرو حتى كان قبض الفرما اعوانا لعمرو . وانما اشتبه على العرب الاسم فاخطأوا في نقل الحكاية والذي يظهر ان الذي كتب ما كتب هو البطريك بنيامين وانه كتب من منفاه في منف لا من الاسكندرية والقرائن كلها تدل على ان له يدا في مساعدة العرب وانهاض القبط لتعضيدهم فان جبون ذكر ان عمرأ لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليماقبة سرورا عظيما وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع انه قال ان أهل المذهب الملكي هو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان فهذا يدل على ان هذا الشركان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به وان قوما هذا شأنهم مع حكومتهم لجديرون بمالاة المسلمين لاسيما مع علمهم بان الحكم الاسلامي مؤسس على اطلاق حرية الاديان وان المسلمين لا يتعرضون لأهل البلاد المفتوحة في عوائدهم ودينهم بشيء البتة

وبالجملة فقد كانت امارة عمرو على مصر من أبرك الامارات وأرغبها للقبط وغيرهم ولم تقف به همته السماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة بل طمح الى ما هو أبعد غاية وهي بلاد المغرب ليبسط جناح الاسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٥٢١هـ) يحترق الصحراء حتى بلغ برقه فافتتحها وافتتح فرصتها بنغازي ثم طرابلس الغرب ولما عزم على التوجه منها الى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الاقصى جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رض) ينهاه فيه عن التفرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك في سيرة عمر فعاد مكرهاً بعد ان استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبه

ابن نافع الفهري القرشي الذي صار اليه بعد ذلك فتح المغرب
ولقد والله يحار عقل الحكيم في أقدام أولئك الفاتحين وجرأتهم
على التغفل والامعان في أقاصي الممالك بمدد دم القليل وعدتهم الضعيفة
حتى افتتحوا في ثلاثين سنة ما لم يفتحه غيرهم في أجيال ومهما بحث العاقل
عن علة هذا التوفيق الغريب لا يجده إلا حسن السيرة والسير مع الأمم
المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن في هذا لتبصرة وذكرى للعاقين

—•••••— باب

ولايته على مصر

أثاره فيها وأخباره مع عمرو وما كان من المكاتبات بينهما
فلنا ان عمرو بن العاص تحول الى الفسطاط بعد فتح الاسكندرية
وسبب تحوله انه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها
هم ان يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها : فكتب الى عمر بن الخطاب
يستاذه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم
يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل : فكتب الى عمر اني لأحب ان تنزل
بالمسلمين من لا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف : فتحول عمرو
الى الفسطاط ولم يكن فسطاط بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي
باليون الى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى : وقيل في تسميته
الفسطاط ان عمراً لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال الروم أمر بنزع
فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم : فأمر به
فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا :

أين نزل ؟ قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خنفة وقيل سمي
فسطاط عمرو أي مدينة عمرو : لان الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب
لما تحول عمرو الى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر
بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا
القطر لانه اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف^(١)
على الضفة الغربية فأصبحت حاضرة البلاد المصرية ولم تزل كذلك بعد
بناء القاهرة الى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولي على
الخطط (وهي الحارات) معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك بن سحبي
الغطيني ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المغافري ، فاخطوا
لكل قبيلة خطة . واخطوا مكان الجامع المعروف الى الآن بجامع عمرو
اذ كتب عمر الى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الامراء يأمرهم
ان يبنوا في كل مدينة مسجدا جامعاً ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجداً
وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين وجعلوا سقفه
مطاطاً جداً واتخذ عمرو فيه منبراً من أعواد فكتب اليه عمر يعزم عليه
في كسره ويقول . اما بحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت
عقبك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء
من أرض مصر إلا بهذا الجامع

ثم ان المسجد ضاق بالمصلين بعد في ولاية مسامة بن مخلد فاستأذن
معاوية في الزيادة فيه فأذله بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه .

(١) لا تقابلها تماماً بل منف كانت الى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة

وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشاً بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان في سنة تسع وسبعين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ولم يجد في شرقيه موضعاً يوسعها ثم هدم في زمان قره بك شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغيره وبدل وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والامراء بالاصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد وقل ساكنوا الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل الى الآن متروكاً ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان لكنه في حالة لا ترضى أبداً . ولو كان المصريون ممن يعينهم حفظ آثار الرجال لجملوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر أحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح

وأما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لما خطط في زمن عمرو فالكلام عليه يطول وهو مبسوط في كتاب الخطط للمقرئزي فايراجعه من أحب

ومن آثاره المشكورة في مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعدد بـخليج القاهرة الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند . والخليج قديم جداً قبل الاسلام الا انه طم وتعطل قبل الفتح فخفره عمر بن العاص وكان سبب خفره على ما نقل المقرئزي عن ابن الحكم بروايته عن الليث بن سعد قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة . فكتب الى عمرو ابن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي : سلام أما بعد
فأعمري يا عمرو وما تبالي اذا شجعت أنت ومن معك من اهلك أن أهلك
أنا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب اليه عمرو) من عبد الله عمر وبن العاص الى أمير المؤمنين.
أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها
عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فبعث اليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع
بعضها بعضا . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى كل أهل
بيت بالمدينة وما حولها بغيرا بما عليه من الطعام وبعث عبد الرحمن بن عوف
والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس فدفموا الى أهل
كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتمموا بلحمه ويحتدوا
بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره
فوسع الله بذلك على الناس فلما رأى ذلك عمر رضي الله عنه حمد الله وكتب
الى عمرو ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه . فقال
عمر يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد
أنتي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح
الله مصر وجمعها قوة لهم وجميع المسلمين ان أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل
في البحر فهو أسهل لما تريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حملة على
الظهر يبعد ولا تبلغ به ما تريد : فانطلق أنت وأصحابك فتشاروا في ذلك حتى
يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر . فقتل
ذلك عليهم وقالوا تخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر فترى ان تعظم

ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يمتدل ولا يكون ولا نجد اليه سبيلاً : فرجع عمرو وبذلك الى عمر فضحك عمر رضي الله عنه حين رآه وقال : والذي نفسي بيده (كأنني أنظر اليك يا عمرو والى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فتقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فترى ان تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يمتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلاً : فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الامر على ما ذكرت : فقال عمر (رض) اذ طاق بمزيمة مني حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ثم احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل الى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسحى خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم ضيمه الولاية بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم : انتهت رواية بن عبد الحكم

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت بطمه من بضع سنين وأصبح الجزء الذي يخرق القاهرة شارعا مد عليه خط الترامواي ودعي بخط الخليج

وجاء في سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى منها ما ذكره أبو الفداء ان عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذي يصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر ففتح خوفه

من وصول الروم الى البحر الاحمر ويقال ان خليج البرزخ هذا كان موجودا في عهد البطالسة وأن أثره كان باقيا لهدد عمرو بن العاص لهذا أشار على عمر بفتحها فكان رأي عمر ان لا يفتح ونعم ذلك الرأي فان فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق وفي الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذي يقال انه كان من قبل فايرجع اليه من أحب وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهي انهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل فكانت من عوائدهم التقيحة فيه ان يلقوا فيه كل سنة بنتا من الابدان بعد ان يزينوها بالحلي والحلل زعما منهم انه لا يفي لهم الا بهذه الضحية : ويقال ان الامبراطور قسطنطين ابطال هذه العادة في عصره لكن المصريين عادوا اليها بدليل ان مؤرخي العرب ذكروا انها كانت موجودة حين دخول عمرو بن العاص الى مصر فأبطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمرو بن الخطاب

وتحريب الخبر على ما نقله المقرئ عن ابن عبد الحكم ان عمراً لما فتح مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا له أيها الأمير ان ليلتنا هذا سنة لايجرى الآبها فقال لهم وما ذلك : قالوا انه اذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر فأرضينا أبوها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل : فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله :

فأقاموا بؤنة وأيب ومسرى وتوت وهو لايجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلد فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمرو بن الخطاب بذلك :

فكتب اليه عمران قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك بطاقة فأنفها في النيل اذا أتاك كتابي

فلما قدم الكتاب الى عمرو وفتح البطاقة فاذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر: أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فندأل الله الواحد القهار ان يجريك :) فأتى عمرو والبطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهبأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الآ النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر: (*)

وكان القبط يزعمون ان النيل لا يزيد إلا اذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ولهم تابوت يضعون فيه أصابعا من أصابع اسلافهم الموتى في اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه في النيل نأ بطل ذلك العيد الامير بيرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانفاس في الفجور ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن ان هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص: أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة: والذي أدركناه لهذا العهد ان البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين تاتي في البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى دروسة النيل وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية التي تسربت الى أرباب الاديان الالهية مع شدة تكبير هذه الاديان على أهل تلك العوائد

(*) في هذا الحكاية بحث ونظر راجع تحفة في الجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥)

ومن آثاره الجميلة مدة ولايته علي مصر توسيع الجباية بالعدل وقسمتها الى ثلاثة أقسام قسم لترميم الجسور وحفر الترع وما يلزم لعمران البلاد وقسم لاعطيات الجند والباقي يرسله الى الخليفة وقد كانت الجباية قبله علي عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقرئزي فجاها اثني عشر مليون كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها : فقال بمخصال - تحفر خاجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها ولا يقبل مظل أهله ويوفى لهم بالشروط وبدر الارزاق علي العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهله المعاون واهدايا فبذلك تمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية في السنين التي لا بني فيها النيل وربما كسرها وذلك للعهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان علي أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا يتقص ولا يساكنهم الذنوب : وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا علي هذا الصاح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه من جنى نصرتهم فان أبي أحد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا من أبي بريثة وان تقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والذنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبي واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطانا وعليهم ما عليهم اثنان في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : علي ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمهم

المؤمنين : وعلى النوبة الذين استجابوا كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ؛ شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان ٠٠٠٠ هـ فدخل اهل مصر في هذا الصاح جميعهم وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النبل في الزيادة والنقص وربما اضطر احيانا الى كسر الخراج فكان عمر يظن فيه الظنون ولما استبطأه مرة في الخراج كتب اليه ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بروجهم . وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم . فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لا تؤذي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب . وأتد أكثر في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر (فلة) ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك : فاذا أنت تأتيني بعمار يض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي : لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة . وان كنت مضيعاً نطمعاً إن الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان أثبتى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك

وتلفف اتخذوك كهفا . وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتُعطاه . فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجأج فانه قد برح الخفاء والسلام^(١)
فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص
سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو: أما بعد فقد بلغني كتاب
أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل
الفراغنة قبلي وإعجابها من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام
ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر . لانهم كانوا على
كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منّا مذ كان الاسلام . وذكرت
ان النهر يخرج الدر فلبتها حلبا قطع درها . وأكثر في كتابك وأثبتت
وعرّضت وتربت . وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبر فجتت
لعمري بالقطع المقدمات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول
رصين صارم بليغ صادق . ولقد عمانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن
بعده فكنا نحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق ائمتنا .
نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا .

(١) (تفسير الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب) قوله تأتيني بماريض تعباً
بها . المعارض هي التورية بالشيء عن الشيء وتعباً بها أي تظنها مما يعبا به أي يهتم له
وهي لا شيء عندي وقوله وان كنت مضيعا نظاما . النطق المتشدد بالكلام ، وقوله
ان ابتلى ذلك منك أي امتحن . وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد . وقوله الحق
أبلج أي مضى مشرق لا يخفيه التويه وما عنه تلجأج التلجأج التردد في الكلام .
وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف

معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم، والاجترأ على كل مأثم، فأمض
 عمالك فان الله قد زهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك
 الذي لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخوا ، والله يا ابن الخطاب لأنا
 حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما . وما عملت من
 عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولاكني حفظت ما لم تحفظ . ولو كنت من
 يهود يثرب ما زدت ، يفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت عالما بها .
 وكان اللسان بها مني ذلولا . ولكن الله عظيم من حقتك ما لا يجهل اه
 فكتب اليه عمر رضي الله عنه

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام اليك فاني أحمد
 اليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي
 اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بنيات الطرق وقد علمت اني
 لست أرضى منك إلا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن
 سياستك فاذا أتاك كتابي هـذا فاحمل الخراج فانما هو في المسلمين .
 وعندى ما قد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص
 سلام..... أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطني في الخراج
 ويزعم اني أحميد عن الحق وأنكث عن الطريق . واني والله ما أرغب
 عن صالح ما تعلم وان أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلهم فنظرت
 للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم
 فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام

فقبل ان عمر رضي الله عنه كتب اليه أن ابعث اليّ رجلاً قديماً من القبطة . فاستخبره عمر رضي الله عنه عن مصر وخارجها قبل الاسلام . فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملاك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريد لها إلا لعام واحد :
فمرف عمر ما قال القبطي وعلم منه جلية الامر فقبل من عمرو ما كان يمتدربه

ولا يتبادرن الى ذهن القارئ ان إلحاح عمر رضي الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به اجهاد القبط أو التوصل الى الخراج كيف ما كان الحال معاذ الله ان يخطر هذا لعمر بن الخطاب في بال وانما هو استبطاً الخراج مع عدم وقوفه على حاجة البلاد وعامه بطمع عمرو فكتب اليه ما كتب وإلا فانه رضي الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصاً على الرعية وقياماً على العمران ومحافظة على العهود خصوصاً مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم . واليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص يستوصيه بالقبط ويأمره بأن يأخذ من الخراج ما يحتاج اليه مما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه ويغطي الاعطيات لاربابها وما يفيض يرسله اليه وان لا يأخذ الخراج إلا من حقه وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا : كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

أما بعد فاني فرصت لمن قبلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا في المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه اليك والى البلدان . فانظر من فرصت له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته وهن نزل

بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيتني فرضت لاشباهه وخذ لنفسك مائتي دينار^(١). فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والانصار. ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك لأنك من عمال المسلمين فألحقتك بأرفع ذلك وقد علمت ان مؤثنا تلزمك فوفر الخراج وخذ من حقه ثم عفا عنه بعد جمعه فاذا حصل اليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج اليه مما لا بد منه. ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله اليّ واعلم ان ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح^(٢) وما فيها للمسلمين في: تبدأ بمن أثنى عنهم في ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ

(١) لعل هذا الفرض الذي فرضه لعمر وهو جريته (مرتبته) على عماله لا يفرض العطاء اذ ان عمر (رض) كان يجري على العمال جزية هي غير نصيبهم من العطاء فقد ذكر في سراج الملوك ان عمر أجرى على عمار في كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه لما بثه وبث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة: ومن هذا يعلم ان عماله كان لهم جريات على هذه النسبة وهي غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وانما نهينا على هذا الامر هنا لاهميته ولانه فاتنا ذكره والتنبيه اليه في سيرة عمر رضي الله عنه.

(٢) قوله ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح يدل على ان مصر فتحت صاها وان ما فتح عنوة أجرى بعد ذلك مجرى الصلح الذي دخل فيه كل القبط للعهد الذي أخذوه لهم المقوقس وهذا يؤيد ما جاء في كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وان عمر وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح

(أفضى) عنهم في أعمالهم ثم أقض ما فضل بعمد ذلك على من سمى الله
(أي في القرآن)

واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في
كتابه « واجعلنا المتقين اماماً » يريد ان يقتدى به . وان معك أهل
ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبض
فقال « استوصوا بالقبض خيراً فان لهم ذمة ورحماً » ورحمهم ان أم اسماعيل
منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته
فانا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو وان يكون رسول الله (ص) لك
خصماً فانه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة
وآنت من نفسي ضعفا وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله ان
يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لآخشى لو مات جمل بأقصى عملك
ضياعا ان أسأل عنه اه

لولم يكن لعمر إلا هذا الكتاب لكفاد فضيلة في نفسه وفضلا
على رعيته فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرد بالعدل وحسن السيرة
في الرعية ومضاء الفكر في السياسة وشدة الاخذ على أيدي العمال
واليقظة في الامور جليلها وحقيقتها فرضي الله عنه وجزاه عن المسلمين
خير الجزاء

﴿ كلمة ثانية في أهل الذمة ﴾

هذا الكتاب يمثل لما سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة وبين
شدته على العمال في منعهم عن ايذاء أهيل الكتاب اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم وعملا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعتل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أى قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن اتهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذى يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار ورواياتها عن مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار وتقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحتها من كاذبها وبدون تروى في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزى في ان عمر تقدم الى أحد عماله بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص^(١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل بن الجوزى كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو ادارى على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لا اتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضعاافاً الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخلط نقله صاحبها المقرئ عن ابن عبد الحكم بزيادة أحررها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب

(١) المراد بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من

الرصاص كما في بعض التواريخ

رضي الله عنه واذقنا بوهن الرواية الاولى في جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردتها المقرئزي قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه فكانت فريضة مصر لحفر خالجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً (أي من العمال) مهم الطور والساحي والاداة يمتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويمجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواشي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصى فيه عمرو بن العاص أهل الذمة هل تجذب يديهما التماماً بالوجهة ؟ أم يديهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران الامر الاول ان الشئون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضا الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيعون أحيانا على رجال الدولة وأهل المسكاة وربما تخرج منهم أحيانا بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصا لهم وحطاً من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وإبادة

لهم عن مناصب الدولة وانما أُلجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه نص في الشرع وهذا بلا ريب يعد من أوائلك الوضاعين تناهياً في ضعف الرأي لا سيما اذا علموا بأحوال أهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر ابن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالأخص الخلفاء من بني العباس الذين كان أكثرهم متفهماً في الدين واقفاً على أخبار السلف كالنصور والمهدي والرشيد والمأمون وأمثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لا سيما الاطباء والكتّاب بلا أدنى تخرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من محاسبة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين ومن وقف على أخبار ماسويه وحزين بن اسحق رأضراهما مع المأمون والمتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فكان القبط أرباب الحكمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقرئ يثولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارسة ويتصرفون بأهوال الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الانقلاب المضافة الى الدين للاطباء والكتّاب من النصراني واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البوري الكاتب النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرها ممن لم تحضرنى أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الاول وأما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فمنشأوه

نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مساعين وذميين بالضرائب ونكت

عهد هؤلاء القديمة ولما لم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتمميل الذي فوق ما حدده الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على مالهم من حقوق الذمة والجوار وأنهم أهل ذمة الله وذمة رسوله - مهدوا لاغراضهم السبيل بالايعاز الى بعض مقر بهم بوضع مثل ذلك اخبر مقدمة لاستباحة امتنانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ما حدث في عهد الروانيين من الاجترار على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما استراه مبسوطاً في محله ان شاء الله

على أن سيرة الصحابة ورجال الفتوح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتى انهم افتتحوها بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة ما لا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام^(١) وحسبك من أدهم مع أهل الذمة

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب اذنائهم بالقول أو بالفعل خصوصا عماله يدلك عليه ما ذكره في سراج الموك في حكاية طويلة لا محل لذكره هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن اشيائه ثم قال له عد الى عمالك فقال عمير انشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لا أسلم منه حتى قلت لذمي : أخزاك الله : ولقد خشيت ان يخصني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حجاج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي : فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصه رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لا شيء بالنسبة الى قول عمير لذمي : أخزاك الله : فالله انابراً اليك مما كذبه الوضعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم العقل

من الكتبايين أن ما روي عنهم من أخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثني العرب قبل الإسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط: مثلاً كأنهم زام الروم. وقاتل القبط ونحوه. يؤبد هذا كتب التاريخ التي نقلت إلينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فإنه نزر يسير وهو من حشو النساخ وأما كتب المتأخرين أو المقلدين فإن أصحابها لم يراعوا فيها مراعاة السلف من الأدب وحسن الأداء، لما قر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الإسلام لعلم أهل ذلك الصدر أن الإسلام جاء للتأليف والوئام، لا للتفريق بين الاقوام، وأن اختلاف الأديان لا يوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى «الكم دينكم ولي دين» ولأن القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى «ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى». ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» ولهذا سرّاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى «الم غلبت الروم» الآية فلترجع في محلها

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب إظهاراً لبراءة عمر (رض) مما عزي إليه وتنبهاً لاولى النهي من المسلمين الى أن دينهم يأمر بحاسنة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتبايين وأن مرض التعصب الذميم انما طرأت أعراضه على الأمة تدريجاً سيما

عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الالهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بمض الممالك الاسلامية ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الانسانيه ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام يبرآن الى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ولاكن ما للحياة والانسان مهترقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يجمل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء ، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء ، إذ كل امرئ مسؤول عن اعتقاده عند الله . وأنه سبحانه بين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها . ولكن : انها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور :

(عود لخبير عمرو)

لما تم لعمر بن العاص افتتاح مصر وكتب الى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب اليه كتابا يشكره فيه ويقول له أن صف لي حال مصر

فكتب اليه ما نصه

ورد اليّ كتاب أمير المؤمنين أطل الله بقاءه يسألني عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجنين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض إلا في صغار المراكب :

وخفاف القوارب. وزوارق كاشهن المخائل، أو ورق الاصائل، فاذا تكامل في زيادته نقص على عتبه كأول مابدأ في جريته، وطمي في رده، فمعد ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخقورة،^(١) يحرتون بطون الارض، ويبدرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لقيهم ماسعوا من كدهم، فناله عنهم بغير جدتهم، فاذا أحرق الزرع وأشرق سقاه النداء. وغذاه من تحت الثرى. فبينما مصر يا أمير المؤمنين أولؤة بيضاء، فاذا هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء، فاذا هي ديباجة زررقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويقر قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، ولا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال، على هذه الاحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق الى حسن الحال،

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأُنهي الى عمر بن الخطاب انه فشت لعمر و فاشية من خيل ومتاع، ونزعت نفسه الى الراحة والاستمتاع، وهيهات لئله ان يتم له ما أراد ويتقلب على وثير النعم وخليفته يعاني شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ويؤدب عماله بأدبه ويحماهم على طريقته تعففا عما بأيدي الناس، واكتفاءً بأجر الصبر والتماساً لرضا الله والرعية

روى البلاذري عن عبد الله بن المبارك قال: كان عمر بن الخطاب

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخقورة يدانك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من

الجور والاهانة في دولة الروم

يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب الى عمرو بن العاص « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر »

فكتب اليه عمرو « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نهيّب فضلا عن ما نحتاج اليه لنفقتنا »

فكتب اليه « اني قد خبرت من عمال السوء ما كفي . وكتابتك اليّ كتاب من أفلته الاخذ بالحق . وقد سوّت بك ظنا . وقد وجهت اليك محمد بن مسامة ليقاسمك . مالك فاطمه طلعةً واخرج اليه ما يطالبك . وأغفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء » فقاسمه ماله

لم يسمع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، الا الخضوع لما أمره به ومقاسمته بن مسامة ماله ذلك لانه يعلم منه الجذ في القول وقد قال له في كتابه « وأغفه من الغلظة عليك » فانه لو لم يقاسمه راضياً لقاسمه مكرهاً حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع له ماله ولا جنده . فله ما أعظم ذلك الرجل الكبير فعلاً . وأعلاه في النفوس مكانةً وما أهيبه في القلوب وأرهبه للعامل على ما عرف به من التواضع للرعية والرافة بفقراء الناس

وأخرج البلاذري أيضاً عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد ابن مسامة عمرو بن العاص قال عمرو : انّ زماناً عاملنا فيه بن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء لقد كان العاص يلبس الخبز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان بن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفت

معتقلاً دنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوك بكوثها^(١)

قال أنشدك الله ان لا تخبر عمر بقولي فان المجالس بالامانة : فقال

لا اذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمر و واشباههما ومن هم ؟ هم

أصحاب الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافوا جنود فارس والروم .

وانما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة وترك الادلال

بالفتح والتجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابغة

والفضل في فتوح الممالك والبلدان

فأين هذه السياسة الجميلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس

الامة لكامة سوء يتقرب بها وأحدهم اليهم أو بدعة شريرة عرضها عليهم

لا تنتج الممالك والبلدان ، ولا لمساخنة جيوش فارس والرومان ؛ وانما

تأذن الله بزوال أكثر دول الاسلام لحيدهم عن طريق الشرع في

سياسة الرعية واطلاقهم يد العمال في معاملة الامة بالعنف والتعسف

بالحكم جرماً لمناقهم الذاتية ، وتهاوناً بأموال الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا

أي منقلب ينقلبون »

هذا وما زال عمرو بن العاص أميراً على مصر حتى ولى الخلافة

عثمان رضي الله عنه فزاله وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت

ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها في زمن معاوية ولم تطل

مدة ولايته الثانية وتوفي فيها كما سنذكر ذلك بعد

(١) أي رابطاً بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسوك قلته يقال بكأت

الناقة والشاة اذا قل لها

هذا ما أحبيننا إirاده من الخبر عن فتح مصر وولاية عمرو رضي الله عنه عليها وبقي لنا كلام عن الحالة الاجتماعية في مصر رأينا من الصواب ان نرجئه الى سيرة محمد على باشا آخر من حكموا مصر من المشاهير ليكون الكلام مبتدئا من زمن عمرو ومنتهيا الى هذا العصر فيصير كالسلسلة المتصلة الحلقات آخذاً بمضه برقاب بعض في كل مايتاق بشؤون مصر العمرانية والسياسية والله الموفق والمعين .

— باب —

دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية

* وكلة في الفتنة *

(أخباره مع عثمان)

قبل الكلام على دخول عمرو في فتنة علي ومعاوية رأينا ان لانفعل ما نقلوه عن دخوله في فتنة عثمان بيانا للحق واستيفاء لاخباره ما كان له منها وما عليه

نقم المسلمون من عثمان رضي الله عنه أشياء ليس هذا محل بسط الكلام عليها وكان أهمها إيشاره ذوي قرابته على غيرهم من جلة الصحابة في توليتهم على الاطراف وتسليمهم ازمة الدولة بعد تتبع أمراء الاعمال الأول بالمزل وابعادهم عن مناصب الدولة وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الامارة عمرو بن العاص فنقم منه مع من نقم ولو انصف عمرو وكل من نقم من عثمان وانكر عليه تأمير ذوي قرباه ونظروا الى الظروف التي صار اليها في خلافته والاحوال التي اكتنفته في ولايته وما أخرج به

مناظروه لما أقاموا منه عمله ذلك لانه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن
يأمن بهم غائلة النزوع الى الفتنة والتوثب على الخلافة تجزّياً مع زيد أو
انتصاراً لبكر كما سنبسط ذلك فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر فجاء الى المدينة فكان عثمان
رضي الله عنه يميل الى استشارته في أموره ويضعه ، ووضع الثقة منه حتى
انه لما اشتدت عليه الازمة دعاه فيعلن دعاه اليه من ذوي قرابته وعماله
واستشارهم فيما يصنع لاطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص
كما في رواية أبي جعفر الطبري

يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس بيني أمية فقلت وقالوا ،
وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزال ، فإن أبيت فاعزم عزماً ، وأمض
قدماً ،

فقال له عثمان : مالك قل فرك أهذا نجد منك : فسكت عمرو
حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لانت أكرم علي من ذلك
ولسكني علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منّا فأردت أن
يلفهم قولي فيثقوا بي فأقود اليك خيراً وأدفع عنك شرّاً

وفي رواية للطبري أيضاً قال : كان عمرو بن العاص ممن يجرّض على
عثمان ويغري به ولقد خطب عثمان يوماً في آخر خلافته فصاح به عمرو
ابن العاص : اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها منك فتب
الى الله نتب

فناداه عثمان : وانك ههنا يابن النابغة قلت والله جبتك منذ نزعتك

وفي رواية له أيضاً قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول : والله ان كنت لأتقي الراعي فأحرصه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سمر الشر بالمدينة خرج الى منزله بفلسطين فينما هو بقصر وبعه ابنه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة ابن روح الخزامي إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو : أنا أبو عبد الله * العير يضطرط والمكواة في النار * : ثم مرّ بهم راكب آخر فسألوه فقال : قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله اذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يا معشر قريش انما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتوه : فقال نعم أردنا أن نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس في الامر شرعا سواء

هذا كل ما قيل في شأن دخول عمرو في فتنه عثمان وهذا الخبر الاخير مع ما فيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الاول وانه يحتاج الى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على ان كل ما نتم من عثمان (رض) انما هو ايشاره بنى أمية على غيرهم في الاعمال . وقد زعم بعضهم ان عمرو ابن العاص هو الذى حرك المصريين على عثمان ولادليل عليه إذ الذى حرك المصريين في الحقيقة هو محمد بن أبي حذيفة وابن السوداء اليهودي كما سيأتي في محله وما كان لعمرو في هذه الفتنه إلا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله وأحسن ما يعتد به عن عمرو وهو انه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك في فتنه علي ومعاوية يدلك عليه ما نقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من رواية الواقدي عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أي لسعد) كيف

متكافون بالصحبة وان امتاز بعضهم عن بعض بالسابقة أو قدم الهجرة وكل ما زعمه بعض الفرق الاسلامية كالمترلة والشيمة من أن الفريق الذي حارب علياً رضي الله عنه من الهالكين على رأي الفرقة الأولى ومن الكافرين على رأي الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ لانهم كلهم دخلوا في الفتنة فاذا صحح كما يزعمون ان الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين وهم أبرأ الى الله مما يزعمون

والعجيب في أولئك الفرق أن يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة ذنوية بل ولو دينية أيضاً يرى كل شخص منهم أنه الأخرى بها والايق للقيام بأعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعاً دينياً كأنه تنازع على ان الله واحد أو أكثرينجو من آمن بوحدايته ويهلك من قال بتعددده فيرسخ في أذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ مع أن في الحديث (من قال لاخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين لا أنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لانهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله وكلُّ يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست في الآخر نعم ان لتلك الفرق أن يقولوا أن علياً رضي الله عنه حقيق بأمره المؤمنين لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الاوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ولكن ليس لهم أن يقولوا ان من نازعوه على الخلافة وأنصارهم كفار . لم ذا ؛ لانهم نازعوه عليها . مع أنه ليس هناك أمر إلهي بتخصيص الخلافة في شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضاً وكل ما قيل وروي عن النبي (ص) في شأن علي وآله نصاً

ووصاية كما يقولون فقد ثبت انه موضوع وان حاول مؤسسوا مذهب الشيعة ورفموا دعامته أثباته بوجوه كلها مردودة وحسبك شاهداً على ذلك ان الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم إلا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش عليّ أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية بل بالسابقة والتقاربة ثم أجمعوا جميعهم وعليّ معهم على الرضى بخلافة أبي بكر ولو كان هناك نص على عليّ لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بهيلاً أحداً إلا اذا اعتقد الشيعة بوجود النص وان الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبي (ص) لانهم غير مؤمنين إلاّ عليّ بن أبي طالب فانه كان وحده كل المسلمين . وما نخال ان الجهل يبلغ بأحد الى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله إلا طائفة حقيرة منهم ظهرت في المغرب تنسب الى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوة عليّ وألوهيته وغير ذلك من الهذيان

وبالجملة فمن الفضول في أمر مضى زمنه ، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم ، ان يتقسم الناس لأجله شيئا الى هذا اليوم . وانما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تمضيدها له وأخذاً بناصره وتوصلاً لامرته . وأما التشيع لفرق دون فريق الى هذا اليوم فأبي فائدة فيه للمتشييع له غير ما يقوله الامامية من وجوب الخلافة لآل عليّ للنص أو العصمة وهم غير مغنهم عن هذا الوجوب شيئاً إلا ما كان في بعض العصور الاسلامية من قيام الدعاة لآل عليّ يتذرعون بذلك

للسيادة والملك أو الالتفاف حول صاحب الدولة^(١) وناهيك بما نشأ عن هذه

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على ان نفرده له فصلا مخصوصا في سيرة علي رضي الله عنه تأتي به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلبا للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة وإنما قلنا الزعماء لان العبرة في تاريخ تلك النحل الامامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها اذ هؤلاء أتباع الرؤساء وأسرى التقليد في كل نخلة يدينون بما دان به أبائهم كيف ما كان . على ان كلامنا في هذا الفصل جميعه اجمالي أتى معنا استطراداً والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظن ان ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فان من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال في مذاهبهم ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم في القول بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل وبناء مذهب الامامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين على اني أعتقد ان أكثر عقلاء الشيعة والمستبشرين بنور العلم والحكمة ولاسيما خاصة أمة الفرس منهم ينكرون على الغلاة أشد الانكار ويتأفقون من ذلك الحافظ والخبط الذي مزق أحشاء الاسلام وكل من شمت منه راحة الاعتدال من عقلائهم وقاحتهم بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر علي هذا القول بل أظهر من الألم من سوء هذا التعصب الاعمى والجهل مثلما أحسن به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطور مصير صار اليه المسلمون بازاء الأمم الاخرى لتضييعهم أيام مجدهم وابان شباب دولتهم بمثل هذه السفساف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلهم هذه الامور عن كل شاغل فاسترسلوا في تيه الغفلة عما يكون من مجد الامم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتى أخذتهم صيحة المغرب من كل مكان وساقط عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لامم المغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الانسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا واهمنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والالهام وحسبنا من جزائلك العادل أن صرنا وراء الامم ، وأشرقنا على هوة العدم ، واليباز بالله

الدعوة من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس وما كان فوق هذا من غلوفريق كبير في آل عليّ حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والاسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة التي بلغ بعضها الجهل والتناهي في ضعف العقول ان قالوا ان رؤية الامام وحدها كافية لاسقاط الفرائض واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بامامة آل عليّ. وعن ماذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على امارة المؤمنين أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم وهضى زمنهم وانتهى أمر خلافهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام الى هذا اليوم حتى صاروا هذا بسنيته وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالمسك بعضهم عدوّ بعض يسطوقويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ولكن ما رأي الأمة الآن وقد فرحت المغرب فاه لياتهم القوي والضعيف ويأتي على الآكل والمأكول مادام الكل في الفرقة والخصام مسترسلين يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين والدين بري مما يعملون

اذا تقرر هذا فقد علمت انه نتج مما تقدم أمور يذنبني النظر فيها وهي :

(١) ان مشكلة الخلاف على الخلافة في ذلك العصر مشكلة سياسية باعتبار ان الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا في صدر الجزء الاول) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية

(٢) ان الذي دعا فرق الشيعة الى إصاقتها بالدين وجعلها واجبة دينا

باعتبار انها ركن من أركان الدين انما هي السياسة نفسها وهي ارادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون ان لهم عليه حق النصرة ويقولون انه أهل لادارة مصالح الأمة على محور الشرع أكثر من غيره ولكن لما علموا ان الاهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بانص والتخصيص أي ان صاحب الشرع نص على علي ثم جرهم ضرورة سوق الامامة الى اولاده الى اعتقاد العصمة في علي وآله تدعيماً لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل انزلوهم منزلة النبوة تارة والالوهية أخرى وهم رضي الله عنه براء مما يقول الظالمون

(٣) ان كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار ان النفر الذين تطلعوا الى الخلافة وانقسم لاجلهم المسلمون انما تنازعوا على أمر ما زال يمتازع عليه الاكفاء من أهل العصبية في كل دولة من الدول وعصر من العصور

(٤) ناكما عذرنا أولئك النفر ينبغي ان نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لان له أسوة يومئذ بكل المسلمين ولا يؤخذ عليه من ذلك إلا ما صنعه يوم التحكيم وهو وان ادعى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز اليه وعمل بما تقضي به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما الا انه أوجد من الأمور أموراً أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الأمة . فهو اذا أوخذ فانما يؤخذ من هذه الجهة لا من جهة انه كفر وأخذ باعائته على علي (رض) كما يتخرص به أولئك المتخرصون . إذ ما كان ليضر علياً مما لأه عمرو عليه لو أحسن شعبيته الطاعة له في حرب معاوية (رض) ويوم اختيار الحكم ولكن لله في هذا شأن هو بالغه

عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجلهم في الجاهلية والاسلام وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة في فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب كافة المسلمين لاؤلائك النفر من قريش فلم يسهه مع حبه للرياسة والتقدم في الامور ماوسع النفر المعتزلين من حب السلامة بل رأى أن انتفاع فريق من أولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل باطفاء شواظ الفتنة وحسم لمادة الاختلاف الذي أهربق فيه دم الامة . وتربص ريثما انجلت الفتنة الاولى عن قلب طلحة والزبير وانحاز الاحزاب كلهم الى علي ومعاوية رضي الله عنهما فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بمخدع السياسة ومعارض السياسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه . وان معاوية رجل ديناً لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرا الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه بل ربما أضمر ان ينازعه الخلافة كما نازع هو علياً عليها اذا أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه في الامر كما ستري بعد فأنحاز الى معاوية وكان له من الشأن بعد ما هو معروف وما سندره هنا ان شاء الله روى ابن عساکر في سبب ارتحال عمرو الى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : ان الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعهى بها (١) من عمرو بن العاص قال وما زال معتصماً بحكمة ايس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث الى ابنه عبد الله ومحمد فقال لهما اني رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني ولكن أشيراً علي . اني

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة

الجامع الازهر (اعمامها) وهي غير مفهومة كما لا يخفى

رأيت العرب صاروا عادين^(١) يضطربان وانا طارح نفسي بين حراري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة فقال الى أي الفرية ين أعمد

فقال له عبد الله ابنة ان كنت لا بد فاعلا فالى علي فقال عمرو : نكلك أمك اني ان أثبتت علياً قال لي أنت رجل من المسلمين . وان أثبت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره : فأتى معاوية . وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس علياً دعا ابنه عبد الله ومحمداً واستشارهما : فقال له عبد الله : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنك راض . وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان . ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض فأرى ان تلزم بيتك فهو أسلم لدينك :

وقال له محمد أنت شريف من أشرف العرب وناب من أنيابها لا أرى ان تختلف العرب في جسيم أمورها ولا يرى مكانك فقال لعبد الله أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنه لذكري ارتحلا : فارتحل الى معاوية وفي رواية ان علياً رضي الله عنه كتب الى معاوية كتاباً بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعو الى البيعة فطاول في الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ثم استشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان فأشار عليه ان استعن بعمر بن العاص فكتب اليه مانصه :

أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط لنا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله

في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فاقبل اذا كرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو واستشار ابنه عبد الله ومحمدا فإشار عليه الاول بالجلوس والثاني بالخروج الى معاوية فارتحل اليه

فلما قدم اليه دعاه الى جهاد علي ومطالبته بدم عثمان وصغر له من شأن علي رضي الله عنه فقال : والله يا معاوية ما أنت وولي حملي بمير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبتته ولا جهاده ولا فقته ولا علمه . والله ان له مع ذلك لحظا في الحرب ليس لاحد غيره . ولكني قد تعودت من الله تعالى إحسانا وبلاءً جميلا فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الضرر والخطر :

قال معاوية : حكك : قال عمرو : مصر طعمة : فملك معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم ان مصر مثل العراق : « يريد ان العراق بيد علي ومصر بيد عمرو فاذا يبقى له » قال عمرو : بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما كانت لك اذا غلبت عليا على العراق :

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية : أما ترضى ان تشري عمرا بمصر ان هي صنعت لك : وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتا يقول فيها :

أيها المانع سيفاً لم يهز
انما ملت على خزٍ وقر
الى ان قال :

واسحب الذئيل وبادر فوقها
وانتهزها ان عمرا ينتهز
أعطه مصرا وزده مثلها
انما مصر لمن عزّ فبز

واترك الحرص عليها ضلّة واشتبب النار لمقرور يكثر^(١)
 ان مصرا لعلّي أو لنا يُغلب اليوم عليها من عجز
 فلما سمع قوله أرسل الى عمرو فأعطاه مصر على ان يعطي عطاءهم
 وأرزاقهم وما بقي فله . فرجع عمرو الى عبد الله ابنه فقال : يا الله قد
 أخذنا مصر : فقال وما مصر في سلطان العرب . فقال له : لا أشبع الله
 بطنك ان لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتابا لعمرو أراد ان يكايده حتى اذا أراد
 الرجوع عن عهده رجع فكاتب اليه فيما كتب « على ان لا ينقص - أي
 عمرو - شرط طاعة » فأدركها عمرو وكتب « على ان لا تنقض طاعة
 شرطاً » وهو قلب في العبارة بلغ الغاية في اللطف وقلب المتصود الذي
 قصده معاوية الى ما يقصده عمرو من ان الطاعة لا توجب التخلي عن مصر
 على ان معاوية لما استقر له الامر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم
 أصاح بينهما معاوية بن خديج^(٢)

روى ابن عساکر عن أبي عون قال : لما صار الامر كله في يدي
 معاوية استكثر مصر طعمة لعمرو وما عاش ورأى عمرو ان الامر كله قد صلح
 به وبسدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن ان معاوية سيزيده الشام مع مصر :
 فلم يفعل معاوية . فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالطا . وتيز الناس وظنوا
 انه لا يجتمع أمرهما . وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو

(١) قوله واشتبب النار أي أشعلها . وقوله لمقرور يكثر المقرور الذي أصابه

البرد ويكثر بمعنى يتقبض (٢) ضبطه بن الاثير في التاريخ بن حديج بالحاء المهملة وجاء
 في أسد الغابة له أيضا بالحاء المعجمة وفي أكثر كتب الاخبار كذلك

خاصة وللناس عامة وإن لعمر وولاية مصر سبع سنين ، وعلى أن علي عمرو والسمع والطاعة لمعاوية . وتوثاقا وتعاهدا على ذلك وأشهد عليهما به شهودا ثم مضى عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث سنين أو ثلاثا حتى مات :

ولا يتبادر الى ذهن القارئ من قوله في هذه الرواية « لما صار الامر كله في يدي معاوية الخ » ان مصر انتهت الى معاوية بعد استصفاها معاوية للخلافة وموت علي والحسن رضي الله عنهما كلا بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان واليا على مصر من قبل علي رضي الله عنه كما سترى بعد

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معاوية لهلي فاستشار معاوية عمرا فيما يصنع فقال ان رد ربيعة على علي خطر شديد ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي وهو عدو جرير المرسل اليك فابعث اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس ان عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل رضى عند شرحبيل . فانها كلية جامعة لك أهل الشام على ما تحب وان تعاقمت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا

ففعل معاوية ما أشار به عمرو كما سنذكره في محله ان شاء الله فانرى شرحبيل بحرب علي وتم لمعاوية ما أراد من جمع أهل الشام على حربه وكان بمد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد في هذا الكتاب ان شاء الله

مهد عمرو لمعاوية بدهائه ما مهد وارتحل معه الى صفين حيث كانت الحرب بين علي ومعاوية فأتى هناك بمكيدتين دنا علي عظيم دهائه

وكبير عقله الا انها كانتا كالبركان اذا انفجر ، لا يبقى ولا يذر ، فاما المكيدة الأولى : فهي اشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب علي وذلك ان عمرا كان في آخر يوم من أيام صيفين بحيال الاشر فقال لوردان مولاه : أتدري ما مثلي ومثلك ومثل الاشر : قال لا : قال كالاشر ان تقدم عمر وان تأخر عقر ائز تأخرت لأضربن عنقك : قال أما والله يا أبا عبد الله لاوردنك حياض الموت صنع يدك على عاتقي : ثم جعل يتقدم ويقول لاوردنك حياض الموت واشتد القتال . فلما رأى عمرو وأمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الا اجتماعا . ولا يزيدهم الا فرقة : قال نعم : قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم : فان أبي بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا ان نقبل . فتكون فرقة بينهم . وان قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا الى أجل

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم الله بيننا وبينكم . من لثغور الشام بعد أهله « أي من يحميها من العدو » من لثغور العراق بعد أهله : فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله :

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار بعد ان كادت جنوده تدحر جنود الشام

واما المكيدة الثانية فهي خداعه لابي موسى الاشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه نخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الاخبار فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

اجتهد عمرو بنصره صاحبه وتأييد جانبه فنجح في مكيدته الأولى والثانية لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد؟ ان غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الأولى ان يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون فيدب الفشل حينما في جيش علي بن أبي طالب (ض) يلم في غضونه جيش معاوية شعثه ويعد للكفرة عدتها أو يعد عمر وللأمر حياته ويهيء لعمل آخر أسبابه فجاءه الأمر فوق ما أراد ووقع سهمه وراء الغرض اذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب، أو أصابت جسما فاضطرب، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت في عقل فتنشطت، ونعقت ناعقة كأنها كانت في قفص فأفلتت، فنادت الى م تعضنا هذه الحرب بناها، وعلام تأخذنا قریش بجزيرتها، وما لنا وللأمراء من عدنان أو قحطان وأمير كل امرء دينه، وحاكمه وجدانه، هلم فلنخرج عن جماعة الأمراء، ولنقتلهم في ليلة ظلمات، ونشير على الأمة كلها غارة شعواء، فاما ان تنفي معنا الى كتاب الله وأما ان تموت شهداء هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنه وضرا على علي وأصحابه، ومعاوية واحزابه، ومروان وجنده، وعبد الملك وكيده، والخلفاء من بعدهم . صبغوا أديم الارض بدماء المسلمين، وكدروا صفاء الدول عددا طويلا من السنين، ولولا غلو في معتقدهم، واغراب في بوادر السنهم، وتطرف في مذهبهم، استلحموا به الناس قتلا وحرابا لالتف الناس لفهم، واخذوا جميعا اخذهم، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من اعماق الوجود، وقلبوا أوضاع الدول واسكن أكلتهم الحروب، وفرق جمعهم الخلفاء، واضعفهم الشذوذ في

الاعتقاد ، فلم يصلوا الى مبتغاهم وضاع أثرهم ^(١) بعد ان ضاع تعبهم اللهم الا أترا في النفوس تركوه ، وطريقا لحرية القول مهدوه ، فذب في الامة من ذلك اليوم ديب الجدل لكن في الدين ، وحُبب اليهم الانطلاق لكن عن قيود الوحدة في المشرب والفكر ، والكلام على هذا نستوفيه في غير هذا المحل ان شاء الله

هذا ما انتجته مكيدة عمرو والاولى ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل (واما المكيدة الثانية) فحسبها ان حولت قواعد الخلافة الشرعية الى الملك العضوض والشورى ، الى المغالبة ، والاختيار الى الوراثة ، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضي الله عنه بعد اذ ذهب مناظروه من اقبال قريش لما بقي للمغالبة بعده أثر لان النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس والنزوع الى تلك الرياسة العظمى وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة قضاوا ولم يك يبق بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون اليها الا اختيار السابقين في الاهلية لرياسة الامة وكانت رسخت ليومئذ في نفوس الامة مبادي الشورى ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطي على أساس متين فاستحال ان تدك أيدي المتغلبين على الملك ، الطامعين في استعباد الناس ،

الملك طرفان مطلق ومقيّد فتنازعهما علي ومعاوية فكان علي آخر

(١) ان الحوارج تفرقوا في مذاهبهم السياسية والدينية فرقاشى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الاباضية ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس في زنجبار ومثاهم في بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله

الامراء المقيدين ، ومعاوية أول الامراء المطلقين ، ومع ما عرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فان هذا لم يعن الامة شيئا عن خلافة علي بن أبي طالب التي كانت أحب الى الامة وأسد سبيلا في مستقبل الايام للخلافة الشرعية وضم عقد الرعية كافة في سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية فينقطع دابر النازعين الى الملك من غير ذوي الالهية ، وينحسم أصل النزاع على الساطان أو التساط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد وهيئات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو وهيئات والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت

قلنا فيما تقدم ان عمرو بن العاص انما كاد ما كاد وفاءً بعهده مع معاوية لا ينظر الى ما تصير اليه الامور في مستقبل السنين بل ينظر الى قضاء لبانة عرضت له والاعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ما ترتب على عمل عمرو وممالاته لمعاوية هي أمور مخبوءة في باطن الايام يتبع بعضها بعضا في الظهور وقد لا تظهر بمثل احتكاك عمرو وأوشد منه أيضا فلا ينبغي الاغراق في مؤاخذه عمرو بن العاص مادامت تلك النتائج غير مقصودة له بالذات وانما جاءت بالعرض لاسيما وانه ربما كان يرمي الى غرض آخر من ممالاته لمعاوية وهو مصير الخلافة اليه اذا قضى علي ومعاوية رضي الله عنهما في تلك الحرب . يدلك عليه تقريره بمعاوية في كثير من المواضع ليطرح بنفسه الى الهلاك

ومنها تقريره له في مبارزة علي بن أبي طالب في وقعة صفين وتحرير

الخبر ان علي بن أبي طالب (رض) نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا

هلمّ احاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الامور :

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ما أنصفت انك لتعلم انه لم يبرز اليه أحد الا قتله : فقال له عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أي الخلافة » بعدي

ومنها اغراؤه له بقتل أسرى صفين وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجأوا الى معاوية وان عمراً ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الاسارى لوقعنا في قبيح من الامر

ومنها اغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كثيف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدي معاوية وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الامان . ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضاً فلم يقع فيه

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له وأخذ مصر طعمة منه وكان بعد وقعة صفين والتباس الامور وقع الفشل في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد واختلاف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل عليّ (رض) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بارسال عمرو وكتب الى شيعة عثمان بمصر فأجابهم منهم مسامة بن مخلد ومعاوية بن خديج بسرعة الحمل وبث الامداد فسير عمراً ومعه عشرة آلاف مقاتل فتلقاه محمد بن أبي بكر بالفين فانهزم

ثم اختفى في خربة أخذها منها معاوية بن خديج وقتله وصفت مصر لعمرو ابن العاص في خلافة معاوية ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفي وهو أمير عليها

ومن أخباره مع معاوية ما رواه ابن عساكر ان معاوية دعا عمرو بن العاص « يوم التحكيم » وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش وقال يا عمرو : ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريدك ونحن بك راضون . وقد ضم اليك رجل طويل اللسان كليل المدينة له بعدُ حظ من دين : فاذا قال فدعه فليقل ثم قل وأوجز . واقطع المفصل ولا تلتقه بكل رأيك . واعلم ان خفي الرأي زيادة في العقل . فان خوفك أهل العراق نخوفه بأهل الشام . وان خوفك بجلي خوفه بمعاوية . وان خوفك بمصر خوفه باليمن . وان أنك بالتمسير فانه بالجلل :

فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أنت وعليّ رجال قريش ولم يقل في حربك ما رجوت . ولم تأمن ما خفت : ذكرت ان لعبد الله ديناً وصاحب الدين منصور وايم الله لأبين عله ولأستخرجن خبيثه ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب عليّ فما عسيت ان أقول :

فقال معاوية : قل ما ترى : فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى : وخرج مغضباً فقال لاصحابه انما أراد معاوية ان يصغرأبا موسى لانه علم اني خادعه فأحب ان يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبه بالخلاف عليه وقال في ذلك شعراً

يشجّني معاوية بن حربٍ كأنني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غنيٌّ بحمد الله والله المعين

في أبيات

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لي فيه رأي : فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : أما والله ان أمثاله من قريش لكثير ولكنك ألزمت نفسك الحاجة اليه فالزمها الغنى عنه

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه انهما كانا متفقين ظاهراً متنافرين باطناً وان عمراً لم يشايح معاوية رضي الله عنه حباً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً له منه يدلك عليه ماروي ان معاوية قال يوماً لجلسائه : ما أعجب الاشياء : فقال يزيد : أعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل ، : وقال آخر أعجب الاشياء لم ير مثله : وقال عمرو ابن العاص : أعجب الاشياء ان المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلي ومعاوية) فقال معاوية : بل أعجب الاشياء ان يعطي الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف (يعرض بعمر وومصر التي أخذها طعمة) فنفت كل منهما بما في صدره من الآخر وهذا يدل على ان علياً رضي الله عنه لو تألف عمراً واستدناه اليه لانتفع به واصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ولكن اغراق علي في حب الفضيلة دعاه الى ترك الحيلة بمثل عمر كما دعاه الى عدم قبول اشارة من أشار عليه بتأليف معاوية وتشبيته على ولاية الشام كما استرى بعدد



○ باب ○

○ نبذة من أقواله وأخباره ○

✽ أقواله ✽

رُوِيَ عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فمِيلَ له: أيها الأمير تركب هذه البغلة: قال: اني لا أملّ دابتي ما حملاني. ولا زوجتي ما أحسنت عشرتي. ولا جليسي ما لم يصرف وجهه عني.

وروى ابن عساكر انه قال لابنه يوماً: يا بني امام عادل، خير من مطر وابل، وأسد خطوم، خير من امام ظلوم، وامام ظلوم غشوم، خير من فتنه تدوم، يا بني مزاحمة الاحمق خير من مصاحفنه، يا بني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبي ولا تذر، يا بني «استراح من لاعقل له»: فأرسلها مثلاً وروي أيضاً أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية: ان الكريم يصول اذا جاع، واللائيم يصول اذا شبع، فسد خصاصة الكريم، وأقع اللئيم

وفي رواية أخرى له: قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين لا تكون بشيء من أمور رعيتك أشد تمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه، (ازالته) واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول اذا جاع، واللائيم يصول اذا شبع:

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسد النصائح وروي أيضاً عن هشام الكلابي عن أبيه قال: قال معاوية

لمعرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه . قال فن أسخى الناس ؟ قال من بذل دنياه في صلاح دينه . قال فن أشجع الناس ؟ قال من ردَّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عيينة . قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر . ولكنه الذي يعرف خير الشرين

وروى ابن عساکر عن عمرو أنه قال : الرجل ثلاثة فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فأما الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والالباب ، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مضيه موفقاً . والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يستشرفيه أحداً وقال أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيه . فيصيب ويخطئ : والذي لا شيء الذي لا دين ولا عقل له ولا يستشير في الأمر . فلا يزال ذلك مخطئاً مدبراً ، والله اني لا استشير في الأمر الذي أردته حتى خدمني . وما عليّ بمرض عقولهم وأسمع : وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور يا أبا عبد الله ؟ قال الغمرات ثم تجلي « كناية عن الخلاص من الشدة »

وعن سفيان بن عيينة قال قال عمرو بن العاص : ما وضعت عند أحد من الناس سرّاً فأفشاه فلمته . أنا كنت به أضيّق صدراحتي استودعته إياه : ومن غرر أقواله ما نقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب إلا أنه لا يسأم من كل الوجوه وإنما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة ذني النفس

يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية فهذا مما بلغ من علو المكائنة فإنه بعيد عن الفضيلة لأنه لم يستمسك في ارتفاعه بأسبابها ، ولم يأت البيوت من أبوابها ، فيكون شراً في مبدأ أمره ، شراً في منتهاه ، ففي ارتفاعه شرٌّ على الناس لأنه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للاضرار بالناس ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولو من غير طريقه المشروعة لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية في الحكومة للسفلة لئلا يفسد السفلة أمرها ، ويوهنوا بنيانها ، ويرى بعضهم في هذا العصر لهذا السبب ان أحسن الدول حكومة وأضبطها ادارة وأسدها عملاً وأسلمها من آفات الرشاش وسوء القصد دولة انكثرت التي مع انها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الاشراف الارستقراطية لانها قائمة على دعائم الاشراف وأهل الفنى والثروة لا توسد مناصبها العالية الا لاهل البيوتات العريقة بالمجد والامارة وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى وهذا وان كان يخاف من بعض الوجوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشورية الا انه يوافق أصول التجارب وينطبق في كثير من الأحوال على مقاصد الحق والعدل والكلام عليه يحتاج الى بيان وتمحيص وربما نعود إليه في محل آخر ان شاء الله

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص واما من جهة لا ينطبق عليه فهو الذي يرتفع بأسباب طبيعية ويزيد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة فان من يرتقى باستعداده وجده ويكون بطبعه عالي النفس سليم الفطرة يرتقى بحكم الاستعداد والطفرة من طريق الفضيلة فيكون فاضلاً في مبدأ

أمره فاضلا في منتهاه فلا يستعمل ارتفاعه سلاحا يتهجم به على الناس بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضره من ارتفاعه بل ارتفاعه ضروري لازم بحكم العقل والعدل فلا يشمل معنى قول عمرو ولعله لا يعنيه ولكن بالاسف ان أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له

رأينا في تاريخ ابن عساکر خطبة نفيسة لعمرو بن العاص من أحسن أقواله يوصي بها الناس بالصدق وعدم السرف وحسن معاملة القبط وصرف العناية الى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها وغير ذلك من الوصايا الجميلة الثابتة رواها ابن عساکر عن **بَحْرِ بْنِ دَاخِرِ الْمُعَاْفِرِيِّ** قَالَ :

ركبت انا ووالدي الى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد حمم (كذا) النصارى بايام يسيرة فأطأنا الركوع اذ أقبل رجال بأيدهم السياط يؤخرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال ياني هؤلاء الشرط . واقام المؤذن الصلاة فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج^(١) عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تتألق^(٢) عليه . وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم فسعدته بحض على الزكوة وصلة الرحم وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك يا معشر الناس اياي وخاللا اربعاً فانها تدعو الى انصب بد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العز . اياي وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقليل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، وثم انه لا بد من فراغ يأول المرء اليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد^(٣) والنصيب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا ، يا معشر الناس

(١) الادعج اسود العين الابلع المضي المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص

(٣) أي بالاعتدال

قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى ، واقلمت ^(١) السماء وارتفع الوفاء ، وطالب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السائم ^(٢) وعلى الراعى حسن النظر . فخيّ بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيرته ولبنه ، ومرافقه وصيده ، وأربوا بجيادكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم ^(٣) من عدوكم وبها تالون مغانمكم وأثقالكم ، واستوصوا بن جاورتم من القبط خيراً . وإياي والموسسات ^(٤) المفسدات فانهم يفسدون الدين ويتصرن الهمم ، حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله سينتج عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم وعضوا ابصاركم . فلا علمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ^(٥) وأتاهوا اني معترض الحيل كاتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واتاهوا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم اليكم ، والى داركم ، معدن الزرع والمال والحير الواسع والبركة التامة . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله (ص) يقول (اذا فتح عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجند خير أجناد الارض) فقال له أبو بكر : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : (لانهم في رباط الى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر اناس على ما اولاكم واقيموا في ريفكم ما بدا لكم . فاذا يبس الود ، وسحق العمود ، وكثر الذباب وحض اللبن وصوص ^(٦) البقل وأنقطع الورد فخيّ على فسحاطكم على بركة الله . ولا يقدهن احد منكم على عياله الا ووه تحفة لعيله على ما اطاق من سمته أو عمرته اه

(١) واقلمت السماء اي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر (٢) كذا في الاصل ولعلها السوائم وهي الماشية (٣) الجنة هي الوقاية (٤) الدواهر (٥) جواب قسم محذوف أكد بالنون التثنية وما مصدرية اي فوالله لآلمن آتيان رجل موصوف بما ذكر وفي طيه من الترهيب البليغ ما لا يخفى وقد بين بعد جزء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ (٦) صوح اي يبس اعلاه



﴿ أخباره ﴾

(من أخباره في حسن الخلق) مارواه ابن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه :

وعن قبيصة أيضاً : قال صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مداراة منه ، وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلاً أعطى لجزيل من غير مسألة منه ،

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلاً أثقل حلماً منه وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين (أو قال أنصع) طريقاً منه ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بملاية منه وصحبت المغيرة بن شعبه فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالكر لخرج من أبوابها كلها :

ونادت أمراته مرة جارية لها فباطأت فقالت يا زانية : فقال لها عمرو أورايتها تزني ؟ قالت لا . قال لتضربن بها يوم النيمة سبعين سوطاً : فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو إذا اعتقتها فاعتقتها

(ومن أخباره) التي تدل على علمه وتعمقه وبعده عن الاوهام مارواه ابن عساكر عن موسى بن علي قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فأنكسف القمر فاصبحنا مع عمرو فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدو الله هذا . هم علموا ما في الارض فما علمهم ما في

السما : قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يمامه قوم ويجهله آخرون : ثم قرأ الآية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) إلى آخر الآية

ولا شك أن هذا الدليل الكتابي يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخلق ان الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئاً من أسرار الوجود ولم يحرم على الانسان أن يتناول بالبحث والنظر ما شاء من مجالي الطبيعة وأرشده الى أن الغيب الذي يمامه الله وحده هو غير ما يتوهمه العقل أحياناً عند تضائله عن إدراك الشيء وضعفه عن الوصول اليه وحبذا لو تنبه الى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين الرء وعقله بغيماً من عنده أنفسهم وتحكموا في الدين وصرفاً للأمة عن الاخذ بالعلوم النافعة التي قام بها الآن مجد الأئم وأصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بمد شاهد العيان برهان

(ومن أخباره) مارواه صاحب الاغانى قال حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان نخرج اليهم حاجبه أبو درة فقالوا له استأذن للانصار فدخل اليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم الى أنسابهم . فقال «أي الحاجب» هي كلمة ان مضت عرتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع اليهم : فقال له «أي عمرو» أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل . فقالت الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الانصار . فنظر معاوية الى عمرو نظر منكر فقال له باعدت جدا . فقال اخرج فقل من كان ههنا

من الاوس والخزرج فليدخل : نخرج فقالها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا نسب منجيب به سوى الانصار
نسب تخييره الاله لقومنا أثقل به نسباً الى الكفار
ان الذين ثووا ببدن منكم يوم القليب هم وقود النار
فقال معاوية لعمرو : قد كنا لأغنياء عن هذا اه

ولا ندرى ان كان أراد عمرو بهذا المباعدة بين معاوية وبين الانصار اتماماً لمقاصده السياسية في إغراء مثل الانصار بمعاوية أو هو يريد الخط من قدر الانصار فقط لانهم شايعوا علي بن أبي طالب أيام الفتنة خلا النعمان بن بشير فانه كان من شيعة معاوية يومئذ

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) ما رواه محمد بن سعيد عن ابراهيم بن حر يطب ونفله في العقد قال قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ان هذا الامر الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الامر بنا وبكم الى ما ترى وما أبقث لنا هذه الحرب حياءً ولا صبراً ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكننا نقول ليتها لم تكن كانت فانظر فيما بقي بغير ماضى فانك رأس هذا الامر بعد علي فانك أمير مطاع ومأمور مطيع ومشاور مأمون وأنت هو :

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه في رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل في العقد خبراً آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاثر والسباب ما يدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال (ومن أخباره في التقي والانابة) ما رواه ابن عساکر عن عمرو بن

شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبه وعمرو بن العاص كلام في الوهط (وهو بستان لعمر وبالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن العاص : يال هصيص يسبني المغيرة : فقال له عبد الله ابنه : انا لله وانا اليه راجعون أدعوة القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فأعتق عمرو ابن العاص ثلاثين رقبة عنها

وطالما كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة لما فيها من تفریق الكلمة والرجوع الى العصبية وقد نهى عنها رسول الله أشد النهي جمعاً لكلمة الامة واستمساكاً بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ولكن تهاون الناس بهذه الرابطة الكبيرة فرق بينهم في المشارب والاهواء والغايات فانقلبت الأمة حرباً على بعضها يتجاذبها الامراء أو المتوثبون على الملك نارة باسم الجنسية وأخرى باسم المذهب وآونة باسم الدين حتى أنهكوا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ولا يزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفریق اتحالا توصلوا للرياسة ولا سيما في شبه جزيرة العرب التي تفرق أهلها قدراً وجماعات واصبحوا فوضى مع أهواء الامراء العديدين وقد كانت أحق بان يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس كما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم على كلمة الاسلام فعملوا بقوة اجتماعهم ما لم تستطع عمله أمة قط ولكن أين من يعقل والاهواء غالبية والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود والنفوس عن الاتعاض بما لحق أكثر الثغور العربية من الاحتلال الاجنبي غافلة والله أعلم بعاقبة الامور

وأخرج بن عساكر عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ان عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول « ان فصلا بين صيانهنا وصيام اهل الكتاب اكلة السحر » :
 وروي عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي
 بالليل وهو يبكي ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فان كان أحب اليك ان
 تسلب عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وانك آتيت عمراً أولادا فان
 كان أحب اليك ان تشكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فاشكله ولده . وانك
 آتيت عمرا سلطانا فان كان أحب اليك ان تنزع منه سلطانه ولا تعذبه
 بالنار فانزع منه سلطانه .

(وفاته وولده)

(وفاته وكلمة مجملة فيه)

قضى عمرو بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت فما قصد
 غاية الا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها وكان له بين ذلك هنات تغتفر له
 في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ولا يلام على شيء من أمور
 الفتنة التي انعمت فيها قریش كلها وساقوا الأمة اليها الا بما يلام به سائرهم
 وانما هو سبقهم باعماله الكبار بالاضافة الى شهرته بالدهاء وحببه للظهور
 ومهما ترتب على اعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فانه غير متصود
 له بالذات كما أبنا ذلك فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل
 ان يتمر له بثبات الجاش وقوة الارادة وصدق العزيمة والرأي وانه من
 رجال الاسلام العظام وحسبه انه كان من اعوان عمر بن الخطاب وامرائه
 الكبار وعمر رضي الله عنه لا يضع ثقته بغير الاكفاء كما هو معروف عنه ونحن

لأنشك كما لا يشك عاقل معناه في أن مما لأنه على علي بن أبي طالب إنما كانت لأعراض هذا عنه ولورغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجدته عمر ومعارية وإنما كان علي رضي الله عنه قليل العناية بأمثال عمرو ومن رجال السياسة أولاً لثقتهم من نفسه وثانياً لكونه يرى سلوك السبيل السوي في القول والعمل خير صاحب ومعين وهو اعتقاد حق لا يعتقد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة لكنه رضي الله عنه لم ينظر إلى ما اكتنفه من الأحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وإن البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفمان في كل وجهة صاحبها ويتألمان قلوب الرجال الذين يشك في صدقهم وصدقاتهم كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع انهم من اعداء الدين

وبالجملة فعمر وبن العاص يعد على حسن بلائه في الاسلام وسلامة يقينه من دهاة الامة في عصره وكبار رجالها الذين افتتحو الممالك ورفعوا منار الدولة لاسيما وأنه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضي عنه

وروي ابن عساکر عن ابن شماسه المهري قال : حضرنا عمر وبن العاص وهو في ساعة الموت وولى وجهه الى الخائط وجعل يبكي طويلاً فقال له ابنته : ما يبكيك أما بشرك رسول الله (ص) بكذا أما بشرك رسول الله بكذا ؟ قال : ثم أقبل بوجهه فقال : ان أفضل ما يعد عليّ شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني قد رأيتني على اطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد

من الناس أبغض اليّ من رسول الله (ص) ولا أحب اليّ ان أكون
استمكننت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار ، فلما
جمل الله الاسلام في قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنلت
يارسول ابسط يدك لا بايمك فبسط يمينه فقبضت يدي ، فقال «مالك يا عمرو»
فقلت أردت ان أشرط . فقال «تشرط ماذا» قلت ان تغفر لي ماتقدم .
قال « اما علمت يا عمرو ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم
ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله ؛ « فبايعته فما كان احد أجل في
عيني منه اني لم أكن أستطيع ان املا عيني منه اجلالا له فلو مت على
تلك الحال لرجوت ان أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء لا أدري
ماحالي فيها فاذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني في قبري فسنوا
على التراب سنا (أي صبوه صبا) فاذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري
قدر ما ينخر جزور وويقسم لحمها حتى أعلم ما اراجع به رسل ربي فاني استأنس
بكم اه وروي هذا الخبر أيضا من طرق أخرى باختلاف قليل في اللفظ
ووري عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو ان أباه قال حين
احتضر : اللهم انك أمرت بأموور ونهيت عن أمور ، تركنا كثيرا مما
أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا اله الا أنت : ثم أخذ بابها مه
فلم يزل يهال حتى مات : وفي رواية انه وضع يده موضع المثل من ذقنه
ثم قال : اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا تسعنا الا مغفرتك ، :
فكانت تلك هجره حتى مات

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث واربعين في خلافة معاوية
وهو متجاوز السبعين وقيل انه تجاوز الثمانين ودفن في المقطم في جهة الفخ

وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد وكان غنياً جداً على ما يظهر من سيرته وقد روى ابن عساکر ان عمرراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بالف الف خشبة كل خشبة بدرهم فالسكرم الذي يحتاج الى خشب بليون درهم كم تكون غلته هذا اذا صح الخبر. وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو وقرب الجامع وكان له دور بدمشق منها دار ببيرون ودار في ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ودار تعرف بدار بني أحيحة أو بني جحيحة في رحبة الزيب ودار تعرف بالمارستان الاول عند عين الحمى كذا جاء في تاريخ ابن عساکر وقد ذكر المؤرخون من مقدار ثروته ما لا يقبله القل فضر بنا صفحاً عن ذكره

ولده

ولد له عبدالله ومحمد وكان عبدالله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلاً فاضلاً شجاعاً يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلباً للسلامة وتوفي بمكة عن اثنتين وسبعين سنة وله عقب من زوجته عمرة بنت عميد الله ابن عباس وعمرو بن شعيب وكان سرياً ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفاً كما ذكر ذلك ابن قتيبة اه

انتهى الجزء الثالث وهو يشتمل على سيرة أشهر مشهوري الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وقد أبطأت باصدار هذا الجزء ارض ألم بي يقضي علي تخفيف المطالعة ومراعاة الراحة فأرجو من القراء المَعذرة وأسأل الله أن يعينني على اتمام الاجزاء التالية إنه أكرم مسؤول

﴿ أجوبة انتقاد ﴾

انتقد علي كثير من أصدقاتي ورود خطأ كثير في الجزء الثاني ذير
 ما أصاح في فهرس الخطأ والصواب واستكثروا أيضا ماورد في ذلك الفهرس
 وعذري في ذلك أبنته في آخر الجزء وهو المرض الذي ألم بي في أثناء كتابة
 الجزء وعدم تمكني من مراجعته وتصحيحه حتى في حال الطبع وسأعيد
 طبعه مصححا مضبوطا ان شاء الله تعالى (١)

وطلب اليّ بعضهم التوسع في أخبار الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية
 والخروج عما شرطته على نفسي في خطبة الكتاب قائلا بعد كلام طويل
 (انك مهت في تاريخك هذا طريقا وعرة للمؤرخين والكتاب في اطلاق
 حرية الفكر والقلم من أسر التقليد والقاء الكلام على عواهنه وسرد الحوادث
 سردا لا تظهر منه حقيقة تاريخ الاسلام . وكما انك السابق بين مؤرخي
 المسلمين من أهل العربية في تحكيم العقل في أخبار التاريخ وتتبع مواضع
 النقد وبيان الاسباب والنتائج على أسلوب قد أشربته العقول وسيكون
 قدوة لمؤرخي المسلمين وهذا ما نتمناه فانا نسألك أن تقدر لنا ذلك القيد الذي
 قيدت به نفسك في صدر الجزء الاول ولا تضن بالتوسع في أخبار الفتن التي
 أشرت اليها لان التوسع بها وحدها توسع في تاريخ الاسلام كله الخ . قال
 وجوابنا عنه اني مع الشكر لحسن ظن ذلك الفاضل بي أعترف بأني
 أضف من خط القلم وكتب في التاريخ وكل ما علقته على الحوادث من النقد
 والبيان انما هو نتيجة الجرأة واطلاق الفكر من أسر التحفظ الشديد وإلا

(١) أعيد طبع الجزء مصححاً على قدر الامكان

فان حوادث تاريخ الاسلام مكتوبة في ثنايا الكتب في أجلي مظاهر الحقيقة اذ لم يضمن المؤرخون علينا بشيء من غشها والسامين فهم أصحاب الفضل واليهم يساق الثناء جزاهم الله عنا خير الجزاء وما كتبوه من أخبار الصدر الاول يدل على اغراق في حرية القلم وبيان الحقيقة ما أظننا نستطيع ان نقفوه أثرهم في هذا العصر اذا أراد أحدنا ان يكتب تاريخ واحد من الملوك من معاصريه . وانما تجنبوا البحث في الاسباب والنتائج وتعليق آرائهم الخصوصية على الاخبار لاسباب عديدة لا تخفى على من له وقوف على أحوال المسلمين وشدة ما أوجده علماءهم من الارتباط الشديد بين الدين والسياسة حاشا للمعتزلة والشيعة فانهم علقوا على أخبار الصدر الاول أفكارهم الخصوصية لكن من جهة دينية لا من الجهة الاجتماعية والسياسية وغلوا في ذلك غلوا شديدا ولا سيما الشيعة حتى ظهر التعامل على كلامهم ظهورا لم يبق له ادنى اعتبار عند من سواهم والله در امام المؤرخين وفيلسوف العمران العلامة ابن خلدون الذي سبق كل كتاب المسلمين والمؤرخين باستقصاء فلسفة التاريخ في مقدمته الشريفة فكان خير قدرة لمن كتب ويكتب بعده في هذا الباب سواء من أهل المشرق أو من الافرنج الا انه افرد آراءه الخصوصية بمقدمة تاريخه المشهورة ولم يأت بها في غضون التاريخ بخالفته في هذه الطريقة لما يترتب على الايمان بالشواهد في محامها ومحكمة الخبر عند ايراده من الاثر النافع في النفوس وان أكن انا وأمثالي عالة عليه لا ندرك له شأوا في الآراء العالية والمذاهب الصحيحة واني يدرك الظالم شأوا والظالم

واني لما رأيتني أشعر بالحاجة الى التوسع في تاريخ الصدر الاول كما

شعر بها ذلك الفاضل تبسطت في بعض المواضع من هذا الجزء أكثر مما اشترطته على نفسي مراعيًا فيما قلت ونقلت جانب الأدب وحسن الأداء الواجب على المؤرخ الذي لا غرض له مع شخص بعينه أو فريق مخصوص وإنما غرضه بيان الحق وتوخي الحقيقة فإن أخطأت في شيء مما قلت فاستغفر الله منه وإنما هو رأي أبدي فلا يؤاخذني المخالفون لي في هذا الرأي لاني مؤرخ لا متكلم ولا جدلي ولا فقيه . وسألم في بنية الكلام على الصدر الاول بشيء مما بدأت به رغم تكلمي تجنب الخوض في أخبار القوم وأراعي على قدر الامكان ما أخذته على نفسي من التأدب وعدم الاسترسال في النقل اجابة لرغبة الراغبين والله الموفق والمعين

وطلب مني فاضل من أفاضل بيروت ان أوفق بين ما نقلته في الصفحة ٨٦ من الجزء الاول من قول أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أكبر مني وأكرم وأنا أسن منك : وبين ما نقلته في الصفحة ١٢٧ من أن أبا بكر توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة مع ان من الثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي رله من العمر ثلاث وستون سنة فيكون أكبر سنًا من أبي بكر بما يوازي مدة خلافته بعد انبي صلى الله عليه وسلم وهي سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام

والجواب عن هذا ان التوفيق معتمد في الحقيقة ما لم يشبث ان أبا بكر توفي وله من العمر أكثر من ثلاث وستين والاكثر على انه لم يتجاوز هذا السن واما رواية يزيد بن الاصم فهكذا نقلها السيوطي عن أحمد وابن عساكر ولكن جاء في رواية أخرى لابن أبي شيبه ولابن عساكر أيضا ان الذي سئل وأجاب هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر

وتنبيه المنتقد الى ما نبهنا اليه يرجح ان الرواية الثانية هي الاصح وقد كنت قصدت ان أشير في هامش الكتاب الى هذه الرواية لما ذكرت الرواية الاولى فأنسيت على ذلك فلما انتقد الشكر على التنبيه لهذا الامر

وانتقدت علي مجلة المقتطف الغراء اختصارى في الكلام على فتح مصر في الجزء الثاني مع أني ذكرت في نفس الفصل الذي كتبتة ثمة عن فتح مصر ان فتحها لما كان عن يد عمرو بن العاص فقد دعاني ذلك لترك الاستفاضة في الكلام على فتحها الى سيرة عمرو والظاهر ان المنتقد لم ير تلك الجملة لهذا أخذ علي ذلك الاختصار وقد بسطت الكلام على فتح مصر في هذا الجزء بسطاً أرجوي أن يكون وافياً بالعرض

وانتقد علي المقتطف أيضاً انكاري على المتأخرين ذكرهم خبر خالد ابن الوليد وحقاقه بأهل دمشق وقتلهم وجزمي بأنه خبر باطل لم يرد في تاريخ من التواريخ الاسلامية الصحيحة فرأى المقتطف انه ورد في تاريخ اسلامي وهو فتوح الشام المنسوب للواقدي واني نقلت عنه أخبار فتح الشام فكيف أنكر هذا الخبر وعين الصحف التي ورد فيها ذلك الخبر من الكتاب المذكور ولعل الكاتب الفاضل لم يساعده الوقت على قراءة ما قلته في افتتاح الكلام على فتح دمشق من اني نقلت أخبار الفتح عن تاريخ الطبري فلو قرأ ذلك الفصل برمته وطبق ما أورده عن أخبار فتحها على الطبري لوجده منقولا عنه حرفاً بحرف . ولعله لم يستقص أيضاً الفصل الذي ورد تحت عنوان (بطلان خبر) كله ولم ير ما قلته فيه (من ان ذلك الخبر لم ينقله أحد من ثقات المؤرخين من المتقدمين وربما يكون نقله المتأخرون عن كتب القصاصين كفتوح الشام وأمثاله) ولو قرأ هذه الجملة لما استند في تأييد

الخبير على فتوح الشام الذي وهنت خبره في نفس الفصل واني مع شكري
 للمقتطف على اعطائه كتابي نصيبا من الانتقاد وحظاً من العناية التي
 تدل على احلاله منه محل القبول استسمح كاتبه الفاضل من أخذي عليه
 اعتماده كتاب فتوح الشام من التواريخ الوثيقة مع انه كتاب من كتب
 المغازي والقصاصين التي لم يعرف واضعوها الى الآن وانما نسب هذا
 الكتاب الى الواقدي لكثرة ما عرف عن الرجل من رواية الاخبار ،
 هذا من وجه ومن وجه آخر فان الثقة من أهل الاخبار والمحدثين
 يوهنون رواية الواقدي فلو فرض صحة نسبة الكتاب اليه فانه عندنا غير
 موثوق ولنا مندوحة عنه بمثل تاريخ الطبري الذي هو أعظم تاريخ كتب
 في القرون الاولى ويتلوه غيره من كتب التاريخ الوثيقة وكلها لم تذكر
 ذلك الخبر : وفي كل حال أشكر مجلة المقتطف التي أخذت بانتقاد كتابي
 دون كثير من المجلات التي كنت أتمنى لو تحذو حذو المقتطف الاغر لما
 في ذلك من التعاون على استجلاء الحقائق التي هي مرامي أفكار الباحثين :
 انتهى الجزء الثالث بحمد الله



فهرست

— الجزء الثالث من أشهر مشاهير الاسلام —

صحيفة	صحيفة
٥٢٨ صحبته	أبو عبيدة ابن الجراح
٥٢٩ (باب) حروبه وفتوحاته	٥٠٤ (باب) حاله في الجاهلية
٥٣٥ (دعوة المسلمين الى الاخاء والمساواة أوما نشأ عنها)	نسبه وأصله
٥٤١ وقائع القادسية	٥٠٤ سيرته في قومه ومكانته عندهم
٥٤٩ فتح المدائن عاصمة الاكاسرة	٥٠٥ ((باب) اسلامه وصحبه الاسلامه
٥٥٦ (باب) تخطيط الكوفة وامارته عليها	٥٠٥ صحبته
٥٥٨ (باب) نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة	٥٠٨ (باب) حروبه وفتوحاته بالشام
٥٦٢ اعتزاله الفتنة	٥١٠ كلمة في العمال
٥٦٦ (باب) وفاته وولده وصنفته	٥١٣ باب أخلاقه وسيرته
٥٦٧ صفته	٥١٨ تنييه
٥٦٧ ولده	٥١٨ (باب) وفاته
عمر بن العاص	٥١٩ وصيته
٥٦٧ (باب) حاله في الجاهلية	٥٢٠ خطبة معاذ بعد وفاة أبي عبيدة
نسبه وأصله	٥٢١ كلمة في القبور
٥٦٨ صناعته ومكانته في قومه	سعد بن أبي وقاص
٥٦٩ (باب) اسلامه وصحبه الاسلامه	٥٢٥ (باب) حاله في الجاهلية
٥٧٢ صحبته	نسبه وأصله
٥٧٤ (باب) حروبه وفتوحاته	٥٢٥ مكانته عند قومه وصناعته
افتح مصر وبرقة	٥٢٦ ((باب) اسلامه وصحبه الاسلامه

صحيفة	صحيفة
٦٢٩ أخباره مع معاوية وكلمة في الفتنة	٥٩٣ (تحقيق الكلام في حريق مكتبة
(باب) نبذ من أقواله وأخباره	الاسكندرية
٦٤٧ أقواله	٦٠٠ عود الى خبر الفتح
٦٥٠ خطبة له	(باب) ولايته على مصر
(باب) وفاته وولده (وفاته وكلمة	٦٠٣ آثاره فيها وأخباره مع عمر
٦٥٦ (بجملة فيه)	٦١٦ كلمة ثانية في أهل الذمة
٦٥٩ ولده	٦٢٢ عود لخبر عمرو
٦٦٠ أجوبة استناد	(باب) دهاؤه وأخباره مع عثمان
	٦١٦ ومعاوية وكلمة في الفتنة
	أخباره مع عثمان



كِتَابٌ

انتها سيرة
الملك الناصر
الملك الناصر
الملك الناصر

في

الجزء الثاني
والسبب

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الرابع من المجلد الأول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان)

ومن اشتهر في دولته

مطبعة أميرية مستقلة بمصر

سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م

كِتَابُ اِسْتِزْهَارِ اَعْلِيَاءِ اَمْسَابِ اَسْلَامِ

فِي

اَلْحَرْبِ وَالسَّبَبِ

﴿ تَأَلِيف ﴾

رَفِيقُ بَكْرِ الْعَظْمِ

﴿ الجزء الرابع من المجلد الأول ﴾
(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان)

ومن اشتهر في دولته

طبعة هندية بالموسكي بمصر

سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م



عثمان بن عفان



﴿ باب ﴾

﴿ حاله في الجاهلية ﴾

(نسبه وأصله)

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي مجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو وكنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما ولد في السنة السادسة بعد الفيل أمه اروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وأمه البيضاء أم حكيم بنت عبد المطاب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ صناعته ومكانته في قومه ﴾

كان عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك في صدر الجزء الأول وقدم الشام مرة في تجارة في رواية لابن عساكر وكان غنياً كريماً حسن الشيمة محبوباً في قومه وأما عندنا محترماً لديهم يدل ذلك عليه ما أخرجه ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان في قریش محبباً يوصون إليه ويعظمونه وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهي تقول

لأحبك والرحمن حب قریش عثمان

— ❦ باب ❦ —

❦ اسلامه وصحبه ❦

(اسلامه)

كان اسلامه بدعوة أبي بكر رضي الله عنه وكان لابي بكر نظر واختبار ومعرفة برجال قريش وأخلاقهم وكان لقريش ثقة به وركون اليه ولعلمه بنقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة المناد والمكابرة دعاه الى الاسلام هو والزيبير بن العوام وطاحه بن عبيد الله كما في أكثر كتب الاخبار والحديث فاجابوه واسلموا فكانوا من السابقين الاولين الذين لهم فضل السبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع اساس التوحيد الذي هدم بعد اركان الوثنية واستفاض نوره في ارجاء الارض وكان لعثمان رضي الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للاسلام ومعاونة نبيه عليه الصلاة والسلام كما استرى بعد لا ريب في ان الاسلام انما قام بقوة الهية وروح عالية اودعت فيه وجعته سهلاً مقبولاً لدى العقول حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمنعنا ان نقول ان نفر الذين سبقوا الى تلقيه كانوا دعامة الاسلام وممهدي طريقه وناصري دعوته والقدوة الصالحة للعرب في اتباعه لما انهم من اخيار قريش ووجوه العرب وصریح ولد اسماعيل لذا اثني عليهم القرآن وقرهم منه النبي عليه الصلاة والسلام ومما رواه ابن الاثير في أسد الغابة عن ابن عباس ان قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الآية نزلت في عشرة: أبي بكره: وعمر: وعثمان: وعلي: وطاحه: والزيبير: وسعد: وعبد الرحمن بن عوفى: وسعيد بن زيد: وعبد الله بن مسعود: ومن قرأ تاريخ النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بامعان علم فضل عثمان واخوانه من السابقين رضوان الله عليهم بسبقهم للاسلام وقيامهم باعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة مع ما يمهّد من امر كل دعوة من البطء في السير والمناهضة التي تلقاها من امراء العوائد والتقيد في كل الأهم فجزاهم الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء
(صحبته)

كان في صحبته محبوباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرماً عنده عزيزاً عليه فباه من كرامة المصاهرة ببنتيه بما يغبط عليه تكريماً له وتقديراً لحسن بلائه في الاسلام واخلاصه في تأييد الدعوة ومبادرته لتلقى كلمة التوحيد فقد روى ابن الاثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما من المحدثين واهل الاخبار ان عثمان لما اسلم زوجته رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبنته رقية (وفي رواية السبوطي انه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة يوم ظفر رسول الله بالمشركين في وقعة بدر وكان عثمان (رض) تخلف في المدينة لاجل ترضيها فضرب له رسول الله (ص) بسهم فعد لذلك بدرياً وان لم يحضر وقعة بدر ثم زوجته بعدها بأبنته أم كلثوم ولذا سمي ذا النورين اي لانه كان ختن رسول الله على بنته وتوفيت أم كلثوم في السنة التاسعة من الهجرة فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ان لنا ثلاثة لزوجناك وهذا يدل على مكاتته عنده وثقته به وحبّه له ويحق له ان يرى من نبيه مثل هذا التفضل لتغاليه في طاعته واداء واجب الصحبة له وصبره بين يديه على المسكاره واستمسكه بعروة الاسلام وبذله ماله في سبيله وتحمله الاذى من اجله ومن ذلك ما اخرج ابن سعد

عن محمد بن الحارث بن ابراهيم التيمي قال : لما أسلم عثمان بن عفان اخذه
 عمه الحكم بن ابي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال ترغب عن ملة آباءك
 الى دين محدث والله لا أدعك ابداً حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان والله
 لا أدعه ابداً ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه :

ولما رأى ان اضطرهاد قريش له واقع لا محالة وان الفرار بدينه أسلم
 هاجر الى الحبشة مع رقية بنت رسول الله (ص) فكان أول من هاجر ففى
 رواية عن أنس قال : اول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال
 النبي (ص) صحبهما الله ان عثمان لأول من هاجر بأهله بعدلوط : ثم هاجر
 الهجرة الثانية الى المدينة

ومما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله وفي
 منفعة المؤمنين تجهيزه جيش العسرة بالف بعير فقد نقل في الاستيعاب عن
 قتادة قال : حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وخمسين فرساً ونقل
 في رواية اخرى انه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الالف
 بخمسين فرساً وجيش العسرة كان في غزوة تبوك

واخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة
 قال : جاء عثمان الى النبي (ص) بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها
 في حجره فجعل رسول الله يقابها ويقول — ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم — مرتين
 ومن هذا القبيل أيضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها
 وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبد البر في الاستيعاب ان بئر رومة كانت ركية
 ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله (ص) : من يشترى بئر رومة
 فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان

اليهودى فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشتري نصفها باثنى عشر الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان (رض) ان شئت جعلت على نصيبي قرنين^(١) وان شئت فلي يوم ولك يوم : قال بل لك يوم ولي يوم . فكان اذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودي قال أفست علي ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتره بمائة آلاف درهم^(٢)

ومن هذا القبيل أيضاً زيادته في مسجد رسول الله (ص) من ماله وذلك ان رسول الله (ص) قال : من يزيد في مسجدنا : فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده في المسجد . هكذا ذكره ابن عبد البر ورواه غيره بهذا المعنى أو ما يقرب منه

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الاعمال جميل الصحبة حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين لهذا اجل النبي (ص) قدره ونوه باسمه وقد وردت عن النبي (ص) احاديث كثيرة تشهد بفضله فليراجعها من احب في كتب الحديث وحسبه انه أحد العشرة الكرام حوارى النبي عليه الصلاة والسلام وأحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى واخبر ان رسول الله توفى وهو عنهم راض وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطي قال ابن عباد : لم يجمع القرآن من الخلفاء الا هو والمأمون : وقد شهد مع النبي (ص) بعض المشاهد وكان يستخلفه على المدينة في بعضها ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان لان هذه كانت من اجله وذلك لما ارسله رسول الله الى أهل مكة رسولاً ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بان عثمان

(١) حبلين (٢) وفي بعض الروايات ان عثمان هو الذي حفر بئر رومة

قد قتل فجمع اصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال اهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بان عثمان لم يقتل وهذا يدل على مكانته عنده وحبه له
 اخرج الترمذي عن انس قال لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله الى اهل مكة فبايع الناس فقال النبي (ص) : ان عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله . فضرب باحدى يديه على الاخرى فكانت يد رسول الله (ص) لعثمان خيراً من أيديهم لانفسهم :

— ❦ — باب ❦ —

(خلافته والشورى وكلمة في البيعة أو الخلافة والدين)

❦ كلمة في الخلافة والدين ❦

علم القاريء مما بسطناه في الجزء الاول والثاني عن كيفية استخلاف ابني بكر وعمر رضي الله عنهما وبيعهما ان الاولى اعتدها عمر فلتة وقي الله المسلمين شرها لانها لم تكن شورى بين المسلمين ومع ذلك فقد رضيها المسلمون أتم رضی ولم يخالف على أبي بكر احد من الصحابة ورضي بهامن خالف ولو بعد حين . وان الثانية تمت لعمر بعهد من أبي بكر ثم برضا الامة وان عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً ويؤخذ من مجمل ما نقلناه بهذا الصدد ان البيعة وان كان يتوقف عقدها على رضی الجمهور الا انها لم تتأسس على قاعدة محض الاختيار اعني اختيار الامة او من ينوب عنها من أهل الحل والعقد ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الاسلامية اقرب للجهورية منها للملكية وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحة الى آخر على شرط تقييد الامير بقانون الشورى لكان اسلم عاقبة وأسد

لذرائع الخصاص والانتقام كما قال ذلك معاوية بن أبي سفيان لابن حصين حين وفد عليه ^(١) ولكن لما لم تكن كذلك واخذ اصل البيعة شكلاً بين شكليين شكل الشورى وشكل الاستبداد او شكل الاطلاق والتخصيص تولدت في ثنايا الخلافة جرائم النزاع حتى افضى الامر بعداً الى التغالب والغالب بالضرورة قهراً قلما يراعي اميال الامة وتحري قاعدة الشورى التي نوه بمحاسنها الشرع فلا جرم ان تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها الى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الاسلام غالب للمسلمين على امرهم كما حصل بعداً وكان سبباً عظيماً لعمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول

(١) قالوا ان زياد بن أبيه اوفد ابن حصين على معاوية فخلاه به ليلة فقال له يابن حصين قد بلغني ان عندك ذهنًا وعقلاً فاخبرني عن شيء اسألك عنه. قال سألني عما بدا لك قال اخبرني ما الذي شئت امر المسلمين وملائهم. وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان قال ما صنعت شيئاً. قال فسير علي اليك وقاتله اياك. قال ما صنعت شيئاً. قال فسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم. قال ما صنعت شيئاً. قال ما عندي غير هذا يا امير المؤمنين. قال فانا اخبرك انه لم يشئت بين المسلمين ولا فرق ادواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر وذلك ان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله اليه وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لامر دنياهم اذ رضى رسول الله (ص) لامر دينهم فعمل بنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت الى ذلك نفسه ولو ان عمر استخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف اه

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ولكن عمر رضي الله عنه لم يرد فيما صنع الا الخير لانه رأى ان لا يحمل تبعه الخلافة ميتاً كما تحملها حياً فلم يعهد الى شخص بعينه وخاف ان يتركها لرأي الامة واختيارها فيقع الخلاف الذي اشار اليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضي الله عنه لا يقع

الاسلام حتى اذ آن اوان الراحة والنزوع الى التمتع بجني الاسلام أخذ ذلك الضعف يظهر في كل جزء من اجزاء الامة وفي كل عضو من اعضائها حاكما كان أو محكوما حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع : لا وقوف معه : من شاهد ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة في ابان زهوها

ان الدول ما زالت تقوم وتقع وتضعف وتقوى والامم كذلك غاية ما في الامر ان الضعف اذا تناهى يغير احيانا شكل الأمم كما لو قيل ان الرومان أخلفهم الطليان وان اليونان أخلفهم البرنطيون وان هولاء أخلفهم الاروام والاصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده في شكل آخر ولو مزيجاً واقام له دولة غير الاولى . وهكذا الشأن في كل أمم المغرب مع ما لاقته من ضروب الشقاء والاستبداد وما انتابها من القوة والضعف فانها ما زالت تسقط وتقوم وتعالج انواع الارزاء ، وتحاول بمد الهبوط الى الحضيض العروج الى السماء ، حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن ، وتمصت في شكل جديد لم تر مثله عين الزمان

رب سائل يسأل كيف اذن لم يتلاف المسلمون امر ذلك الضعف واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لانهاية له غير الموت والخذلان مع ما يشاهدونه من حال الملل الاخرى التي صار اليها ملك الاسلام . فالجواب عنه ان ذلك الضعف الذي اشرنا الى انه كمن في ثنایا القوة منذ تأسست دولة المسلمين انما منع المسلمين عن تلافيه بل وألجأهم للاعراض عن معالجته امران : الاول : ما قد ناه من عدم توفر شروط الشورى والاختيار في البيعة بحيث اخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج

اليها من طريق القوة والتغالب فوجد نزاعاً مستمراً من اجلها في الامة
أفضى الى مصير الامر ليد الغالب والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجاري
رغائب الأمة بالضرورة

والامر الثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل
لاولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين الاخذ على أيدي الرعية وأفواهاها
باسم الدين وجعل الحياة السياسية الامة حياتاً دينية لا سبيل معها لنوابغ
الامة وعقلاتها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل
عصر سواء كان في حياة الامم السياسية أو حياتها الاجتماعية لاسيما بعد ان
قالوا بحرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع وهذا ما جعل ذلك
الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نمواً جعلها تأنس بحياة السكون
والاستسلام وتعطى بأزمته الى الامراء والحكام حتى في عصر زال فيه
الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للامراء وجوباً دينياً وعرف أكثر عقلاء
المسلمين ان الدين لن يكون مانعاً من قيام الدول على قاعدة مراعات الاصاح
وانما هو تأثر النوس بحكم العادة المأثورة للاباء أخذ باعثة الابناء الى سلوك
سبيل الاقتداء

واعلم ان الشارع جَوَّز الاجتهاد باحكام المعاملات دون العبادات وهي
العقائد والاعمال لان الأولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية والثانية تتعلق
بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لانها قطعية واما المعاملات
فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة في وضع
الاحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى . هذا في المعاملات فما بالك بامور
الامة السياسية التي يناط بها قيام الدول لاجرم انها أولى ان تعتبر دنيوية

وان تكون حياة لذلك المسالمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا ان الكتاب الكريم أمر بالشورى ووعده المؤمنين بالاستخلاف فى الارض وان فى هذا اشارة الى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورى فاستلزم ذلك ان تكون دينية اذ هذه اصول او كليات يمتشى عليها ما يمتشى على كليات الاحكام الأخرى من جواز الاجتهاد فى جزئياتها وفروعها لجمعها دائرة من المصلحة الدينية . ومقومات الحكومة كثيرة لا تنحصر فى الكليات ولا تحتص بزمان او مكان بل هي تابعة للحاجة سائرة مع ترقى الزمان ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لانها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة

لا جرم ان الصحابة عرفوا هذا الاصل فخرج الخلفاء الراشدين منهم الى الشورى فى تدبير امور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفين ما فيه الكفاية وعرفوا ان لهم ما وراء ذلك الاصل ان يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك لانه منوط بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة الدولة فأخذوا اصول الحكومة الادارية عن الفرس كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الارضين واحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ وغير ذلك مما مبرك ذكره فى هذا الكتاب وقاتهم ان يأخذوا عن الرومان اصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين افراد الأمة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي اوجبها الكتاب الكريم وانما أذهلهم عن هذا ان ليس لديهم تاريخ فى اصول الحكومات يرجعون اليه وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاورتهم الرومانيين فلجأوا اناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا

الامر على وجهه حتى جاء عصر كان الامام فيه هو المتساط على كل شؤون الدولة تساطاً ملازماً لتساطه الديني فكما ان له ان يذيب عنه اماماً في الصلاة فله ان يذيب عنه قاضياً للقضاء وكانت الخلافة لذلك اشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدّى الى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجود الافكار على مبدأ الخضوع المطلق للامير باعتبار ان الامير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل

ان اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حول الاحزاب السياسية التي تقوم في الدول خير الأمة ومصاحبة الشعب الى فرق دينية كانت في الاسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين ، ومثاله ان الاحزاب السياسية التي قامت في الصدر الاول لمطلق الغرض السياسي أو الانتصار لزيد والاخذ بناصر بكر ما لبثت ان انقلبت الى فرق دينية ومشت الى الانتحال في الدين كالخوارج مثلاً فانهم بعد ان كانوا يذهبون الى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام في أمور الدين والدنيا انقلبوا الى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيمة فانهم بعد ان كانوا ينتصرون لعلي رضي الله عنه لا اعتقاد انه أهل للخلافة ويريدونه عليها ولو بالقوة انقلبوا ايضاً الى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوباً دينياً وانفردوا بمذهب خاصة كلها ترمي الى الدين والدين ، وكان في غضون ذلك ما كان من الفتن التي انهكت قوى المسلمين ، وصبغت بدمائهم اديم الارض باسم الدين . والدولة الاسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق ، والتعزب والافتراق ، في مركز واحد ومتجهة الى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير الا بتحولها من الشررى

الى الاستبداد مع ان المعهود في الدول التي تنتابها الفتن وتقوم فيها الاحزاب ان ينتاب صبغتها التغيير وتتقلب اشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الاحزاب السياسية في كل مكان

هذا الاجمال يثبتك كيف استحكم داء الضعف في الأمة الاسلامية مع انه عارض قد كان في الامكان تلافيه قبل ان يستحيل الى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر أثره حتى على أعمال المسلمين واخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم بحيث صاروا لا يقبلون أي جديد الا باسم الدين ويرفضون كل امر نافع اذا لم يعرف عن اسلافهم الميتين حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية وهم يدافعون الخير ويأبون مجارة الأمم لمطلق التوهم في ان مجارة السابقين خروج عن الدين وان الاسلام والعباد بالله قد حرّم كل امر نافع على المسلمين الا ما قال بحمله شيخ من الشيوخ الماضين ، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة في الاولين ولا الآخريين ، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة ان الاسلام بريء مما يزعمون . واليك مثالا من هذا الهوس الذي جعلوه آلة لهدم تعاليم الاسلام وهم لا يشعرون

قامت في هذه الاثناء فتنة كبرى بين أميرين من أمراء نجد وهما يتنازعان الامارة فرأيت بعض نبهاء النجديين ونصحته في تلافى اسباب هذه الفتنة بالانضمام الى الدولة العثمانية قبل ان تمتد الى البلاد يد اجنبية فأجابني ان هذا منى النفوس لكن النجديين يأبون دخول المستحدثات العصرية الى بلادهم ولا سيما نظام الجندي الحديثة والدولة العثمانية تريد على مثل هذا النظام وهو في نظرهم من الحرام

فانظر يا اخي الى هذه الامة التي خاضت بنجيلها على عهد الفتح الاسلامي شطوط المحيطين وبلغت دولتها من القوة الحربية مبلغاً لم تصل اليه دولة قط كيف بلغ بها الهوس بالدين الى هدم أهم ركن من اركانها وهو الجهاد الذي لا يتم الا بالعمل بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة) الآية ومن البديهي ان مبلغ الاستطاعة في هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوّة الاعداء القائمة بنظام الجندية ايضاً وترتيبها على هذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذي ثبت عند كافة الامم انه خير ما انتهى اليه العقل البشري في استكمال اسباب القوّة وحفظ البيضة والزود عن حياض الملك والاستقلال هذا من وجه ومن وجه آخر فان نظام الجندية الحديثة الذي يراه اولئك القوم من المحرّات له مزية اعداد الامة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل اعباء الجندية حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الاخلاص الى ظل القصور وهذا خلق طبيعي في العرب فما الذي يدعوهم الى الهروب منه واعتقاد حرمة الآ ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين على غير علم بأنها تهدم بهذا الهوس اركان الدين، وتحدّر في تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين، وبالاجمال فان حياة المسلمين السياسية لما لم تقم على اصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياتاً دينية ترك فيها القياد الى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما ستري بعدُ وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين في كل شؤونها الدنيوية. على ان اصطباغ الأمة بهذه الصبغة الدينية وان تأتي عن جعل الحياة السياسية حياةً دينية كما قدمنا الا ان الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها الا تحري

المصلحة على قدر ما وصل اليه علمهم واجتهادهم وفيما عدا هذا فانهم لم يخرجوا أنفسهم ولا المسلمين في امور الدولة الادارية واور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما اخرج هؤلاء بعد سوء الفهم وندرة المفهمين اذ الصحابة أخذوا عن مشركي الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ اليه علمهم من الامور النافعة التي هي من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تخرج في الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً في سيرة عمر رضي الله عنه

(خير الشورى وخلافة عثمان)

قلنا في الجزء الثاني شيئاً من خبر الشورى عماروا ابن عبد ربه في العقد ووعدنا باستيفاء البحث في هذا الجزء وقد رأينا روايات كثيرة في خبر الشورى أعدلها لهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبري فأثرنا نقله على غيره من الروايات لوثوقنا باعتدال الطبري وتحريه لأصدق الحديث وقد روى الطبري في أول قصة الشورى ما هو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه ان عمر رضي الله عنه لما عهد للستة أمرهم بالاجتماع قريباً منه ليتشاوروا فيما بينهم فاجتمعوا وتاجوا ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله ان أمير المؤمنين لم يمت بعد : فأسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا اجبون فاذا مت فتشاوروا ثلاثة ايام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطاحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه أمركم . ومن لي بطلحة : فقال سعد بن أبي وقاص . لنا لك به ولا يخالف ان شاء الله . فقال عمر أرجو ان لا يخالف ان شاء الله . وما أظن ان يبلي الا أحد هذين الرجلين . علي وعثمان . فان

ولي عثمان فرجل فيه لين . وان ولي عليّ ففيه دُعاة وأحر أن يحملهم على طريق الحق . وان تولوا سـمداً فأهلها هو والآ فليستعن به الوالي فاني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف — ونم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدّد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الانصاري . يا أبا طلحة ان الله عزّ وجلّ طالما اعزّ الاسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم

وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم . وقال لصُهيب صلّ بالناس ثلاثة ايام وأدخل عليّاً وعمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقمّ على رؤسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبي واحد فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبي اثنان فاضرب رؤسهما فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكوا عبد الله بن عمر فأبي الفريقين حكّم له فليختاروا رجل منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين ان رغبوا عما اجتمعوا عليه الناس

فخرجوا فقال عليّ اتقوم كانوا معه من بني هاشم : إن اطيع فيكم قومكم لم تؤمروا ابدأ : وتلقاه العباس فقال . عدلت عنا . فقال وما علمك . قال . قرن بي عثمان وقال كونوا مع الاكثر فان رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن . فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بله . أني

لا ارجو الآ^(١) احدها . فقال العباس . لم ادفعك في شيء الا رجعت الى مستأخراً بما اكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله (ص) ان تسئله فيمن هذا الأمر فأبيتَ وأشرت عليك بعد وفاته ان تعاجل الامر فأبيتَ وأشرت عليك حين سمّك عمر في الشورى ان لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عني واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل لا الا ان يولوك واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الامر حتى يقوم لنا به غيرنا . وأيم الله لا يناله الا بشر لا ينفع معه خير فقال عليّ امان بقى عثمان لا ذكره ما أتى . ولئن مات ليتداولها بينهم . ولئن فعلوا ليجدني حيث يكرهون ثم تمثل

حلفتُ بربِّ الراقصات عشيّة غدون خِفافاً فابتدرن المُحصِّبَا
لِيَخْتَلِبِنِ رَهْطُ ابْنِ يَعْمَرَ مَارِئاً نَجِيماً بنو الشُدَاخِ وَرِداً مُصَلِّبَا
والتفت فراى أبا طلحة فكره مكانه . فقال أبو طلحة . لم تُرَعِ ابا الحسن .
فلما مات عمر واُخرجت جنازته تصدّى عليّ وعثمان ايّهما يصلي عليه
فقال عبد الرحمن كلا كما يجب الامرة لستما من هذا في شيء هذا الى
صهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على امام : فصلي
عليه صهيب

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة
ويقال في بيت المال ويقال في حجرة عائشة باذنها وهم خمسة معهم ابن عمر
وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة ان يحجبهم وجاء عمر وبن العاص والمغيرة بن
شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان أن نقولا حضرنا

(١) لعل (الآ) زائدة اذ الظاهر ان ليس معه احد يستثنيه هنا فليحذر

وكنا في اهل الشورى .

فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة . انا كنت لأن تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون

فقال عبد الرحمن أيتكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم فلم يجبه أحد فقال . فأنا الخجاع منها . فقال عثمان انا أول من رضي فقد سمعت رسول الله يقول (امين في الارض أمين في السماء) فقال القوم قد رضينا وعليّ ساكت . فقال ما تقول يا أبا الحسن . قال اعطني موثقاً لتؤثرنّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة

فقال اعطوني موثقكم على ان تكونوا معي على من بدّل وغير وان رضوا من اخترت ولكم عليّ ميثاق الله ان لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آل المسلمين : فاخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لبيّ انك تقول اني أحق من حضر بالامر لقربتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ولكن رأيت لو صرف هذا الامر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط احقّ بالامر ؟ قال عثمان . وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله (ص) وابن عمه لي سابقة وفضل فلان يصرف هذا الامر عني . ولكن لو لم تحضر فايّ هؤلاء الرهط تراه أحقّ به ؟ قال . عليّ . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان . ثم خلا بسعد فكلمه . فلقني عليّ سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً : استملك برحم ابني هذا من رسول الله

(ص) وبرحم عمي حمزة منك^(١) ان لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليّ فاني ادلي بما لا يُدلي به عثمان .

ودار عبد الرحمن لياليه يلقى اصحاب رسول الله (ص) ومن وافي المدينة من امراء الاجناد واشرف الناس يشاورهم . ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يُستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابيه رار^(٢) من الليل فأيقظه فقال . الا اراك نائماً ولم اذق في هذه الليلة كثير غمضٍ انطلق فادع الزبير وسعداً . فدعاها . فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان . فقال له خلّ ابني عبد مناف وهذا الأمر : قل نصيبي لعليّ . وقال لسعد اذا وانت كلاله^(٣) فاجعل نصيبك لي فأختار . قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعليّ احب اليّ . أيتها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤسنا . قال يا أبا اسحق اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل وجعل الخيار اليّ لم أردّها اني أريت كروضة خضراء كثيرة العشب فدخل فخل لم ارّ فخلاً قط اكرم منه فمرّ كأنه سهم لا يلتفت الى شيء مما في الروضة حتى قطعها لم يعرج . ودخل بعير يتلوه فأتبع أثره حتى خرج من

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعد هي ان أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي أيضاً أم المقوم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هؤلاء اربعة بنو عبد المطلب من هالة وهالة هذه هي عمّة سعد بن أبي وقاص حمزة إذن ابن عمّة سعد وسعد ابن خال حمزة

(٢) اي بعد انصافه

(٣) الكلاله بنو العم الابعاد

الروضة ثم دخل فحل عبقرى^(١) يجرّ خطاه^(٢) يتلفت يمينا وشمالاً ويمضي قصد الأولين حتى خرج ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة ولا والله لا اكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضي الناس عنه قال سعد . فاني اخاف ان يكون الضعف قد ادركك فامض لرأيتك فقد عرفت عهد عمر

وانصرف الزبير وسعد وارسل (اي عبد الرحمن) المسور بن مخرمة الى عليّ فواجه طويلاً وهو لا يشك انه صاحب الامر ثم نهض . وارسل المسور الى عثمان فكان في نجيتهما حتى فرّق بينهما اذان الصبح . قال عمرو ابن ميمون قال لي عبد الله بن عمر يا عمرو من أخبرك انه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليّاً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان فلما صلوا الصبح جمع (عبد الرحمن) الرهط وبعث الى من حضره من اهل السابقة والفضل من الانصار وامراء الاجناد فاجتمعوا حتى التبح (ازدحم) المسجد بأهله فقال . ايها الناس انّ الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الامصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد انا نراك اهلاً لها . فقال أشيروا عليّ بغير هذا فقال عثمان ان أردت ان لا يختلف المسلمون فبايع عليّاً . فقال المقداد بن الاسود صدق عثمان ان بايعت عليّاً قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبي سرح ان اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فثتم عثمان ابن أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو

(١) العبقرى القوي

(٢) الحطام أي الزمام

أمية . فقال عمار ايها الناس ان الله عزَّ وجلَّ أكرمنا بنبيه وأعزَّنَا بدينه فأنِّي تصرفون هذا الامر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لانفسها . فقال سعد ابن أبي وقاص يا عبد الرحمن افرغ قبل ان يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن اني قد نظرتُ وشاورتُ فلا تجعَلُن ايها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليًا وقال عليك عهد الله وميثاقه لتملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لمي . قل نعم . فبايعه فقال علي حبوته حبوده ليس هذا اول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبرتم جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون) والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك والله كل يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول . سيباغ الكتاب أجله . فقال عمار يا عبد الرحمن اما والله لقد تركته وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال يا عمار والله لقد اجتهدت للمساكين قال ان كنت اردت بذلك الله فأنا بك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما اوتى الى أهل هذا البيت بعد نبيهم اني لاعجب لقريش انهم تركوا رجلا ما اقول ان أحدا أعلم ولا أفضى منه بالعدل أما والله لو أجد أعوانا

فقال عبد الرحمن يا مقداد اتق الله فاني خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبد المطالب والرجل علي بن أبي طالب . فقال علي ان الناس

ينظرون الى قريش وقريش تنظر الى بيتها (وفي نسخة تنظر في صلاح شأنها) فتمول ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم ابداً وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكل قريش راض به . قيل نعم فأنى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك ان أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكل الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا ارجب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه . وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن يا أبا محمد قد أصبت ان بايعت عثمان . وقال لعثمان لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا . فقال عبد الرحمن كذبت يا أعور لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة

وكان المسور بن مخرمة يقول . ما رأيت رجلاً بذ^(١) قوماً فيما دخلوا فيه بأشدّ مما بذّهم عبد الرحمن بن عوف

هذا ما رواه الطبري في تاريخه عن خبر الشورى وقد اورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم في الرواية الأولى الا انه اورد فيها مادار من الخطب بين أهل الشورى مما لم تر حاجة لايراده خوف التطويل وزاد فيها ان عبد الرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر فقمع عبد الرحمن مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه وتلكأ عليّ فقال عبد الرحمن (ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيام خدعة . قال وانما سبب قول عليّ خدعة . ان

عمرو بن العاص كان قد لقي علياً في ليالي الشورى فقال ان عبد الرحمن رجل مجتهد وانه متى اعطيته العزيمة ^(١) كان أزهد له فيك ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك . قال . ثم لقي عثمان فقال ان عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبايعك الا بالعزيمة فاقبل : قال فلذلك قال علي . خدعة :

واختلفوا في اليوم الذي بويع فيه عثمان ففي رواية للطبري انه بويع يوم الاثنين ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ وفي رواية أخرى له ايضا ان عثمان استخلف لثلاث مضي من المحرم سنة ٢٤ نخرج فصلى بالناس العصر وعلقه الاصح
(هل هناك تحامل على علي)

هذا ما أورده الطبري من قصة الشورى وانت ترى من ظاهر هذه القصة ان القوم ربما تحاموا على علي رضي الله عنه بصرف الخلافة عنه الى عثمان رضي الله عنه والذي اعتقده اني قريشا وان كانت لا تريد استخلاف علي لاسباب سيأتي بيانها الا ان الخلافة من أبي بكر الى عثمان ثم علي ترتيب طبيعي اتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين والثابت عندهم من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير الى مثل هذا الترتيب ^(٢) في المقام والدرجة التي وضع كلا منهم فيها رسول الله (ص) وعلي

(١) اي متى اسرعت بالتسليم لما يشترطه عليك

(٢) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . وأشهدهم في أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان واقضاهم علي الخ . اخرج أبو يعلى عن ابن عمر ورواه احمد والترمذي عن أنس لكن ليس فيه علي ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم انطلق حتى تأتي أبا بكر فجدده في داره جالسا محتبئا فقل له ان النبي يقرأ عليك السلام ويقول ابشر بالجنة وانطلق الى عمر وانطلق الى عثمان ... الحديث

نفسه يعرف ذلك ويترف به فقد اخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حُرَيْث وعن شُرَيْح القاضي انهما سمعا علي بن أبي طالب يقول (ألا ان خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر. ثم عمر. ثم عثمان) واخرج هذا الحديث الامام احمد وقال الذهبي انه متواتر: كما ان اخلاق الاربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم للخلافة في العصر الذي استخاف فيه ليس باعتبار ان كل واحد أفضل من الآخر أو أهل منه كلا بل ان لكل واحد منهم خصلاً فاضلة تجعله اهلاً لذلك المنصب لكن في الوقت الذي أسند فيه اليه فأبو بكر لما كان رجلاً مسناً طويل الاناة رؤف القلب وله في النفوس هيبه الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة اليه والاسلام غصاً طرياً والايان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية والاعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء في محله وملافات المرض بطيبه يدلك عليه قول ابن مسعود الذي مر معنا في أخبار الردة (لقد قتنا بعد رسول الله (ص) مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان من الله علينا بأبي بكر الخ) وابن مسعود انما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبي بكر (رض) يومئذ وحسب

واخرجه بن أبي عساكر في تاريخه

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله (ص) فتخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان وزاد الطبراني في الكبير فيعلم بذلك النبي (ص) ولا ينكره ومثله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفينا رسول الله (ص) نفضل أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً . وقد ورد كثير من مثل هذه الاحاديث ولا سيما ما يشير منها الى ما يحصل لعثمان وعلي وما يكون من الفتنة في عصرها وكلها تشير الى هذا الترتيب فلترجع في مظانها من كتب الحديث

العاقلة ان ينظر في سيرة أبي بكر وأخباره مع أهل الردة وتأنيه في مثل تلك الخطوب التي استقبلها بعد وفاة النبي (ص) المسلمون فيعلم ان كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبي بكر رضي الله عنه

استخضع أبو بكر اولئك الخارجين بالحرب واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالاحسان اليهم والصفح عن سيئتهم وألان جانبه للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ولما تمهد لهم طريق الفتح وفتح امامهم باب مستقبل سعيد تولد في النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ونفت فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الاسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الاعراب فاحتيج الى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشتد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفا بالشدة والارهاب حازراً لهذه الشروط فعهد اليه أبو بكر بالخلافة وهي له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعهد اليه بها أبو بكر والذي يرجع ما كتبتناه من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان في حاجة الى مثله تسوق الخلافة اليه سوقاً ثم لما كان عمر شديداً بطبعه ميالاً الى النقشف والقصد وقد أخذ على شكائم النفوس اخذاً ضيق في وجوه القوم مذاهب التبسط في العيش والتطلع الى كل رغائب النفوس مع اقبال الدنيا عليهم ومصير ذلك الملك العريض اليهم احتاجوا بعنده الى سائس يبسط اليهم كف العطاء . ويلين لهم جانب العقوبة . ويطلق يدهم في جني ثمرات النصب في ذلك الفتح . وينشر عليهم جناح الرأفة . وكان المترشحون للخلافة من الستة هماعمان وعلي . وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد واناة الشيخوخة

كما كان عليّ معروفًا بالشدّة وحبّ القصد كعمر بن الخطاب أجهت رغائبهم الى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة ايضا لهذا رأينا كل من استشاره عبد الرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا الى هذا بسائقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد باهلية عثمان يدل ذلك عليه مارواه ابن سمد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود انه قال لما بويع عثمان (أمرنا خير من بقي ولم نأل) فاذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضي الله عنه وهذه شهادة ابن مسعود له مع انه ممن ضربهم عثمان وتقم منه فيمن تقم لاجل هذا فليس هناك شيء من التحامل كما يتبادر الى ذهن القارئ من قصة الشورى . وما روي في تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو اذا صح وما اخاله صحيحا فانما هو بمحض رأي عمرو لا يد لعبد الرحمن رضي الله عنه فيه وعمر وسبق الى هذه الرغبة كما سبق اليها غيره من المهاجرين والانصار لاسيما وانه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرته في ماله كما رأيت في سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل الى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعليّ لشدته

وهكذا يقال ايضا عن عليّ في خلافته وانه استخلف في الوقت الذي كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن في طرق الاستمتاع وتفلت بل وأفلت فيه من قيد الرهبة الذي قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة واكبح لجراح النفوس من استخلاف عليّ (رض) لما عرف به من الشدة والورع وحبّ القصد مع بلوغه السن الذي يؤهله لهذا المنصب الرفيع وقد ذهب بعضهم الى ان عليًّا ضعيف الرأي لهذا غلبه على الخلافة

الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضي الله عنه له (لم أدفمك في شيء إلا استأخرت اليّ بما أكره) الى آخر الخبر الذي مرّ في قصة الشورى واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع في الحكم لا نصيب له من التأمل فيما اكتنف علياً رضي الله عنه من الاحوال والبواعث التي بسطناها للقاريء وإنما كان هذا الترتيب في الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعي كما رأيت فإذا ينفع فيه الرأي والحيلة لاسيما وانّ علياً رضي الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمسك بالفضيلة لا ينزع الى خدع السياسة وليس هذا وأيم الحق يعيب يعاب به مثل عليّ وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور اذا لم يلجأ الى الحيلة في بعض الاحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه

وجملة القول انّ ما رؤى من الصحابة من صرف الخلافة عن عليّ أو التنجى عن نصرته بنى هاشم في كثير من الاحوال وان كان فيه شيء من الخوف من سيادة بنى هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ثم استشارهم اذا صارت الخلافة اليهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار الى هذا عليّ في خبر الشورى وأشياء أخرى سنأتي على ذكرها في غير هذا المحل إلاّ انهم كانوا مسوقين الى ذلك ايضاً باحكام الضرورة ودواعي الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهور في بعض الاحيان وهذا ما أراد موافقاً للحقيقة في هذه المسئلة والله أعلم بما وراء ذلك

(اول اعماله في خلافته)

لما بويع عثمان رضي الله عنه خطب الناس خطبة غراء في الوعظ ستأتي في باب خطبه وقيل أرتج عليه لما أراد ان يخطب فقال : ايها الناس انّ اول

مركب صعب وان بعد اليوم اياماً وان أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما
 كنا خطباء وسيعامنا الله : (اخرج ابن سعد) . قالوا وزاد في الاعطيات
 مائة مائة ووفد أهل الامصار : قال الطبري وهو أول من فعل ذلك وكان
 عبيد الله بن عمر لم يزل محبوباً عند سعد بن أبي وقاص منذ أخذه بعد قتله
 الهرمزان وجفينه فلما تمت البيعة لعثمان جلس في جانب المسجد ودعا بعبيد الله
 وقال لجماعة من المهاجرين والانصار . اشيروا عليّ في هذا الذي فتق في
 الاسلام ما فتق . فقال عليّ ارى ان تقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر
 أمس ويقتل ابنه اليوم : وانما أشار عليّ بقتله لانه ثبت يومئذ ان الهرمزان
 لما ضربه عبد الله بالسيف قال لا اله الا الله كما انه لم يثبت اشتراكه مع أبي
 لؤلؤة في جريمة الا بما شهد به عبد الرحمن بن أبي بكر من رؤيته ليلة الحادثة
 مع أبي لؤلؤة وفي يد هذا خنجر سقط منه لما رهقهما عبد الرحمن . وكان عليّ
 شديداً في الحق فأشار بقتله وأشار غيره بعدم قتله والامر كما لا يخفى على
 الناقد يوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج الى أناة وكان ممن حضر يومئذ
 عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ان الله قد اعفأك ان يكون هذا
 الحدث ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .
 قال عثمان انا وليهم وقد جعلتها ديةً واحتملتها في مالي : وانتهى الاشكال

هكذا رواها الطبري قال وكان رجل من الانصار يقال له زياد بن لبيد

البياضي اذا رأى عبيد الله بن عمر قال

ألا يا عبيدَ الله مالك مَهْرَبٌ ولا ملجأ من ابنِ أَرْوَى ولا خَفَرِ

أصَبْتَ دَمًا والله في غيرِ حِلِّهِ حراماً وقاتلُ الهُرْمُزَانِ له خَطَرِ

في آيات . فشكا عبيد الله الى عثمان فدعا زياد بن لبيد فنهاه فانشأ زياد

يقول في عثمان ابياتاً منها

أبا عمرو عبيد الله رهنم فلا تشكك بقتل الهرمزان

وفي رواية أخرى للطبري عن القماذبان بن الهرمزان ان عثمان دعاه فامكنه من عبيد الله قاتل ابيه ليقتله فرجاه المسلمون بالنفو عنه فعنف عنه وفي هذا الخبر نظر لانه لو صح لما بقي علي بن أبي طالب مصراً على قتل عبيد الله حتى خلافته حيث دعا ذلك عبيد الله الى الفرار والانحياز الى معاوية بن أبي سفيان

ومن أحسن اعمال عثمان (رض) التي عملها عند استخلافه كتبه التي كتبها الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس فقد كتب الى كل فريق من هؤلاء كتاباً بلغ الغاية في النصح والارشاد وحمل العمال على طريق العدل وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه وصرفه في وجهه والمساواة بين الناس مسلمهم ومعاهدهم كما سترى ذلك في باب كتبه ان شاء الله

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعد بن أبي وقاص فاني لم اعزله عن خيانة) ففي رواية ان أول عامل بعثه عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبه والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبري واما الواقدي فقد قال ان أسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه ان عمر أوصى ان يقر عماله سنة فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبه على الكوفة ثم عزله واستعمل سمد بن ابن وقاص ثم عزله واستعمل الوليد بن عقبة فان صح ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥

— ❦ باب ❦ —

❦ فتوحاته ❦

(فتح ارمينيا والقوقاز)

(وجغرافيتهما)

تحد ارمينيا من جهة الشمال بالبحر الاسود وكرجستان ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس ومن الجنوب بكرجستان والجزيرة ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود ارمينيا الآن الا ان العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فرمما ادخلوا في ارمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو اران المشتمل على مقاطعتي اروان وتفليس وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا الى داغستان . وشرقاً الى آذربيجان وبحر الخزر واما من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من ارمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموماً الى فتح ارمينيا ولكي يكون القارئ على بينة من الاماكن التي ورد ذكرها في فتح هذه البلاد في كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لارمينيا وما هو تابع للقوقاز رأيت من اللازم التوسع في جغرافية هذين القطرين وقبل ان ابسط جغرافية القوقاز اذكر هنا بعض الاماكن الشهيرة في ارمينيا زيادة في الايضاح

فن مدن ارمينيا الشهيرة خللاط وقاليقلا وارزروم اوارزن الروم (ويقول أبو الفداء انها نفس قاليقلا) والى جهة الغرب منها ارزنجان ثم ارجيش على بحيرة وان وو ان المنسوبة اليها هذه البحيرة وهي في الطرف الشرقي منها

وفي الجهة الشرقية من سلسلة جبال ارمينيا جبل الجودي او اراراط الذي رست عليه سفينة نوح . ومن انهرها الفراء وأراس المعروف عند العرب بنهر الرّس وينحدر من الجبال قرب ارزروم ويمر بين مقاطعتي القارص وارزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كورالآتي من اعالي القارص ويصبان في بحر الخزر

وامّا القوقاز فيحدها شمالا الروسية وجنوبا العجم وتركية آسيا وشرقاً بحر الخزر الذي يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الاسود ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرآن) من قبيل تسمية الكل باسم الجزء . فمن أقسام هذه البلاد الجنوبية ايريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالاً الى داغستان ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري ان العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وانه يمتد غرباً الى آسيا الصغرى . ومن مدن الران الشهيرة ايروان وفيها كنيسة كبرى للارمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب أبواب الابواب^(١) والبيلقان : قال الاصطخري : ليس في أرآن مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس ومن اقسامه الشمالية بلاد الجركس في الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويمر فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الاسود ونهر كوما وترك (ته رك) المذان يصبان في بحر الخزر : ومن

(١) قال القرماني في تاريخه ما خلاصته ان باب الابواب على شاطيء بحر الخزر وان سبب هذه التسمية ان كسرى انوشروان لما بناها جعلها على سور في البحر يمتد مسافة شاسعة وجعل له ابواباً اسكن في كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالبحر من الهجوم على بلاده

أقسامه داغستان على بحر الخزر وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكوا التي فيها منابع النفط ولعالمها التي يسميها القرماني في جغرافيته بالويه . ودر بند على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه الى السهول الشمالية حيث قتل على نهر ترك الذي يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتي الكلام على ذلك

وأما فتح ارمينيا والقوقاز فقد اضطرت الروايات في فتحهما لتعدد النزوات التي غزاها المسلمون لهذه البلاد في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما فبعضها يقول ان الفتح الاول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق وحبيب بن مسلمة الفهري من جهة الغرب وان عبد الرحمن قتل يومئذ في بلنجر وفي بعضها ان عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ هـ في خلافة عثمان وفي بعضها ان الذي قتل في بلنجر اخوه سلمان وذلك سنة ٢٦ وبعضها لا يقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط في غزوته الثانية والذي يؤخذ من مجموع الروايات التي جاءت في فتح ارمينيا ان عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا في بلاد الترك أو الخزر على نهر ترك الذي يسميه العرب نهر بلنجر وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة كل من عبد الرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الاثير في أسد الغابة الا انهما لم يحققا السنة التي قتل فيها سلمان بل قالوا قيل انه قتل سنة ٢٦ وقيل انه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ وقالوا ان أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان والاختلاف في زمن قتل سلمان وعبد الرحمن باختلاف بالضرورة في زمن الفتح أيضاً

والظاهر ان الاضطراب في هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط في سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخي الافرنج ايضاً فقد ذكر ديفرجي ان عبد الرحمن غزا ارمينيا قبل قتل يزدجرد بمدة ولم يبين تاريخ دخوله ارمينيا ثم نقل عن احد مؤرخيهم وهو المسيوسان مرتان خبر دخول سامان وحبيب وفتحهما البلاد في خلافة عثمان سنة (٤٣٩ م) اي سنة (١٨ هـ) مع ان الخليفة في هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وان سامان قتل في بلنجر في هذه الغزات وجلا العرب عن ارمينيا بعد قتله ثم قال ليكن العرب عادوا اليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) واكرهوا امراء البلاد على دفع الجزية

ويؤخذ من هذا ان ديفرجي وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية في مكان الاولى اذ لاخلاف بين المؤرخين في ان العرب دوخوا ارمينيا مرتين الاولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان وقد أتد هذا تواريخ الارمن ايضاً وأشار اليه القس جبرائيل الخانجي في مختصر تاريخ الارمن وان لم يذكر أسماء الفاتحين من العرب في الحرب الاولى والثانية ولم يعين تاريخهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجي بالتاريخ اذ الثابت عنده وعند مؤرخينا ان الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الاولى سنة (١٨ هـ) والثانية (سنة ٢٦ هـ) وانما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً في الفتح الاول والثاني أدخل هذا الوهم على مؤرخي الافرنج لذا رأيت ان أحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد في تاريخ ديفرجي بمختصر تاريخ الارمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول
قد كان بكير بن عبد الله وعُتْبة بن فرقد فتحا في خلافة عمر (رض)

بلاد آذربيجان الواقعة الى الشرق من ارمينيا ولما كتب بكير الى عمر بالفتح كتب عمر الى سراقه بن عمرو وبنزو الباب وجعله على حربها أي اميراً للحرب وجعل عمر على مقدمة سراقه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى احدى مجذبتيه (جناحيه) ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبد الله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة وكتب الى حبيب بن مسامة الفهري ان يمد سراقه وهو يومئذ بالجزيرة ونهض سراقه على هذا الترتيب من البصرة ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة الى ارميننا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهر يار فكاتبه شهر يار واستأمنه ولما فرغ سراقه من الباب بعث الامراء والقواد الى ما يليه من بلاد ارمينيا فارسل بكير بن عبد الله الى موقان وحبيب ابن مسامة الفهري الى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان الى جبال اللان (التوقاز) فاشتبكت جنوده في أطراف ارمينيا مع الامير اوهان ابن كامسارا كان وأخيه ديران فقتلا وتشنت جنودهما وذلك بخيانة أحد قواد الارمن المسمى ساحور الذي خان اوهان وانضم بجيشه الى العرب كما يقول ديفرجي وصاحب مختصر تاريخ الارمن

واما حبيب بن مسامة الفهري فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فهض له تيودور احد امراء البلاد وكانت يومئذ منقسمة على بعضها واجتهد في ان يضم كل امراء ارمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح مع انه كان يساعده على هذا القصد البطريرك استراس الذي يأس من نجاح مساعاه فبات كمداً وبينما كان الارمن يشتغلون في اقامة بطريرك غيره اذ فاجأهم جند الاسلام بقيادة

حبيب بن مسلمة الفهرى ووضعوا الحصار على مدينة دوقان^(١) التي هي مقر البطريك ويقول ديفرجي ان الحصار بدأ في نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعدة (سنة ١٨ هـ) واستمر الى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ هـ) حيث فتحها حبيب ثم أخذ باتمام فتح ارمينيا وكرجستان ففتح وان ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرّس ويسميه الجغرافيون (أراس وأرا كس) ومنها ار الى ارمينية الغربية ثم عطف على ايبيريا التي هي جزء من شروان وكرجستان الحالية واخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى وفي أثناء ذلك مات مرارة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر (رض) على فُرج الباب وأمره بنزو وترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر وكان سكانها من الجهالة والتموحش على جانب عظيم وأمن عبد الرحمن في البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها الى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتي فرسخ من بلنجر ثم عاد الى الباب ولم يزل يردد النزو فيهم حتى قتل في إحدى غزاته على نهر ترك (ته رك) الذي يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان شمالي ارزنجان وبعضهم سلك طريق الباب الى ارمينيا وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن في خلافة عمر أو في خلافة عثمان أم قتل هو في خلافة عمر وأخوه في خلافة عثمان فاذا سلمنا بما رواه الطبري من ان عثمان كان أمد عبد الرحمن بأخيه سلمان وان القارين من جند عبد الرحمن التقوا بسلمان في الطريق فجاهم الله فتكون وفاة عبد الرحمن

(١) وفي مختصر تاريخ الارمن: تفين

في خلافة عثمان ولا عبدة بتعيين السنة التي قتل فيها بل العبدة في الفتح وهل حصل في زمنه أم لا وما لا خلاف فيه أن عبد الرحمن بلغ في فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الأسود في خلافة عمر بن الخطاب أي ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح كان فتحاً هيناً على الجزية ثم تراجع الامراء الذين فرقهم سراقه بن عمرو للفتح كما نقل ذلك ابن خلدون في كلامه على فتح جبال ارمينيا الا عبد الرحمن ابن ربيعة فقد بقي في بلاد الخزر. ومما يؤيد از هذا الفتح لم يكن فتحاً ثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون ايضاً من أن سراقه كتب الى عمر بنخبر الامراء وتوجيههم الى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لانه فرج عظيم : أي ان عمر لم يكن على ثقة من امكان فتح تلك البلاد وتملكها لا تساع فروجها اي ثغورها وتناهي اطرافها التي تحتاج الى كثير من الجند المرابط ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجي ان المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك الى الجلاء عن كل ارمينيا وعادوا اليها بقوة اعظم سنة (٦٤٦ م) أي سنة (٢٦ هـ) وهي السنة التي وجه فيها عثمان (رض) حبيباً وسلمان الى استرداد البلاد وفتح ارمينيا والقوقاز ففتحها وكان الفتح الاول في الحقيقة تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة الى اليوم للدول الاسلامية ولم تنتقض الا في فترات قليلة ثم استتب فيها الامر للمسلمين وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الارمن الى تسليم الارمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازديروس من قبل امبراطور القسطنطينية اذ كان الارمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التي كانت متسلطة عليهم وزالت ساطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى

الامبراطور عليهم فارازدير وس والد سنباط وتولى مقدار سنة ومات وأخلفه
ابنه سنباط

واليك بيان ما ذكره المؤرخون عن سبب ارسال عثمان (رض) لحبيب
وسلمان الى ارمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٢٦ هـ) ولا عبرة بما
يوجد في سياق خبر الفتح الثاني من الشبه بسياق الخبر الاول فان حبيباً
وسلمان سلكا على ما أرى في هذا الفتح عين الطريق الذي سلكاه في الفتح
الماضي اي ان سلمان أخذ الى القوقاز من شرق ارمينيا وحبيباً أخذ اليها من
قلب ارمينيا وغربها وقد أشار ديفرجي في كلامه على فتح ارمينيا الى ان
العرب لما عادوا الى فتحها في المرة الثانية سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) انتهوا الى
اراراط من الولايات التي دخلوا اليها أول مرة

انتقضت ارمينيا وآزر بيجان ايضاً بعد الفتح الذي كان في خلافة عمر
(رض) اما لقلّة الجنود المرابطة في البلاد ودخول الوهن على نفوسهم بعد قتل
عبد الرحمن بن ربيعة ثم تحييمهم الى الاطراف والثغور التي من جهة فارس
والجزيرة . واما لأن الامراء الذين فتحوا البلاد يومئذ اكتبوا من السكان
بالجزيرة ثم تراجعوا الى الثغور كما تقدم ذكره لثقتهم بضعف امراء البلاد
عن النهوض الى الثورة والخروج عن الطاعة . او لعدم كفاية الجند الذين معهم
للمحافظة على البلاد وبسط جناح السلطة على تلك الارحاء السحيقة عن مقر
الخلافة البعيدة عن مستودع القوة والامداد كالبصرة والكوفة والشام فاما
استخفاف عثمان (رض) وعزل عتبة بن فرقد عن ازييجان بلغه ان البلاد
انتقضت فاستغزى الوليد بن عقبة والي الكوفة فزاعها فصالحه أهل كور
آزر بيجان على صلح حذيفة بن اليمان وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي الى ارمينيا

في اثني عشر ألفاً فسار اليها وأخذ ثم انصرف الى الوليد وعاد الوليد الى الكوفة وجعل طريقته على الموصل فلقية كتاب عثمان ان الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعت اليهم رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف فخطب الوليد في الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم ثمانية آلاف فسار بهم الى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسامة الفهري فشنوا الغارات واستفتحوا الحصون

المعروف ان مؤرخينا اذا ذكروا بلاد الروم انما يعنون بها آسيا الصغرى التي كانت يومئذ تابعة لامبراطورية القسطنطينية وكل ما هو تابع لها من الجزر ايضاً وربما اطلقوها احياناً على كل البلاد التي تلي الثغور الشامية والجزرية وهي ارمينيا والاناضول فاذا اعتبرنا هذا الاطلاق في هذه الرواية فيكون فتح ارمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة والآن فيكون مسير هذه الجنود الى بلاد الروم لصدم هجمة أرادها الامبراطور قسطنطين على سورية أو لامتداد أهل ارمينية على حبيب مسامة الفهري كما ترى في الرواية الآتية التي هي أصح الروايات الواردة في أخبار فتح ارمينيا في خلافة عثمان وهي

لما استخلف عثمان (رض) كتب الى معاوية بولايته على الشام وولى عمير بن سعد الانصاري الجزيرة ثم عزله وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها وأمره ان يغزو شمشاط وهي ارمينيا الرابعة أو يغزوها وقد كان حبيب بن مسامة الفهري فتحها مع عياض بن غنم في خلافة عمر ثم أقفلت. وكان لحبيب رضي الله عنه أن رجيل في فتوح الشام والجزيرة و ارمينيا فوجّهه معاوية في ستة آلاف مقاتل الى فتح ارمينيا وقيل بل كتب اليه عثمان يأمره

بذلك فنهض اليها حتى أناخ على قاليقلا سنة (٥٢٦هـ) فخرج اليه أهلها فقاتلهم حتى ألقاهم الى المدينة فطلبوا الصلح على الامان او الجزية فأجابهم الى ذلك بخلا منهم من جلا وأقام من أقام

وقولهم ان حبيبا نهض الى قاليقلا يدل على ان ما يليها من البلاد الى الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة اذ ان المؤرخين لم يذكرها الحبيب قتالاً مع أحد فيها دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه ان بطريق ارمنياقس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة وانضمت اليه امداد أهل اللان وانغاز وسمندر من الخزر . وقال ابن الاثير ان ارمنياقس هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونية وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية . وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذري ولا غيره من المتقدمين في سياق هذا الخبر وانما ذكرها ابن الاثير من عنده وهي خطأ على ما أرى اذ ليست الولايات التي ذكرها ابن الاثير من ارمنيا بل هي من ولايات آسيا الصغرى التابعة لامبراطورية القسطنطينية وانما كانت سيواس قديماً تعتبر من ارمنيا ثم انضمت الى الامبراطورية الشرقية فاما ان يكون الموريان يومئذ بطريقاً على ارمنيا الغربية فسموه والى ارمنياقس وهو الذي أجلب عليهم بمجموع من بلاد الخزر والقوقاس وارمنيا الغربية ولا دخل في هذه التسمية لقونية واقصره وغيرها من ولايات الامبراطورية الشرقية واما انه كان والياً على سيواس التي هي ارمنيا الامبراطورية وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الاسيوية من قبل امبراطور القسطنطينية وعندي ان الاول ارجح

لما انتهى الى حبيب هذا الخبر كتب الى عثمان (رض) يسأله المدد

فكتب الى معاوية ان يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب في الجهاد فبعث اليه معاوية النبي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها وكتب أمير المؤمنين عثمان الى سعيد بن العاص ايضا وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وهو سلمان الخير وكان غزاةً فاضلاً خيراً فسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة وقد اقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات وقد ابطأ على حبيب المدد ورأى حبيب ان يبيتهم ليلاً فأمر جنوده فيبيتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوة جاشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ ان أمّ عبدالله الكلبية امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعذك : قال سرّادق الطاغية (يعني الموريان) او الجنة : فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده

وحق لنساء مثل هذه المرأة الفاضلة التي تسابق الرجل الى الشرف او الموت أن يرين رجالاً عظاما وابطالاً كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الامم الكثيرة . وما أقبح بالمرأة ان تفرط بالرفاهة وتستلم لعوامل الضعف والسكينة وهي أمّ الرجل الذي تقوم على كواهلها دعائم الحياة البيئية فأمّا سعيدة وأمّا شقية

ثم ان سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان ان يتأمر على حبيب فأبى عليه حبيب حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء في ذلك وهو من جند سلمان

فان تضربوا سلمان نضرب حبيبتكم وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وان تقسطوا فالشعر ثغر أميرنا وهذا أميرهم في الكتاب مقبل
ونحن ولادة الشعر كنا حماة لياالي نومي كل ثغر ونشكل

هكذا روى البلاذري في تاريخه ان الاختلاف بينهما وقع في هذه
الغزوة وذكر البيت الاول من الايات الثلاثة لكن الطبري أورد هذه
الايات في أخبار سنة (٣٢ هـ) وقال ان هذا الاختلاف وقع بينهما في هذه
السنة في بلاد الخزر حيث كان سعيد بن العاص استعمل سلمان على ثغر
الباب وأمه عثمان بحبيب بن مسامة الفهري وفي البيت الثاني والثالث ما يدل
على ان هذا الخلاف كان في الباب اذ كان ثغر المسلمين يومئذ وهو تابع
لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وان تقسطوا الى
آخر البيت فاذا صح ان هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل
في الخزر وانما الذي قتل أخوه فقط وذلك لان الذي كان يغزو الخزر بجند
الكوفة من الباب يومئذ هو حذيفة بن اليمان وكان أميراً للحرب فيها وما زال
يغزوهم حتى قتل عثمان (رض) كما روى الطبري في تاريخه

لما انتهى سلمان الى حبيب وقد فرغ من القوم سار الى غزو أران
ومن ثم اقترب القائدان فتوغل حبيب في ارمينيا الغربية متجهاً الى الشمال
واتجه سلمان الى ارمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ففتحا البلاد التي بين البحر
الاسود وبحر الخزر حتى القوقز حبيب من جهة الغرب أي من جهة البحر
الاسود وسلمان من جهة الشرق أي من جهة بحر الخزر. فاما ما فتحه
حبيب بن مسامة من البلاد فترجمته الى خبر فتوحاته الذي سيرد في ترجمته
ان شاء الله لانا عزمنا ان نورد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه
وعنهم أجمعين

وامّا سدان فانه سار الى اتران ففتح مدينة البيلقان (فينقران) صلحا واشترط على أهلها اداء الجزية واخراج ثم اتى بردعة وعسكر على نهر الثرثور على فرسخ منها فامتنعت عليه فعاانها أياماً فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرهما من البلاد والرساتيق في اتران ودعا اكراد البوشنجان (او البلاسجان) الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى البعض الصدقة ممن دخلوا في الاسلام ثم سار الى مجمع نهر الكر (كور بالكاف الثقيلة) والرّس « أراس » فعبر الكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التي على الضفة الشمالية من نهر الكر ويسميا ديفرجي بلاد سشاكبي ثم دخل بلاد سشيوان وصلحها صاحب سكن وشيروان والباب وكل هذه البلاد واقعة الى الشمال الشرقي من نهر الكر حتى داغستان ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال ان سامان انتهى الى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون وبعضهم يقول انه استخضع كل امراء الجبل ثم اجتاز مضيق دربند حيث قُتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفي قتيبة بن مسلم فاتح تركستان يقول ابن جماعة الباهلي مفتخراً بهما لانهما باهليان

وانّ لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بهمينستان ياله من قبر
فذاك الذي في الصين عمّت فتوحه وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم أنّ قتيبة وسامان وأخاه ليسو بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين نخر الأمة الاسلامية والذكر الخالد لها الذي يمثل عظمة رجالها الفاتحين تمثيلاً تزدهي به صفحات التاريخ

هذا ما انتهى اليه تحقيقنا في فتح ارمينيا والقوقاز الذي بلغ به المسلمون نهر ترك الذي يصب في بحر الخزر ماراً في السهول الواقعة وراء جبل القوقاز وفي اعتقادي ان الساميين لو لم ينكبوا بنكبة نهر ترك ويخرب الخرز ما بينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع صمداً لهجماتهم المتواليّة على تلك الاصمقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزا في فتوحاتهم يومئذ نهر قوما وأمعنوا في روسيا الشرقية على قسمين قسم يعطف على بلاد القلموق واستراخان ويدور حول بحر الخزر أي بحر قزوين حتى ينتهي الى جرجان حيث يلتقي بالجيوش الاسلامية الضاربة في انحاء ولاية خراسان ويسير الى معاونة الجيوش الآخذة بتلايت يزدجرد الذي قُتِلَ على نهرِ الرغاب . وقسم يتتبع مجرى نهر ولغا الى قازان وما والاها والله اعلم

﴿ دخول معاوية الى بلاد الروم ﴾

﴿ وفتح قبرص ﴾

كان اولئك الفاتحون كالتيار الجاري اذا صُدَّ من جهة انقلب الى جهة اخرى فان تدامر الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصدّهم عن التوغل فيما وراء بحر قزوين حوّل وجهه الفاتحين ثانية الى بلاد الروم وقد كانت امبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية والجزيرة تنظر الى جيوش المسلمين نظر الحذر وتراقب حركات الجيوش الاسلامية مراقبة الواقف لعدوّه بالمرصاد وكان القواد وزعماء الفتح الاسلامي عرفوا من الدولة البيزنطية هذا الحذر فتحولوا عن مهاجمتها الى جهات اخرى وهكذا الى سنة (٢٥ أو ٢٦ هـ) حيث أغار معاوية بن أبي سفيان على الاناضول من جهة

اقليمى قبادوكيا وفريجيا فاخذ عمودية^(١) ثم ارتد ولو رأى غرة من الروم لامن في البلاد حتى جدران القسطنطينية لكن الظاهر انه وجد القوم في مكانة من اليقظة والتحصن وجد بها الوصول الى بغيته من جهة البر امراً دونه الصعاب فاتجه خاطره الى البحر وقد كان شديد الرغبة بالفارة على سواحل الاناضول وجزر البحر الابيض من عهد عمر بن الخطاب ولكن عمر رضي الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضي الله عنه هذه المرة اي سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر فأذن له على شرط ان يخير الناس فمن اختار الغزو في البحر يحمله معه فأعد لهذه الغزوة اسطولاً من سواحل الشام وكتب الى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر باعداد اسطول آخر واستعمل عبد الله بن قيس الجاسي على البحر وسار الاسطولان فاجتمعا في قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذوا المسلمين بمسير عدوهم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم . بمعنى ان تكون قبرص مستودعاً حريباً في البحر الابيض للمسلمين ومركز اتصال بينهم وبين اساطيلهم الماخزة في هذا البحر تلجأ اليها عند الحاجة

(١) كبادوكيا مقاطعة في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي ارمينيا وكانت تسمى قديماً بهذا الاسم وفريجيا او فروغيا مثلها أيضاً وهي من المقاطعات الوسطى في آسيا الصغرى واما عمورية فقد قال لاروس في قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) انها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطية وكانت موطن ومنشأ الامبراطور تيوفيل وقد تحزبت في حروب المسلمين ضد الامبراطورية الشرقية

وقد ذكر سديو في تاريخه ان معاوية فتح سنة (٢٩ هـ) أيضاً اتريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ومؤرخونا لم يقولوا بهذا والظاهر ان هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته ايام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لاسطولهم العظيم ثم محاصرته للقسنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية رضي الله عنه

﴿ فتح بلاد المغرب ﴾

﴿ جغرافيتها ﴾

بلاد المغرب أو افريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقاً بلاد مصر والبحر المتوسط أيضاً وجنوباً الصحراء الكبيرة وغرباً الاوقيانوس وكانت تنقسم في صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى وهي (المغرب الادنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس (والمغرب الاوسط) وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط (والمغرب الاقصى) وقاعدته فاس ومراكش . وينقسم الآن كل من هذه الاقسام الى أقسام صغرى فطرابلس الغرب تنقسم الى ثلاثة أقسام طرابلس وفزان وبنغازي وهي تابعة للدولة العلية (وتونس) وهي ولاية مستقلة تحت حماية فرنسا وهي تنقسم الى أقسام كثيرة صغرى (والجزائر) وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر . ووهران وقسنطينة وهي تابعة للدولة الفرنسية وأما القسم الثالث وهو المغرب الاقصى فاشهر أقسامه

يحكمه الآن مولاي السلطان عبد العزيز^(١) وأشهر مدن المغرب الادنى :
 طرابلس الغرب : وهي فرصة بحرية : وبرقة : وكانت تسمى قديماً انطابولس
 عمالات فاس . ومراكش . والسوس . ودرعه ونافيليات وهو مستقل

(١) ما زال أهالي هذا المغرب في غفلة عن اطماع الدول الاوربية في هذه البلاد
 وحكومتهم فوضى لا عناية لها بالتعليم وانشاء دور العلم والصناعة الحديثة وتأسيس قواعد
 الحكومة على الاصول الجديدة التي ترتبط بها سعادة الامم وقوتها حتى فاجأها الاتفاق
 الفرنسي الانجليزي الذي عقد بين هاتين الدولتين من بضعة شهور ومن مقتضاه
 اطلاق يد فرنسا في مراكش وعدم تعرض إنجلترا لها بشيء اذا أرادت أخذه هذه
 البلاد وقد بدأت الحكومة الفرنسية في التذرع بالذرائع السياسية للاستيلاء على هذه
 المملكة العظيمة ولم نسمع للحكومة المراكشية بازاء هذا الخطر المقبل والعدو اللدود الا
 لنعطاً لا يفي عنها شيئاً وانما تعني القوة والقوة بالملم والترية التي جمعت الامة اليابانية في
 ثلاثين سنة من أقوى دول الارض ولعمري ان استمسك أهل المغرب بالقديم وتحريمهم
 على أنفسهم الاخذ بكل أمر نافع لتوهم حرمة ذلك في الدين سينتهي بهم الى ما انتهى
 اليه حال بقية الممالك الاسلامية في آسيا وافريقيا كالهند والتركستان وتونس والجزائر
 والصومال وغيرها وأن من يعقل ويتبصر . وينظر الى المستقبل ويتدبر . وقد دني
 المسلمون بمرض الحمول فاصبوحوا كالطير التي تعيش يوماً بيوم ولا تنظر الى ما يكون
 في الغد ولو ذلك لتنبه مسلمو المغرب الى ترقى اوروبا منذ قرن لانهم أقرب الامم
 جواراً لها ولاخذوا بالاسباب التي أوصلت حيرانهم الى قمة المجد والقوة والفوا في انريقيا
 الشمالية من طرابلس شرقاً الى المحيط غرباً بمملكة عظيمة من اخصب ممالك الارض تحتوي
 على ١٦ مليوناً من النفوس اذا صارت لهم حكومة منظمة وانتشرت بينهم المعارف والعلوم
 لا يتيسر لدولة مهما كانت قوية ان تقدم على نزع استقلالهم قط بل وليكنوا لهذا العهد
 أصحاب السيادة على قسم كبير من اواسط افريقيا وغربها ولعل المستقبل بهذه الامنية
 كفيلاً لاسيما متى شعر المسلمون هناك بألم الاستعباد واستأثروا بشيء من نور المدنية
 الحديثة والله بما يأتي في الغد عليم

وفرضتها بنغازي : وتونس : وهي قرب اطلال قرطاجنة القديمة ^(١) وتسمى قديماً افريقياً وربما سمو اقليم تونس بهذا الاسم ثم سمو القارة كلها به من قبيل تسمية الككل باسم الجزء وهي على البحر ويلاها : قابس : وبترزت ومصطفورة المعروفة قديماً بصوفي طوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عقبة بن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد وبالقرب من القروان مدينة : رقادة : والى الجنوب الشرقي منها مدينة طفاقس ومن مدن المغرب الاوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر مرزغنة

(١) قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر الابيض المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سوريه وكان لها في التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذي غزا الرومانيين في عقر دارهم وما زالت قرطاجنة التي كانت ضرة رومة شجبي في حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيديون سنة (١٤٩) قبل المسيح والظاهر ان الحراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامي وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم في حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى في افريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان النسائي لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى الجأهم للتسليم بعد ان فر منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن انقاضها عمرت مدينة تونس . وهذا التخريب وان عد عند الاثريين سيئة لحسان الا انه عند السياسيين ليس بشيء لان الدول من دأبها ان يوفي اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون في افريقيا هذه المدينة فقد اقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرها وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار انها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ . لذا فليس ببدع ان يأتي حسان ما أتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لاسيما وان اعتبار البلدان التاريخي الاثري لم يكن في تلك العصور بالذلة التي انتهى اليها في هذا العصر

او مزغانان : ومدينة تلمسان : وهما من الاقليمين المعروفين قديماً بموريتانية
القيصرية والسيتفية : ومدينة قسطنطينة : وهي حاضرة الاقليم المعروف قديماً
بالقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهي على البحر ويصب قربها نهر الشليف
اوشلف ومدينة بونه أو عتابه وهي على البحر المتوسط أيضاً ووهران
مثلها أيضاً

ومن مدن القسم الثالث مرا كس وفاس ومكناس او مكناسة لزيتون
في جهة الشمال والوسط وططوان وسبتة ومليل على شواطئ البحر المتوسط
ومغادر وطنجة والرباط وسلا على شواطئ الاوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة
والسوس في جهات الجنوب والجنوب الشرقي . ومن جبالها جبل درن وغمارة
ومديونة ويسر وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة

امّا فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا في سيرة عمرو بن العاص انه فتح
برقة وطرابلس في خلافة عمر رضي الله عنه وضرب على أهلها الجزية ثم
عاد بعد ان استخاف عقبة بن نافع الفهري على البلاد وقيل انه لم يستخلفه
وانّ عثمان رضي الله عنه أرسله اليها لما أمر ابن أبي سرح بنزوها وتميرها خبر
عن ذلك انّ عثمان (رض) كان استعمل على الحرب في مصر عبد الله بن سعد
ابن أبي سرح وأمره بغزو افريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له
ان فتح الله عايك فلك خمس الخمس من الغنائم فامر عقبة بن نافع بن
عبد القيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسمحما فخرجوا
الى افريقيا في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على
التوغل فيها لكثرة أهلها ثم انّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح شكاً عمراً
الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبي سرح على

امارتي الخراج والحرب في مصر وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد افريقيا ثانية ويستمدده فاستشار عثمان (رض) الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة وانباء الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم وساروا مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة (٢٦ هـ) ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالاً خفيفاً فبث عبد الله السرايا في كل ناحية وسار الى افريقيا (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة وفي رواية سيديطة حاكم (بطريق) افريقيا الشمالية من قبل امبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف مقاتل واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير^(١) مدداً من قبل عثمان فشهد الحرب وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من يقتل ابن ابي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي بخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نقلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده : وقد كان جرجير لما سمع بوصول المسدد سقط في يده الا انه جالد المسلمين جلالاً عظيماً فلما ابطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد بأن يترك جماعة من ابطال المسلمين متأهين للحرب ويقاتل العدو بباقي العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل

(١) الزبير هذا بفتح الزاي كما صححه في أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاي)

ابن العوام والد عبد الله الذي قال بعض المؤرخين انه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع انه كان في الجيش الذي بعثه عثمان (رض) لابن سعد قبل هذا كما رأيت

وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى أتعبوهم ثم افترقوا وقد
 انهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة
 واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله بن الزبير
 جرجير (غريغوار) واخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن
 سعد بن أبي سرح سديطة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار
 وسهم الراجل ألف وهو فتح عظيم لم يفتح على احد مثله

ثم ان عبد الله بن سعد بعث سراياه الى انحاء البلاد وعليها القواد
 ومنهم ابن الزبير فجالوا في اقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً فاغاروا من جهة
 الجنوب على اقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل أو الجريد ومن الشمال
 والغرب على اقليمي نوميديا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش
 المعروفة بموريتانيا اللطنجية وهكذا حتى انتادت لهم البلاد الى بوغاز جبل
 طارق ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يدفعونها لقيصر الروم كما ذكر ذلك
 سديو في خلاصة تاريخ العرب واما مؤرخونا فقد اختصروا جداً في أخبار
 هذا الفتح وذكروا الصالح الذي عرضه عطاء افريقيا على ابن سعد وهو
 ان يمطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أي مليونين وخمسمائة ألف دينار
 ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والحس الى أمير المؤمنين
 عثمان فاشتره مروان بخمسمائة ألف دينار: قال ابن خلدون وغيره: وبعضهم
 يقول اعطاه اياه «أي الحس» ولا يصح وانما اعطى عبد الله بن سعد بن
 أبي سرح خمس الغزوة الاولى

امّا عبد الله بن سعد فمن قائل انه عاد الى مصر ولم يولّ على افريقيا أحدًا
 قال بهذا البلاذري في روايته عن الواقدي وقال الطبري ان عثمان صرف

عبد الله بن سعد عن افريقيا وولى عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس وقال ابن خلدون وغيره انه ولى عليهم والياً منهم ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجى قائد من قبل امبراطور الروم وطرده للوالي الذي ولاه المسلمون كما سترى : هذا ولما أصاب ابن سعد من افريقيا ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل (هراقليوس) امبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد ان يهاجم به الاسكندرية على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التي كان يريد بها قسطنطين وفي ظني انه كان يريد افريقيا بدليل التجاء الامبراطور الى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قرية من تونس ولما بلغ المسلمون خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته في البحر اسطولان أسطول من الاسكندرية مع عبد الله بن سعد واسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقىا معه في عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتتلوا قتالاً شديداً حتى استجر القتال فانهزم قسطنطين جريماً الى صقليا بما بقي معه من الروم ولما علم أهل صقليا بفراره قتلوه . وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري

ثم ان الامبراطور قونستانس الثاني غضب على أهل افريقيا لما اعطوه من المال لعبد الله بن سعد لانه أكثر مما كانوا يعطونه لامبراطرة الروم واغتم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً لياخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطردهم بالطريق الذي ولوه عليهم بعد جريير (غريغوار) فالتجأ الى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الامر فنصره وبعث معه ابن خديج لتدويع البلاد وطرده الروم عنها ثانية كما سترى ذلك

في خلافة معاوية (رض)

✽ تيمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان ✽

(وقتل يزدجرد)

علمنا مما تقدم في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان المسلمين فتحوا قسماً عظيماً من بلاد فارس أو مملكة الاكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادى وقد رأيت ان أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارئ على بينة مما فتح منها على عهد عمر (رض) وما فتح على عهد عثمان (رض) فاقول بلاد فارس تنقسم الآن الى ثلاثة اقسام فارس الغربية وهي مملكة ايران وفارس الشرقية وهي مملكة افغانستان وبلوجستان وكان العرب يقسمونها الى أقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالي منها) مما يلي ارمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة آذربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والببر والموقان والطيلسان والى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل حيث كانت تسمى بلاد الديلم ثم ان شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر الخزر أو بحر قزوين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (او دباوند) واستراباذ والدامغان وقومس في جهة الجنوب وأبيورد ونسا وسرخس ومرو والشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران (والقسم الغربي منها) يعرف بالعراق العجمي وخوزستان وبلاد الجبل ومن مدن العراق العجمي الشهيرة المدائن والنهران على دجلة ومناذر وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان واصفهان من بلاد الجبل والاهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من خوزستان (والقسم الجنوبي منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران او كورة السند

(وتعرف الآن بلوجستان) وسجستان وهي بين مكران وخراسان ومن مدن فارس الشهيرة إصطخر وفساودارا مجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان ثم مكران وقندايل وقزبور وارمايل ويرون والديبل (تقع على المحيط الهندي من كرمان او السند) ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان (لعلها صحراء لوط) وزرنج التي يؤخذ منها الى وادي سناروز والكش من ناحية الهند ورشت وناشوروز من سجستان (والقسم الشرقي والشمال الشرقي) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان وهذا القسم اكثره واقع الآن في افغانستان وكان العرب يقسمونه الى اقسام كثيرة او كور فمنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان وغزنة وكابل من زابلستان وبلخ من طخارستان : وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من خراسان وطوس الى الشمال منها أيضاً ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأبرشهر ويهق واسفرائن وأرغيان وغيرها ثم هراة ومرو الرود في الجهة الشرقية من خراسان ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وياغون وطاغون وسنج وغيرها اما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيين فان من مدنها الشهيرة بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : واما زابلستان فمن مدنها الشهيرة كابل وغزنة اه

هذا ما احببت بيانه من جغرافية هذه البلاد وأما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الاكبر منها في خلافة عمر (رض) وقد كنت رأيت اختلافاً في بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر أو على

عهد عثمان والذي اتفق عليه أكثر المؤرخين ان فتح خراسان وسجستان وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ثم انتقضت أكثر بلاد فارس فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان (رض) ودوخوا هذه المملكة الى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالاً فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية وجزء من السند وقسم من تركستان واليك بمجل خبر الفتح في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضي الله عنه انتقضت آمد وبلاد

الأكراد فعزم أبو موسى الأشعري والي البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد ان كان يحض على الجهاد مشياً فتألب عليه أهل البصرة وذهب منهم وفد الى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه وتولى كبير ذلك غيلان بن خرشة الضبي فمزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كرّيز بن ربيعة القرشي وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاصي من عُمان والبحرين فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه الى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأتحن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة الاً أصاحبها ثم ولى عليها في السنة التالية أمير بن احمر اليشكري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عُبَيْس واستعمل على سجستان عبيد الله بن عمير الليثي فأتحن فيها الى كابل ثم عمران بن الفضيل البرجومي وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأتحن فيها حتى بلغ النهر

ثم ان أهل فارس ناروا وانتقضوا بعبيد الله بن معمر فسار اليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيد الله وبلغ الخبر ابن عامر فاستنذراً أهل البصرة وسار بالناس الى فارس وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاصي وفي المحببتين أبو

برزة الاسلامي ومقل بن يسار وعلى الخليل عمر ان بن حصين وكلهم له صحبة
فلقية الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهمزموا وفتح اصطخر عنوة
وسار بعدها الى دار الجرد ومدينة جور وكان هَرَم بن حِيَّان محاصراً لها فلما
جاء ابن عامر فتحها ثم عاد الى اصطخر وقد انتقضت ثانية فحاصرها طويلاً
ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة ففنى فيها أكثر اهل البيوتات والاساورة
لانهم كانوا لجأوا اليها ووطئ بن عامر أهل فارس وطأة لم يزلوا منها في ذل
وكتب الى عثمان رضي الله عنه بالفتح فكتب اليه ان يستعمل على بلاد
فارس هَرَم بن حسان اليشكري وهرم بن حِيَّان العبدي والخريبت بن راشد
والمنجاب بن راشد وائترجمان الهجيمي وأمره ان يفرق كور خراسان على
جماعة فيجعل الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرّة اليربوعي على
بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وامير بن أحمَر على طوس وقيس بن
الهيثم السامي على نيسابور ثم ان عثمان رضي الله عنه جمع هذه الولاية قبل
موته لقيس واستعمل أمير بن أحمَر على سجستان

لما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكثهم
فأتاه الاحنف بن قيس وقال له أيها الامير ان عدوك منك هارب ولك
هائب والبلاد واسمة فسرفان الله ناصرك ومعز دينه فتجهز وسار واستخلف
على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى
كرمان مجاشع بن مسعود السامي وتقدم هو الى نيسابور وجعل على مقدمته
الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة
ثم سير امزاه الى أعمال نيسابور ففتحو ازام وقهستان ويهق وبشت ثم
تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة وأعمالها

كما سيأتي تفصيل الخبر عن ذلك في سيرة ابن عامر ان شاء الله
وسير ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فأتى سوانجر
فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ثم مضى الى مرو الروذ فقاتله أهلها
ثم صالحوه وسيّرت سرية فاستولت على رستاق بنغ فعظم الامر على أهل
طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطاقان والفارياب ومهمم ملك
الصغانيان (من تركستان الشرقية) فقاتلهم الاحنف قتالاً شديداً حتى
هزمهم وقل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ثم سار الى بلخ وهي مدينة
(عاصمة) طخارستان فافتتحها ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر
جیحون في تركستان الغربية وحاول فتحها فلم يتيسر له ذلك فعاد الى بلخ
وسياًتي الكلام على ذلك مفصلاً في سيرة الاحنف ان شاء الله

واما مجاشع بن مسعود السامي الذي سار لفتح كرمان فانه فتح هميد
ثم اتى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم افتتحها وفتح جيرفت
عنوة ثم سار في كرمان فاستخضع أهلها ودوخ مدينتها وهرب كثير من أهل
كرمان فلحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب أراضيهم فعمروها
واحتفروا لها القني في مواضع منها وأدوا العشر عنها

واما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان فانه قطع
المفاضة (لعلها مفاضة كوهستان وهي غير قوهستان التي مرّ ذكرها) فأتى
حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة^(١)
وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم اتى روست
بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها ثم أتى

(١) العنزة بفتحين اطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زج كزج الرمح

ناشروذ ثم ثرواوذ ثم زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب الى وادي سناروز ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد الى ابن عامر بعد ان استخلف عليها عاملاً فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي الف درهم (مليونين) وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتان فقطع يده واخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما اردت أن أعلمك انه لا يضر ولا ينفع . وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غزنة ثم عاد الى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمير بن أحرر وانصرف فعادوا الى العصيان واما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لاحد ما فتح عليك . فقال لا جرم لأجعلن شكري لله على ان اخرج محرماً من موطني هذا : فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم الى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين ألفاً لمحاربة المساميين فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى . قال أرى ان تخلي البلاد فاني أميرها ومعي عهد من ابن عامر اذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد وأقبل الى ابن عامر فلامه ابن عامر : قال جاءني

بعهد منك :

أمّا ابن خازم فسار لملاقات قارن باربعة آلاف فلما قرب منه أمر الجند ان يدرج كل رجل منهم على زج رحمة قطناً ونموساً بالدهن أو النفط فلما أمسى أمرهم ان يشعلوا النيران في اطراف الرماح وانتهت مقدمته الى قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الاعداء على دهش وكانوا آنين من البيات ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتتخضع وترفع هالهم ذلك ثم غشيهم ابن خازم بمجنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب الى ابن عامر بالخبر فرضي وأقره على خراسان فلبث عليها حتى انتضى أمر الجمل وأقبل الى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبليل

هذا ما احببت ايراده من فتح فارس وخراسان واما طبرستان فقد كان فتحها على يدي سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) وذلك ان سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم وكان ابن عامر خرج من البصرة قاصداً خراسان فلما وصل سعيد وجدته قد نزل ابرشهر فنزل قومس وهي صالح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأبي جرجان فصالحوه على مائتي ألف ثم أتى طميسه وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر اي بحر قزوين فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على جبل عاتقه نخرج السيف من تحت مرقفه وحاصرهم

فسألوا الامان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان وذنباوند وأعطاه أهل الجبال مالاً. ثم كان المسلمون بعد ذلك يفزون طبرستان ونواحها فربما أعطوا الاتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال وما زالت هذه البلاد (اي جرجان وطبرستان) على شيء من الاستقلال يأبى أهلها الخضوع التام للدولة الاسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الامويين حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

✽ مقتل يزدجر ✽

كانت جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب أجمت يزدجر للفرار الى حلوان ثم اصفهان وكانت كلما تقدمت في البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال في كرمان ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثاثة عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزدجر وأرسل في أثره هرم بن حيان فاتبه الى كرمان فهرب منها الى خراسان ثم لحق ببردالروز وكتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فامدوه فسار بهم الى سجستان وقيل الى جرجان فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ الى مرو والشاهجان فنعه صاحبها من الدخول وكتب الى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزدجر ومصالحة العرب عليه وان يعطيه كل يوم ألف درهم فجاء نيزك الى يزدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله فاحس يزدجر بالدسياسة ففر بنفسه وأوى الى ارحاء على نهر الأرعاب وهو نهر يسيح في مرو الروذ ثم يغيب في رمال الصحراء ثم يظهر في مرو والشاهجان فقتله صاحب الرحي واتي شلوه في الماء: ويقول (سديو) في تاريخه ان الذي أمده يزدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تاي تسنغ وانه هو الذي ساط عليه

بعد ذلك من قتله فقتل على شاطئ نهر الرغاب وانقضت بقتله ايام الدولة الساسانية التي استمرت دولتها زاهية واعلامها على تلك الممالك خافقة نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة والملك بيد الله يؤتیه من يشاء

— باب —

● أهم الاخبار والحوادث في عصره ●
(سقوط خاتم النبي في بئر أريس)

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة نقش عليه ثلاثة أسطر محمد . ورسول . والله . ولما توفي تختم به أبو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه فجعل مالا عظيماً لمن جاء به واغتم لذلك غمماً شديداً فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في اصبعه حتى قتل وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه وكان فقد هذا الخاتم مما أوخذ عليه عثمان رضي الله عنه لما بدأت المطاعن عليه

● الطعن على العمال ●

● خبر الوليد بن عقبة ●

كان الوليد بن عقبة^(١) عاملاً لعمر (رض) على عرب الجزيرة فلما كان بين سعد بن أبي وقاص وبين عبد الله بن مسعود ما كان مما سبق ذكره في سيرة سعد عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة فقدم الكوفة وسار في الناس سيرة حسنة فكان أحب الناس في الناس

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس

ابن عبد مناف وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لأمه وأمهأ أروى بنت عامر ابن كرز

وأوقفهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب حتى تقم منه بعض الناس أموراً منها اتهامه بشرب الخمر وأفاضوا في الطعن عليه حتى استفداه عثمان (رض) وأقام عليه الحد . ولملخص الخبر على ما جاء في تاريخ الطبري ان شهاباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكأثروه فذروهم^(١) فخرج عليهم بالسيف فلماً رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شريح الخزاعي من سطح داره فصاح بهم واقبل اليهم الناس فاخذوهم وفيهم زهير بن جندب الازدي ومورع بن أبي مورع الاسدي وشبيل بن أبي الازدي وغيرهم فشهد عليهم أبو شريح وابنه فكتب الوليد بهم الى عثمان فكتب اليه في قتلهم فقتلهم على باب القصر في الرحبة فقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي من أبيات

لا تأكلوا ابداً جيرانكم برقاً أهل الدعارة في ملك ابن عثمان

ولهذا تقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يتربصون به العثرات وكان شاعر من بني تغلب اسمه أبو زبيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم في آخر قدمة قدمها وحسن اسلامه فاستدخله الوليد فأتى آتياً زينب وأبا مورع وجندباً وهم يحقدون عليه مذ قتل ابناءهم فقال لهم هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد؟ فثاروا في ذلك وقالوا الاناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأبا زبيد خيرته وهما ما كفان على الخمر فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد فلم يفجأ الآبهم فحجى شيئاً فادخلت تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه فاذا

طبق عليه تفاريق عذب وانما نحاه استحياء ان يروا طبقة ليس عليه الا تفاريق عذب فقاموا فخرجوا واقبل بعضهم على بعض يتلامون وسمع الناس بذلك فأقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون اقوام غضب الله لعمالهم . فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه الى ابن مسعود فقالوا . الوليد يعتكف على الحجر وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس . فقال ابن مسعود . من استتر عنّا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال ارضى من مثلك بان يجيب قوماً موتورين (اي لهم عليه نار) بما أجت عليّ . أي شيء استتر به . انما يقال هذا للمريب . فتلاحيا « تلاوما » وافترقا على تفاضب ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ثم أتى للوليد برجل بدعي السحر ووجب عليه الحد فجاء جندب فضربه قبل ان يأمر به الامير بشيء فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فخبس ثم أطلق بأمر عثمان وغضب لجندب اصحابه فخرجوا الى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون في الاسلام وتخرجون بغير اذن ارجعوا : فردهم فلما رجعوا الى الكوفة لم يبق موتور في نفسه الا اناهم فاجتمعوا على رأي فأصدروه (اي تأمروا فيما بينهم على ان يكيدوا للوليد فكادوا له) ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الازدي وأبو مورع الاسدي فسلاً خاتمه ثم خرجا الى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فسألها عثمان كيف رأيتما قالا كذا من

غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الحمر: فقال ما يقيء الحمر إلا شاربها فبعث إليه: فحلف له الوليد وأخبره خبرهم: فقال نقيم الحدود ويؤ شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخي: وأمر سعيد بن العاص بجلده وكانت عليه خميصة فنزعها عنه علي بن أبي طالب ثم ان عثمان (رض) ولى مكانه سعيد بن العاص: وفي رواية ان الوليد سكر وصلى الصبح باهل الكوفة أربعاً وقال: أزيدكم: فقال ابن مسعود مازلنا معك في الزيادة منذ اليوم: وشهدوا عليه عند عثمان فامر علياً بجلده فامر علي بن عبد الله بن جعفر بجلده وروى الطبري ان الناس كانوا في الوليد فرقتين العامة معه والخاصة عليه وفي رواية له ايضاً ان الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعميد ولقد تفجع عليه الاحرار والمهايك وكان يُسَمَعُ الولائد وعلين الحداد يقلن

ياويلنا قد عَزَلَ الوليدُ وجاءنا مُجَوِّعاً سعيدُ

ينقص في الصاع ولا يزيد فَجُوعَ الاماء والعميدُ

وفي رواية له عن الشعبي ان كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد ان رَدَّ على كل مملوك في الكوفة من فضول الاموال ثلاثة في كل شهر يتسعون بها من غير ان ينقص مواليتهم من ارزاقهم

من نظر الى هذه الروايات بنظر النافذ البصير لا يرى فيها دليلاً يؤيد صحة التهمة بل يرى منها النافية ومنها المثبتة ولقد يضطرب الذهن دون التثبت من حقيقة حادثة الوليد اذ أي مجنون بله العاقل يجاس في منزل ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الحمر وهو يعلم انه بين قوم موتورين يتقربون به الفرص ويتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر، وعلم منهم ارادة

القدر ، على انه سواء صحت هذه النهمة أو لم تصح فالذي يظهر من مجمل تلك الروايات ان هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تدرعاً للوثوب على الخلافة وإيقاظ الفتنة النائمة وحسبك دليلاً على هذا ان سعيد ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليداتي من أهل الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل ما لقي الوليد الذي يزعمون انه كان يعكف على الحمر كما سترى بعد

لو كان أهل الكوفة على حق في الطعن على العمال لظلم أصحابهم أو استبداد ظهر من أمرائهم لعدّ عملهم حسنة من حسنات الحرية التي كانت تتمتع بها الأمة يومئذ والعدل الذي لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق . ولكن لما لم يكن الامر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلنون فالتاريخ والعدل يشهدان بمؤاخذتهم كما سنبسط كل شيء في محله ان شاء الله

﴿ ولاية سعيد بن العاص الكوفة ﴾

كان سعيد بن العاص مقياً مع معاوية بالشام وكان نشأ يتيماً في حجر عثمان فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس فقيل له انه بدمشق وانه مريض : فارسل الى معاوية ان ارسل الي سعيد في منقل (محفة) فبعث به اليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى افاق فقال يا ابن اخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً هل لك من زوجة : قال لا : فقال عمر لعثمان ما منعك من هذا الغلام ان تكون زوجة قال قد عرضت عليه فأبى : فزوجه عمر ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس وقد كان عمومته ذوي بلاء في الاسلام وسابقة حصنة وقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص ما رواه الطبري عن سعيد وذكر صاحب الاغانى في خبر
أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد ما يدل على انه كان من الكرم
وعلو النفس على جانب عظيم فذكر انه مات في قصره خارج المدينة وعليه
من الدين ثلاثمائة الف فاوصى لابنه بقوله : فاذا واريتني فانطلق الى معاوية
فانعي له وانظر في ديني واعلم انه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض
عليه قصرى هذا فاني اتخذته للزهوة وليس بمال : فلما نعاه ابنه الى معاوية
سأله عن دينه ايقضيه فأخبره بوصيته فأخذ معاوية قصره بدينه وهو
ثلاثمائة الف درهم ولما أرادوا وفاء الديون وجدوا اكثرها هبات كتب بها
على نفسه صكوكاً كي لا يرد سائلاً سأله شيئاً فوفوها عنه . وهذا منتهى
ما يروي عن كرم النفس وشرف الطباع وانما اوردت هذا الخبر ليكون دليلاً
على سيرة بعض عمال عثمان رضي الله عنه

هذا ولما ولي سعيد على الكوفة وذلك سنة (٥٣٠ هـ) خرج وخرج معه
الاشتر وأبو خشة الغفاري وجندب بن عبد الله وابو مصعب بن جثامة
وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا فلما بلغ سعيد الكوفة صعد
على المنبر حمد الله وأثنى عليه وقال

والله لقد بعثت اليكم واني لكاره ولكني لم أجد بداً اذا أمرت ان أتمر
الا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينها والله لا ضربن وجهها حتى أقعها
(أزيلها) أو تعيني واني لرائد نفسي اليوم ثم نزل

وسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها فكتب الى عثمان بالذي
انتهى اليه . أن أهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغلب أهل الشرف منهم
والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفتم ،

وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها فكتب اليه عثمان (رض) اما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الا ان يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس (أي بمحقوقهم ومراتبهم) بها يصاب العدل

فارسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الايام والقادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبيء عن الجسد فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة (اي الحاجة) . وأدخل معهم من يَحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) في سَمرة ففشت القالة والاذاعة وانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة الى بعضهم وجعلوا يعيبون التفضيل ويعدون جفوة فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي او محرر (معتوق) استحلى كلامهم فكانوا في زيادة وأولئك في نقصان حتى غاب الشرف فكتب سعيد الى عثمان بذلك . فنادى منادي عثمان الصلاة جامعة فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كتب اليه سعيد وقال : يا أهل المدينة ان الناس يتخضون بالفتنة واني والله لا تخلصن لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم اه

وانما اراد عثمان بهذا الاستبدال اما ان يجعل من شهد الفتوح في العراق واهل السابقة والايام يقيمون في تلك الديار ايكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الاعراب ومنهم ظهر الشر وبهم استعان اهل الفتنة واما ليفرق الروادف الذين هم تبع في العطاء لاهل السابقة^(١) عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأي هذا من عثمان رضي الله عنه لو لم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلا بد من ظهورها

﴿ حادثة أبي ذر والقول ﴾

﴿ بجرمة اكتناز المال ﴾

كان ابو ذر من المشهورين بالتقى والصلاح شديد التمسك في الاعتقاد جريئاً في قول الحق وكان مقيماً بالشام مع معاوية وكان يعتقد ان كل اموال النبي هي من حقوق المسلمين وليس الامام او من ينوب منابه ان يحتج^(٢) شيئاً منها بل ينبغي ان تقسم على الناس شيئاً فشيئاً كما كان ذلك على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والظاهر ان معاوية كان يتوسل الى ادخار المال اصرفه في وجوه المصالح العامة التي تقتضيها حالة الدولة وتدرجها في مدارج الحضارة بقوله: المال مال الله . ومعناه يضمه الامام حيث يشاء . فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذي ينشدونه اما للتشويش على عثمان رضي الله عنه والتأليب على عماله لمقاصد سياسية واما لمطلق الافساد

(١) راجع تفصيل ذلك فيما كتبناه عن العطاء والحيش في الجزء الثاني من

سيرة عمر بن الخطاب (رض)

(٢) احتجنا المال ضمه واحتواه

بين المسلمين تشفياً وانتقاماً . فانطلق من هؤلاء ابن السوداء أو ابن سبأ اليهودي الى الشام واندس على ابي ذرّ وامثاله من الصحابة يوسوس لهم بما يوسوس فلم تنطلي حيلته على غير أبي ذرّ واليك ما رواه الطبري بهذا الصدد عن يزيد الفقهسي قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال يا أبا ذر : الا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله الا ان كل شيء لله كأنه يريد ان يحتججه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين : فأتى أبو ذر معاوية وقال ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فاني لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء . فقال له من انت أظنك والله يهودياً . فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء : يُشّر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نارٍ تكوى بها جماههم وجنوبهم وظهورهم : فما زال حتى واع الفقراء بمثل ذلك وواجهوه على الاغنياء^(١) وحتى شكوا الاغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان ان أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من امره كيت وكيت

(١) هذا القول يشبه ما يقول به الاشتراكيون في هذا العصر في اوربا من وجوب توزيع الثروة وقد بسطت الكلام عليه في رسالة (تنبيه الافهام الى مطالب حياة الاجتماعية والاسلام) فلترجع

فكتب اليه عثمان ان الفتنة قد اخرجت خَطمها وعينها فلم يبق الا ان تُثبِت
فلا تنكأ القرع^(١) وجَهَز اباذر اليّ وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به
وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت :

فبعث اليه بابي ذر ومعه دليل فلما قدم المدينة ورأى المجالس في اصل
سَمِعَ قال . بشر اهل المدينة بغارة شعواء^(٢) وحرب مذكار^(٣) ودخل على
عثمان فقال يا أبا ذر ما لاهل الشام يشكون ذَرَبَكَ^(٤) فاخبره انه لا ينبغي
ان يقال مثل الله ولا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالا . فقال يا أبا ذر عليّ ان
اقضي ما عليّ وآخذ ما على الرعيّة ولا أجبرهم على الزهد وان ادعوم الى
الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذني في الخروج فان المدينة ليست لي بدار .
قال او تستبدل الاشراً منها قال امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
اخرج منها اذا بلغ البناء ساعياً . قال فانئذ لما امرك به . فخرج أبو ذر حتى
نزل الرَبْدَةَ فخطبها مسجداً وأقطعه عثمان صرمةً من الابل وأعطاه مملوكين
وارسل اليه ان تعاهد المدينة حتى لا ترد اعراياً ففعل

وروى الطبري أيضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الربدّة
الى المدينة مخافة الاعرابية وكان يحب الوحدة والخلوة فدخّل على عثمان
وعنده كعب الاحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى
يبدلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ان لا يقتصر عليها حتى يحسن الى

(١) قوله فقد أعضل بي أي أعيانى وقوله أخرجت خطمها أي مقدم أنّها

وقوله فلا تنكأ القرع أي لا تدميه والقرع هو الجرح

(٢) أي متفرقة

(٣) أي ذات أهوال لا يقدم عليها الا ذكور الرجال

(٤) أي حدة لسانك

الجيران والاخوان ويصل القرابات . فقال كعب الاحبار من ادى الفريضة فقد قضى ما عليه : فقال له أبو ذر يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا والله لتسمعن مني اولاد دخل عليك ورفع محجنه فضربه فشجبه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لابي ذر) يا أبا ذر اتق الله واكفُف يدك ولسانك اه

واعلم ان قول أبي ذر بوجوب بذل المعروف والاحسان الى الناس على الوجه الذي يقوله ناشئ عن استمساكه الشديد بالدين وما اشرب به قلبه من فضائل الاسلام وتعاليمه التي ترمي الى ذلك الغرض الجليل لتجعل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء الا انه كان يتغالى بهذا المشرب تعالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها الى المزيد من كل شيء على ان القصد والتوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بمروته وحلمهم الخلفاء على طريقته لكانوا اعز الامم جانباً واسعدوها حالاً اذ خلق التعاون على البر اذا نشأ بنشؤ الامة وتمكن من نفوسها بصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدور تنمو بنمو الحياة القومية . ومن العجيب ان لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه الملكة في نفوس الامة التي نزل كتابها بالحث عليه . والتخلق به . وقام من سلاها من بينه العقول العاقلة عنه منذ نبت الاسلام . واجتمع على كلمته اولئك الاقوام ، وعسانا نلم بشيء من هذا البحث فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

هذا وقد جاء في حكاية شخص ابي ذر الى الربذة روايات اخرى غير ما تقدم تحاشينا ايرادها كما تحاشاه الطبري وابن الاثير وغيرهما من محققي المؤرخين علماً منهم بضعف تلك الروايات . ولا جرم ان كل ناقد بصير اذا

رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما لارتياح الضمير اليها بالاضافة الى عصر الخلفاء الراشدين الذي هو خير العصور الاسلامية بشهادة التاريخ نفسه واما أبو ذر رضي الله عنه فقد توفي في الربرة سنة (٣٣ هـ) اي بعد حادثه هذه وشخصه الى الربرة بثلاث سنين

(باب)

« آثاره في الخلافة »

من أعظم آثار عثمان رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خيرا الجزاء جمعه الناس على مصحف واحد بعد ان تعددت القراءات واختلف فيها أهل الامصار. وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جميع القرآن وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الاثير وابن عساكر ان حذيفة بن اليمان لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة أذربيجان والباب قال حذيفة لسعيد اني قد سمعت في سفري هذا امرأ لئن ترك الناس عليه ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه ابدأ قال وما ذاك قال رأيت أهل اشام حين قدموا علينا فرأيت اناسا من أهل حمص يزعمون لاناس من أهل الكوفة انهم اصوب قراءة منهم وان المقداد اخذها من رسول الله (ص) ويقول الكوفيون مثل ذلك وانهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا نحن اصوب منكم قراءة ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك . فلما رجع الى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس مما سمع في غزاته تلك وحذرهم ما يخاف فساعده على ذلك اصحاب رسول الله (ص) ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له اقوام ممن قرأ على عبد الله بن مسعود وما تنكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى

ويسمونها لباب الفؤاد وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم . فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وبنائهم وقالوا لهم إنما أنتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتى امير المؤمنين لاشكون اليه ذلك ولاشيرن عليه ان يحول بينهم وبين ذلك حتى يرحموا الى جماعة المسلمين والذي عليه أصحاب رسول الله (ص) بالمدينة فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد بن العاص وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة الى عثمان حتى قدم عليه فاخبره بالذي حدث وقال انا النذير العريان فادركوا هذه الأمة . فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذي رأى وسمع وبالذي عليه حال الناس فأعظموه ذلك ورأوا جميعاً مثل الذي رأى فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر ان ارسلني اليها بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف التي كتبت في ايام أبي بكر على الوجه الذي ذكرنا في سيرته وأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان اذا اختلفتم فاكتبوها باسان قریش فانما نزل باسانهم ففعلوا فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . وفي رواية لابن عساکر عن مصعب بن سعيد ان عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثيرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من اكتب الناس قالوا كاتب رسول الله (ص) زيد بن ثابت . قال فأبي الناس اعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليعمل

سعيد وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس : قال وسمعت بعض اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول : قد أحسن وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما احرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعتة انا : فجزا الله عثمان عن الامة خير الجزاء فقد أحسن وبر فيما صنع وكان له فضل في رد الناس الى قراءة واحدة كفضل أبي بكر في جمع القرآن

﴿ زيادته في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول ﴾

في سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الاثمان في بيت المال فصيحو^(١) بعثمان فأمر بهم الى الحبس وقال أتدرون ما جرأكم علي؟ ما جرأكم الا حامي قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به . ثم كلفهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجوا . وفي سنة (٢٩ هـ) زاد في مسجد رسول الله (ص) ووسعه وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الأول وكان الجص يحمل اليه من بطن نخل وبناه بالحجارة المنفوشة وجعل مئذنه من حجارة فيها رصاص وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه مائة وخمسين ذراعاً وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب

﴿ جملة ما أثره ﴾

من ما أثره الجميلة ان رزق الممالك دون ان ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليتهم كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته في الاعطيات للناس . ومن ما أثره ترتيب الطعام في شهر رمضان لاهل المدينة واقامته دور الضيافات في الكوفة كما روى ذلك

(١) صبح صوت باقضى طاقته

الطبري : ومن مآثره اقطاعه الارضين التي جلا أهلها عنها للعرب لكي يعتملوا فيها ويعمروها كما مرّ بك الخبر عن مثل ذلك في فتح كرمان وقد كان عمر رضي الله عنه لا يأذن باعمال العرب في الارضين كما علمت من سيرته وأذن لهم عثمان رضي الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب في البلاد وجلا من جلا من أهلها ورأى ضرورة احياء ما تركوه من الارضين وان يقوم العرب على عمرانها ضمناً بها ان تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس ومن مآثره اتخاذ دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساکر عن أبي صالح مولى العباس قال . ارساني العباس الى عثمان ادعوه فأنيته في دار القضاء الى آخر الحديث فاذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الاسلام داراً للقضاء وقد كان الخليفةان قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور

﴿ أولياته ﴾

نقل السيوطي عن الاوائل للمسكري ان عثمان أول من اقطع القطائع وأول من حمى الحمى وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من خلق (نقش) المسجد . وأول من امر بالآذان الاول في الجمعة . وأول من رزق المؤذنين وأول من ارتج عليه (من الخلفاء) في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . وأول من فوض الى الناس اخراج زكاتهم . وأول من ولي الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ المقصورة في المسجد (المشهور ان أول من اتخذها معاوية) وأول ما وقع الاختلاف في زمانه بين الامة خطأ بعضهم بعضاً في أشياء تقوموا عليه وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطئ بعضهم بعضاً . وهذا ما نقله

السيوطي من أوائل العسكري وزاد عليه انه أول من هاجر الى الله بأهله وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة اه

— باب —

● أخلاقه ومناقبه ●

(سياسته وعدله)

كان عثمان رضي الله عنه لئن الجانب رؤوف القلب محسناً الى الرعية ومن أبطرته النعمة وغره حلم الامير . ولم يكن له زاجر من نفسه . وورقيب عليه من خلقه . ربما انقلب الى الاساءة في مقابل الاحسان كما وقع ذلك لعثمان (رض) فيمن أحسن اليهم كعبد بن أبي حذيفة وامثاله من الذين حرّضوا عليه ، وأسأوا اليه ، لذا كانت سياسة اللين والاناة التي اتبعها عثمان مجودة في نفسها مذمومة في نتائجها والعرب وان كانوا يومئذ ذوي اخلاق عالية ينسدر وجودها في غيرهم من الامم كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والاقدام الا أنه كان ينقصهم النظر في العواقب ، وعدم التجارب ، ابعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ويذري بهم الاستغراق في البداوة وفقدتهم لاصول التربية الصحيحة وشرههم الى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة وكل هذا من الامور التي تبعث على حب الشقاق وهدم أركان الالة وتسرع بمخاطبة الناس الى مواقع الفتن لهذا فالقوم يومئذ قل ان تنجح فيهم سياسة كلها لين بل الانجح فيهم والاولى في تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم . وتستنير بنور الاسلام عقولهم . ومن تأمل فيما جاء به الاسلام من الزواجر القامعة . والقوارع الزاجرة . والوعيد الشديد . علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة في استصلاح القوم وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا

المنهج في سياسة العرب فمضت أيامهما والأمة في شاكل من الرهبة واشتغال بالفتح ليس فيها من بجرأ على شق عصا المسلمين او مناهضة الخليفة في شأن من شؤون الدولة الا ما كان من نصيحة يؤدونها أو رأي صالح يبدوه أو كلمة حق يقولونها بسائق الحرية التي ألفوها والواجب الذي يدعوهم الدين اليه فلما ولي عثمان وانكشف لهم من لينة جانب الضعف ناهضه قوتهم واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم حتى اذا أراد ان يبسط على بعضهم يد القوة . ويأخذ منهم على الشكايم . نفرؤا منه . وتحولوا بكايتهم عنه . فكان احسانه اليهم ولبنه معهم سبب اساءتهم اليه . واقترافهم في مذاهب الاختلاف عنه . يدل ذلك عليه ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن سالم بن عبد الله قال

لما ولي عثمان حج سنوانه كلها الى آخر حجة حجها وحج بازواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمته وأمر الناس^(١) فكتب في الامصار ان توافيه العمال في كل موسم ومن يشكروهم وكتب الى الناس والامصار ان ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فاني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً ان شاء الله . فكان الناس كذلك فجر ذلك الى ان اتخذوا اقوام وسيلة الى تفريق الامة اه (اي بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وربما يعجب القاري ان يجر مثل هذا الحلم والتناهي في الرأفة والعدل الى ما كان من الفتن والجرأة على التوثب على الخليفة لكن ما بسطناه من اخلاق القوم

(١) الناس تطلق على الواحد فاكثر فقوله امر الناس أي امر واحداً : وفي

رواية الطبري فامر الناس وكتب الى الامصار الخ الحديث

يكفي للدلالة على ان عثمان جرّ على نفسه ما جرّ بسياسة اللين التي لاتصلح لقوم شأنهم ما ذكرناه لا سيما اذا اضفنا الى هذا من سياسة عثمان رضى الله عنه أمرين عظيمين (الأول) اطلاقه سراح المهاجرين من المدينة وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثاني) استبداله بعض العمال بمن ليسوا في مقدرة من اختارهم عمر الاعمال كسعد بن أبي وقاص وعمر بن العاص وأشباههما (فاما الامر الاول) فقد ذكروا ان عمر كان حجب على اعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الآبازن وأجل^(١) وروى ابن عساكر عن محمد وطاحه قالا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان أخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع اليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام وكان مغموراً في الناس وصاروا اوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس لها ذلك اه

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذي جرّه على نفسه عثمان به مثل هذه السياسة التي وان كانت في نفسها عدلاً وحسن صنع ومنة على قريش كمنته في بذل جانب اللين والاحسان لعامة المسلمين الآ انها جاءت قبل اوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة كما سترى ذلك في غير

(١) روى الطبري عن الشعبي قال لم يمّت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عنهم وقال ان أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد . فان كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فبقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم الآ ترى الدنيا ولا تراك .

هذا المحل ان شاء الله

واما الامر الثاني وهو استبداله من هو اقوى من العمال بمن هو
أضعف فقد كان سببه استضعاف اعدائه له واغترارهم بحبه للانصاف اذا
طلب أحد من الناس ان ينصفهم من احد عماله فكانوا يكيدون لعماله
المكائد لكي يستعفوه ممن لا يريدونه منهم وكان من اكثر عماله يقظة
وأشدّهم أخذاً براقب أهل الفساد وأشدّهم سياسة في الرعية عمرو بن العاص
فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان وجمع امارتي الخراج والحرب لعبد الله
ابن سعد بن أبي سرح وقد كان عبد الله أميراً على الحرب في خلافة عثمان
وأمريراً على الصعيد الاعلى في خلافة عمر وتوفي عمر وهو أمير على الصعيد ولم
يكن ابن أبي سرح بالضعيف ولا الجبان الاّ انه كان لهم من سابقته في
اهدار رسول الله (ص) دمه وقربته من عثمان وسيلة يتوسلون بها في كل وقت
الى مناهضة مثله ومحاجة عثمان بولايته وقد كان ذلك كذلك كما سترى بعد.
واما تسرع عثمان (رض) في عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس اولئك
الناس فقد رواه ابن عساکر عن يزيد القعسي قال

لما خرج ابن السوداء الى مصر اعمر فيهم (اي لزمهم) فأقام فنزل على
كثانة بن بشر مرة وعلى سودان بن حمران مرة وانقطع الى الغافقي فشج ٤
الغافقي فتكلم واطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم واشباه لهم فصرف
لهم القول فلم يجدهم يجيبون الى شيء مما يجيبون الى الوصية (اي وصية علي)
فقال عايكم ناب العرب وحجرهم ولسنا من رجاله فأروه انكم تزرعون ولا
تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسأل من
هو أضعف منه ونخلو بما نريد ونظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكان أسرهم الى ذلك وأعلام فيه محمد بن أبي حذيفة وهو ابن خال معاوية وكان يتيماً في حجر عثمان . فلما ولى استأذنه في الهجرة الى بعض الامصار فخرج الى مصر وكان الذي دعاه الى ذلك انه سأله العمل . فقال (اي عثمان) لست هناك ففعلوا ما أمرهم به ابن السوداء ثم انهم خرجوا أو من شاء الله منهم وشكروا عمرأ واستغفوا منه . فكان كلما نهته (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم وقال انما هو أمير . انبعث آخرون بشيء آخر وكلمهم يطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فقال لهم عثمان اما عمرو فسنزعه عنكم لما زعتم أنه أفسد واما الحرب فسنقره عليها ونولي من سأتم . فولى عبد الله بن سعد خراجهم مصر وترك عمرأ على صلاتها فحشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة واشباههم فيما بين عمرو وعبد الله ابن سعد واغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه وتكاتبا على قدر ما أبلغوا كل واحد منهما . فمكتب عبد الله بن سعد (اي لعثمان) ان خراجي لا يستقيم مادام عمرو على الصلاة فخرجوا فصدقوه واستغفوا من عمرو وسألوا عبد الله فمكتب عثمان الى عمرو انه لا خير لك في صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبد الله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبد الله ما شأنك استحيل رأيك : فقال . يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما ادري من اين أتيت وما اتهم عبد الله بن سعد وان كنت لاهل عملي كالوالدة وما قدر العارف والشاكر على معونتي اه

وقد تقدم في سيرة عمر وسياسته مع عماله انه كان لا يعزل عاملاً عن شكاة الا بعد ان يرسل محمد بن مسامة لتحقيق وجوه الشكوى ويستقدم الشاكي والمشكومنه الى المدينة ليقف بنفسه على جلية الامر كما انه لم يول

الاعمال احداً من ذوي قرباه لذا لم يجعل لأحد من الناس سبيلاً عليه ولا على عماله الاً بالحق بخلاف عثمان فانه لما لم يملك في سياسته مع العمال هذا الطريق الاسد والنهج الاوضح واطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى أو وجد للقوم سبيلاً اليه فقبلوا له ظهر المجن وملاوا عليه الارض بالفتن كما سيأتي الكلام عليه في محله ان شاء الله

واماً عدله فما يروى عنه ما أخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال : اشترى عثمان من رجل أرضاً فباطأ عليه فقال ما يمنعك من قبض مالك . قال انك غبنتني فما ألتى من الناس أحداً الا وهو يلومني قال أذلك يمنعك ؟ قال نعم . قال فاختر بين أرضك ومالك ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مسترياً أو بائعاً . وقاضياً ومقتضياً)

ومنه ما أخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان اصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على انه كان دهم التنفقد لحال الرعية والسؤال عنهم

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

﴿ أدبه مع نفسه ومع الرسول ﴾

اخرج ابن عساكر عن ابن عيينة انه قال . قال عثمان بن عفان ماتنيت ولا تمنيت ولا شربت خمرأ في جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجى بييني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقوله ولا مسست الخ تناه

في الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والاحترام ليدته الشريفة التي مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان مع ما عرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له وبذل ماله في سبيل مرضاته فرضي الله عنه وارضاه

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

نقل في الرياض النضرة في فضائل العشرة من رواية ابن السمال عن أبي الفرات قال . كان لعثمان عبد فذل له اني كنت عركت اذنك فاقتصمني . فاخذ باذنه ثم قال عثمان . اشدديا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة

وهذه مكانة من كرم الاخلاق وخفض الجناح والتقوى واعطاء الحق لا يبلغها الا اولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا بخلق نبهم عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه للمسامين ﴾

من اخباره في التأديب ما اخرج ابن عساكر عن أبي الزناد انه ذكر ان رجلاً من ثقيف جلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس في خلوته فلما جلد أراد ذلك المجلس فنعمه اياه وقال . لا نعود الى مجلسك ابداً الا ومعنا ثالث

وروى الطبري ان رجلاً استخف بالعباس في مناوذة كانت بينهما فضر به عثمان فقبل له في ذلك . فقال نعم أَيْفَخَّم رسول الله (ص) عمه وأرخص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله (ص) من فعل ذلك ومن رضى به منه

﴿ تواضعه ﴾

كانت اخلاق عثمان رضي الله عنه كلها فضائل اتشح بردائها وأخذ

لنفسه بها ولو لم يأت عليه الكبر فيضعفه وتضطرب سياسته من اجل ذلك في
 او اخر خلافته فيكون من الطعن عليه ما كان لما شاب سيرته شائبة ولكانت
 كسيرة صاحبيه واما ما عدا تلك الحوادث التي حدثت له ومهدت لبعضهم
 سبيل الانكار عليه فهو في المكانة العليا من الاخلاق البارة والشيم الجميلة
 وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فما جاء من اخبار تواضعه
 ما اخرجه ابن عساكر في تاريخه عن الحسن قال . رأيت عثمان نائماً في
 المسجد وردأوه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ثم يجيء الرجل فيجلس
 اليه ويجيء الرجل فيجلس اليه كأنه أخدمهم . وروى عن الحسن أيضاً انه سئل عن
 القائلة في المسجد فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في
 المسجد ويقوم وأثر الحصا بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين
 واخرج عن علي بن مسعدة عن عبد الله الرومي قال كان عثمان يبلي
 وضراء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم
 يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتني جدتي ان عثمان كان
 لا يوقظ أحداً من أهله اذا قام من الليل الا ان يجده يقظان فيدعو فيناولوه
 الوضوء وكان يصوم الدهر

﴿ حياؤه ﴾

كان عثمان (رض) مشهوراً بشدة الحياء وهو خالق جميل وأدب نفسي
 زين المرء اذا توسطه ولم يفرط فيه وامل من جملة ما أطمع الناس في عثمان
 شدة حياؤه وحلمه كما أشرنا الى ذلك في سياسته ولا عجب في ذلك فان من
 الناس من اذا استحيت منه لم يستح منك وجرأه حياؤك عليك . ومما جاء
 من اخباره في الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبي جميع الهجيمي قال

ذكر عند الحسن حياء عثمان وانا اسمع قال (اي الحسن) كان عثمان ليكون في جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء ان يرفع صلبه

﴿ شفقتة على الرعية ﴾

نقل في الرياض النضرة عن سليمان بن موسى ان عثمان بن عفان دعي الى قوم كانوا على أمرٍ قبيح نخرج اليهم فوجدهم تفرقوا ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله اذ لم يصادفهم واعتق رقبة

واعلم ان الصحابة وأخصهم الخلفاء الاربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداءً بالنبي عليه الصلاة والسلام وسنفرده للكلام على هذا الامر باباً مخصوصاً في هذا الكتاب ان شاء الله

﴿ كرمه ﴾

كرم عثمان معروف وقد سبق في هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العسرة من ماله بما لم يسبق لاحد قبله ولما ولي الخلافة زاد في أعطيات الناس ورزق الممالك كما قدمنا وأغدق على ذوي رحمه ووصلهم وأغناهم وكان هذا مما أنكر عليه وتقم منه لاجله وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه في البذل والتوسع في المعيشة والتنعم بالرزق ولم يكن ميالاً للتقشف وشظف العيش لذلك فكما كان يجب ان يوسع على نفسه يجب ان يوسع على أهله وعشيرته وليس في هذا ما يقدح في عفته أو دينه اذ الدين يأمر بصلة ذوي الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش وطريقة أبي بكر وعمر قبله في الزهد والتقشف التي أخذها بها أنفسهما ليست بالامر المستطاع لكل مسلم وانما هي تورع واتباع لطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد وهي محمودة في نفسها للخلفاء

وليست بواجبه بل الواجب هو القصد وعدم الصرف والعفة عن الفضول وقد كان عثمان (رض) عفيف النفس بالضرورة لان الكرم يكون مع العنة لا مع الشمره وهو من اكرم الناس ولم ينحصر كرمه في ذوي قرابته بل تعداه الى غيرهم ايضاً ومما يروى عن كرمه غير ما تقدم ذكره ما اخرج به ابن عساکر عن ابن سعيد بن يربوع بن عنكشة الخزومي قال انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعى طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا فاذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنه أو بعض لبنه فقامت انظر اليه اتعجب من جماله ففتح عينيه فقال من انت يا غلام . فاخبرته فنادى غلاماً قريباً منه فقال لي ادعه فدعوته فامر به بشيء وقال اقم . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم فنزع ثوبي وألبسني الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجمت الى أبي فاخبرته فقال يا بني من فعل هذا بك فقلت لا أدري الا انه رجل في المسجد نائم لم أر قط أحسن منه . قال ذلك أمير المؤمنين عثمان

وروى ابن عساکر عن أبي اسحق السراج قال . قال لي أبو اسحق القرشي يوماً من اكرم الناس بعد رسول الله (ص) ؛ قلت عثمان بن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؛ قلت لاني رأيت الكرم في شيتين . في المال والروح . فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله (ص) ثم جاد بروحه على أقاربه . قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ما قال)

✽ صلاحه وتقواه ✽

كان كثير التقوى والقنوت كثير الصلاة كثير قراءة القرآن شديد

الواع به والاستظهار له وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أم من هو قانت اناء الليل) الآية قال نزلت في عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن اسرائيل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا اني أكره ان يأتي علي يوم لا انظر في المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة ان عثمان كثيراً ما روي في المقام يصلي من أول الليل الى بزوغ الفجر

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هييج الناس ما كان جعل رجل يسأل عن أفاضل اصحاب رسول الله (ص) فجعل لا يسأل احداً الا ودله على سعد بن مالك (اي ابن ابي وقاص) فجلس اياماً لا يسأله عن شيء حتى استأنس به فذكر الحديث . قال اخبرني عن عثمان : قال كنا اذ نحن مع رسول الله (ص) كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقةً في سبيل الله اه

﴿ باب كتبه وخطبه ﴾

﴿ كتبه ﴾

لما استخلف عثمان (رض) كتب كتباً غراء الى عماله وولاته والعامه يوصيهم فيها بالقيام على الحق وحسن السيرة وقد اورد هذه الكتب الطبري في تاريخه وهذه صورتها

﴿ كتابه الى عماله ﴾

اما بعد فان الله امر الائمة ان يكونوا رعاةً ، ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جُباةً ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاةً ، ولم يخلقوا جباةً ؛ وليوشكن

أمتكم ان يصيروا جبابةً ، ولا يكونوا رعاةً ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والامانة والوفاء ، ألا وان أعدل السيرة ان تنظروا في امور المسلمين فتمعظوم الذي لهم . وتأخذوا بما عليهم . ثم تنثوا بالذمة (اي اهل الذمة) فتمعظوم الذي لهم وتأخذوم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء اه

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون في كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة والوفاء للعدو المحارب وقد رأيت من هذا شيئاً كثيراً في سيرة عمر (رض) وليت شعري هل للمسلمين ان يعقلوا . وللمسيحين أهل الذمة والاجانب منهم ان يعدلوا .

٢

﴿ كتابه الى أمراء الاجناد في الشغور ﴾

اما بعد فانكم حماة المسلمين وذاتهم^(١) وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنّا بل كان عن ملائمتنا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه :

٣

﴿ كتابه الى عمال الخراج ﴾

اما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق . فلا يقبل الا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق . والامانة الامانة قوموا عليها . ولا تكونوا اول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظالموا اليتيم .

ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم :



﴿ كتابه الى العامة ﴾

اما بعد فانكم انما بلغت ما بلغت بالاعتداء والاتباع فلا تفتنكم الدنيا عن امركم فان امر هذه الدنيا صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم (١) وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القران فان رسول الله (ص) قال الكفر فالمعجمة فاذا استعجم عليهم امر تكافؤوا وابتدعوا :



﴿ وكتب الى عماله ايضاً ﴾

اما بعد استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة وأمر الله أقيموه ولا تدهنوا فيه واياكم والمجلة فيما سوى ذلك وارضوا من الشرر بيسره فان قليل الشرر كثير . واعلموا ان الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها من بعض . سير واسبيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر



﴿ وكتب اليهم ايضاً ﴾

ان الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته وقال سبحانه (لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيته . ولا تعجلوا على احدٍ بحمدٍ قبل استيجابه فان الله تعالى قال (لست عليهم بمسيطرٍ

الأمن تولى وكفر) من كفر داوينا بدوائه ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله : ابن عساكر :



﴿ وكتب ايام الفتنة الى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم: انا بعد فاني اذكركم الله الذي انعم عليكم . وعلمكم الاسلام . وهداكم من الضلالة وأتقدمكم من الكفر . وأراكم من البيئات . ونصركم على الاعداء . ووسع عليكم من الرزق . وأسبغ عليكم نعمته فان الله عز وجل يقول (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) وقال (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . . . الى . . . يهتدون) (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير . . . الى . . . المفلحون) (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا . . . الى عظيم) وقال (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه . . . الى . . . سمعنا وأطعنا) وقال (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ . . . الى . . . حكيم) وقال (ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً . . . الى . . . أليم) وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وقال (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم . . . الى . . . يفعلون) (ولو شاء الله لجمعكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . . . الى . . . تختلافون) (ولا تتخذوا ايمانكم دخلاً بينكم . . . الى . . . أليم) (ولا تشتروا بعهد الله الى تعملون) (ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ وليجزين الذين صبروا أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال (ولا تشتروا بآيات الله : الآية) وقال (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم الى تأويلاً) وقال (وعد

الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .. الى ..
 الفاسقين) (ان الذين يبايعونك .. الى عظيماً) ابن عساكر :

﴿ وكتب مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) : اما بعد فان الله قدرني لكم السمع والطاعة
 وكره لكم المعصية والفرقة والاختلاف وقد أباكم فعل الذين من قبلكم
 وتقدم اليكم فيه لتكون له الحجة عليكم ان عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله
 واحذروا عقابه فانكم لن تجدوا أمة هلكت الا من بعد ان تختلف ولا يكون
 لها امام يجمعها . ومتى ما فعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً قال تعالى (ان
 الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . . الى يفعلون) واني اوصيكم بما اوصاكم الله به
 وأحذركم عذابه وان القرآن نزل لنعبر به وننتهي اليه (او لا ترون الى شعيب
 قال لقومه يا قومي لا يجرح منكم شقائي الى .. ببعيد) (ويا قومي استغفروا ربكم ..
 الى .. ودود) ابن عساكر :

﴿ وكتب كتاباً آخر مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) اما بعد فان اقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث
 اظهروا للناس انما يدعون الى كتاب الله والحق ولا يريدون الدنيا ولا
 منازعة فيها فلما عرض عليهم الحق اذا الناس في ذلك شئ منهم أخذتم للحق
 ونازع عنه حين يعطاه . ومنهم تارك للحق رغبة في الأمر يريدون ان يتزوه
 بغير الحق . وقد طال عمري وراث (ابطأ) عليهم أملمهم في الأمر واستعجلوا
 القدر . واني جمعهم والمهاجرين والانصار فنشدتهم فأدوا الذي علموا

علموا فكان أول ما شهدوا به ان يقتل من دعا الى نفسه او أحدٍ : وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (اي الطعانون) وما اجابهم فيه الخ . . . ابن عساكر^(١)

١٠

وكتب كتاباً ايام الحصار بعثه مع نافع بن طريف الى اهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته
(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحج من المسلمين : أما بعد : فاني كتبت اليكم كتابي هذا وأنا محصور أشرب من بئر القصر ولا آكل من الطعام ما يكفيني خيفة ان تنفذ ذخيرتي فاوت جوعاً انا ومن معي . لا أدعى الى توبة أقبليها . ولا أسمع مني حجة أقولها فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي الأقدم علي فأخذ الحق في ومنعني من الظلم والباطل (عن الامامة والسياسة)

١١

ومن كتبه التي كتبها للامراء وأهل الامصار يستغيثهم بها كتابه الى معاوية وأهل الشام وهذا صورته
أما بعد : فاني في يوم طال فيهم مقامي واستعجلوا القدر في وقد

(١) هذا الكتاب والكتبان اللذان قبله اوردهم ابن عساكر مفرقين وأوردهم الطبري في كتاب واحد مع اختلاف قليل في اللفظ وذكر في آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطعانين فيه وما اجابهم عنه مما لم أر حاجة ليراده اذ اوردنا من سيرة عثمان وأخبار الفتنة ما هو بمعناه فن اراد الكتاب برمته فيراجعه في المجلد السادس من تاريخ الطبري

خَيْرُونِي بَيْنَ أَنْ يَحْمِلُونِي عَلَى شَارِفٍ^(١) مِنَ الْإِبِلِ الدَّحِيلِ^(٢) وَبَيْنَ أَنْ
 أَنْزِعَ لَهُمْ رِذَاءَ اللَّهِ الَّذِي كَسَانِي . وَبَيْنَ أَنْ أُقِيدَهُمْ مِنْ قَتْلَتُ . وَمَنْ كَانَ عَلَى
 سُلْطَانٍ يَخْطِي وَيُصِيبُ . فَيَاغُونَاهُ ثُمَّ يَاغُونَاهُ . وَلَا أَمِيرَ عَلَيْكُمْ دُونِي .
 فَالْعَجَلُ الْعَجَلُ يَا مَعَاوِيَةَ وَأَدْرِكُ ثُمَّ أَدْرِكُ . وَمَا أُرَاكَ تَدْرِكُ (الْإِمَامَةُ . .)

١٢

(وَمِثْلُهُ مَا كَتَبَهُ لِأَهْلِ الْإِمَصَارِ)

(أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا (ص) بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . وَبَلَغَ
 عَنِ اللَّهِ مَا أَمْرَهُ ثُمَّ مَضَى وَقَدْ قَضَى الَّذِي عَلَيْهِ . وَخَلَّفَ فِينَا كِتَابَهُ فِيهِ
 حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ . وَبَيَانَ الْأُمُورِ الَّتِي قَدَّرَ فَاْمُضَاهَا عَلَى مَا أَحَبَّ الْعِبَادُ
 وَكَرَهُوا . فَكَانَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ . ثُمَّ عَمْرٌ ثُمَّ دَخَلَتْ فِي الشُّورَى فِي غَيْرِ عِلْمٍ
 وَلَا مَسْأَلَةٍ عَنِ مَلَائِكَةٍ مِنَ الْأُمَّةِ . ثُمَّ اجْتَمَعَ أَهْلُ الشُّورَى عَنِ مَلَائِكَةٍ مِنْهُمْ
 وَمَنْ النَّاسُ عَنِ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا حِجَّةٍ مِنِّي . فَعَمِلَتْ فِيهِمْ بِمَا يَعْرِفُونَ وَلَا يَنْكُرُونَ .
 تَابِعًا غَيْرَ مُسْتَشِيرٍ مُتَّبِعًا غَيْرَ مُبْتَدِعٍ . مُقْتَدٍ غَيْرَ مُتَّكِفٍ فَلَمَّا انْتَهَتْ الْأُمُورُ .
 وَانْتَكَتْ الشَّرَّ بِأَهْلِهِ . بَدَتْ ضَعْفَانٌ وَاهْوَاءٌ عَلَى غَيْرِ اجْتِرَامٍ وَلَا تَرَةٍ فِيمَا
 مَضَى إِلَّا أَمْنَاءَ الْكِتَابِ . فَطَلَبُوا أَمْرًا وَأَعْلَنُوا غَيْرَهُ بِغَيْرِ حِجَّةٍ وَلَا عَذْرِ .
 فَعَابُوا عَلَيَّ أَشْيَاءَ عَنِ مَلَائِكَةٍ مِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَا يَصْلَحُ غَيْرُهَا . فَصَبَّرْتُ لَهُمْ
 نَفْسِي وَكَفَفْتُهَا عَنْهُمْ مِنْذُ سَنِينَ وَأَنَا أَرَى وَأَسْمَعُ . فَازْدَادُوا عَلَى اللَّهِ جُرْأَةً
 حَتَّى أَغَارُوا عَلَيْنَا فِي جَوَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَرَمِهِ وَارْضِ
 الْحِجْرَةَ . وَنَابَتْ إِلَيْهِمُ الْأَعْرَابُ فَهُمْ كَالْحِزَابِ أَيَّامَ الْحِزَابِ . أَوْ مِنْ غَزَاةِ
 بِأَحَدٍ إِلَى مَا يَظْهَرُونَ . فَمَنْ قَدَرَ عَلَى الْجَاقِ بِنَا فَلْيَحْقِ أَهْ (عَنِ التَّمْهِيدِ وَالْبَيَانِ)

(١) الشارِفُ النَّاقَةُ الْمَسْنَةُ (٢) الدَّحِيلُ هَكَذَا بِالْأَصْلِ وَلَمْ أَجِدْ لَهَا مَعْنَى فَاتَّجَرُوا

﴿ خطبه ﴾

﴿ أول خطبة له ﴾

قد تقدم معنا في الكلام على استخلاف عثمان (رض) ذكر الخلاف في أول خطبة لعثمان وإن من المؤرخين من يقول انه ارتج عليه ومنهم من يقول انه خطب وقد أورد هذه الخطبة الطبري في تاريخه من رواية سيف عن رواها قال

لما بايع اهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبةً فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال انكم في دار قلمة^(١) وفي بقية اعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتكم ، صبيحتم أو مسيتم ، الا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى . ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يعفل عنكم . أين ابناء الدنيا واخوانها الذين أناروها^(٢) وعمروها ومتمعوا بها طويلاً . ألم تلفظهم ؟^(٣) ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها . واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً فقال عز وجل (واضرب لهم مَثَلِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. الى قوله .. أملا)

٢

وفي رواية أخرى للطبري ان أول خطبة خطبها عثمان هي هذه
 أما بعد فاني قد حملتُ وقد قبلتُ ألا واني متبوعٌ ولستُ بمبتدعٌ . ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً :

(١) أي عارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ النبي من فمه : رماه :

اتَّبَعَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسَنَّةَ أَهْلِ الْخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسْنُوا عَنْ مَلَائِكَةٍ : وَالْكَفَّ عَنْكُمْ إِلَّا فِيمَا اسْتَوْجِبْتُمْ . إِلَّا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ قَدْ شُهِيتَتْ إِلَى النَّاسِ وَمَالُهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَشْقُوا بِهَا فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثِقَةٍ . وَعَالِمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلَّا مَنْ تَرَكَهَا : اهـ

٣

وخطب أيضاً فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه
أيها الناس اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ غَنَمٌ وَإِنْ أُكَيْسَ النَّاسُ مِنْ دَانَ نَفْسِهِ ^(١) وَعَمِلَ لَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَاسْتَسْبَبَ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ نَوْرًا لظلمة القبور وليخش عبده ان يَحْشُرَهُ اللَّهُ اَعْمَى وَقَدْ كَانَ بِصِيرًا . وَقَدْ يَكْفِي الْحَكِيمَ جِوَامِعَ الْكَلَامِ . وَالْأَصْمُ يُنَادِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَعَالِمُوا أَنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ لَمْ يَخْفَ شَيْئًا . وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمَنْ يَرْجُوا بَعْدَهُ . اهـ عن ابن عساکر

٤

وخطب مرة فقال *

إن الناس يبلغاني عنهم هتات وهتات ^(٢) واني والله لا أكون أول من فتح بابها . ولا أدار رحاها الا واني زام نفسي بزمامها وملتجمها بلجام فاقودها بزمامها واكبعها « اننعها » بلجامها ومناولكم طرف الجبل فمن اتبعني حمانته على الامر الذي يعرف ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه ، وعزاء عنه ، الا وان كل نفس يوم القيامة سائقا وشاهدا . سائق يسوقها على امر الله وشاهد يشهد عليها بعملها . فمن كان يريد الله بشيء فليتبشّر ، ومن كان انما يريد

(١) أي العاقل من قهر نفسه بمنعها عن الشهوات استمداداً لما بعد الموت

(٢) أي يبلغني عنهم امور شرور وفساد كما في لسان العرب

الدنيا فقد خسرها (ابن عساكر)

٥

﴿ وخطب وهو محصور فقال ﴾

ايها الناس ان عمر بن الخطاب صير الامر شورى في ستة توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راض فاختروني واجمعوا عليّ ولم آلوا عن العمل بالحقّ وما توفيقي الا بالله . وما أعلم ان لي ذنباً أكثر من طول ولايتي عليكم ولعلّ بعضكم ان يقول ليس كأبي بكر وعمر . أجل أجل است كهما والاشياء اشباه قريبة بعضها من بعض وقد زعمتم أنكم تحلموني فلا دون أن تعرفوني^(١) بأمر لا يخل لي الاّ خلعها من عنقي . واما العتي فلنعمت العتي اه (مفتاح الافكار)

٦

﴿ وخطب وهي آخر خطبه ﴾

اما بعد ان الله عزّ وجلّ انما اعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يُعْطِكُمْوهَا لتركتموها اليها . انّ الدنيا تنفي والآخرة تبقى . فلا تبطننكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية فأثروا ما يبقى على ما يفنى . فانّ الدنيا منقطعة وانّ المصير الى الله . اتقوا الله جلّ وعزّ فان تقواه جنة^(٢) من بأسه . ووسيلة عنده واحذروا من الله الغيبر . والزموا جماعتكم لاتصيروا احزاباً (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً) (رواها الطبري وابن عساكر)

(١) عزّه لطنحه بشر يريد انهم لا سبيل لهم الاّ خلعها الا بسبب صحيح يستوجب

الخلع ويحل له ترك الخلافة (٢) الجنة الترس والوقاية

— باب —

﴿ اخبار الفتنة ومقتل عثمان ﴾

(مبادئ الفتنة)

أجمع الرواة وأهل الاخبار ان عثمان (رض) قضي الشطر الاكبر من خلافته وهو أحب الى الناس من عمر (رض) لشدة ورأفة عثمان ولينه واقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء ايديهم من المغنم لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته فأثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالاموال الكثيرة فأنحرفت عنه من اجل ذلك القلوب ونظرت اليه قريش بغير عين الرضا ونهض المناقشة الحساب أهل الامصار وتحلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتائجها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والاثرة على الملك الى اليوم

أخرج ابن عساكر عن الحسن انه قال ادركت عثمان على ما نقبوا عليه قل ما يأتي على الناس يوم الا ويتسمون فيه خيراً فيقال لهم يا مشرك المسلمين اغدوا على اعطياتكم . فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم اغدوا على ارزاقكم . فيأخذونها وافرة . ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل . الاعطيات جارية والارزاق دارة والمدون مني وذات البين حسن والخير كثير . وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان . أفتته ونصيحته ومودته . قد عهد اليهم انها ستكون أثره فاذا كانت ان تصبروا . قال رسول الله (ص) لأسيدي بن خضير: ستلقون بعدي أثره . قال فما تأمرنا . قال ان تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله : قال الحسين لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بأمر رسول الله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق

واخير الكثير . قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلموا والاخرى
كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام ما على الارض مؤمن يخاف ان
يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً الى
يوم القيامة اه

١٠١ مبادئ الفتنه فقد قال ابن جرير الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع
فيه الناس وأعان على نفسه بافعاله وباستيلاء بني أمية عليه وكان ابتداء الجراءة
عليه ان إبلاً من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي
العاص فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس وثمان
في داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان . وقيل انه خطب
يوماً ويده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فأخذها جهجاه
النفاري من يده وكسرها على ركبته . فلما تكاثرت احداثه وتكاثر طمع الناس
فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم الى من بالأفاق بذلك
وبأن يقدموا لخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان

وقد كان اول ما تكلم به في الخارج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي
بكر ان عابا عثمان في غزوة ذات الصواري التي غزياها مع عبد الله بن سعد
ابن أبي سرح في البحر سنة احدى وثلاثين وأظهروا عيبه وماخلف به ابا بكر
وعمر وانه استعمل عبد الله بن سعد رجلاً أباح دمه رسول الله ونزل القرآن
بكفره ونزع أصحاب رسول الله عن الاعمال وولاها مثل عبد الله بن سعد
وسعيد بن العاص الى غير ذلك من الكلام الذي ساء عبد الله فزلهما عن
المسلمين في مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجبش الى مصر وأخذ
ابن أبي حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان

والذي يؤخذ من سياق اخبار الفتنة التي أوردها الطبري وغيره من المؤرخين ولم يصرح به أحد منهم وإنما هو - يتخرج من ثنايا الاخبار أن بذار الفتنة بذرت في أنحاء المملكة وعواصمها الكبرى كـمصر والبصرة والكوفة بدعوة سرية قام بها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء (وكان يهودياً من حمير واسلم على عهد عُمان) بإيعاز جمعية سرية^(١) تريد بهذا أحد أمرين اما تفريق المسلمين في الدين او تفريقهم في السياسة وذلك لان الدعوة التي قام بها ابن سبأ مشتركة بين الامرين . الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الاولى وجوب الخلافة لعلي دون غيره والثوب على عُمان انزع الخلافة منه ومن مقتضى الثانية الاعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم انه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته ان هذا الرجل لما اسلم نزل في البصرة على حكيم بن جبلة العبدي واجتمع اليه نفر فأخذ يفرهم بالدعوة التي قام بها فقبلوا منه وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها أيضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم واشباهم فقال لهم : العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية في الاسلام وانها طالما قابت كيان الوجود السياسي وقامت بها دول ترجئه الى سيرة علي بن أبي طالب عند الكلام على الحوارج والشيعية ليري القارئ ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكاتبهم من الحياة العالية ايام شباهم وكيف صاروا الآن الى اردل العمر وماتت فيهم كل مشاعر الحياة

ويكذب انَّ محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة ^(١) فقبلت منه . ثم قال لهم بعد ذلك انه كان لكل نبي وصي وعليّ وصي محمد فن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيّه . وانَّ عثمان أخذها بغير حق فانهاضوا في هذا الامر وابدأوا بالطعن على امراءكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعائه وكاتب من اسنفسد في الامصار وكتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم حتى تم لهم الامر كما ستري بعد وأنت ترى ان الدعوة في قسمها الأول اي القول بالوصاية سياسية وفي قسمها الثاني أي القول بالرجعة دينية فصدرها أما ان يكون من جماعة سرية من غير أهل الاسلام يريدون ادخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق كلهم : واما انهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من استفحال الصبغة الاموية في الدولة كما ستري بعد : هذا ان كان الجماعة من قریش وان كانوا من غيرهم فانما يريدون التدرع باسباب الرياسة بتقربهم من عليّ او غيره وقد توسل اولئك الاحزاب السياسيون بالدين لانه أقرب الى التسلط على الاذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيء بعد من امور السياسة والاجتماع . ولا يظن القاري ان قيام الدعوة باسم عليّ رضي الله عنه تستلزم انه الداعي لها كلاً فان هناك اموراً تدل على براءة القائمين بهذا الغرض بتوجيه الافكار الى عليّ لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التي يعرفها يومئذ كل المسلمين

(١) الظاهر ان الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك في علي لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ في عليّ وبنيه وقد نقل ابن حزم في الملل والنحل ان ابن سبأ قال لما قتل علي (رض) لو اتيتونا بدماعه ألف مرة ما صدقنا دونه ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً

وحسبك، من براءته من هذا الامر السكتب التي جاءت باسمه الى أهل العراق وباسم غيره أيضاً وظهر انها مفتعلة لم يكن لعلي بها علم كما ستري بعدُ وانما هي مكائد تدبر واكثر القوم عنها غافلون يضاف اليها نزوع العرب الى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه عن طريقة صاحبيه في بعض الامور الاجتهادية انحرافاً مهدي سبيل الطعن عليه واوجد قلوباً واعيةً حتى من كبار الصحابة لما يقال فيه . واما هالمهم اجماع أهل الامصار على الشكوى منه والطعن عليه خذلوله على ظن انه يخلع نفسه من الخلافه وتطفأ بذلك نأرة القوم فلم يفعل حتى قُتل وهم لاعتزاله منصب الخلافه منتظرون ولقتله كارهون

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبي حذيفة وابن السوداء ومن على شاكتهم في مصر قيام حمران بن أبان في البصرة لافساد الفلوب على عثمان لانه كان حافداً عليه اذ ضربه على زواجه بامرأة في العدة . واجتراء أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمه والتطلع الى الفتنة وقد تقدم ان سعيد بن العاص لما ولاد عثمان رضي الله عنه الكوفة جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأهل القادسية فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الارجحي وعلقمه بن قيس النخعي وثابت بن قيس الهمداني وجندب ابن زهير الغامدي وعروة بن الجعد وضعصة بن صوحان وابن الكواء وطليحة بن خويلد في أشباه لهم وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون الى الملاحة والمشامة والضرب فاذا عزلهم حجاب سعيد نهروهم وضربوهم : وقيل ان سعيد بن العاص قال يوماً انما هذا السواد (يريد سواد الكوفة اي اراضيها) بستان قريش : فقال له الاشتر: السواد الذي أفاء الله علينا باسيافنا تزعم انه بستان لك ولقومك

وخاض القوم في ذلك فأغاظ لهم عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه . فمنع سعيد بعدها السر عنده فاجتمعوا في مجالسهم يشابون سعيداً وعثمان والسفهاء يفشونهم . فكتب سعيد وأهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم . فكتب ان يلحقوهم بمعاوية وكتب الى معاوية : ان نفراً خلقوا للفتنة فقم عليهم وانهم وان آنت منهم رشداً فاقبل وان أعيوك فاردهم عليّ :

فأتر لهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق وأقاموا عنده يحضرون ما يئده فقال لهم يوماً . انكم قوم من العرب لكم اسنان (اعمار) وألسنة وقد ادركتم بالاسلام شرفاً وغلتم الأئم وحويتم مواريتهم . وقد بلغني انكم نتمتم قريشاً ولولم تكن قريش كنتم أذلة . ان ائمتكم لكم جنة (وقاية) فلا تفرقوا عن جنتكم . وان ائمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون عنكم المؤنة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم : فقال رجل منهم وهو صعصعة : امّا ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية . وامّا ما ذكرت من الجنة فان الجنة اذا اخترقت خلص الينا

فقال معاوية عرفتمكم الآن وعلمت ان الذي أغراكم على هذا قلة العقول . وانت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً . أعظم عليك أمر الاسلام وتذكرني بالجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمرهم . أفقهوا عني ولا أظنكم تفقهون . ان قريشاً لم تعز في جاهلية ولا اسلام الا بالله تعالى لم تكن باكثر العرب ولا أشدها ولكنهم كانوا أكثرهم أحساباً ، وأحضرهم انساباً ،

وأكفهم مروءة ولم يتمنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله فبؤأهم حرماً آمناً يخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عريثاً أو عجمياً أو أسوداً أو أحمر الأً وقد أصابه الدهر في بلده وحرته إلا ما كان من قريش فانهم لم يرُدْهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الاسفل حتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم وتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بني هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصاح ذلك الأً عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؛ أف لك رلاصحابك . أما انت يا عصبة فان قريتك شر القرى أنتمها بيتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر والأما جيراننا لم يسكنها شريف قط ولا وضع الا سب بها ثم كانوا الأُم العرب القاباً واصهاراً نزاع الأُمم وانتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شر قومك حتى اذا برزك الاسلام وخالطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الذلة ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضمهم وان يمنعهم من تأدية ما عليهم ان الشيطان عنكم غير غافل قد عرف بالشر فاغرى بكم الناس وهو صارعكم ولا تدركون بالشر امراً ابداً الا فتح الله عليكم شرراً منه وأخرى : ثم قام وتركهم فتمقاصرت اليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أنام فقال اني قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ابداً ولا يضره ولا أنتم برجل منفعة ولا مضرة فان أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطنكم الانعام فان البطر لا يعترى الخيار . اذهبوا حيث شئتم فساكتب الى أمير المؤمنين فيكم . وكتب معاوية الى عثمان

انه قدم عليّ اقوام ليست لهم عقول ولا اديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة انما همهم الفتنة واموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزئهم وليسوا بالذين يتكون احداً الاّ مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم فانهم ليسوا الاّ اكثر من شغب ونكير :

فقبل انهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو بمحصر فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان الى معاوية بردهم الى الكوفة فاطلقوا السنهم فكتب سعيد يشكوه فأمره عثمان باشخاصهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بمحصر وكان على حمص فقتل لهم يا آله (حرب) الشيطان لامر حبا بكم ولا اهلاً قد رجع الشيطان محصوراً وانتم بعد في نشاط خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤد بكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب الى الله أقلنا أقلك الله . حتى قال تاب الله عليكم وسرح الاشر الى عثمان نائباً : فقال له عثمان أحلك حيث تشاء . فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك اليك فرجع الى أصحابه

وقد نقل ابن أبي الحديد وابن الاثير من رواية المدائني زيادة في هذا الخبر وكلاماً طويلاً جري بين القوم وبين معاوية وانهم تطاولوا عليه ومسك أحدهم بالحيته وناقشوه في سيرته ذالان لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه فغضب منهم وكتب الى عثمان بأمرهم فأمرهم باشخاصهم الى عبد الرحمن : ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حياً باختصار واكتفاءً بما تقدم من خبرهم معه

﴿ كلمة في هؤلاء الناقين على عثمان ﴾

(وفي أهمية تاريخ الصحابة)

ان من يطالع هذا الخبر من اسراء الاستبداد، وأبني الاستعباد،
يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة وأعجب منه
عندهم ان يتجاوز عن القوم ولا ينالهم أدني عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ
اذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة
الاسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم الا القتل او قضاء الحياة في أعماق السجون
ولكن شأن العرب وشأن الاسلام وحكومته يومئذ لا يضاهيه شأن الأمم
الاخرى وحكوماتها اذ العرب قد اعنا وا بأصل الفطرة على حرية الفكر
والقول وشرائع الاسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هي معينة لها داعية
تهذيبها وارتقاؤها فالقرآن يأمر المسامين عامة بقول الحق وان يقوموا بالقسط
وينهدوا بالحق ولو على أنفسهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وفي
هذا كله ما يجيز لهم الانتقاد على الامراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته
فطرتهم من حرية القول بشرط ان لا يترتب على قولهم حد من الحدود
الشرعية كالتدفع وكل ما عيس بالشرف والعرض ويدعو الى اقامة الحد أو اية
عقوبة من عقوبات التعزيز لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الامصار
الاسلامية يظهر ون الطعن على عثمان وعماله باسم الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر وليس من يجراً على معاقبتهم أو الضرب على أيديهم من العمال لانه
حق من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم التكبير الا
بعد ان ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضي عنه
وهذا عين ما يشاهد الآن في الممالك الاوربية ذات الحكومات الشورية

من اطلاق أسنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير وكثيراً ما ياجتثون الوزراء الى اعتزال مناصبهم اذا رأوا منهم ما يستدعي ذلك فيعتزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين في ذلك العهد مع امرائهم كما رأيت ورتى العبرة في عثمان رضي الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمواخذته على أمور هي ولا نذكران للحق أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة في هذا العصر وفي كل عصر ومع هذا فقد افضى الامر الى طرد عماله من الامصار ثم اجلاب الناس عليه بالخييل والرجل من كل مصر وقتله بين ظهراي اخوانه من المهاجرين والانصار . فاميت شعري كيف نسي المسلمون تاريخ هذه النشأة التي نشأ عليها اسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم التي عمل بها مؤسسوا دولتهم فاستخذوا بعد ذلك للامراء ، واستسلموا للقضاء ، حتى صاروا اسراء الاستبداد وتعبدتم الملوك في كل الانحاء ، وساءت لهم الدول الحاكمة عليهم من اسلامية ومسيحية ضروب الخسف . وأذاقهم انواع الابهتان . وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التي كانت تأبي الهضيمة وتنضب للحق فتري الموت والحياة سيان في سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بجزيرتها

لا جرم ان الامة الاسلامية قد أنسيت ذلك لامرين (الاول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الاصول الثابتة منذ نشؤ الدولة كما سبق بيان هذا في صدر هذا الجزء (والثاني) تحريم العلماء بايعاز الامراء الخوض^(١)

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوي وهو من قولهم خاض الماء أي تغفل فيه فاذا كان مراد القائلين بجرمة الخوض في أخبار الصحابة هذا التغفل فلا نسلم لهم بجرمته واذا كان مرادهم به المعنى المجازي كالخوض في الباطل ونحوه فهذا ما لا نذكره عليهم بل هو مما نقوله ونسلم به وأنا أريد بالخوض هنا المعنى الاول فليتبه له

في تاريخ الخلفاء الراشدين واخبار الصدر الاول التي كلها حياة . كلها عبر . كلها حرية . وليس في كل ما كان بين الصحابة من الامور العظام ، والفتن الجسام ، ما يدعو ديناً أو أدباً الى اجتناب الخوض في اخبارهم والنظر في تاريخهم تعظيماً لهم واحتراماً لجانبيهم وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب اليه خدام الامراء من بعض العلماء اذ لو كان في اخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً أو أدباً لاستلزم انها اعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم وهذا باطل بالبدهاة والحقيقة هي ان هذا التحريم لم يكن الا بايعاز الامراء الجبارين ، والزماء المستبدين ، لان تاريخ الصدر الاول واخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم ، ومقاصد عالية تعلي شأن اولئك الرجال ، والله ليس في تاريخ من تواريخ الأمم في بدء نشأتها وابان ظهورها ما في تاريخ الخلفاء الراشدين ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمي كلها الى غرض الحرية وتمحيص الحق مما قل ان يكون في أمة حديثة النشأة . ودولة جديدة التكوين . اما ان فريقاً منهم اخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بنى . وفريقاً بنى عليه . فهذا الحكم انما هو تابع المقاصد والمقاصد كانت كلها متجهة الى تمحيص الحق والرغائب العالية فمن العبث ان يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد انه على صواب . ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فاننا مع اعتقادنا ان عثمان رضي الله عنه خير من كثير غيره ممن أتى بعده من الخلفاء ومع علمنا انه لم يأت من حب النفس او الاثرة بجزء مما يأتيه حتى أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الامويين أو العباسيين أو غيرهم فان اولئك الثائرين على عماله الناقين منه مهما كان الدافع لهم الى ذلك العمل فان غايتهم التي يقصدون اليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين

ومنافع الأمة كما تعودوا ذلك من الخليفتين السابقتين وان كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداها لهذا لم يستطع ان يمد اليهم المال يد السوء فهم اذا أوخذوا فانما يؤخذون من جهة انهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة اليه وانهم غلوا في ذم سيرته تدرعاً لمحو الصبغة الاموية من الدولة غلواً يلامون عليه ، مادام ذلك الغلوا لغرض آخر يرمون اليه ،

وامّا قتلته فانهم أخزاهم الله ليسو بمؤآخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة كخديفة بن اليان واضرابه وهم مسؤولون عن عملهم دون غيرهم وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جنائياً كبيراً كما سنشير اليه بعد ان شاء الله اذا تقرر هذا فاعلم ان اخبار الصحابة انما حرم بعضهم الخوض فيها لانها اخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة ونفوسهم بالعزة وهم بالضرورة قدوة الأمة والمنادون منذ نشأن الدولة بصوت العدل والحرية والحق فوقوف الناس على اخبارهم والاخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة الى الملك العضوض وأمعنوا في التمكّن من رقاب الناس لهذا ولما كثر خوض الناس في اخبار الصحابة أرادوا الهاءم عنها بحجة حرمة الخوض فيها فأوعزوا الى الوضاع والتقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنزة وأشباهاها في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق الا اذا صح نسبة أكثر تلك الكتب الى الواقدي والاصمعي فانها تكون في عصر العباسيين وذلك ليتلهمى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق والتشبه بسلف الأمة ورجلها ورافعي

دعامة دولتها في مناهضة ارباب العتوّ والجبروت ومحبي الاستبداد وآلهة الملك : هذا ما أراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب

✽ ما أنكره الناس عليه ✽

✽ واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه ✽

ذكر الطبري في تاريخه وابن قتيبة في الامامة والسياسة وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن خلدون في التاريخ الاحداث التي كانت على عهد عثمان رضي الله عنه وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه وزاد بعضهم على بعض ونقل بعضهم ما لم ينقله البعض فرأيت ان استقصى هنا ما نقلوه ليضعه القراء موضع الحكمة والبحث

فنها اتمامه الصلاة في منى وعرفة مع ان الامر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر. ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها اخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الربذة . ومنها سقوط خاتم النبي من يده في بئر أريس . ومنها افساؤه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر . ومنها صلته لأهله وبني عمه بالاموال واقطاعهم القطائع وحملم على رقاب الناس واستئثاره برأيه ورأيهم وتركه المهاجرين والانصار لا يستشيرهم ولا يستمعاهم وانه أعطى مروان خمس غزوة افريقيا ووصل عبد الله بن خالد ابن أسيد بار بمائة الف درهم وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين وأعطى أباسفيان ابن حرب مائتي الف درهم وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فاعطاهم مائة الف من بيت المال . وحمل الحمي (المراعي) حول المدينة الا عن بني أمية

وردَّ الحُكْمُ بن أبي العاص طريد رسول الله الى المدينة وأعطاه مائة الف درهم . ومنها مجاوزته الخيزران الى السوط وانه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس . ومنها تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لناائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته . ومنها ضربه عبدالله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من اضلاعه .

هذه هي الاحداث التي نغمها الناس على عثمان وآخذوه عليها وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأي كبار الصحابة على ان ما صح منها وان كانت احداثاً الا انها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه . ولعثمان رضي الله عنه اعذار اعتذر بها عن بعض ما عزي اليه ونقمه القوم منه فمنها مارواه الطبري في أخبار سنة (٢٩ هـ) ان عثمان صلى بمى اربعاً (اي صلاة المقيم) فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال . هل لك في أخيك قد صلى بالناس اربعاً . فصلى عبد الرحمن باصحابه ركعتين ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ؟ قال بلى . قال أفلم تصلّ مع أبي بكر ثم عمر ركعتين ؟ قال بلى . قال ألم تصلّ صدرًا من خلافتك ركعتين ؟ قال بلى فاسمع مني يا أبا محمداني اخبرت ان بعض من حج من أهل اليمن وجفأة الناس قد قالوا في عامنا الماضي ان الصلاة للمقيم ركعتان هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة اهلاً فرأيت ان اصلي اربعاً لخوف ما أخاف على الناس . وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولي بالطائف مال . فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شيء لك فيه عذر امّا قولك اتخذت اهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها اذا شئت وتقدم بها اذا شئت انما تسكن بسكنائك . وامّا قولك ولي مال بالطائف فان بينك

وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف وأما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الاسلام فيهم قليل ثم أبو بكر مثل ذلك ثم عمر فضرب الاسلام بجرانه فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين . فقال عثمان هذا رأي رأيته

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن زياب قال . صلى عثمان بأهل منى اربع ركعات فلما انصرف (اي بوجهه) اليهم قال اني صليت بكم اربعاً اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أتى أهل المسافر في بلدة فهو من أهلها يصلي صلاة المقيم اربعاً واني تأملت بها منذ قدمتها فلذلك صليت بكم اربعاً

فاذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لئبد الرحمن اعتذار صحيح لاسيما وانه صلى لدفع شبهة جفافة الاعراب في اعتباره مقيماً لزواجه في مكة فاذا صلى صلاة القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة في جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ففعل ما فعل من قبيل البلاغ والاحتياط

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر في اعتذاره عن الحمي الذي حماه عن ابي سعيد مولى أبي أسيد الانصاري قال : سمع عثمان بن عفان ان وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فلما سمعوا به أقبلوا نحوه وكره ان يقدموا عليه المدينة فأتوه فقالوا له ادعُ بالمصحف فافتح السابعة . وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية (قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلنا منه حراماً وحلالاً . قل الله اذن لكم أم على الله تفترون) قالوا له قف أرايت ما حميت من الحمي

الله أذن لك أم على الله تقترى : فقال امضه نزلت في كذا وكذا فأمّا الحمي فإنّ عمر حمي الحمي فبيلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمي كما زادت إبل الصدقة : وزاد عليه في بعض الروايات : اني قد وليت واني لأكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجبي

وهذا الخبر يدل على انه حمي من المراعي حول المدينة زيادة عما كان يحياه عمر فعدها مخالفة لعمر وتقموها منه

وقد أجمع الرواة وأهل الاخبار أنّ ما تقموه من عثمان في تقرّيبه أهله منه وصلتهم بالاموال قد تأوّل فيه الصلّة التي أمر الله بها وقال انّ أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأخذت ما هو لي فقسّمته في اهلي : ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه ان يستعيد ما أعطاه لمروان وخالد بن أسيد فاستعاده منهما ورده لبيت المال

وفي حديث طويل رواه ابن عسّاكر في اعتذار عثمان عما أنكره عليه قال فيه بعد اعتذاره عن الاشياء المتقدمة بمعنى ما تقدم : وقالوا اني رددت الحكم والحكم مكّي سيره رسول الله الى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الاحداث ولم استعمل الآ مجتمعة محتمل مرضي (يريد به عبد الله ابن عامر) وهؤلاء أهل عمله (أي أهل البصرة وكانوا حضوراً) فسألوه عنه وقد ولى من قبلي أحدث منه وقيل في ذلك لرسول الله (ص) أشد مما قيل لي في استعماله أسامة بن زيد . وقالوا اني اعطيت ابن أبي سرح مما أفاء الله عليه واني انما نقلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مائة الف قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر . فزعم الجند انهم

يكرهون ذلك فردّته عليهم وليس ذلك لهم . الى آخر الحديث وقد مر ما هو بمعناه

هذه اعدار عثمان رضي الله عنه التي اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين ، عنه اذا كانوا يريدون منه سيرة أبي بكر وعمر وان يحدو حدوها في التعفف والتشف والسير على طريق النبوة الذي لا يستطاع لكل الناس وقد جاهرته له بذلك أم سلمة احدى أمّهات المؤمنين ونصحته بتوخي السبيل التي توخاها أبو بكر وعمر في كلام طويل أجابها عنه بما يأتي يا أمنا قد قلت فوعيت وأوصيت فاستوصيت . ان هؤلاء النفر رِعَاعٌ غَيْرَةٌ ^(١) تَطَاطَأَتْ لَهُمْ تَطَاطُؤُ الْمَاتِحِ الدَّلَاءِ ^(٢) وتلدّت ^(٣) لهم تلدد المضطر . فأراينهم الحقّ اخواناً ، وأرهموني الباطل شيطاناً ، أجزرتُ المرسون ^(٤) منهم رسنه وأبلغتُ الرابع مسقاه . فانفروا عليّ فرقاً ثلاثاً فصامت صمته أنفد من صول غيره : وساع اعطاني شاهده ومنعني غائبه : ومرخص له في مدة ريذت ^(٥) على قلبه . فأنا منهم بين ألسن لداد ^(٦) وقلوب شداد ، وسيوف حداد ، وذيري الله ألا ينهي منهم حلیم سفياً . ولا عالم جاهلاً . والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون

﴿ ظهور الفتنة ﴾

لما فشت الاذاعة في الامصار . وسرت روح الثورة في الصدور .

- (١) سفلة (٢) أي الذي يتناول الماء من اعلى البئر (٣) تلتفت يمناً وشمالاً (٤) امكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته واهملته يرعى كيف شاء (٥) اي أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه (٦) اي شديدة الخصومة

وامتلأت القلوب بالسخط من عمال عثمان، وما يدسه دعاة الثورة في الاذهان، وكثر الطعن والارجاف على الامراء. اعترم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة اربع وثلاثين وكان قبلها قد ولى على الاعمال امراء قبّله فولى الاشعث بن قيس على آزر بيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همدان والسائب بن الاقرع على اصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجُرَيْر بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عُنَيْبَة بن النهّاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو وخرجوا لاعمالمهم وخرج هو وافداً على عثمان واستخلف عمرو بن حُرَيْث وخلت الكوفة من الرؤساء فاعتزم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكتبهم فيادره القعقاع بن عمرو. فقال انما نستعفي من سعيد ابن العاص فتركه وكتب يزيد الى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بمحصر في القدوم فساروا اليه وسبقهم الاشر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئناكم من عند عثمان وترك سعيداً يريد على نقصان نسائكم على مائة درهم « اي من العطاء » ورد أولى البلاء منكم الى الفين ويزعم ان فيثكم بستان قريش : فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والافك المفترى ونادى يزيد في الناس من شاء ان يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل فخرجوا وذو الرأي يعزلونهم فلا يسمعون وأقام أشرف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد وردّه . فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال انما كان يكفيكم ان تبعثوا واحداً الى والي عثمان رجلا . وقال مولى له ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع فقتله

الاشتر : ورجع سعيد الى عثمان فأخبره بخبر القوم وانهم يختارون أبا موسى
الاشعري فولاه الكوفة وكتب اليهم

أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله
لاقرضنكم عرضي ولا بذلنَّ لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدى . فلا تدعوا
شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه الا سألتوه . ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى
الله فيه الا ما استعفيتم منه . أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم
عند الله حجةٌ ولنصبرنَّ كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون

ولما انتهى اليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الاشعري وأمرهم بلزوم
الجماعة وطاعة عثمان فرضوا وكان جاء بعض الامراء من قرقيسيا وحلوان
وغيرها لاجل استصلاح القوم فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من
قرب الكوفة

وكانوا يسمون اليوم الذي ناروا فيه لرد سعيد يوم الجرعة باسم المكان
وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبري ونقلها غيره من
المؤرخين ومؤداها انَّ اهل الكوفة أجمع رأيهم ان يبعثوا الى عثمان ويعذلوه
فيما تقم منه فاتفقوا على ارسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن
عبدالله من بني تميم ثم من بني العنبر : فأتاه وقال له انَّ اناساً اجتمعوا ونظروا
في اعمالك فوجدوك ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه : فقال عثمان
ألا تسمعون الى هذا الذي يزعم الناس انه قارىء ثم يجيىء يكلمني في المحقرات
(أي الصغائر) ووالله لا يدري اين الله : فقال عامر بلى والله اني لادري
ان الله لبالمرصاد :

فأرسل عثمان الى معاوية وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص

وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاصي وكانوا بطانته دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم : ان لكل امرء وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي وأهل نقتي وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا اليّ ان اعزل عمالي وان ارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية أشير عليك ان تأمر امراء الاجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله واكفيك أنا أهل الشام . وقال عبد الله بن سعد ان الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم . ثم قام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بني امية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل : الى آخر ما قال وقد اوردنا قوله في سيرته في الجزء الثالث . وهذا الرأي هو انجع الآراء واحسمها لمادة الفتنة ولو تبعه عثمان رضي الله عنه واعتدل في ميله لبني امية وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطانته وأهل شورا كما كان الحال على عهد الخليفين لما اجترأ احد على قتله ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة واذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجما من القتل وقضى بقية حياته محترماً الجانب مكرماً من الناس لسابقته وسنه وتقواه . ولعله أراد ذلك فما يمكنه بنو امية مما يريد بعد ان صارت اليهم مقاليد الامور والله في هذا شأن هو بالغة

رأى عثمان ان يشغل الناس دونه بالحروب والغزوات كما أشار عليه ابن عامر فردّ العمال الى اعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم

فيها شغل : وهذا دواء وقتي لا يستأصل ذلك الداء بل هو من قبيل وضع
الخدّر على محل الأثم لا يلبث ان يسكن ساعة ثم يعود . ولما رجع الامراء
وعاد سعيدهم الى الكوفة لقيه القوم بالجرعة فردّوه كما مرّ في الخبر الاول
استمر الناس ينالون من عثمان في المدينة وغيرها ويتكاتب بعضهم الى
بعض وليس أحد من الصحابة ينهى الا نفر منهم كانوا يذّبون عنه مثل زيد
ابن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا
عنه فاجتمع الناس الى علي بن أبي طالب فكلموه في ذلك فدخل على عثمان :
وقال : الناس ورائي وقد كلوني فيك والله ما أدري ما أقول لك ولا أعرف
شيئاً تجمله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . انك لتعلم ما أعلم ما سبقناك الى شيء
فنجبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبغفك وما خصصنا بأمر دونك وقد رأيت
وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره وما ابن
أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول
الله رحماً ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالاه وما
سبقناك الى شيء فالله الله في نفسك فانك والله ما تبصر من عمي ، ولا تعلم
من جهالة ، وانّ الطريق لواضح بين ، وانّ اعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان
انّ أفضل عباد الله امام عادل هدي وهدى فاقام سنة معلومة ، وأمات
بدعةً متروكةً ، فوالله انّ كلاً لبين ، وان السنن لقائمة لها اعلام ، وانّ
البدع لقائمة لها اعلام ، وان شر الناس عند الله امام جأر ضل وأضل فأمات
سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، واني احذرك الله وسطواته ونقاهته فان
عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون امام هذه الامة الذي يُقتل فيفتح
عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويتركها شيئاً لا يبصر ون

الحقّ لعلّوا الباطل ، يمجون فيها موجاً ويمرجون فيها ، رجا ،
 فقال عُمان : قد علمتُ والله ليقولنّ الذي قلت . أما والله لو كنت
 مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتُك ، ولا عبتُ عليك . وما جئتُ منكراً إنّ
 وصلتُ رحماً وسددتُ خلةً (حاجة) وآويتُ ضائعاً ، ووليتُ شبيهاً بمن كان
 عمر يولي . أنشدك الله يا عليّ هل تعلم أنّ المنيرة بن شعبة ليس هناك ؟
 قال نعم : قال فتعلم أنّ عمر وولاه ؟ قال نعم : قال فلم تلومني أنّ وليتُ ابن عامر
 في رحمة وقرابته ؟ قال عليّ أنّ عمر كان يظأ على صماخ (اذن) من ولي .
 ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة . وأنت لا تفعل . ضعفت
 ورققت على اقربائك . قال عُمان وهم اقرباؤك ايضاً : قال أجل أنّ رحمتهم
 مني لقربة ولكن الفضل في غيرهم : قال عُمان هل تعلم أنّ عمر ولي معاوية
 فتمد وليته ؟ فقال عليّ أنشدك الله هل تعلم ان معاوية كان أخوفَ لعمر من
 يرفاً غلام عمر ؟ قال نعم : قال عليّ فان معاوية يقطع الامور دونك ويقول
 للناس هذا امر عُمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه :

ثم خرج علي من عنده وخرج عُمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال :
 أما بعد فإنّ لكل شيء آفة ، ولكل امرٍ عاهة وانّ آفة هذه الامة
 وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم
 ما تكرهون يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون اول ناعق . أحب
 مواردهم اليهم البعيد ، لا يشربون الاّ نغصاً (كدرآ) ولا يردون الاّ عكراً ،
 ولا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الامور ، ألا والله فقد عبت عليّ ما أقررتم
 لابن الخطاب بمثله . ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه
 فدنتم له على ما أجبتهم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتكم كتني ، وكففت يدي

ولساني عنكم فاجترأتم علي ، أما والله لا نأأعزّ نفرأ وأقرب ناصرأ ، وأكثر عدداً وأحرى ، ان قلت هلمّ أئى اليّ ، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، واخرجتم مني خلقاً لم اكن أحسنه ، ومنطقاً لم انطق به ، فكفوا عني ألسنتكم وعيكم وطعنكم على ولا تكم فاني كفتت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . ألا فاما تفقدون من حقكم والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه :

فقام مروان بن الحكم فقال ان شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . نحن وانتم والله كما قال الشاعر

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم مغارِسُكم تبنون في دِمنِ الثري
فقال عثمان اسكت لاسكت دعني واصحابي ما منطقتك في هذا ألم
اتقدم اليك أن لا تنطق . فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر فاشتمد قوله على الناس وعظم وزاد تألهم عليه

﴿ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله ﴾

رأيت مما تقدم الى أيّ حد بلغ تيار الفتنة وغليان السخام في الصدر ، وتأجج نار الثورة في الاطراف وشيوع الطعن على عثمان وعماله في كل مصر من الامصار الكبيرة وان سببه استئثار بني أمية بعثمان وانقطاعهم اليه وركونه اليهم دون المهاجرين والانصار ثم تذرع دعاة الفتنة بهذا الى الانكار عليه وموآخذته على امور فيها ما يعتذر عنه واستنهاضهم الناس بهذا للجرأة عليه وطرده عماله وخلعه من منصب الخلافة وليس من يذب عنه وينتصر له الا نفر قليل من الصحابة وما عداهم من المهاجرين والانصار

كلهم ناظم منه مفض عن نصرته ينتظر منه اما الرجوع الى سيرة أبي بكر وعمر واما التخلي عن منصب الخلافة ليكون الامر كما قال عمرو بن العاص بين الناس شرعاً سواء . وذلك لان الامة كما علمت جديدة النشأة ميالة بفطرتها الى الحرية والمساواة وقد اعتادت من أبي بكر وعمر العدل بين الناس في المعاملة وعدم استنثارهما بشيء من امور الدولة أو انقطاعهما بالرأي والمشورة الى فريق مخصوص من الناس وهو ما تنزع اليه اخلاق القوم ويأمر به الاسلام لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأي والانقطاع الى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه وعلى كبار الأمة ووجوه الصحابة بالامور هالهم ذلك وخافوا من ان تتقلب الدولة أموية بعد ان كانت شوروية اسلامية ليس لقوم ان يستأثروا بشأن من شؤونها دون آخرين ومما لا ريب فيه ان الدولة اذا اصطبغت بصبغة قومية وغلب على امورها قوم دون آخرين لا تلبث ان تتنازعها اطماع الغالبين بحكم القوة والعصبية التي تتخلل جسم الدولة ومن ثم ادرك الصحابة وبالأخص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الامر وخافوا من استصباغ الخلافة بالصبغة الاموية اذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاييد امورهم بنو أمية فلما رأوا ان الأمة تجاري رغائبهم وتشاركهم بالاحساس بمثل هذا الخطر لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد في استجاشة الخواطر عليه كطلحة ابن عبيد الله ونفر غيره ممن كان يكاتبهم أهل الامصار كما سترى بعدوا لكن لم يبلغ منهم الامر مبلغ اهدار دمه او الملائة على قتله معاذ الله وانما هم أرادوا الوصول الى خلعه فقط فعلم على رأيهم جفاة الاعراب لما عظمت الفتنة وأشدت صخب المتألبين عليه لما أبي الاعتزال وترك منصب

الخلافة ومع هذا فقد كان عامة أهل المدينة أخف وطأة وأزلم للصبر والائانة من أهل الامصار الذين ملأوها عليه بالفتنة شأن الأمم التي تجري منها قوة الشباب مجرى الروح من الجسم فلا تبصر اذا اندفعت لأمر في اي طريق تسير

لهذا لما تواترت الاخبار وتوالت على أهل المدينة الاذاعات الفاشية في الامصار أرادوا التثبت من الامر والأخذ بالاحوط رأفة بعثمان رضي الله عنه فأتوه وسألوه عن علمه بما يجري في الامصار واخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنده علما وقال لهم أشيروا علي وانتم شهود المؤمنين : قالوا تبث من تشق به الى الامصار يأتوك بانخبر فارسل محمد بن مسلمة الى الكوفة . وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمّار بن ياسر الى مصر وغيرهم الى سواها . فرجعوا وقالوا ما أنكرنا شيئا ولا أنكره علماء المسلمين . هكذا نقل الطبري وابن الاثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزيدوا وظاهر انهم يريدون من عدم انكارهم شيء اي من سيرة العمال التي يتذرع بها الناقون الى الثورة وهذا يؤيد ما قلناه من ان ما تقوموه من عثمان هو غير ما نسبوه الى عماله واليه من الاحداث التي أكثرها مما يمكن الاعتذار عنه وان استيلاء بني أمية على عثمان واستبداده وايامه بالامر هو العلة الحقيقية في تدمير المتذمرين ولو كان هناك شيء مما يذيعه الناقون من المظالم وسوء سيرة العمال لما خفي على اولئك الرسل وهم من خيرة الصحابة وكان العلماء افضوا اليهم به ولم يكتموه وكذا العامة على أن تلك العلة الحقيقية ليست بالامر الهين ايضا كما علمت لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية وخطر على حياة الشورى وخطر على المترشحين لهذا

المنصب من المهاجرين يضاف الى هذه العلة ما يدسه دعاة الفتنة كعبد الله سبأً ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهما للناس وما يجهر به عمار ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر من التشنيع على عثمان انتقاماً لانفسهم منه لامور سبقت له معهم^(١) ورغبة في مصير الخلافة بعده الى علي رضي الله عنه بذلك عليه ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن محمد قال بعثت ليلى بنت عميس الى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت . ان المصباح يأكل نفسه ويضي للناس فلا تأثما في أمر تسوقانه الى من لا يأثم فيه . فان هذا الامر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً فاتقوا ان يكون عليكم اليوم حسرةً عليكم غداً . فلجأً وخرجا مغضيين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان وتقول ما صنع بكما الآ ما ألزمك الله هـ

هذا ولما رجع الرسل من الامصار تأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه وكتب عثمان الى أهل الامصار كتاباً بهذه صورته عن ابن عساكر
اما بعد فاني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة

(١) روى الطبري عن سعيد بن المسيب ان سائلا سأله ما الذي دعا محمد بن أبي حذيفة الى الخروج على عثمان فقال كان يتما في حجر عثمان وكان عثمان والي ايتام أهل يثمه ويحتمل كلهم فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولي فقال يا بني لو كنت رضي ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فآذن لي فلاخرج فلاطلب مايقوتني . قال اذهب حيث شئت وحزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه ان منعه الولاية . قيل (اي للشعي) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهيب كلام فضرهما عثمان : واما محمد بن أبي بكر فقد اخرج ابن عساكر والطبري انه لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فقمها منه محمد وسيأتي خبره في غير هذا المحل ان شاء الله

منذ وليت على الأثمار بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يرفع اليّ شيء عليّ
أو على احدٍ من عمالي الاّ اعطيته . وليس لي ولا لعمالي حقّ قبل الرعيّة
الاّ متروك لهم . وقد رفع اليّ أهل المدينة انّ اقواماً يُشتمون وآخريّن
يُضربون . فيامن ضرب سرّاً وشتم سرّاً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف
الموسم « موسم الحج » وليأخذ بحقه كيف كان مني أو من عمالي . او تصدقوا
فان الله يحب المتصدقين

فاما قرئ هذا الكتاب في الامصار بكى الناس ودعوا لعثمان . وما
أطوع الانسان ، لرب الاحسان ، ولو ثبت على مثل هذا عثمان (رض) ولم
يخفل باغراء مروان ومن على شاكته ومضى في تألف الناس على وجهه
لما تمكنت جذور الفتنة في البلاد ، وقعدله القوم بالمرصاد ،

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الامصار ان يوافوه في الموسم
فقدموا عليه وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية وأدخل معهم
سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال : ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة
اني والله لخائف ان تكونوا مصدوقاً عليكم وما يصعب « يحاط » هذا الاّ
بي . فقالوا له ألم يرجع اليك رسلك ويخبروك انّ احداً لم يشافهم بشيء
والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الامر اصلاً ولا يحل الاخذ بهذه
الاذاعة : فقال اشيروا عليّ : فقال سعيد هذا امر مصنوع يلتقى في السرّ
فيتحدث به الناس . ودواء ذلك طاب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من
عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم اذا اعطيتم
الذي لهم فانه خير من ان تدعهم : وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً
لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأي حسن الادب :

وقال عمرو بن العاص أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين :

فقال عثمان قد سمعت كل ما اشترتم به عليّ ولكل أمر باب يؤتي منه . ان هذا الامر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وان بابه الذي يعلق عليه ليفتحن . فنكفكفه ^(١) باللين والمواتاة ^(٢) الا في حدود الله فان فتح فلا يكون لاحد عليّ حجة . وقد علم الله اني لم آل ^(٣) الناس خيراً وان رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان الى المدينة وعاد معه القوم دعا عليّاً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : انتم أصحاب رسول الله (ص) وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم (يعني عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمرو ولو انتظرتهم به الهرم لكان قريباً مع اني ارجو ان يكون أكرم على الله ان يبلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فاعتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله ان طمعوا فيه لا رأيتم منها ابداً الا ادباراً .

ولا يخفى على اللبيب ان معاوية يعرض بالقوم ويشير الى ما في نفوسهم من الطمع بالخلافة وانهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها اليهم بالضرورة لهذا انتهره عليّ رضي الله عنه وقال له : اسكت لا أم لك :

فقال دع أي فانها ليست بشر أمهاتكم قد أسامت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم وأجبني عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن اخي أنا أخبركم عني وعمما وليت . ان صا حبي اللذين كانا قبلي ظالما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وان رسول الله (ص) كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه فان رأيتم ذلك خطأ فردوه فاصري لامركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنت . قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين وقال له معاوية اخرج معي الى الشام فانهم (اي اهل الشام) على الطاعة قبل ان يهجم عليك ما لا قبيل لك به : فقال عثمان لا ابيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عنقي . قال فان بعثت اليك جنداً منهم يقيم معك لنايبة ان نابت : قال اضيق على جيران رسول الله : فقال والله لَيُعْتالَنَّ وَتُعْرَيْنَ فقال حسبي الله ونعم الوكيل

﴿ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان ﴾

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر فرّ على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : انكم قد علمتم ان هذا الامر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منهم أحد الا وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الامور دونه ولا يشهده ولا يواصره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من اتبعه فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فان أخذوا بذلك وقاموا به كان الامر أمرهم

والناس لهم تبع . وان صبغوا الى الدنيا وطابوها بالتغالب سلبوا ذلك وردّه الله الى من جعل له الغلب وكان يرأسهم أولاً فليحذروا الغير فان الله على البديل لقادر وله المشيئة في ملكه وأمره . اني قد خلفت فيكم شيئاً فاستوصوا به خيراً وكاتفوه ^(١) تكونوا أسعد منه بذلك : ثم ودعهم ومضى

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه وأوردها غيره مختصرة فاحببت نقلها عن ابن عساكر لانها أجمع وكل ما فيها غرر تاريخية تين ما كان عليه حال العرب قبل الاسلام وما صاروا اليه بعده وان التفاصل في الاسلام ايسر الا بالسابقة وان الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية انما صارت الى السابقين بسبقهم فاذا انتهت الى التغالب صارت الى من دخل الاسلام بعدهم لان في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد انبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغني الحيلة من الوقوع فيه مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشترأت أعناق غير السابقين الى ما كان لهم بحكم الجامعة الاسلامية والاستحقاق وليت تلك الروح لم تكن كانت في عصر كان الناس فيه أحوج الى خلافة عثمان وعليّ واضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا باداب النبوة فكانوا أرفأ بالامة وألزم لطريقة الشورى والعدل وكان يرجى لو استمرت جيلاً آخر نمو مبادئ الشورى في الدولة ونشو الجليل القابل على حبها والتوجه الى وضع قواعدها على أصول ثابتة لا تقوى عليها ايدي المستبدين واطماع الطامعين على ان اولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله وصدقوا نصيحته اذ قال علي : ان كنت لأرى ان في هذا

خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم
 ﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

هذا ولما دعا عثمان (رض) الامراء الى الموسم وخلت منهم البلاد
 اتعد المنحرفون عن عثمان ان يثبوا في منغيب الامراء فلم يتهيأ لهم ذلك فلما
 رجع الامراء كتب بعض أهل المدينة الى المنحرفين عن عثمان في الامصار
 بالقدوم عليهم وكان الذين يكتبون أهل مصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن
 جعفر وعمار بن ياسر وسراً أناس من الناس كما في رواية ابن عساكر من
 حديث طويل

فتكاتبوا من امصارهم في القدوم على المدينة نخرج المصريون وفيهم
 عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن
 بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة او قتيبة بن فلان السكوني
 وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العمكي . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن
 صوحان العبدي والاشتر النخعي وزيايد بن النضر الحارثي وعبدالله بن الاصم
 العامري . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي . وذريح بن عبّاد
 وبشر بن شريح القيسي وابن لحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي
 وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج ولما
 كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم
 في طاحنة فنزلوا ذا خشب وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير
 فنزلوا الاعوص ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ وتركوا
 عامتهم بذي المروة . وقال زيايد بن النضر وعبدالله بن الاصم من أهل الكوفة
 لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا انهم عسكروا لنا فوالله ان كان حقاً

لا يقوم لنا امر . ثم دخلوا المدينة وقرأوا علياً وطاحه والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم انهم انما أتوا للحج وان يستعفوا من بعض العمال واستأذنوا في الدخول فمنعهم ورجعوا الى أصحابهم فتشاوروا في ان يذهب من أهل الكوفة وكلّ مصر فريق الى من هوام فيه وقال كل فريق منهم ان بايعنا صاحبنا والآ كذبنام وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد وهو في الظاهر دهاء وتحيل على نيل المفسود الا ان الحقيقة ان ليس في القوم رجل على بصيرة من الأمر اذ لو فرض ان عثمان رضي الله عنه اصبح غير أهل للخلافة ووجب على الأمة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاةً للشرع أفلا يكون من المصلحة التي يتجراها اولئك الثائرون لانفسهم والأمة ان لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق وان توجه القلوب الى مقصد واحد ووجهة واحدة حتى بذلك تم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد مما كان فيه من الاضطراب في عهد عثمان وانما يتم لهم ذلك بانفاهم جميعاً على من يخلف عثمان والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهي خلع عثمان وقلوبهم شتى فيمن يخلفه وكل فريق منهم يميل الى شخص بعينه فكأنهم مساقون الى حيث لا يعلمون . لذا فأنهم مع صعوبة الامر الذي قاوا به وانه من المراكب الخشنة التي لا يركبها الا الاقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح لم يهتدوا الى طريق الخير والمصلحة التي يتوخاها أهل العقول في مثل هذه الحال فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم أيضاً من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التي لما لم تكن في بدايتها قائمة على اساس الحكمة والتدبير انتهت بتغلب بني

أمية على الملك وتحول حال الدولة من الشورى الى الاستبداد والله الامر هذا وبعد ان اتفق القوم على ما اتفقوا عليه أتى المصريون علياً وهو في عسكر عند احجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن الى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على عليّ أمرهم : فصاح بهم وطردهم وقال انّ جيش ذى المروة وذى خشب والاعوص ملعونون على لسان رسول الله (ص) وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طائفة والكوفيون الزبير فقالوا مثل ذلك : فانصرفوا واقتربوا عن هذه الاماكن الى عسكرهم على بعد وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا الاّ والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بامان من كفّ يده وصلى عثمان بالناس اياماً وازم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم عليّ وقال ما ردتكم بعد ذهابكم . قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا وقال البصريون لطائفة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم عليّ كيف علمتم بما اتى أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعت علينا جميعاً هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا . ثم منعوا الناس من الاجتماع معه وكتب عثمان الى الامصار يستنجدهم ويخبرهم . والناس فيه نخرج أهل الامصار على الصعب والذلول فبعث عبد الله بن سعد من مصر معاوية بن حُديج . وبعث ابو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو وبعث عبد الله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي . وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسامة الفهري وقيل انّ معاوية تر بص به فقام في اهل الشام يزيد بن الاسد التمسري فتبعه خلق كثير فسار بهم الى عثمان فلما وصل الى وادي القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش

التي اقيمت من الامصار لما انتهت الى الربدة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعاً وكان قام في الامصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرصون على اعانة أهل المدينة وانجاد عثمان فأجابهم الى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل ان يصل أحد الى نجدته

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فوالله انّ أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب : فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعدته حكيم بن جبلة وقام زيد بن ثابت فأقعدته آخر وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وأصيب عثمان بالحصباء فصُرِعَ وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة . ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل عليّ وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان . فقالوا لعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لترن عليك الدنيا . فقام منفضباً وعادوا الى منازلهم وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي وقيل أبو أيوب الانصاري وقيل سهل بن حذيف حتى نزل عثمان

وقد قيل في قتل عثمان اذ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد بن أبي بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلما كان عبد الله بايلة (العقبة) بلغه ان ابن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريماً اليها فمَنَعَ منها فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قُتِلَ عثمان وقيل انه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قريش والحرب بعد حتى مات

أما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان الى بيت علي ومثّ
 (توسل) اليه بالقرابة في ان يركب اليهم ويردّهم لئلا تظهر الجرأة منهم :
 فقال له قد كلمتك في ذلك فاطعت اصحابك وعصيتني : يعني مروان ومعاوية
 وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد بن العاص : فعلى أي شيء اردم . فقال علي
 ان اصير الى ما تراه وتشيره وان اعصى اصحابي وأطيعك . فركب علي في
 ثلاثين من المهاجرين والانصار فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد
 ابن مسleme فرجعوا الى مصر ورجع القوم الى المدينة ودخل علي على عثمان
 وأخبره برجوع المصريين وأشار عليه أن يسمع الناس ما عوّل عليه من النزع
 قبل ان يجيء غيرهم . ففعل وخطب خطبته التي ينزع فيها وأعطى الناس من
 نفسه التوبة وقال : انا اول من اتعظ استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه . فنبلي
 نزع وتاب فاذا نزلت فليأتني اشرافكم فليروا في رأيهم فوالله لئن ردني الحق
 عبداً لاستننّ بسنة العبد ولاذنّ ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه .
 فوالله لا اعطينكم الرضى ولا نحيينّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم : ثم
 بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم

أعطى الناس من نفسه الحق ووعد بان ينحي بني أمية عنه وهذا كل
 ما يطلبه منه الناس وكادت تطفأ نار الثورة وتزول أسباب الارجاف اكن
 بني أمية قد استحوذوا على عثمان ، وملكوا منه الجنان ، لكبر سنه وضعفه
 فلم يرقهم ما قال ووعد . فلما دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد
 فعدلوه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان وقالت لهم لا تزالون
 به حتى يقتلوه . فلم يرجعوا الى قوتها واستدلوه في اقراره بالخطبة والتوبة
 عند الخوف . واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً . فقال لمروان

كلهم . فكلهم وأغلظ لهم في القول وقال جثم لنزع ملكنا من أيدينا والله
لئن رمتونا ليرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا
الى منازلكم فاننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدو في الداخل يثير عليه نائرة
النفوس . وبين عدو في الخارج يتربص به العثرات ويحس من بطانته بالخطر
على الخلافة الشرعية والنزوع الى الاستئثار بالسلطة وحسبك من حقد القوم
على بطانته من بني أمية ما ذكره ان عثمان مر مرة بجبلبة بن عمرو الساسدي
وهو في نادى تومه وفي يده جماعة فسلم فرد القوم عليه . فقال جبلبة لم تردون
على رجل فعل كذا وكذا ثم قال لعثمان والله لا طرحن هذه الجامعة في عنقك
أولت تركن بطانتك هذه الخبيثة . مروان . وابن عامر . وابن أبي سرح .
فمنهم من نزل القرآن بدمه ومنهم من أباح رسول الله دمه اه

والعجيب ان بني أمية يرون الشر المقبل عليهم على عثمان من التصاقهم
به واقتطاعهم الامر دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون
بعثمان وبأنفسهم وبالمسلمين ويسلكون في هذا الامر مسلك الحكمة
والاعتدال ويرقون عن بعد حالة الفتنة حتى اذا تحققوا الخطر على عثمان
دفعوا عنه بما في الامكان . وما نخال الفتنة تصل الى هذا الحد لو كان
بنو أمية بعيدين عن عثمان .

هذا وبلغ خبر ما قال مروان علياً فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن
الاسود بن عبد يغوث . أسمت خطيبته بالامس ومقالة مروان للناس
اليوم يا لله وللناس ان قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحيي فان تنكلمت
بجاء ما يريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول

وقام مغضباً الى عثمان فقال له : اما رضيت من مروان ورضي منك الا
تخرفك عن دينك وعن عقلك مثل حمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله
ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه . وأيم الله اني لأراه يوردك ولا
يصدرك . وما انا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك اذهبت شرفك . وغلبت
على رأيك . ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول علي فعدلته في
طاعة مروان وقالت انما تركك الناس لمكانه فارسل الى علي فاستصلحه .
فبعث اليه فلم يأته فاتاه عثمان الى منزله يستلينه ويعدده الثبات على رأيه معه
فقال علي بعد ان قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . فخرج عثمان
وهو يقول خذلني وجرأت الناس علي . فقال علي : والله اني اكثر الناس
ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى جاء مروان باخرى فسمعت
قوله وتركت قولي : ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل الى ان منع عثمان الماء
فغضب وامر بادخال الروايا على عثمان

والحق يقال ان علي بن ابي طالب مع تيقنه من مصير الخلافة اليه
بعد عثمان فانه لم ياله نصحاً ولم يرضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ومهما
كان في نفس علي من جهة بني أمية وعثمان ما فيها فان شيمه الجميلة وغلبة
الفضيلة على رغائبه النفسية جعلته أقرب في مشربه السياسي الى الاعتدال
وأراف من بقية المهاجرين بعثمان وكان يعلم ذلك ويأنس بمشورة علي
أكثر من غيره يدلك على هذا ما ذكره في بعض الروايات ان علياً كان
عند حصر عثمان بخيبر فاشتد الطعن بعد خروجه على عثمان ورجا الزبير
وظلحة ان يميلا اليهما قلوب الناس ويغلبا عليهم واغتما غيبة علي . فكتب
عثمان الى علي

أما بعد فقد بلغ السيل الزبني ، وجاوز الحزام الطيبين ، وارتفع امر
الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي ، وطمع في
من لا يدفع عن نفسه

وانك لم تفخر عليك كفأخرٍ ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب .
وقد كان يقال أكل السبع خير من اقتراس الثعلب . فاقبل علي اولي
فان كنت مأكولاً فكنت انت آكلي والآن فادركني ولما امزق
ولما جاء علي الى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة وقدم عليه
عثمان وقال له . اما بعد فان لي حق الاسلام . وحق الآء والقراة والصحراء .
ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لسكان عاراً علي بن عبد مناف ان
يتزع اخوا بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخير ثم
خرج الى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في
خلاوة من الناس . فقال له يا طلحة ما هذا الامر الذي وقعت فيه . فقال
يا أبا الحسن بعدما مس الحزام الطيبين . فانصرف علي الى بيت المال وأعطى
الناس فانصرفوا عن طلحة وسر بذلك عثمان . وجاء اليه طلحة تائباً . فقال
والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فإله حسبيك يا طلحة

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان وهو ان عبد الله
ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه الى عثمان حتى قتله
فركب المصريون الى المدينة وبسطوا الامر لكبار الصحابة فاجتمعوا على
عثمان وألحوا عليه في انصاف القوم من عامله فقال لهم اختاروا رجلاً أوله
عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه وخرج معه عدد
من المهاجرين والانصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر وبينما

هم على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويتعد عنهم فقبضوا عليه وسألوه فقال انا غلام أمير المؤمنين وجهني الى عامل مصر وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان وقيل انه أبو الاعور السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب الى عامل مصر ففتحوه فاذا فيه : اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وابطل كتبهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر او لم يصح فان المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الامر بقتل بعضهم او جلدهم رجعوا ورجع الكوفيون والبصريون واقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة وقام علي ومحمد ابن مسامة فأتيا عثمان وقالوا له ما قال المصريون : فاقسم بالله ما كتبه ولا علم به : فقال محمد بن مسامة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه المصريون فلم يسلّموا عليه بالخلافة فعرف الشرفيهم . وذكر ابن عديس ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغانم فاذا قيل له في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين ثم ذكر واليه امر الكتاب خلف انه ما كتبه ولا علم له به . وسألوه عن كتبه فقال لا ادري . فقالوا كيف يكتب بمثل هذه الامور العظيمة وينقش عليها خاتمك وانت لا تعلم فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تحلخع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبت بطانتك ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك كما خلعتك الله :

فأجابهم عثمان اني لا انزع قيصاً ألبسنيه الله ولا كني اتوب وانزع :

قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا لكننا رأيناك تتوب ثم تعود واسنا
منصرفين حتى نخلعك او نقتلك أو تلاحق ارواحنا بالله تعالى وان منعك
أصحابك فقاتلهم حتى نخلص اليك اه

﴿ سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة ﴾

هذا آخر سهم في المنزع وآخر الجذ في امر الفتنة وقد رأي ذلك عثمان
وأحسَّ به وتوالت عليه النذر بمحصوله فلم يتنحَّ عن الخلافة وفضل القتل على
ترك ذلك المنصب الرفيع لا حباً بالرياسة على ما يظهر اذ الرياسة المشوبة
بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية الى ازهاق النفس لا تحب
وليست مما يحرص عليه وانما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة
اسباب (اما) لضعف الارادة الناشئ عن كبر السن (واما) خوفاً من ان
يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الاحداث مع اعتقاده انه لم
يستحل محرماً فيما فعل (واما) عملاً برأي مروان واضرابه من الامويين الذين
لا يرون لانفسهم حقاً بالتقدم في امور الملك والدولة الا اذا انتضي السيف
واهريق الدم ما دام غيرهم من المهاجرين وأهل السابقة في الاسلام موجودين
واليهم ينتهي المسلمون في الاختيار والمشورة وتسليم ازمة الرياسة . ولا
ارى لتمنع عثمان عن ترك الامر سبباً غير احد هذه الثلاثة اسباب والله
بالحقيقة اعلم

﴿ عود الى ما نحن بصددده ﴾

لما أبي عثمان ان يخلع نفسه جد القوم في حصاره ولو كان لهم رغبة
في قتله من مبدأ الأمر لقتلوه وخرج في اثناء الحصار اناس كثيرون عن

المدينة ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبى^(١) وكتب للولادة يستمدهم وصار بينه وبين القوم أخذ ورد رأوا بعده أن يمنعوا عنه الماء وكلّ صملة له بالناس تضيقاً عليه لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم وكان ذلك التضيق بإشارة من طلحة اذ ذكر الطبري ان القوم كانوا يوماً باباه يتناجون فمنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا علّ ان يراجع . فرّ طلحة فقام اليه ابن عديس فناجاه

(١) جاء في حديث رواه بن عساكر ان القوم لما دخلوا واستولوا على المدينة كتب عثمان الى الناس يستمدهم في امصارهم ويخبرهم الخبر فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال : يا أهل المدينة والله لا يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب فسار الى فلسطين وخرج معه أبناه محمد وعبد الله وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة انه دخل على عثمان وهو محصور فقال . انك امام العامة وقد نزل بك ما ترى واني أعرض عليك خصالاً ثلاثاً اختر احدهنّ : اما أن تخرج ننتقاتهم فان معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل : واما أن نخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه ننتعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وأنت بها : واما أن تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان . اما ان أخرج فاقاتل فان اكون أول من خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء . واما ان أخرج الى مكة فانهم ان يستحلوني بها فاني سمعت رسول الله يقول يُلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن أكون أنا . وأما أن الحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اه

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضي الله عنه ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالتضياء اولى منه أن يوصف بالاستبداد والاثرة اذ المستبد لا يبالي أن ياجأ الى القوة والحيلة ويستعمل نهاية الحزم في دفع الاذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه يترك الباحث في حيرة لا يدري كيف يحكم وماذا يقول

ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده : فقال عثمان وقد كان يرى ما وراء بابه . هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفني طلحة . فانه حمل عليّ هؤلاء وألبسهم عليّ والله اني لارجوان يكون منه صفرأ وان يسفك دمه :

وكان القوم بلغهم مسير من سار اليهم من الامصار فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منهم من ذلك الحسن والحسين ابنا عليّ ومحمد بن طلحة وابن الزبير وكثير من ابناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء وكانوا ربما قاتلوهم وقاتلهم معهم أبو هريرة وسعيد بن العاص ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقاً من عروقه واحتمل وهم يظنون انه مات كل هذا وعثمان لم يأمرهم بقتلهم بل كان ينهأهم عنه فلما طال عليهم الامر وخافوا وصول المدد ويتسوا من تسليم عثمان لهم بالامر ورأى محمد بن أبي بكر ان الحسن أصيب بجراح وخشى من أن يراه بنو هاشم فيأتون ويكشفون الناس . فأمرهم باتحام الدار من الدور المجاورة فاقحموها عليه من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب وانتدبوا له رجلاً يقتله فدخل عليه البيت فقال له اخلعها وندعك فأبى ووعظه نخرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ودخل عليه محمد بن أبي بكر فخاوره طويلاً فاستحميا وخرج ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر وطعنه عمرو بن الحمق عدة طعنات ودافعت عنه نائلة فنفحها احدثهم بالسيف في أصابعها وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن سمران وغيره . وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذي جاءهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا وقال عليّ لا بنيه

كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله وفي رواية ان علياً كان غائباً عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضي الله عنه وأخزى قاتليه ثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣٥ هـ) ودُفن من ليلته وقيل بل بقي في بيته ثلاثة أيام ثم جاء حكيم بن حرام وجبير بن مطعم الى علي فاذن لهم في دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة فدفنوه في حش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع وقد كان معاوية أمراً في خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين

هذا ما اخترت ايراده من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله وقد تركت شيئاً كثيراً من أخباره أيام حصاره فليرجع اليها من شاء في المطولات كتاريخ الطبري وابن الاثير وابن عساكر وابن خلدون والامامة والسياسة لابن قتيبة وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وتاريخ الخلفاء للسيوطي والتهديد والبيان في مقتل الشهيد عثمان وهي الكتب التي نقلت عنها في أخبار الفتنة وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتي عشرة سنة الا بضعة أيام على قول من قال انه قتل سنة (٣٥ هـ) واما على قول من قال انه قتل سنة (٣٦ هـ) فأكثر والاول اصح

وقد كان لمحمد بن أبي بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود في امر عثمان رضي الله عنه وربما اغتفر ذلك لطلحة لانه كبتية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون ان الامر يبلغ الى قتله ومهما كان من بعضهم في هذه الفتنة فان الدواعي السياسية ساقط بعضهم طوعاً

وبعضهم كرهاً الى الممالة على عثمان رجاء اذعانه لما جمعت عليه الافكار من لزوم اعتزاله للامر كما رأيت فيما سبق ولكن أبي رضي الله عنه ورحمه وغفر له الا الموت فاقدم عليه اولئك السفهاء وقتلوه بعد انذار كثير وجد ظاهر لا يخفى على مثل عثمان فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب في امر الدولة والخلافة ما ترك ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجد من القوم لما كان ما كان والله الامر

واما محمد بن أبي بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبري من رواية سيف عن مبشر قال : سألت سالم بن عبدالله عن محمد بن أبي بكر ما دعاه الى ركوب عثمان ؟ فقال الغضب والطمع . فقلت ما الغضب والطمع ؟ قال ما كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغره اقوام فطمع . وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن . فأجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد ان كان محمداً

﴿ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان ﴾

« وبحث في دخائل الفتنة وكلتي فيها وفي سبب استمساكه ببني أمية »

قد ذكروا الرواة والمؤرخون اشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ما ذكرناه لا يخلو النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شي من دخائل الفتنة فلا ينبغي ان نخلي هذا الكتاب منها بعد ان وعدنا القراء في خاتمة الجزء الثالث بالتوسع في سيرة عثمان اجابة لرغائب كثير منهم خلافاً لما اشترطناه في فاتحة الكتاب من لزوم الاختصار في سيرته وسيرة علي رضي الله عنهما . فمن ذلك ما ذكره عن المسكتبات السرية التي كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح . روى ابن قتيبة في الامامة

والسياسة عن حُوَيْطِب بن عبد العزى انه قال أرسل الي عثمان حين اشتد حصاره فقال: قد بدا لي ان أتهم نفسي لهؤلاء فأت علياً وطلحت والزبير فقل لهم هذا أمركم فتولوه واصنعوا ما شئتم: فخرجت حتى جئت علياً فوجدت على بابة مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد ثم انصرفت فاتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه أحد فأخبرته بما أرسلني به عثمان فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين هل جئت علياً قلت نعم فلم اخلاص اليه . فقمنا جميعاً فاتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين هل جئت علياً؟ قلنا نعم فلم نخلص اليه . فإرسل طلحة الى الاشر فأتاه: فقال لي اخبره فأخبرته بما قال عثمان فقال طلحة وقد دمعت عيناه . قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين . فقام الاشر وقال تبعثون الينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو في الامامة والسياسة فإيراجمه من أحب) أليس هذا كتابكم الينا فبكي طلحة فقال الاشر لما حضرنا اقباطكم تعصرون اعينكم والله لا نفارقه حتى نقتله وانصرف: وسكوت طاحه عن انكار هذا الكتاب يدل على صحته اذا صححت الرواية. واما المختلق فقد روى ابن عساكر والمدائني ان المصريين لما عادوا جاؤا الى علي وقالوا له قم معنا الى عثمان . فقال والله لا اقوم معكم . قالوا فلم كتبت الينا . قال والله ما كتبت اليكم كتاباً . فنظر بعضهم الى بعض وخرج علي من المدينة وفي رواية الاعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه ^(١) موص

الاناء حتى تركتموه كالثوب الرخص^(١) نقياً من الدنس ثم عدوتم
 فقتلتموه . فقال لها مروان هذا عمك كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج
 عليه : فتالت والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم
 بسواد في بياض حتى جلست في مجاسي هذا : قال فكانوا يرون انه كتب
 على لسان عليّ وعلى لسانها كما كتب ايضاً على لسان عثمان مع الاسود الى
 عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة

ولا جرم ان لهذه الكتب أثراً كبيراً في اشعال نار الفتنة ولكن من
 هو مصدرها ومن هم المختلفون لها ؛ هذا ما لا يظهر الا للمنقب في سيرة
 عثمان الواثق على مقاصد الاحزاب الكثيرة التي كانت تسعى في اضرام
 نار الثورة فلاني أمية حزب وطلحة حزب ولازير مثل ذلك ولعليّ
 مثله ايضاً وكان حزب عليّ أشدهم تشيعاً له وطمعاً في مصير الخلافة اليه
 ومنهم محمد بن أبي بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذي كان شديد الحب
 لعليّ شديد التأليب على عثمان والتجريض عليه . نقل في العقد ان سعد بن
 أبي وقاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من افاضل اصحاب محمد حتى
 لم يبق في عمرك الا ظمّ الحمار^(٢) فعاتت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان)
 فقال عمار اي شيء أحب اليك مودة على دخل او هجر جميل ؛ قال هجر
 جميل فله على ان لا أكلك ابداً : وروى ابن حزم في الملل والنحل
 ان عماراً كان ممن يقول بالفضيل اي تفضيل عليّ على الثلاثة : وناهيك
 بابن السوداء ومقاتته في عليّ ايضاً ومن اخذ برأيه من جفاة الاعراب الذين
 قل ان يفهموا من الدين شيئاً ينهي ضمايرهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن

(١) المغسول (٢) اي يسير لانه ليس شيء اقصر ظمأ منه

السوداء الذي ينكرها عليّ نفسه ويبرأ الى الله منها وقد علمت مما قررناه فيما سبق ان تغير القلوب على عثمان بسبب استثماره بامور الامة وانقطاع بني أمية اليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس في الانكار عليه توصلاً لنزع الخلافة منه وابعاد الامويين عنه ولهم في ذلك شبهه عذر مادام ليس لهم رأي في قتل عثمان فلما رأى منهم احزابهم الليل الى آرائهم في الانكار عليه أخذ كل حزب يمهّد لصاحبه سبيل الوصول الى الخلافة بمثل الانكار الشديد وبث روح القيام دلي عثمان على الوجه الذي تقدم شرحه وربما تجاوز بعضهم الامر الى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم ممن تكتب على لسانهم رغبة في استمرار الفتنة وتوكيداً لاهل الامصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان : لكن بسبب الصلة المعنوية التي كانت بين المرشحين للخلافة وبين احزابهم كان بعض كبار الصحابة لا يخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان في العقده من رواية العتيبي عن رجل من ليث قال .

لقيت الزبير قادمًا فقلت أبا عبد الله، ما بالك ؟ قال مطلوب مغلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي : قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص فقلت يا أبا اسحاق من قتل عثمان قال قتله سيف سلته عائشة وشجذه طلحة وسماه عليّ . قلت فما بال الزبير ؟ قال اشار بيده وصمت بلسانه :

(وفي العقده ايضاً) قال حسان بن ثابت لعليّ انك تقول ما قتلت عثمان ولكن خذلته . ولم أمر به ولكن لم أنه عنه . فانخاذل شريك القتال .
والساكت شريك القتال

وانت ترى من هذا انهم انما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء لان لا احزابهم والمقربين منهم دخلاً في قتل عثمان وقلّ ما تبرأ شيعتهم لا سيما

شيعة عليّ من المملاة على قتل عُمان كما يتبرأ منه عليّ واخوانه . اخرج ابن عساکر عن الشعبي قال لقي مسروق الاشر فقال مسروق للاشر قتلتم عُمان ؟ قال نعم ، قال اما والله لقد قتلتموه صواماً قواماً . قال فانطلق الاشر فاخبر عماراً . فأتى عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيرنّ أباذر (يعني الى الربذة) وليحمين الحمى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له مسروق فوالله ما فعلتم واحدةً من ثنتين : ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به . وما صبرتم فهو خير للصابرين . قال فكانما ألقمه حجراً

وهذا يدل ايضاً على انهم كانوا يعتقدون انهم غير مخطئين في قتل عُمان والناس في هذا في خلاف كبير كما ستري بعدُ واما عليّ واخوانه فانهم كانوا لا يرون قتله ولا يريدونه البتة وانما هم كانوا يرون وجوب عزله فقط فغلبوا على امرهم لكثرة ما كان يدسه الشيع والاحزاب على عُمان ومما يدل ذلك على انهم غلبوا على امرهم ما رواه الطبري من انّ عُمان ارسل الى عليّ وطاحنة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار وعدم وجود الماء عنده فبادر عليّ اليه وانّب المحاصرين على منعه الماء وقال لهم بم تستحلون حصره وقتله فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب ومنعوا علياً عن الدنو منه فجاءت أم حبيبة زوج النبي على بغلة تحمل الماء فمنعوها وأهانوها وطاب مروان الى عائشة ان تبقى في المدينة وقد كانت عزمّت على الشخوص الى مكة فأبت وخافت ان يصنع بها كما صنع بأُم حبيبة وفرت الى مكة وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ وأم حبيبة فلزموا بيوتهم : كل هذا لما غلبوا على امرهم وخرج الامر من يدهم

والظاهر من مجمل ما ذكره من اخبار الفتنة انّ علياً كان أقدر

الناس على الدفع عن عثمان لو شاء لان أكثر الفأئمين بها من شيعته وحزبه وربما تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب ان لعلي يداً شديدة في التآليب على عثمان . والحقيقة ان الامر ليس على ظاهره اذ علي سيق الى ما سيق اليه القوم بحكم الضرورة والمتابعة فلما استعصى امر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الشائرو لم يواته حزبه على ما يريد والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلي هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان توصلاً بزعمهم لتبرير عمل علي في القيام على عثمان ولقد دسوا على علي (رض) اخباراً كثيرة من هذا القبيل كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وانا معه) وغير هذا من الاخبار التي يأبى تصديقها العقل السليم بالاضافة الى ما عرف عن علي من حب الفضيلة وعلو النفس ولانها تنافي ما رواه الثقات من الاخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ولو اردنا ان نستقصى ما جاء من الروايات التي تدل على براءة علي خاصة من قتل عثمان لاحتاج ذلك الى كتيب مخصوص فنجتري عنها بما يأتي

روى ابن عساکر عن طاوس عن ابن عباس قال قال علي ما أمرت ولا قتلت ولا كني غلبت : وروي عن قيس بن عباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي وجاؤني للبيعة فقلت والله اني لاستحيي من الله ان ابايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسو الله ألا استحيي ممن تستحيي منه الملائكة : واني لاستحيي من الله ان ابايع وعثمان قتيل في الارض لم يدفن بعد فانصرفوا فلما دفن رجع الناس يسأونني البيعة فقلت اللهم اني لمشفق مما أقدم عليه ثم جاءت عزيمة فبايعت فلما قالوا امير المؤمنين فكانما صدع قلبي : واخرج

من طرق عن أبي جعفر الانصاري قال شهدت الدار يوم قتل عثمان فررت في المسجد فاذا رجل في ظلة النساء محبتي سيفه عليه عمامة سوداء فاذا عليّ قال ما صنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر :

هذا قليل من كثير مما جاء في براءة عليّ من دم عثمان ولا نشك أيضاً ان اخوانه طلحة والزبير مثله في البرائة من هذا الاثم الا ان اشياهم دفعوا الى هذه الفتنة بالعوامل الكثيرة التي كانت قائمة يومئذ وما كانوا ينكرون عليهم لا اعتقادهم بان عثمان مخطيء في بعض الامور التي اتاها وان كان هؤلاء يعتقد خطأه بشيء من ذلك لذا ترى كل ما جاء من الاخبار عن الفتنة مجمعة على رضاهم وتحريم بعضهم عليه وكان أشدّهم عليه طلحة بن عبيد الله وأهونهم الزبير^(١) كما رأيت فيما تقدم وكان عثمان كما مر مع تحقّقه من انّ علياً

(١) اخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف الى الزبير فقالوا يا ابا عبد الله نحن نأتيك ثم نصير الى ما نأمرنا به قال فارساني الزبير الى عثمان فقال اقره السلام وقل يقول لك اخوك ان بني عمرو بن عوف جاؤوني ووعدوني ان يأتوني ثم يصيروا الى ما امرتهم به فان شئت ان آتيك فاكون رجلاً من اهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت وان شئت انتظرت ميعاد بني عمرو فأدفع بهم عنك فعلت قال فدخلت عليه (يعني على عثمان) فوجدته على كرسي ذي ظهر ووجدت رباطاً مطروحة ومرآكن مغلوة ووجدت في الدار الحسن بن علي وابن عمر وابا هريرة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير . فأبلغت عثمان رسالة الزبير . فقال الله اكبر الحمد لله الذي عصم اخي قل له انك ان تأت الدار تكون رجلاً من المهاجرين حرمتك حرمة رجل وعناؤك عناء رجل ولكن انتظر ميعاد بني عمرو بن عوف فعمى الله ان يدفع بك . قال فقام ابو هريرة فقتل : ايها الناس لقد سمعت أذناي رسول الله يقول تكون بعدي فتن واحداث : فقلت وابن النجاء منها يا رسول الله قال الامير وحزبه : و اشار الى عثمان . فقال القوم انذرن لنا فلنقاتل فقد امكنتنا

أرأفهم به وأخفهم وطأة عليه يعرف منه انحرافه عنه وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الامر (ما دون القتل) يدل ذلك عليه ما نقله في العقد عن أبي رافع قال . قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً في المسجد فقلت . أبا الحسن ان الناس يرون انك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم قال فأثبت عثمان فآخبرته فقال

وحرق قيس على البلا د حتى اذا اضطرت أحجما

وقد كان كثير من الصحابة ممن شهد الفتنة أو لم يشهدا منهم من سكت ومنهم من حرّض ومنهم من لم يدفع عن عثمان وكلهم راض من الثائرين عليه بما دون القتل حتى اذا قتل استعظموا ذلك وأكبروه وعدوه ظلماً كما استعظمه علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . فقد اخرج ابن عساکر عن طرق عن ابن عباس انه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفي رواية لابي الحسن المدائني نقلها في العقد قال كان ابن عباس يقول لينبلن معاوية واصحابه علياً واصحابه لان الله تعالى يقول (ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) ويريد ابن عباس بالولي معاوية لانه المطالب بدم عثمان . وذکر الطبري عن حذيفة بن اليمان انه لما قفل من غزاته في بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم العن قتلته

البصائر . فقال (اي عثمان) عزمت على احد كانت لي عليه طاعة ألا يقال . قال فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه اه وانما اوردنا هذا الحديث لما فيه من الادلة على ان الزبير كان أهون على عثمان من غيره وان قيل انه من المنكرين على عثمان

وشتامه . اللهم انا كنا نعابه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلباً الى الفتنة اللهم
لا تمهم الا بالسيوف . ومن حديث الزهري قال لما قتل مسلم بن عقبة اهل
المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعالهم في عثمان ورب الكعبة
بقى ان يقال ان عثمان رضي الله عنه هو الذي جرأ القوم على القيام
عليه ثم قتله باصراره على ما أنكره عليه اولاً ثم بعدم اعتزاله منصب
الخليفة ثانياً بعد ان رأى ما رأى من الشر في وجوه القوم : فاما الامر الثاني
فقد ذكرت فيما سبق رأبي في اصراره عليه . واما الامر الاول فاصراره على
ما أنكر عليه ينحصر على ما أرى في تقريره : بني أمية منه واعطاء ذوي قرابته
ولايات الامصار وما عدا هذا من الاحداث التي عدوها عليه فمنها ما تاب
عنه ومنها ما لا يؤخذ عليه في الحقيقة ونفس الامر لان كله اوجه مما يعتذر
عنه : اما افضاؤه الى بني أمية باموره دون غيرهم من أهل الشورى
والسابقين واستئثارهم بالسلطة . واقتطاعهم الامور دونه . فهو الامر الذي
اهتزت له اعصاب المهاجرين ، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اضطباع
الدولة بالصبغة الاموية كما بسطنا هذا في محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة
ما كان يؤنبه بعضهم في شأن بطانته من الامويين ومع تأكد عثمان من
عدم رضا المسلمين عن استسلامه لاولئك النفر من أهله وعشيرته وان اكثر
ما اهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالامر الذي لم يكن لهم
خاصة بل هو لكل المسلمين ، لاسيما لاولى السابقة منهم والمهاجرين ، فقد
كان حريصاً على ان لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتبس الأمة فيهم وليس لهذا
الاصرار على ما يظهر لنا من سبب الا احد امرين : اما لأن قومه استلنوا
جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم : واما انه أحس منذ عهد عمر للستة

ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم وتشيع يجرّ الى الاختلاف عليه
 والكيد له نخشى ان هو انفرّد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته ان يتوئب
 عليه عمال الامصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوسّين عليه
 فاستمسك بذوي قرابته وولّاهم على الامصار فلما كثرا لارجاف بهم والطعن
 عليهم ورغب اليه الناس في عزهم زاد به الفاق من جهة ما كان يخامرهم من
 الشك في الشيع فولى شكايهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته
 وركن اليهم واعتمد في الامور عليهم فكانت له ولهم اثرة انكرها عليه
 الصحابة وعلى ولاته أشد الانكار وتذرع الشائرون عليه بتلك الاحداث الى
 خالعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الاثرة هي السبب الأول في استفحال
 امر الفتنة التي لما استعرت نارها ؛ واشتد اوارها ، اصبحت اطفالاً وها خارجاً
 عن طوق كبار الصحابة ، وقادة الناس ، وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ،
 ولات ساعة مندم ، أخرج ابن عساكر عن الوزاعي انه قال : قيل لعلي بن
 أبي طالب أفقتل عثمان منافقاً ؟ قال لا ولكنه ولي فاستأثر . وجزعنا فأسأنا .
 وكل سيرجع الى حكم عدل . فان تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فيما شاء الله :
 هذا واما الداعي الى قيام هذه الاحزاب في خلافة عثمان وسبب افتراق
 القوم وانقسامهم فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى الى ستة
 نفر رأى كل شخص نفسه انه أحق بها من غيره فتطلع اليها وصار له حزب
 يريده عليها ولما أخذها عثمان بقي في أنفسهم ما بقي ثم ما زالت تنمو هذه
 الرغبة في نفوسهم . وتعظم احزابهم . حتى انفجر بركان الاحزاب ، وطم
 ذلك العباب ، فافضى الى التغالب لعدم تقييد الامر بالشورى الصحيحة منذ
 اول خليفة كان كما بسطنا الكلام على هذا في فصل الخلافة والدين

هذا ما اخترت بيانه من اخبار الفتنة واسبابها ودخائلها وقد عقلت على كل فصل منها ما رأيته من تلك الاسباب بقدر ما انتهى اليه عقلي وبلغه بحبي واستقصائي واني استغفر الله مما اخطأ به ظني ، وسبق اليه قلبي ، لاني لم آت بشيء من عندي الا ما كان بطريق الحدس او الاستنتاج فاذا صح فهو المطلوب ، والاّ فردود علي خطأي لاني مؤرخ لاجدي فيطلب مني البرهان ، بأكثر مما توخيته من البيان ، وانما ذلك مطلوب من علماء الدين الذين ينظرون الى الفتنة من جهة دينية فيقولون عمل هذا حلال وعمل هذا حرام واما انا فاني لم ارد في كل ما علقته على اخبار الفتنة الاّ الوجهة السياسية والاجتماعية ولم احكم على شخص بخطأ او تصويب الاّ فيما يعود على مصالح الامة الدنيوية وحقوقها السياسية واما حقوق الله تعالى فهي بينه وبين خلقه يأخذها من يشاء ويعفو عن من يشاء وليس أضل عقولا من بعض الفرق الاسلامية التي حصرت النظر من اخبار الفتنة واشخاصها في الوجهة الدينية فقالت هذا استحلّ وهذا حرّم وهذا يعاقب وهذا يثاب وقاتها انّ ما تعلق بحقوق الله فلاّهُ واما ما تعلق بالمسلمين فلامسلمين وليس لهم ان يحكموا على شخص يقول ربي الله الاّ بالخطأ اذا اخطأ وبالصواب اذا اصاب هذا فيما يتعلق بامور الامة الدنيوية وحياة الدولة السياسية . واما الحكم على هذا بالكفر وهذا بالايمان مع نبوت انهم جميعاً من الموحدين فذلك محض افتراء وفضول اذ الحكم في هذا راجع الى الله سبحانه وتعالى وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور . وانّ مما اصنع تاريخ هذه الامة المملوء بالمبرلاسيما تاريخ الصدر الاول جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة في الحكم أنّ زيدا كفر وعمراً فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق كانه ليس لاعمال المسلمين

عمل لا تعلق له بالدين لانه لاحظ لهم من الحياة الدنيا قط
نعم ان لمثل هذه الاحكام والمباحث اتصالا بالامور السياسية والاعمال
الدينية فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الاشخاص باعمالهم
السياسية والاجتماعية ومن منهم المواقف ومن منهم غير المواقف ولكن أين
من مؤرخينا من نظر الى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد ان حال بينهم
وبينهم الدين فتميدوا بايراد الاخبار كما أخذوها وتجنبوا الخوض فيها والحكم
بشيء من عندهم عليها اللهم الا النذر اليسير من المؤرخين مع ان الصحابة
والرواة من التابعين ومن أتى بعدهم لم يضمنوا بشيء من مخبثات التاريخ واخبار
الرجال بل غالوا في حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب ما لا يذكر
عن غيرهم ولم يجزأ على نقل مثله مؤرخ من مؤرخي الدول قبلهم وتجاوزوا هذا
ايضاً الى وضع الاخبار واختلاقها ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة
والصالحين المحسنين منهم ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاقتها وزعموا ان
من الادب ان لا يتكلم احد من الناس فيها حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث
فيها وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ونوهوا بلزوم تحميمها والتدقيق فيها
هذا واذا قد استوفينا الكلام على الفتنة واخبارها ومقدماتها فقد رأينا
ان نقول كلمة في نتائج قتل عثمان رضي الله عنه وما أتى عن حادثه العظيم
من الامور في مستقبل الامة ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان واسبابه
واعذار المعتدلين من ارباب النحل عنه فنقول

ان أول وهن دخل على الدولة الاسلامية هي الفتنة وأول ما فرق
المسلمين هو قتل عثمان وسواء كان القيام على عثمان رضي الله عنه والنكير
عليه بحق او بغير حق فان الفتنة التي نارها يومئذ امر متوقع الحصول في

الدول التي تقوم على اساس الحرية والأتم التي تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لارادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة فما بالك بتلك الأمة القريبة عهد بصاحب شريعته صلى الله عليه وسلم الذي يقول « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فان لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أيدوا خضراءهم »^(١) إلا ان الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة من حيث ظنوا ان الخطر بقائه فيها فقد رأوا بني أمية غلبوا على الخليفة فخافوا ان يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الاولى فثاروا ثورتهم على عثمان رضي الله عنه فطالبوه بالاعتزال ولم يكتفوا بطلب العدل بين اصناف الأمة فأبى فقتلوه ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال وأسلم لهم من الوقوع في خطر الفرقة والشقاق وأقرب لدفع غائلة الامويين التي كانوا يخبثونها على الخلافة وعثمان حي فكانت وعثمان مقتول

قتل عثمان فافتقرت الأمة بادى بدء في امر قتله الى اربعة فرق ثم فصل منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما في رواية ابن عساكر عن ميمون ابن مهران في حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق بعد ان بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوثام في عهد أبي بكر وعمر والسنين الاولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق انهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة علي (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فامّا) شيعة عثمان فاهل الشام وأهل البصرة . وقال أهل الشام ليس أحد اولى بطلب دم عثمان من اسرة عثمان وقرباته ولا أقوى على ذلك من معاوية . وقال أهل البصرة

(١) اخرجه الامام احمد عن ثوبان وخضراءهم اي سوادهم

ليس احد اولى بطلب دم عثمان الا طلحة والزبير لانهما من أهل الشورى (واماً) شيعة علي فهم أهل الكوفة (واماً) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وامرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وامرهم واحد ليس بينكم اختلاف وقد منا عليكم وانتم مختلفون . فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً . وكان اولى بالعدل واصحابه . وبعضكم يقول كان عليّ اولى بالحق واصحابه : كلهم ثقة وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نعلنهما ، ولا نشهد عليهما ، وزججى امرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما (واماً) من لزم الجماعة فمنهم سعد بن ابي وقاص وأبو أيوب الانصاري . واسامة بن زيد . وحبيب ابن مسامة الفهري . وصهيب بن سنان . ومحمد بن مسامة في عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين قالوا جميعاً تولى (١) عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان وزجوا لهم ونخاف عليهم (واماً) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ثم خلطوا بعد ذلك وكفروا كل من خالفهم .

وأنت ترى ان هذه الفرق لا تعد الا احزاباً سياسية أو هي عين الاحزاب التي كانت في مبدأ الفتنة لكن هذه الاحزاب نمت بعد ذلك وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل في الدين بعد ان كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة ولتحقيق هل كان عثمان بعمله ظالماً يستوجب الخلع ام لا كما هي العادة في كل أمة ودولة اسلامية كانت او غيرها سنة الكون التابعة لمجرى الاحوال السياسية منذ عرف الاجتماع الى الآن وهذا الذي يدع العقول في حيرة من أمر هذه الامة والصاقها

كل شيء بالدين كما بسطناه لك في فصل سابق
هذا من جهة ما أتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة واما من
جهة ما كان من الخطر على الخلافة فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام
طلحة والزبير لمغالبة علي ومنازعته سبيل القيام على علي بدعوى الطلب بدم
عثمان وصدق ما انبأهم به معاوية من ذهاب الامر من يدهم اذا صاروا الى
التغلب فطمح الى الخلافة ونهض الى منازعة علي في الامر ومغالبتة على
الامارة وكان ما كان من مصير الخلافة الى الأمويين بقوة الغلب وهدمهم
اساس الشورى والانتخاب واستئثارهم بالملك بقوة الارهاب وسطوة الغالبين
فكان مصير الامر اليهم مبدأ انقلاب سياسي عظيم أتى على نظام الخلافة
الشرعية والحكومة الديمقراطية في الاسلام وبذر في بيوت الملك والخلافة
بذور الحكم المطلق فانبتت في قصور الجبارين نبات العلقم الذي سموا به
عقول الأمة واجسامها وأماتوا به شعورها بالظلم واحساسها بهذه الحياة الى
هذا اليوم حيث صارت الى حال من الخنوع للامراء ، والاستخذاء لارباب
السطوة ، والرضا بتحمل الظلم والهوان ، لا يرضاها لنفسه الحيوان بله الانسان ،
وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على بمالك الاسلام واخذت المسلمين
الصيحة من كل مكان فلم يرعهم من ذلك رائح البوار المتوقع اعتماداً على
زعمائهم ، واستسلاماً لامرائهم ، الذين انغمسوا في حمأة الشهوات ، وتربوا في
سجون القصور ، ووراء الجدران الشاهقة ، فلم يعرفوا من سياسة الملك الآ
ارهاب الأمة وقتل عواصف الرعية وارهاق المسلمين بالظلم والاستبداد
وحرمانهم من كل علم نافع ، ومن كل حق ناصع ، من حقوق السيطرة التي
خولهم اياها الاسلام حتى فقدت الأمة كل استعداد فطري وكل قوة مالية

تدفع بهما عن نفسها وتذود عن حوضها فخط عليها الجهل بكامله ، وتمكن منها العدو بقوة وعلمه ، واسب في امراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على احياء مجد الدولة وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الامم الغربية والحكومات الشورية الاوربية كما انه لم يبق في المسلمين معنى من معاني الحياة المليية والشعور الانساني يصور لهم شكل الحرية والعلم في صورة من السجال والقوة والمجد جعلت الشعوب المسيحية تتراعى على الموت ويستهن ألوف منهم بالحياة ويخاطرون بالنفس والمال توصلاً اليها وتهافتاً عليها : وليت شعري هل من الحرص على الحياة ان يمحي الانسان ذليلاً مهاناً مهضوم الجانب مسلوب الحق كما يتوهم المسلمون فيستخذون لآلهة العروش من الامراء ، مثل ذلك الاستخذاء ، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الامراء الى دور تنبعث عنها أشعة العلم والعدل بمد ان كانت هياكل للظلم ومواقد لنيران الاستبداد ترسل شواظها على البسيط لياً كل الخضراء واليابسة ويأتي على المال والولد ويذهب بكل اصول المجد والقوة والحياة : فاللهم انا نعوذ بك من الخذلان ، ونسألك ان تلهم المسلم رشده ليطرح عنه رداء الهوان ، ولباس الجبن والخوف الذي ألبسه اياه طواغيت الامة وعباد السلطنة القاهرة والملك المطاق الذي لا يكون الا حيث يسود الجهل وتقد كل بواعث الحياة .

﴿ باب ﴾

(مارني به عثمان)

أكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رئائه فن ذلك ما رئاه به حسان بن ثابت

أترككم غزواً الدُّرُوبِ وِراءَكُمْ وغزوتونا عند قبر محمد
فَلَبِئْسَ هَدْيُ الْمَسَامِينِ هُدَيْتُمْ وَأَبْسَ أَمْرُ الْفَاجِرِ الْمُتَعَمِّدِ
في أبيات . وله ايضاً

إن تمس داربن آروى منه خاويةً باب صريع وباب محرق خرب
فقد يصادف باغي الخير حاجتهُ فيها ويهوى اليها الذكر والحسبُ
يا أيها الناس أبدو ذات انفسكم لا يستوي الصدق عند الله والكذبُ
قوموا بحق ملك الناس تعترفوا بغارة عصب من خلفها عصبُ
فيهم حبيب شهاب الموت يُقدِّمهم مُستأثماً قد بدا في وجهه الغضبُ
وله غير هذا أشعار كثيرة في رثاء عثمان . ومن رثاه ايضاً كعب بن

مالك الانصاري وله في رثائه ابيات طويلة منها

يا للرجال للبتك المخطوف ولد معك المترقق المنزوف
ويح لأمر قد أتاني رائع هداً الجبال فانقضت برجوف
قتل الخليفة كان أمراً مفضماً قامت لذلك بليدة التخويف

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة قتييل التجبي الذي جاء من مصر
في أبيات وقال الحباب بن يزيد المجاشعي

لعمري اييك فلا تجزعن لقد ذهب الخير إلا قليلاً
لقد سفه الناس في دينهم وخلي ابن عفان شراً طويلاً
أعادل كل امرء هالك فسيري الى الله سيراً جميلاً

﴿ خطبة ابنته عائشة بعد قتله ﴾

قالت بعد ان حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان انا لله وانا

اليه راجعون أفنيت نفسه ؛ وطل دمه في حرم رسول الله (ص) ومنع من
دفنه اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عز وجل حاكماً . ومن المسلمين
ناصرًا . ومن المهاجرين شاهداً . حتى نفي إلى الحق من صدر عنه . أو
تطيح هامات . وتفرى غلاصم . وتخاض دماء ولكن استوحش مما أنستم
به . واستوخم ما استمرأتموه . يا من استحل حرم الله ورسوله واستباح
حماه . لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه . ولقد نقمتم عليه أقل مما أتيتم اليه .
فراجع فلم تراجعوه ، واستقال فلم تقبلوه ،

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لامر ربك حتى
لحقت به وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل واذكاه الشنان .
وكوامن الاحقاد . وادراك الاحن والاوتار . وبذلك وشيكا كان كيدهم
وتبغيمهم : وسعى بعضهم ببعض . فما أقلوا عاراً . ولا استعتبوا مذنباً . حتى
اتخذوا ذلك سبباً إلى سفك الدماء . واباحة الحمى وجعلوا سبيلاً إلى البأساء
والعنات : فهل علنت كلمتكم وظهرت حسكتكم إذ ابن الخطاب قائم على
رؤسكم مائل في عرصاتكم يردد ويبرق بارعا بكم . يقمعكم غير حذر من
تراجعكم الاماني بينكم . وهلاً نقمتم عليه عوداً وبدأً اذ ملك ويملك عليكم
من ليس منكم باخلق اللين والجسم الفصيل (كذا في الاصل) يسعى عليكم
وينصب لكم لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ؛ وحذراً من شدته ،
ان يهتف بكم متقصوراً ، او يصرخ بكم متعذوراً . ان قال صدقتم قالته ،
وان سأل بذاتم سألته . يحكم في رقابكم واموالكم كأنكم عجائز صاعته واماء
قصم ، فبدأ مفلتاً لابن أبي قحافة بارث نبيلكم على بمد رحمه وضيق
يده ، وقلة عدده ، فوق الله شرها زعم الله رده ما عرفه ما صنع . أولم

يخصم الانصار بئيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة . يتمايل بكم يمينا
وشمالا ، قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم ممتحنا ، لكم . ومعترفًا اخطاركم ،
وهل تسمو هممكم الى منازعته . ولولا تيك لكان قسمه خسيسا ، وسعيه
تعيسا ، لكن بدأ بالرأي وثني بالقضاء . وثلت بالشورى . ثم غدا سامرا مسلطا
درته على عاتقه فتطأ تطم له تطأ طؤ الحقة . ووليتموه ادباركم حتى علا اكتافكم
فلم يزل ينعق بكم في كل مرتع . ويشدد منكم على كل مخنق . لا ينبعث لكم
هتاف . ولا ياتلق لكم شهاب . يهجم عليكم بالسراء ، ويتورط بالحوباء ،
عرفتم او نكرتم لا تألمون ، ولا تستنطقون ، حتى اذا عاد الامر فيكم ولكم
واليكم في موقعة من العيش عرقها وشيخ ، وفرعها عميم ، وظلها ظليل . تتناولون
من كشب ثمارها أني شئتم رعدا . وحلبت عليكم عشار الارض دررا .
واستمرأتم اكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خصب غدق وامق
شرق . تنامون في الخفض وتستلمنون الدعة . ومقيم زبرجة الدنيا وحررتها ،
واستحليتم غضارتها ونضرتها ، وظننتم ان ذلك سيأتيكم من كشب عفوا ،
ويتحلب عليكم رسلا ، فانتضيتهم سيوفكم ، وكسرتهم جفونكم ، وقد أبي
الله ان تشام سيوف جرّدت بنيا وظالما . ونسيتم قول الله عز وجل (ان
الانسان خاق هلوغا اذا مسه الشرّ جزوعا واذا مسه الخير منوعا) فلا يهنتكم
الظفر . ولا يستوطن بكم الظلم . الا على رجلين ، ولا ترن القوس الا على
سيتين ، فابنتوا على الفرز ارجلكم فقد ضللتهم هداكم في المتبهة الخرقاء كما
اضل ادمية الحسل . وسيعلم كيف تكون اذا كان الناس عبايد وقد نازعتكم
الرجال . واعترضت عليكم الامور . وساورتكم الحروب بالليوث . وقارعتكم
الايام بالجوش . وحي عليكم الوطيس . فيوما تدعون من لا يجيب ويوما

تجيبون من لا يدعو . وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرى انهما في سبيل الله
فيد مقبوضة . واخرى مقصورة . والرؤس تنزو عن الطلى والكواهل كما
ينقف التئوم . فما أبعده نصر الله من الظالمين ، واستغفر الله مع المستغفرين اه^(١)

(١) تفسير الالفاظ الواردة في هذه الخطبة

قولها طل دمه اي سفك وهدر . وقولها حتى يفي الخ اي حتى يرجع اليه من ضل
أو تخير . وقولها أو تطيح هامات اي تطير رؤوس . وتقري غلاصم اي تقطع حناجر
واستوخم ما استمرأعوه اي ما استطبتموه ويقال للكلاء الطيب مريء غير وخيم .
تراوض الباطل اي تجاذبه . واذكاه الشنان من اذكي الناس أسعرها والشنان البغض .
كروامن الاحقاد خفيها . ادراك الاحن والاونار اي العداوة والثأر . وشيكا كان
كيدهم اي سريعاً . وجعلوا سبيلا الى الباساء والعنت اي الى الشدائد والفساد .
علنت اي ظهرت . حسكتكم . الحسك نبات شائك وهو ايضاً العداوة والحدق . مائل
في عرصاتكم المائل القائم والمرصات جمع عرصة وهي كل بقعة بين الدور واسعة
ليس فيها بناء . يمعكم اي يضر بكم بالقمة وهي عصا من خشب . متسوراً أي
متعزراً . متعزوراً اي ناجحاً . عجائز صاع اي عجزة عن الحرب . واماء قصع اي
بطيئات . غدا سامراً مسلطاً درته الخ تريد انه كان لشدة عليهم يسهر الليل وعصاه
على كتفه لمراقبة الناس . والحقة الناقية الرباعية . ينمق بكم في كل مرتع اي يصبح
بكم في كل مكان والمرتع موضع الرتع او الخصب . لا ينمق لكم هتاف اي لا يخرج
لكم صوت . ولا يأتلق لكم شهاب اي لا يلمع ولا يظهر . يتورط بالحوباء التورط
الوقوف والحوباء النفس اي يقع بكم ضرباً وشتماً كيف شاء فلا تجسرون على التكلم .
في مونقة من العيش عرقها وشيخ الخ اي في مورقة متشابكة العروق وهو كناية عن
السعة والراحة والتمتع بطيب العيش . تتناولون من كتب اي من قرب . وحلبت
عليكم عشار الارض درراً العشار النوق المنتجة ولعله كناية عن اقبال الخير عليهم
وخصب الارض لهم . غدق وامن شرق هكذا بالاصل ولا تفهم . ومقتم زبرجة الدنيا
وحررتها اي احببتم زينة الدنيا والخرج محرك مجتمتع الشجر او الغيضة . ان تشام
سيوف اي تسل . الفرز ما اطمان من الارض والميتية الارض المضلة . والخرقاء
الواسعة . كما اضل ادحية الحسل (كذا) والعبايد الفرق . والرؤس تنزو عن الطلى اي
ثب عن الاعناق . كما ينقف التئوم . النقف ضرب الشيء بالظفر والتئوم نوع من الشجر

﴿ خطبة زوجته نائلة بنت الفرافصة ﴾

(قالت بعد ان حمدت الله واثنت عليه) عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم بعد الاعتذار وان اعطاكم العتيبي ^(١) . معاشر المؤمنة واهل الملّة لا تستنكروا مقامي ، ولا تستكثروا كلامي ، فاني حرّى ^(٢) عبّري ^(٣) رزئت جليلاً . وتذوّقت ^(٤) ثكلاً من عثمان بن عفان ثالث الاركان ، من اصحاب رسول الله (ص) في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الارشاد . فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك في فضله متأتم ، القوا اليه الازمة وخلوه والامة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحدهم غير مدافع ، وخيرتهم غير منازع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النماء ، اذ وصل اجنحة المسلمين حين نهضوا ، الى رؤوس ائمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الامور ، اذ لم يكن فيهم له نظير ، فملك بهم سبيل الهدى ، وبالذي وصاحبيه اقتدى ؛ نخسناً للشيطان الى مداحره ؛ مقصياً للعدوان الى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ؛ وتزاييل عنه المصاليات ؛ ^(٥) حتى امتد له الدين . واتصل له السبيل المستقيم . ولحق الكفر بالاطراف ، قليل الالاف والاحلاف ، فتركه حين لاخير في الاسلام في افتتاح البلاد ، ولا راي لاهله في تجهيز البعوث ، فاقام يمدكم بالرأي . ويمنعكم بالادنى

(١) العتيبي الرجوع عن الاساءة الى ما يرضي العاتب (٢) عطشى (٣) من العبرة وهو تردد البكاء في الصدر (٤) تذوّقت اي زقت مرة بعد مرة والنكل فقدان الحبيب (٥) المصاليات رجل مصلت اذا كان ماضياً في الامور وهو من مصاليات الرجال

يصفح عن مسيئكم في اساءته . ويقبل من محسنكم باحسانه ويكافئكم
بإله . ضعيف الانتصار منكم . قوي . المعونة لكم . فاستلتم عريكته
حين منحكم محبته . وأجرركم أرسانكم^(١) ، آمناً جراتكم وعدوانكم ،
فأراهموه الحق اخوانا . وأراهموه الباطل شيطانا ، في عقب سيرة من
رأيتوه فقطاً . وعددتوه غليظاً . فهدكم منه بالتمع . وطاعتكم اياه على الجدع
يعاملكم الحبه (كذا في الاصل) ويتخونكم بالضرب . وكان والله أعلم
بادابكم ومصالحكم . فله هو كان قد نظر في ضمائركم . وعرف اعلانكم
وسرائركم . حين فتمتتم سطوته . وامتم بطشتم . رأيتم ان الطرق قد
انشعبت لكم . والسبل قد اتصلت بكم . ظننتم ان الله يصلح عمل
المفسدين فعدوتم عدوة الاعداء ، وشدتم شدة السفهاء ، على التقي النقي
الخفيف بكتاب الله عز وجل لساناً ، الثقيل عند الله ميزاناً ، فسفكتم
دمه ، واتهتكم حرمة ، واستحلتم منه الحرم الرابع . حرمة الاسلام .
وحرمة الخلافة . وحرمة الشهر الحرام . وحرمة البلد الحرام . فليعلمن
الذين سعوا في امره . ودبوا^(٢) في قتله ومنعوننا من دفنه اللهم ان بس
للاظالمين بدلاً وانهم شرّ مكاناً وأضغف جنداً . لتتعبدنكم الشبهات ،
ولتفرقن بكم الطرقات ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان . وكيف بسخط
الله من بعده . وأين كنتم كعثمان ذي النورين منفس الكرب زوج

(١) اي خلاكم كما تشاؤون والمعنى انها اخبرت عن مساحته وتركه التضييق
عليهم (فهدكم منه بالتمع) هذه ضمه واذله والتمع والقهر والمعنى انه خوفكم
منه بالقهر والغلبة وطاعتكم اياه على الجدع اي الهوان والصفار (٢) دبوا مشوا
على هيئتهم

ابنتي رسول الله (ص) وصاحب المربد^(١) ورومة . هيات والله ما مثله
بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود ، ياهؤلاء انكم في فتنة عمياء صماء طباق
السماء ممتدة الحران^(٢) شوهاء العيان في كثير من الامر . قد توزع كل ذي
حق حقه . ويئس من كل خير خير أهله . فلهوات الشرفاغرة^(٣) وانياب
السوء كاشرة . وعيون الباطل خزر^(٤) واهلوه شزر^(٥) ولئن نكرتم أمر عثمان .
وبشعتم الدعة^(٦) لتنكرن غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع
منكم استعتاب ،

ثم اقبلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : اللهم
اشهد اه :

○ ❦ باب ❦ ○

❦ ما قيل في سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه ❦

(وما قاله بعض الصحابة وأهل السنة)

رأيت كيف ان الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين
فنهض للطلب بدمه طاححة والزبير وعائشة واحزابهم ومعاوية وحزبه وانكر
علي قتله ولعن قاتليه ونزید هنا ما قاله بعض الصحابة ومنهم سميد بن زيد
أحد العشرة قال . لو ان أحداً انقض للذي صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً
ان ينقض (اخرجه البخاري) وعن عبد الله بن سلام قال . لقد فتح الناس

(١) المربد موضع قرب المدينة ورومة بئر بالمدينة (٢) الحران مقدم العنق

(٣) الهات اللحمية المشرفة على الحاق وفاغرة من فغرفوه وانفتح (٤) الخزر

النظر بالخط العين (٥) الشزر الشدة والصعوبة (٦) الدعة سعة العيش

على انفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يفلق عنهم الى قيام الساعة » اخرجه ابو عمر « وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (اخرجه الحاكم) وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلمهم بجمعون على ان عثمان قتل ظلماً وان الاحداث التي كانت على عهدده لا تستوجب القتل هذا اذا صح ان كل ما انكر على عثمان رضي الله عنه احداث يؤخذ عليها والمتكلمين في براءة عثمان وتعمدي قاتليه كلام طويل وتفصيل يرجع اليه ومنهم ابن حزم فقد اطال بهذا الصدد في الملل والنحل وخلاصة قوله اجماع اهل السنة على بغي المحاربين لعثمان وانه ليس في عمله ما يستوجب القتل ولجماعة غيره من العلماء كلام طويل في الاعتذار عن عثمان « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبري فقد فتح باباً مخصوصاً في كتابه « الرياض النضرة في فضائل العشرة » رد فيه على من قال بصحة الاحداث التي نسبت الى عثمان « ومنهم » محمد بن يحيى الاشعري المعروف بابن بكر فتح باباً مثله في كتابه « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان » (١) اتوفى فيه الكلام على ما نسب الى عثمان من الاحداث وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث فاحببت ان اتقل هذا الفصل هنا برمه اتماماً للفائدة قال

اعلم رحمك الله ان الراضية والملحدة قد طعنوا على عثمان وتعلقوا عاينه باشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة قد ذكرنا اكثرها فيما مضى ونذكر الان منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الامكان فتقول (فان قيل) فان ابن مسعود أنكر على عثمان في أمر المصاحف وتحريرها : فالجواب : ان ابن مسعود دونه في الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قرأتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد وكان قد ولي زيد بن

(١) هذان الكتابان موجودان بالكتبخانة الخديوية المصرية وهما بخط اليد

ثابت أمر المصاحف ولو كان ذلك متوجهاً الى عثمان لكان ذلك طعناً على من قبله من الصحابة وقد روى ان علياً قال : عن ملاء منا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكراً لكان علي قد غيره لما صار الامر اليه فلما لم يغيره علم ان عثمان كان مصيباً فيما فعل (فان قيل) انه اعتدى بتولية الوليد بن عقبة وانه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ثم التفت فقال ازيدكم : فالجواب : انه قد ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق فأزل الله (ان جاءكم فاسق بنبأ) الآية فليس يلحق عثمان الا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وولى عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون البحريني فشرب الخمر متأولاً فجلده عمر وقدامة بدري من اولى السابقة والفضل وكذلك عثمان وولى علي المختار بن ابي عبيد المدائني فانه بصرة فقال هذه من اجور المومسات : فقال علي (رض) قاتله الله لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو افسق من الوليد : فاخذ المختار المال ولحق بما وية . وكان علي يلقى من ولاته وعماله الامر الشديد فكان يقول وليت فلانا فاخذ المال ووليت فلانا فخاني الى غير ذلك ذكره هذا ابو نعيم في كتاب الامة (فان قيل) فقد أنكر ابن مسعود وأبو ذر انما عثمان الصلاة يعني وانه صلى اربعاً : فالجواب : انه قد اعتذر عن ذلك وقال ذاك رأى رأيتة ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه فقيل لهما في ذلك فقالا الخلف شر . وقد روى جماعة من الصحابة انما الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان واربعة عشر من الصحابة . والذي حمل عثمان على انما الصلاة انه بلغه ان قوماً من الاعراب شهدوا الصلاة معه يعني . فرجعوا الى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان يعني . فلاجل ذلك صلاها اربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلف والاشتباه . وكذلك فعل عمر في أمر الحج وان يجمعوا بين الحج والعمرة في أشهر الحج وخالفه ابنه عبد الله وقال سنة رسول الله أحق ان تتبع وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم واقامته على الاحرام حتى دخل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان انكاراً لما تابعوه على رأيه (فان قيل) انه اعطى من مال الصدقة ووفرا قريانه فالجواب : ان عثمان أعلم من أنكر عليه والامام اذا رأى المصلحة في فعل شيء فعله فلا يكون انكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها فانه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون

فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر في المؤلفة قلوبهم يوم الجمعة وترك الانصار لما رأى في ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دماءهم . وجهلوا ما رآه النبي عليه السلام من المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان لان مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من انكار من انكر عليه الا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الذي اعطى رسول الله كان من الخمس قيل له لو كان من الخمس لما أنكرت الانصار ذلك ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أعطيتهم من مال الله الا تراه استمال قلوبهم بقوله : الا ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون رسول الله الى بيوتكم : قالوا رضينا . والحديث مشهور (فان قيل) ان عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فان الامام ان يؤدب بعض رعيتيه عما يراه وان كان خطأ الا ترى ان النبي عليه السلام اقص من نفسه واقاد وكذلك أبو بكر وعمر أدبارعيتهما بالطم والدرة واقاداهن أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فخرجه فوق قميصه وقال تعالى . فاقصص : فعفا عنه . وجاء رجل الى أبي بكر يستحمه فلطمه فأناكر ذلك الناس فقال أبو بكر انه استحمني (١) فحمله فبلغني انه باعه . ثم قال له دونك فاستقد فعفا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعدا فنأوله عمر الدرة وقال له اقتص فعفا (فان قيل) عثمان لم يقدر من نفسه قيل له كيف ذلك وقد بذك من نفسه ما لم يبذله أحد خصوصاً يوم الدار فانه قال يا قوم ان وجدتم في كتاب الله ان تضعوا رجلي في قيد فضعوها وقد ذكرنا ان عماراً تقازف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فان قيل) اعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق . قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف تقبل هذا وعثمان من أكثر الناس مالاً وأكثرهم عطية ومعروفاً مع ان العصر لا يخلو من جهال يقولون ما لا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجهه الله : فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبرأ فقال له رجل اعدل يا محمد . فقال له (ويحك ومن يعدل اذا لم اعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من

الجهال هذا فكيف بعثمان (رض) (فان قيل) انه ولى اقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عتبة وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وغيرهم: قيل: فمن اين لكم ان هؤلاء لم يعدلوا ولئن جازلكم ادعاء التمسق في ولاية عثمان لجاز ذلك في ولاية عمر. فقد ولى المعيرة البصرة فرمى بما لا يثبت . وولى ابا هريرة البحرين فقالوا خان مال الله وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولاً . وولى علي الاشر وأمره ظاهر وولى بن مخنف فاخذ المال وهرب . فلم خصصتم عثمان بالطعن مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد ابن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكرراً عليهم فيما طعنوا فيه وقالوا فيه وفي اسامة ابنة والحديث مشهور . وانما طعن الناس على عثمان لئنه وحيائه وكثر في ايامه من لم يصحب النبي عليه السلام ومن جهل فضل الصحابة (فان قيل) فقد نفي أبا ذر الى الربذة فرداً : قيل لم يكن ذلك تقيماً وانما كان ذلك تخييراً له لانه كان كثير الحشونة لم يكن يداري من الناس ما يداري غيره فخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم وذلك انه كان بالشام تجرى بينه وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكتزون الذهب والنفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية هي في أهل الكتاب وقال أبو ذر هي فيهم وفيما فكاتب معاوية الى عثمان في ذلك فكاتب الى أبي ذر أن اقدم علي قال فقدمت عليه فانشال علي الداس كأنهم لم يعرفوني فشكا ذلك الى عثمان (رض) واستأذنه في الخروج من المدينة فخيره فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه . نخاف الافتتان بهم هذا هو الصحيح . فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها . فان جعل اشخاص أبي ذر من الشام وحبسه بالمدينة طعماً على عثمان : قيل : الأئمة اذا خشوا التنتة والاختلاف فليهم أن يبادروا الى حسمه وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لاجل أحداث حدثوها الناس ومنعهم من الخروج ومنعهم من ابس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده فيرتكب بذلك ما ليس له مع ان للامام أن ينفي أقواماً اذا خاف الافتتان بهم . فقد روي ان عمر بن الخطاب نفي نصير بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشعرها فيه

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم هل سبيل الى نصير بن حجاج

ونفي علي (رض) النعمان عن ملا من الصحابة ونفي حسان أيضاً والله أعلم (فان قيل) ان جماعة وافقوا على حصره وقتله فقد روي أن حذيفة وعمارا قالا

قتلناه كافراً وان طلحة فيمن حضره وان علياً أمان على قتله وان الناس خذلوه وأسلموه الى غير ذلك من الامور : قيل : هذا لا يصح عن حذيفة^(١) وانما المنقول عنه خلاف ذلك وانما هذا من كلام انراضة وان نقل ذلك فلانه ليجلوا أحد من الصحابة من حاسد ومن يبغضه فكيف بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال والطعن على عثمان طعن على من تقدمه . وأما طلحة فانه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . وأما علي فانه قال غير مرة . اللهم اني أرى اليك من دم عثمان . وقال والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله . ولما بلغه قتله قال . اللهم اني لم أرض بقتله ولم أمر به . وقال فيه كان عثمان : من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين : وسئلت عائشة عن عثمان فقالت : قتل مظلوماً لعن الله قاتله اقاد الله من ابن أبي بكر وساق الله الى أغر بني تميم هواناً واهراق الله دماء بني بديل وساق الله الى الاشر ساهماً من ساهمه : فوالله ما من النوم أحد الا أصابته دعوتها . وأما ترك الصحابة الانكار على من حصره فلقد ناضحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر يبلغ الى قتله وانما ظنوا أنها تكون معتبة . ومع ذلك فان عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال ولقد أنكروا وبالغوا في الانكار منهم علي وزيد بن ثابت وعبدالله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة وازبير وابن عامر وحمل الحسن بن علي يوهئاً جريماً وليس ابن الزبير الدرع مرتين رضي الله عنهم : وعن ابن عون لقد قتل عثمان وان في الدار سبعمائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لاضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فانه اصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يابن قاتله مع عائشة صباحاً ومساءً وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه هذا خلف . ومع هذا فينبغي الكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والامساك عما نسب اليهم من الرذائل وكذلك تباع الانبياء انما يذكر محاسنهم التي مدحوا عليها ويمسك عما سواه (فان قيل) ان عثمان حمى الحمى ومنع منه الناس قيل روي ان المصريين جاؤا الى عثمان فقالوا . ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا صورة

(١) الصواب انه محمد بن أبي حذيفة وان صح ان الرائضة قالوا انه حذيفة فيكون ذلك افتئات ظاهر منهم وتحريف مقصود لان حذيفة من الفسائين بتولي عثمان ومن لعن قاتله كما رأيت فيما سبق من هذا الكتاب

يونس وقرأ هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً) الآية فقالوا له أرأيت ما حميت من الحمى الله أذن لك أم على الله تفتري : فقال هذه الآية نزلت في كذا وكذا وأما الحمى فتدعى الائمة قبلي لال الصدقة فلما زادت ابل الصدقة زدت في الحمى فجعلوا لا يأخذونه بآية الا قال نزلت في كذا وكذا حتى أخذ عليهم ان لا يشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين الى بلادهم راضين فرأوا في الطريق غلاماً معه كتاب فرجعوا اليه فقال اني لم أمر به ولا شعرت به فخصروه باعين عليه ظالمين له وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم تقيع الخضيات لخيال المسلمين وقال البخاري . بلغنا ان النبي عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والر بذة واستعمل على الحمى مولى له يدعى هنياً فلم يثبت على عثمان ذنب ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحرم وشق العصا وتفريق الجماعة ولكن الله اكرمه بالشهادة والحقه بالنبي عليه السلام وصاحبيه في الجنة حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلع الغميص وحظي قاتلوه بالخزي واللعنة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام (فان قيل) فقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر فتنة تكون بعده وقال في عثمان فاتبعوا هذا واحبابه فانهم على هدى فاخبرنا من احبابه : قيل احبابه احباب رسول الله المشهود لهم بالجنة المذكور بعضهم في التواراة والانييل الذين من احبهم سعد ومن ابغضهم شقي مثل علي بن ابي طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان في وقتهم فانهم كلهم كانوا على هدى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم انكر قتله وكلهم استعظم ماجرى على عثمان وشهدوا على قتلته انهم في الدار وهم الذين تجمعوا وتألوا عليه مثل عبد الله ابن سبأ واحبابه الذين اشقاهم الله بقتله حسداً منهم له وبعياً عليه وارادة الفتنة وان بوقعوا الضمآن بين امة محمد صلى الله عليه وسلم لما سبق عليهم من الشقاء في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب الا ايم فاجتهد الصحابة في نصرته والذب عنه وبدلوا أنفسهم دونه فأمرهم بالكف عن القتال وقال اني أحب ان التي الله سالماً مظلوماً ولو أذن لهم لقاتلوا عنه قال . ابن سيرين كان معه في الدار جماعة من المهاجرين والانصار وابتأهم فقالوا يا أمير المؤمنين خل بيننا وبينهم . فعزم عليهم ان يقاتلوا (فان قيل) فقد علموا انه مظلوم وقد أشرف على الهلاك فكان ينبغي عليهم ان يقاتلوا عنه وينصرونه وان كان قد منعهم : قيل : ان النوم كانوا أهل طاعة لامامهم وقد وقعهم الله تعالى للصواب من القول والعمل وقد فعلوا ما يجب

عليهم من الانكار بقولهم وأسنتم وعرضهم لصرته على حسب طاقتهم فلما منعهم من نصرته علموا ان الواجب عليهم السمع والطاعة له ولا يسمهم مخالفته وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فان قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم وقد علم ان قتالهم عنه نهبي عن المنكر واقامته حق يقيمونه : فالجواب : ان منعه اياهم يحتمل وجوها كلها محمودة : احداها : علمه بانه مقتول مظلوم لاشك فيه لان النبي عليه السلام قد أعلمه انه يقتل مظلوماً وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به بتحقيق انه مقتول ران النبي عليه السلام له حق لا بد ان يكون ثم علم انه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد وكان عنده من طاب الانتصار لنفسه والذب عنها فاذا رضي فليس هذا بصابر اذ وعده من نفسه الصبر : الوجه الثاني : انه كان قد علم ان في الصحابة قلة عدد وان الذين يريدون قتله كثير عددهم فلو اذن لهم بالقتال لم يأمن ان يتاف من أصحاب النبي عليه السلام بسببه فوقاهم بنفسه اشفاقاً منه عليهم لأنه راع عليهم والراعي يجب عليه ان يحفظ رعيته بكل ما امكته ومع ذلك فقد علم انه مقتول فصانهم بنفسه : الوجه الثالث : انه لما علم انها فتنة وان الفتنة اذا سل في السيف لم يؤمن ان يقتل فيها من لا يستحق القتل فلم يختار لأصحابه أن يسلبوا السيف في الفتنة اشفاقاً عليهم من تقم تذهب فيها الاموال وتهتك فيها الحرم فصانهم عن جميع هذا : ووجه رابع : وهو انه يحتمل ان يكون صبر عن الانتصار لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لان المؤمنين شهداء الله في ارضه ومع ذلك فلم يجب أن يهراق بسببه دم مسلم ولا يخالف النبي صلى الله عليه وسلم في امته بسفك دم رجل مسلم فكان عثمان بهذا الفعل موقفاً معذوراً رشيداً مجبوراً وكان الصحابة في عذر وشقي قاتله وغاذله والله أعلم اهـ

✽ ما قاله المعتزلة ✽

وللمعتزلة ايضاً كلام طويل في الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل شأنهم في مثل هذه المباحث وقد اورد ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلاً بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا تماماً للامة قال ابن ابي الحديد عند شرحه الكلام قاله

عليّ في شأن الاحداث لما اشار عليه اصحابه بمجاراة أهل الشام
ويجب ان نقول ههنا احدائه وما يقوله اصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى
في كتاب الشافي في هذا المعنى فنقول . ان قاضي القضاة قال في المعنى قل الكلام
في تفصيل هذه الاحداث كلاما مجملا معناه ان كل من ثبتت عدالته ووجوب
تولييه اما على القطع واما على الظن فغير جائز ان يعدل فيه عن هذه الطريقة الا بامر
متيقن يقتضي العدول عنها .

ثم استترد في هذه المقدمة الى لزوم تولي عثمان وتعظيمه وحمل ما
نسب اليه من الاحداث على حسن النية لما لعثمان « رض » من المزايا التي
توجب احسان الظن به وان ما نسب اليه من الامور كلها محتتمل فاجدر
بمثله ان تحمل اعماله على الوجه الصحيح في مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا
المعنى الى ان قال

وقد طعن الطعانون فيه « يعني في عثمان » بامور متنوعة مختلفة ونحن نقدم على
تلك المطاعن كلاما مجملا يبين بطلانها على الجملة ثم نتكلم على تفصيلها وذلك ان
شيخنا ابا علي قد قال . لو كانت هذه الاحداث مما يوجب طعننا على الحقيقة لوجب
من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله ان يطلب المسلمون رجلا ينصب للإمامة
وان يكون ظهور ذلك عن عثمان كبرته . فانه لا خلاف انه متى ظهر من الامام
ما يوجب خلعهم الواجب على المسلمين اقامة امام سواه فلما علمنا ان طلبهم لاقامة
امام انما كان بعد قتله ولم يكن من قبل والتمكن قائم . علمنا بطلان ما أضيف اليه
من الاحداث . وليس لاحد ان يقول انهم لم يتمكنوا من ذلك لان المتعامل من حالهم
انهم حصروه ومنعوه من التمكن من نفسه ومن التصرف في سلطانه خصوصا
والخصوص يدعون ان الجميع كانوا على قول واحد في خلعهم والبراءة منه . ومعلوم
من هذه الاحداث انها لم تحصل اجمع في الايام التي حوصر فيها بل كانت
تحصل من قبل حالا بعد حال فلو ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين
الانكار عليه . وكان كبار الصحابة المقيمين بالمدينة اولى بذلك من الواردين
من البلاد لان أهل العلم والتفضل بانكار ذلك احق من غيرهم فقد كان يجب على
طريقتهم ان تحصل البراءة والخلع من اول الوقت الذي حصل منه ما اوجب

ذلك وان لا ينتظر حصول غيره من الاحداث لانه لو وجب انتظار ذلك لم ينتهه الى حد الا وينتظر غيره . ثم ذكر ان امساكهم عن ذلك اذا تيقنوا الاحداث منه يوجب نسبة الجميع الى الخطا والضلال ولا يمكنهم ان يقولوا ان عملهم بذلك انما حصل في الوقت الذي حصر ومنع لان من جملة الاحداث التي يذكرونها ما تقدم هذه الحال بل كلها أو جلها تقدم هذا الوقت وانما يمكنهم ان يتعلقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ الى ابن ابي سرح بالقتل . وما اوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب ان يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر . وبعد فليس يحلو من ان يدعوا ان طلب الخلع وقع من كل الأمة او من بعضهم فاذا ادعوا ذلك في بعض الأمة فقد علمنا ان الامامة اذا ثبتت بالاجماع لم يحجز ابطالها بلا خلاف لان الخطأ جائز على بعض الأمة . واذا ادعوا في ذلك الاجماع لم يصح لان من جملة أهل الاجماع عثمان ومن كان ينصره ولا يمكن اخراجه من الاجماع بان يقال انه كان على باطل لان بالاجماع لم يتوصل الى ذلك ولم يثبت . على ان الظاهر من حال الصحابة انها كانت بين فريقين : اما من ينصره : فقد روي عن زيد بن ثابت انه قال لعثمان ومن معه من الانصار . ائذن لنا بنصرك . وروي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة ابن شعبة . والباقيون ممنعون منتظراً لزوال العارض الا انه لو ضيق عليهم الامر في الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك . قال ثم ذكر ما روي من انفاذ امير المؤمنين الحسن والحسين وانه لما قتل عثمان لامهما على وصول القوم اليه ظننا منه انها قصرا وذكر ان اصحاب الحديث يروون عن النبي « ص » انه قال : سيكون فتنة واختلاف وان عثمان واصحابه يومئذ على الهدى : وما روي عن عائشة من قولها . قتل والله مظلوما . قال ولا يمنع ان يتعاق باخبار الاحاديث في ذلك لانه ليس هناك امر ظاهر يدفعه . نحو دعواهم ان جميع الصحابة كانوا عليه . لان ذلك دعوى منهم وان كان فيه رواية من جهة الآحاد واذا تعارضت الروايات سقطت ووجب الرجوع الى ما يثبت من احواله السليمة ووجوب توليه ولا يجوز ان يعدل عن تعظيمه وصحة امامته بامور محتملة فلا شيء مما ذكره الا ويحتمل الوجه الصحيح . قال ثم ذكر ان الامام ان يجتهد رأيه في الامور المنوطة به ويعمل فيه على غالب ظنه وقد يكون مصيبا وان افضت الى عاقبة مذمومة اه

هذا ما نقله ابن ابي الحديد عن قاضي القضاة اجمالا فيما يتعلق بالدفع عن عثمان

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من أئمة الشيعة وليس من غرض كتابنا
ايراد اعتراضه ومن اراد الاطلاع عليه فليراجعه في شرح نهج البلاغة

﴿ ما قاله ابن خلدون ﴾

﴿ في سبب القيام على عثمان ﴾

لما تكلم ابن خلدون على بدأ الانتفاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة
صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجني العرب وقيامهم على عثمان
ولو أطال لا بدع في المقال ولكن تقييد بما تقيده المؤرخون واليك ما قاله
في ذلك

لما استكمل الفتح واستكمل المهلة الملك ونزل العرب بالامصار في حدود ما بينهم
وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة الرسول
صلى الله عليه وسلم والافتداء بهديه وآدابه المهاجرين والانصار من قریش وأهل
الحجاز ومن ظفر بمنزل ذلك من غيرهم . واما سائر العرب من بنى بكر بن وائل
وعبد القيس وسائر ربيعة والازد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك
الصحبة بمكان الإقايلا منهم وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لانفسهم
مع ما يدين به فضلأؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من
الذهول والدهش لامر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب
وتوسى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية
تنفض ووجدوا الرياسة عليهم للجهادين والانصار من قریش وسواهم فانفت
نفسهم منه ووافق ايام عثمان فكانوا يظهر ون الطعن في ولاته بالامصار والمؤاخذة
لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال
منهم والعزل ويفضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في اتباعهم وتنادوا
بالظلم من الامراء في جهاتهم واتهمت الاخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها
وأقاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل امرائه وبعث الى الامصار من يأتيه بصحيح الخبر:

ثم دخل في اخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة

التي قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها الى بعض الاسباب

﴿ رأي لاحد العلماء في الفتنة ﴾

وسألت مرة صديقي العالم الفاضل السيد عبد الحميد افندي الزهراوي الحمصي رأيه في هذه الفتنة لما اعهدده فيه من الاضطلاع وبعد النظر فاجابني حفظه الله ونفع بعلمه بالجواب الآتي يتكلم فيه على عموم الفتنة اي ما كان في عهد عثمان وبعده كلاماً اجمالياً جامعاً في مقدماته العالية لما يلزم محبي التاريخ الاطلاع عليه قال

﴿ ما جرى بين الصحابة ﴾

انّ الشيع التي قامت في أواخر الثلث الاول من القرن الاول قد غي على أكثر المؤرخين امرها ولذلك دخل في سيرتهم شيء من الاضطراب حتى آل الامر الى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ وقول فريق آخر «لأنخوض فيما جرى بين الصحابة» ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده الحمدي مع انّ هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد في شيء . وعندني انه يضر الجهل بهذه الحادثة التي هي الحلقات الأولى لسلسلة تاريخ الاسلام . وقد سألتني ايها الصديق العزيز عن رأيي في هذا الأمر وانت اعرف به كأنك اردت ان تستعرض رأي غيرك مع رأيك الموفق . واني ذاكر في هذه الكلمات القليلة صفوة تاريخ صحيح مجمل : لاجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يلزم ان نعرفهم في ايام حياته . ولأجل هذه المعرفة يلزم ان نعرفهم قبل بعثته وظهوره ﴿ العرب قبل بعثة النبي (ص) ﴾ العرب قبل ظهور الرسول (ص) ينقسمون بحسب مواقعهم الى (١) سكان الحجاز . و (٢) سكان ما عن يمينه مستقبلاً المشرق وهو اليمن . و (٣) سكان ما عن شماله . وهو الشام (اي الشمال) و (٤) سكان العراق العربي . و (٥) سكان ما بين ذلك كاه وهي بلاد نجد .

من نعمة لا يسوغ لباحث ان يحكم بأمر ما عام على العرب من حيث انهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النحلة والعادة والحلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قطان الشام والعراق واليمن كانوا بما آثروا شيئاً من زخارف

الحياة وبما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الاسواق الجامعة قد الفوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مظلمة . وقريب منهم . قطان نجد . اما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك كما ان الحجاز أبعد الديار العربية من الحواضر وأبعد الارض عن شره الملوك . وكان اليمن والحجاز سنيين لسكان الشام والعراق اذا رأوا فيهما محن السلاطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز ياتسون فيهما ما يشتهون من بعض اسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذي كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب واسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة . وهو الوطن الذي اعتلى فيه اياما اعتلاء شأن الحرية التي تربي الرجال والنساء أفضل تربية . وان العاقل لا يستطيع ان لا يعجب بما كان في مكة التي شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرفية التي تتجلى في سماها انوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهاها وهو حسير . وهذا من الاسباب في ان قریشا كانوا أرقى عرب الحجاز .

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا التي تعرف الانسان انه لم يخلق سدى ، وتعرفه ما يجب ان يقدمه اليوم ليلقاه غداً ، ومن المعارف الدنيا التي يظهر بها مبلغ استعداد الانسان للعلم والعمل ، فخير الله تعالى لهم هذا النقص اذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعامه من الحكمة والمعارف العليا ما تتركى به النفوس ، وتسعد به الشعوب ، ويسهل معه تحصيل المعارف الدنيا . وجعل الأمة العالمة هي العليا .

﴿ العرب في حياة الرسول (ص) بعد بعثته ﴾ كتب هذا الامر العظيم للرسول المجتبي من قبل الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقام ينشر بينهم هذه المعارف . بيد انهم لا قبل لهم بتلقيها لانها من أرقى أعلى مما تنظر اليه افكارهم فأخذتهم الدهشة وأوا بجانبيهم وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بدله من القول

وينبغي للمرء ان لا يتعجب ولا يسارع بهجو قریش الذين كانوا أرقى العرب فان كل غريب مستنكر باديء بدء . وقریش لم يعتادوا الخضوع الذي يشعر به معنى الدين وليس مادعاهم اليه من تلك المعارف العليا بالذي يعقل بالبداهة بل لا بد فيها من النظر والتأمل . ولنا ان نلوههم على ما فعلوه من ايداء الرسول بالقول والفعل . ولكن هذا العيب لم يسلم منه (وبالإسف) طائفة من طوائف الماضيين

والحاضرين . [انظر وا الى ما يتقوله المقلدون اليوم في المصلحين] على ان قريشاً لم تخل من رجال حكماء ادركوا هذا الفضل الذي جاءهم به ذلك المصطفى الكريم . أقلم يكن اولئك الذين نصرُوا هذه الحكمة الجديدة باديء بدء من افاضل الحكماء . ألم تكن قريش قبيلتهم . ألم يكن بطن مكة دراهم . ألم تك تلك الارض ارض الحرية مهدهم وظنهم وحاضنتهم ؟

كان قريشاً تلك الفتاة القوية كانت في غفلة عما في رحمها من الارواح السامية فلما ظهرت لم تبق اليها بالا حتى عاينت مراقبها البديعة في العالمين .

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية اشرار الصبر لنوال البشر كلهم « على قدر استعداد كل منهم » اسباب السعادة — على ضد رأي الذين يريدون حصرها في شعب مخصوص — ولذلك كانت دعوة هذا الرسول القرشي عامة لكل الشعوب فما لبث بعد ان دعا قومه حتى طفق يدعو مجاورهم من القبائل . ويراسل الملوك والاقبال . وكان اهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة . واليهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة اقام فيها يدعو المبكين ومن حولهم الى هذه الحكمة المباركة واشتد في اثائها العداء بين انصار هذه الحكمة الجديدة التي اوحاها الله . وبين انصار العادات القديمة التي سنها الآباء . فكانت الهجرة أـلم وأحكم . وكانت هي باب ذلك الفوز العظيم .

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور الى طور . ثم صاح الحجاز بالعرب كلهم صبيحة واحدة فاذا هم يتبدلون .

كان العرب قبائل متفرقة متعادية . يأكل القوي الضعيف . ويهجم القريب على القريب . فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم . واتحدت وجهتهم . ولانت منهم قسوة المتكبرين . واشتدت عزيمة المستضعفين . وخضعوا جميعاً لاحكام امام واحد يروضهم بالعدل ، ويروقهم بالفضل . ينهذ فيهم امره وقضائه ويحل فيما بينهم ثأوه يرضون عمارضى . ويتقنون مما نعم . ان استنقروهم نفروا . وان صرفهم انصرفوا . ثم اذا شاء استصرخهم فاذا هم يلبون .

بعد هذا الذي ذكرناه تبدلياً عظيماً في العرب . ولكن هل اصبح كل فرد من افرادهم متخلياً عن كل المساوي التي نهى عنها . ومتحلياً بكل المحاسن التي أمر بها ؟ هل اصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده . أو حسد كان قد خالط فؤاده . أو حقد اقتنضاه مزاجه . أو تهور مضى عليه منهاجه ؟ هل خاق

لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد . ورأي في كل الامور شديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ الاموال بالقمع ؟ ألم يبق فيهم من زان ولا قاتل ، ولا سارق ، ولا غاصب ، ولا نمام ، ولا منتاب ، ولا كذاب ، ولا مرتاب ولا ذي شهوة باطلة . ولا ذي خصلة عاطلة ؟

. سيحار في الجواب عن هذه السؤلات كثيرون لما يتبعها . اما الذين لا يرون العصمة لغير الانبياء فانهم لا يحارون وهم يقولون ان التبديل العظيم انما وقع في ثلاثة اشياء « ١ » في تحوّل الاكثرين عن سنن الآباء الى دعوة النبي من حيث الاجمال و « ٢ » في ترك الاكثرين للمنكرات الظاهرة من زنا . وقتل نفس وشرب خمر . وقمار . وسرقة . وغصب مال . واتيانهم للمعروفات الظاهرة من صلاة . وصيام . وصدقة . وحج . و « ٣ » في جمع الكلمة بعد التفرق . قلنا « الاكثرين » ولم نقل « الكل » لان تاريخ ذلك العصر على اصح الروايات ثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا الا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر . ويقتلون النفس . ويزنون . ويسرقون . الخ وان كانوا قليلا . ودع عنك الذين كانوا يكذبون . ويغتابون وينمون . ويجسدون . ويحقدون الخ

العرب بعد وفاة الرسول (ص) ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين اظهريهم . اما من بعده فيظهر ان القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوي . ولم يتحلوا بالحاسن قد صاروا اكثرين . يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض اركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضي الله عنه ان يعتبرهم كالمتردين . ويحاربهم كما كانوا يحاربون الكافرين

فهذا يدعوننا ان لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (اي كل من رأى النبي وآمن به) اذ لو فسرنا هذا التفسير لما صحَّ لأحد ان يقول كما هو المشهور ان كل فرد من افراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبة حقيقة يصالح ان يطلق عليها لغة وعرفوا اسم الصحبة كما بي بكر وعمر وعثمان وعلي واضرابهم رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء وامثالهم هم الصحابة الحقيقيون . وهؤلاء وامثالهم هم النقات المدول . واما اولئك الأعراب الذين كانوا يقدون عليه فيسامون له ولم يكونوا يلبثون عنده الا عشية او ضحاها فيقال لهم مسلمون لمحمد عليه السلام . ولا يصح على هذا

التفسير الحقيقي ان يقال انهم صحابته . كما لا يصح عقلاً وتقلاً ان يقال ان كل فرد من أمثال هؤلاء عدل ثقة . وكذلك الصبيان الذين كان عمر اقدم في حياته صلى الله عليه وسلم سبعمائة او تسعمائة مثلاً من السنين .

ثم ان الذين يقولون عنهم انهم عدول كما شهد لنا التاريخ لا يفرض علينا ان نزههم كما نزه الانبياء ورب العالمين . ولا يجب علينا ان نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لا يعرفون اصول الدين .

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون انه لا فرق بين ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم وما يراه احد اصحابه . لانه اما ان يكون للنبي نص في الشيء فالامر ظاهر سواء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص او خالفه لعدم العلم بالنص . وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز في حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم . واما ان لا يكون للنبي نص فيستوي الصحابة في نظر بعضهم . ولم يكونوا يساؤون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احداً بل يستوون في نظر التابعين عليهم الرحمة .

ثم لا شك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ولكن حديث « اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهديتم » قد صرح العلماء بانه موضوع وقد صحح مامعناه « ان أمة النبي يردون عليه الخوض فيناد ناس منهم فيقول يا رب اصحابي . فيقال له لاندرى ما أحدثوا بعدك »

الذي جرى بين الصحابة ﷺ اذا تمهد هذا فالاختلاف الذي جرى بين الصحابة لا شك بأن جرئته من فئة لم تأخذ بنصيب واف من صحبة النبي ، ولم تتصلع من التهذيب الحمدي ، واني أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مشاهير كثيرين من غيرهم ولكني لا اثبت لغير الانبياء عصمة مطلقة كعصمتهم فان هذا من اصول هذا الدين

هذا هو الأجمال ومنه يأخذ الاذكياء آراء مهمة عند ما يقرأون الحوادث التي جرت . ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبي في هذه المختصرة ان أضيف من أجله الى هذا الأجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ومبصرات اياها بعض الدقائق: (١) ان القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش . وأكثر افرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن ان يصحبوه — ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعة من نهار . ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم . وهكذا حاربوا مع من بعده .

(٢) ان القبائل البدوية كانت متمادية في الجاهلية . ولما تآخرت في الاسلام كان عرق العداوة يضرب في بعضها احياناً . فكانت كل قبيلة تشايع رئيساً من رؤساء قريش وتتمنى له الدولة ابتغاء ان تتميز لديه على اعدائها الاقدمين .

(٣) ان القبائل البدوية كان قد اضر بها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها ان تتضلع من نعيمها . وكانت تتحين ان تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء اثر النبي صلى الله عليه وسلم الى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار . وتوارث المناصب بالأنسب والحيل ، لا بالمواهب والعمل .

(٤) ان الأمم العجمية — من روم وفرنس وسريان وعبرانيين وغيرهم — من لم يدخل في الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً بيت الدساس ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة الحمادية على ايدي انصارها الحقيقيين . ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلوبهم حب عادات سالعة لهم قومية او دينية . وما زالوا بعد امتراجهم بالعرب حتى ادخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناهجهم .

(٥) بمجموع ما قدمنا الإشارة اليه اختل — بعض الاختلال — ذلك المحيط الذي كان بالامس أصبح محيط على الأرض . ولم يكن اختلاله في ايام خلافة الصديق واوائل خلافة الفاروق رضي الله عنهما الاظفيفاً . واما في اواخر خلافة الفاروق فاشتدت ذلك المرض الذي حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة في اواخر ايام علي رضي الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والملك . وهذا بعض ما كان يتمناه رجال من قريش والقبائل البدوية والأمم العجمية اه

هذا ما قيل في فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية اورده في هذا الكتاب دون ان اعلق عليه شيئاً من الرأي اذ آرائي الخصوصية بسطتها كل رأي في محله من هذا الكتاب فعلى القاري ان يأخذ مما قلت وقال غيري بما شاء اذا ظهر له انه الحق اذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام

* صفة عثمان *

في تاريخ ابن عساکر كان عثمان ايس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية عظيمها السمر اللون عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين كثير الشعر وكان يصفر لحيته ويشد اسنانه بالذهب

* باب *

(ولده وعماله)

(ولده)

ولد عثمان بن عفان هم عبد الله الاكبر وأمه فاختمة بنت غزوان :
وعبد الله الاصغر أمه رقية بنت رسول الله وتوفى صغيرا : وعمرو : وأبان
وخالد : وعمر : وسعيد : والوليد وأم سعيد : والمغيرة : وعبد الملك : وأم
عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى اولاده وأشرفهم عقبا . وكذلك ابنه عبد الله
الاكبر وله عقب كثير وممن اعقب من اولاده أيضا خالد وقد درج عقبه
وله من الاحفاد من ولد عمرو وعبد الله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة في
المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم

* عماله *

كان عماله على الامصار في السنة التي توفى فيها على مكة عبد الله بن
الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي وعلى صنعاء يعلى بن منية
وعلى الجند عبد الله بن ربيعة وعلى البصرة عبد الله بن عامر وعلى الشام
معاوية بن أبي سفيان وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن
الوليد وعلى قنسرين حبيب بن مسامة الفهري وعلى الاردن أبو الاعور
السامي وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكنانى وعلى البحر عبد الله بن قيس

الفزارى وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على صلاحها وعلى خراجها جابر ابن فلان المزني وعلى حربها القمقاع بن عمرو وعلى قرقيسيا جريير بن عبد الله البجلي وعلى آذربيجان الأشعث بن قيس الكندي وعلى حلوان عتيبة بن النهاس وعلى الماء مالك بن حبيب وعلى همذان النسيّر وعلى الري سعيد بن قيس وعلى اصبهان السائب بن الاقرع وعلى بيت المال عتبة بن عامر وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت وأما عامل مصر فقد كان عبد الله بن سعد كما رأيت فيما مر وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد بن أبي حذيفة

ربما يتبادر الى ذهن القارئ من أسماء هؤلاء العمال ان ليس فيهم من قرابة عثمان الامعاوية وعبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد مع ان الفتنة قامت لاجل ان عماله كلهم من ذوي قرابته فلكي يكون القارئ على بصيرة نذهب الى تقسيم الولايات في عهد عمر بن الخطاب فيرى أن الولايات الكبرى هي مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة وما بقي فمضموم اليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة . والكوفة وارمينيا تابعة لقنسرين . وأفريقيا تابعة لمصر . والشام تتبعها أقسامها . وكل هذه الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولاتهام من ذوي قرابته والكوفة وان كان عليها أبو موسى الأشعري لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التنبيه

﴿ الحالة الاجتماعية على عهد ﴾

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب وان الأمة خطلت يومئذ خطى قليلة الى الامام في شؤونها الاجتماعية ولم تخرج مع ما صار السامية كنوز فارس والروم وملك الاكاسرة والقياصرة عن

طريق القصد في المعيشة لحمل عمر لهم على التوسط في العيش وعدم الركون الى الراحة في ابان الفتح ومصادمة جيوش الامم وانه لذا كان لا يرضى للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعمال الارضين . ولما استكمل الفتح على عهد عثمان ونزع الناس بالضرورة الى طلب الراحة وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من أهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع وكان عثمان (رض) ليس من الشدة عليهم والأخذ على شكائهم بالمكائنة التي كانت لعمر قبله طمحت الى ذلك نفوسهم ، واتجهت لمجارات الشعوب الاخرى رغائبهم ، فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنه في استثمار الارضين التي جلى عنها أصحابها من أهل الذمة فاقطعهم اياها فقاموا على حرثها وأخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان وروى البلاذري في فتوح البلدان ان عثمان لما ولى معاوية على الشام والجزيرة أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعمار الارضين التي لاحق فيها لاحد فأنزل بني تميم الراية وأنزل المازحين والمديبر اخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم . وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله : وفي هذا دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم الى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم الى الاستثمار واذ كان عثمان غنياً جداً^(١) محبباً للعرمان ميالاً الى التأنق في المعيشة والتداول

(١) ذكر المسعودي ان عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون

في البنيان وانفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وذوي قربه فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه وكانوا في عصر عمر لا يجراون على اقتناء الضياع والدور والاكتثار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش وبني لنفسه ولنسائه وأولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره وشيد داره بالحجارة والكلس وجعل ابوابها من الساج والعرعر وبني مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعمد المرفوعة وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنان والعيون بالمدينة وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب آتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى وحنجوا الى الحصول على المال والتنعم في الميثة فابتنى سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم القصور خارج المدينة وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمذهبه فذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا عن مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وداراً بدمر، مثلها بالاسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وقال المسعودي بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين الف دينار والف فرس ومثلها من العبيد والاماء وخططاً بحيث ذكر من الامصار : وربما بلغت

ومائة الف دينار ومليون درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة الف دينار : وفي رواية لابن عساكر ان الثأرين اتهموا ماله كلد يوم قتل وكان ثلاثين الف الف درهم وخمسمائة الف درهم « اي ثلاثين مليون ونصف » ومائة وخمسين الف دينار وترك صدقات كان تصدق بها بين اريس وخير وادي القرى قيمة مائتي الف دينار وفي هذه الرواية من الاغراق والمبالغة مالا يخفى ولعل رواية المسعودي أصح

ثروته على ما في قول بعضهم نحو نصف مليون وأكثر هذه الثروة كانت من التجارة فانهم قالوا ان الزبير كان ناجراً محدوداً (اى محظوظاً) : قال المسعودي وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابنتى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودي بدار الطلحين) وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية شراة اكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة و بناها بالآجر (الطوب) والحص والساج ، وكانت ثروته من التجارة ايضاً فقد ذكر ابن قتيبة في المعارف ان طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودي عن ثروة طلحة وان كان لا يخلو من اغراق ومبالغة الا انه يدل على ما صار اليه القوم من السعة والميل الى اقتناء المال : ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف^(١) وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية وانهم بنو الدور وشيدوا القصور وتركوا اموالاً

(١) وذكر في اسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقال ان عامة ما له من

التجارة وانه كان عظيم التجارة محدوداً فيها حتى قدمت له مرة غير فيها سبع مائة راحلة تحمل البر والدقيق وكان كثير التصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشرط ماله وتصدق مرة باربعين الف دينار وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله وهذا يدل على ان اكثر غنى الصحابة انما كان من التجارة ايام اليسر واقبال الدنيا على المسلمين وانهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من البذل وعفة النفس كما تدل عليه اخبار عبد الرحمن وطلحة واشباههم من كبار الصحابة واغنيائهم الذين انما تحصلوا على الثروة بالعمل والجد والاتجار وانفقوها في طرق البر وسبيل الخير والحمدة ولا يبي بكر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن واضرابهم من اغنياء الصحابة اخبار كثيرة في هذا الباب لا محل لذكرها هنا وكلها ادلة واضحة على وجوب السعى والعمل وان العمل لازم من لوازم الحياة فأمر به الاسلام وان النبي والمال ضرب من ضرب العزة التي وصف الله بها المؤمنين لذا اشتغل في اقتنائه الصحابة والتابعون فاخذوه من الطرق التي يأمر بها الشرع وأنفقوه في الطرق التي يأمر بها الشرع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون لا سيما في هذا العصر

وضياعا كثيرة وان سعد بن ابي وقاص ابنتى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات ومثله فعل المقداد بداره في الجرف على اميال من المدينة :

وفي كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال في عصر عثمان وجنوحهم الى التمتع بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار الشكر المنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس الى المنكرات ومما لا ريب فيه ان عصر الصحابة مهما انطلق أهله في مجال السعة والنعيم لا يتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بد من صرفه في وجوه التمتع بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات حتى لقد كان في المدينة من آثار الرفاهة وحب التلبي لما فاضت الدنيا على المسلمين ان ظهر فيها ظيران الحمام والربي على الجلاهقات « قوس البندق » فعدّها منكرًا أمر به عثمان فأزيل في الحال واستعمل على ذلك رجلا من بني ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات :

استكمل الفتح في عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سياسية الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقًا توخاها الخلفاء ، وتبعهم فيها الولاة والامراء ، فازدها

الذي اشتد فيه نزاحم الامم على موارد الرزق وتمنن الاوربيون بضررب السعي والاحتيايل على جلب الثروة حتى سدوا في وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء في السعي وتناصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجارة الاوربيين في فنون التجارة والصناعة وسبب ذلك كله الجهل بتار يخسلفهم والاستسلام للاوهام الباطلة التي اوهنت عزائمهم وذهبت بملكه النشاط منهم ولا حول ولا قوة الا بالله

أمر الدولة الجديدة . وعلت كلمة العدل ، وكثر المال وامتد رواق العمران . وراجت التجارة وتضاعدت اثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشترى بنسبة كثرة النقد فبيعت جارية بوزنها وفرس بائنة الف درهم ونحلة بألف درهم كما نقل هذا المحب الطبري في الرياض النضرة من راوية أبي عمر عن محمد بن سيرين . وهذا غاية ما تصل اليه الممالك في ترقى العمران . وتوفر أسباب الكسب . ونمو الثروة بين طبقات الناس

بينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يستمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الأمم ويتسمنون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ويسيرون سيرهم الحثيث في الفتح ويرفعون لآخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الروم والفرس صائر اليهم وعثمان في مأمن من رافته بهم ولينه عليهم . اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم في لجج من النخاصم ما بلغوا - احله الا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة فكان عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة . والراحة والتعب . والغنى والطمع . والقوة والضعف . ومنه بدأت سلسلة الاحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الاسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية ان الدول اذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة المليية والتناصر القومي ونشأت على أساس الوحدة في الاعتقاد والوحدة في الفكر بين أصناف الأمة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الأخرى قل ان تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الاحزاب والشيع لهذا فان اضطراب

أمور الدولة وتفرق أغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في ارجاء ممالكها القاصية والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة بل كأن الأمم استشعرت من تلك المضوضاء القائمة انها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الأمر، ولا تمتد الى الدولة يد الغدر، حتى انجملت الفتنة عن قتل عثمان وقيام علي والاحزاب الأخرى ثم مصير الخلافة الى بني أمية ولولا ما حَبَّب الى الناس من خلافة الراشدين ، وما بهرهم من قوة اولئك الفاتحين ، لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ بالنار ، واستفزز الطيش الاشرار . لكن الملك الذي تحصن بالعدل والدولة التي تقوم على الاساس الذي ذكرنا لا يززعزعهما تفرق المالكين الى أحزاب . وشيع ولا يطمع في جانبها الطامعون : والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون :

هذا ما اخترت ايراده من سيرة عثمان رضى الله عنه واسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان كما أسأل القراء المعذرة في تبسطي في أخبار الصحابة وتوسعي في وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة واسترسال قلبي من ذلك بما لم تألفه انظارهم من كتب مؤرخينا الذين عاهدوا أنفسهم على القاء الكلام عن أخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم في اخبارهم مع ان ما نقلوه من المطاعن وملاؤا به صحفهم من اخبار الفتنة هي بمجرد ما أضر على الصحابة واشد جنافية على التاريخ من التبسط في أخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت اليهم اذ في الوجه الثاني طريق للمؤرخ يسلكه في تبرئة المتهمين منهم بباطل والاعتذار عن من يظن انه خطأ منهم ليدفع بهذا الشبه التي تكاثفت سحبها على النفوس من قراءة اخبار الفتنة التي ترمي كبار الصحابة بوصمة التحزب

على عثمان اذا سمحت على ظاهرها كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها وتوسعوا في التنقيب عنها والتدقيق فيها وبسطوا للقراء ما ظهر لهم من اسبابها الخفية والجلية وكل ما يتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكانته من النفوس الضعيفة فتسيء الظن في رجال هم دعائم الاسلام وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين وبجدهم تأسست دولة المسلمين . وما ضرت الصحابي منهم لو تقبنا عن سيرته ورأينا ما يوجب النقد في اخباره فاذا التمسنا له العذر فلم نجده قلنا انه مجتهد اخطأ في اجتهاده وليست العصمة الا لله وللرسل وما ادعاها لنفسه أحد من الصحابة قط . وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لما نهى عن الاسراف في مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك بل قال : صدقت رجل اخطأ وامرأة أصابت : وكذلك عثمان فانه اعترف بخطأه على ملأ الناس اكثر من مرة كما رأيت فيما مر من سيرته : والشواهد على هذا كثيرة في اخبار الصحابة لا محل لا يراها هنا وفيما ذكر كفاية للعاقلين .
وها أنا أبدأ بسيرة من اشتهر من الرجال في دولة عثمان رضی الله عنه
وهما حبيب بن مسلمة الفهري وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز

— ❦ عبد الله بن عامر ❦ —

❦ باب ❦

﴿ نسبه ومولده ونشأته ﴾

(نسبه)

هو عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قصي القرشي العبشمي وهو ابن خال عثمان بن عفان . أم عثمان أروى بنت كرز وأُمها وأم عامر بن كرز أم حكيم البيضاء بنت عبدالمطلب عمه النبي (ص) وأم عبد الله دجاجة بنت اسماء بن الصلت السلمية (مولده ونشأته)

ولد عبد الله بن عامر في مكة بعد الهجرة باربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساكر وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساكر وقد أجمع علماء قريش ان رسول الله أتى بعبد الله بن عامر في فتح مكة فجعل ينفث عليه وجعل عبد الله يبتلع ريق النبي (ص) فقال انه لمسقا وفي لسان العرب انه صلى الله عليه وسلم قال له : ارجو ان تكون سقياً : اي لا تعطش . وفي رواية لابن عساكر انه لما جرى به لرسول الله (ص) قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مستقا : فلم يزل عبد الله شريفاً سخياً كريماً كثير المال والولد

فبعبد الله بن عامر ولد مكياً ونشأ مسلماً مديناً وقد كان يعد في الطبقة الاولى من أهل المدينة كما في رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائمهم لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حدائة سنه فولياها وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين فقام باعباء الولاية أحسن قيام وقاد الجيوش أعظم قياد وأكمله ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجر حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية وصار الى المساميين ملك الاكسرة خففت اعلامهم على اقاصي بلاد فارس الشرقية والغربية وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من

رجال الفتح الذين خلدوا لتلك الامة نخرّاً لا تطاول اليه الاعناق ولا يدانهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار بن عامر في هذا الكتاب وكما ترى من تمة خبره في فتح تلك البلاد مما يأتي ان شاء الله.

﴿ باب ﴾

(ولايته على البصرة وفتوحاته)

ذكرنا فيما تقدم ان عثمان (رض) عزل عن البصرة أبا موسى الاشعري وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨ هـ) وقيل سنة (٢٩) فقال أبو موسى يقدم عليكم غلام كريم الجادات والعمات يجمع له الجندان وزاد في رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جنود أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم في سيرة عثمان وان يفزو البلاد التي انتقضت وهي فارس وخراسان فسار بالناس الى فارس والتقى بالثائرين في اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار الى اطراف ولاية فارس فدوخوا وأخضع الثائرين فيها ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده في اطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيل الخبر عن ذلك وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فافتتح امامه الطيبسين وهما بابا خراسان وسار الى قهستان وأبرشهر فلقبه قوم يسمون الهياطة فقاتلهم الاحنف فهزمهم وخرج اليه أهل قهستان فقاتلهم حتى الجأهم الى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه اهلها على ستمائة الف درهم ثم قصد ابن عامر البلاد التي من اعمال نيسابور كبشت وخواف واسفراين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد ان استولى على كل اعمالها فامتنعت عايمه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من

ارباع المدينة مرزبان يحفظه فطلب صاحب ربيع من تلك الارباع الامان على ان يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلاً ففتحو الباب وتحصن مرزبان المدينة في حصنها ووجه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على الف الف (مليون) درهم وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي . ثم أرسل ابن عامر قواده يضربون في اطراف البلاد . وقدم في أثناء ذلك بهمة والى أبيور على ابن عامر فصالحه على اربعمائة الف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستمائة الف درهم . ووجه ابن عامر جيشاً الى هراة وقيل سار اليها بنفسه فقاتل أهلها فأعيام ذاتاه صاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس . أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الارضين . وصالحه على هراة سرلمها وجبلها على ان يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وان يقسم ذلك على الارضين عدلاً بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة . وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر اه
وهذا الكتاب يدل على حرص الامراء يومئذ على عمران البلاد لشرطهم على المرابذة اصلاح الارضين وقد مرّ مثله في سيرة عمر وما كان يشترطه الامراء في فتوحهم من اصلاح الطرق والفسور على أهل البلاد المفتحة كما يدل أيضاً على ان المسلمين كانوا يتركون المرابذة في البلاد التي تدخل تحت سلطانهم صاحباً شبه ولاة من قبل الخليفة او ولاة الثغور بدليل قوله في أول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله

وحسن النظر في أمور البلاد لا سيما وان المسلمين كانوا يمهدون الى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها في أحوالهم الشخصية على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ويتركون لغير المسلمين الخيار في ذلك بين الرجوع الى عوائدهم وبين الرجوع الى قضاة المسلمين وشرائعهم فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين بايحاء حكام البلاد والتشديد عليهم في القيام على العدل فيما وسد اليهم من امور الرعية .

هذا وهنا أمر آخر نحب التنبيه عليه وهو ان اكثر البلاد التي أخذت صلاحاً وترك أمرها لولايتها من الاعاجم لم يستقم أمرها للدولة بل كانت لا تلبث أن تخرج على سلطان المسلمين وينبذ أهلها طاعة الخليفة باغراء اولئك الزعماء فان اكثر البلاد النائية عن نظر ولاية الثغور البعيدة عن التأثير بسطوة الخلافة مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزوين كانت تنبتابها الثورات الى أوائل عهد الامويين كما رأيت وسترى ولما استفحل الملك وتبسط العرب في الممالك واتظمت لهم الامور واختلطوا مع الأمم في المعاملة والمصاهرة والدين وتولوا بانفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم في البلاد وسكنت اليهم الشعوب . والعجيب في هذا الامر ان ينزع القوم الى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة في عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملأوا الارض بالعدل وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر وفي بلاد ترك لاهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ولما انقلب أمر الخلافة الى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأخذتهم الدول الاسلامية بالارهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا لدوله وخضعوا لولايتها كل

الخصوع . ولا تعاميل لهذا الا ان الشرقيين أمم قد تأصل في عروقها دم
العبودية فصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها
الاستبداد ، ولا يُطامنُ من اشرافها الاستعباد ، فهي مع الظالم أطوع له
من الظل ، وأذل لسطوته من النذل ، كما يشاهد ذلك فيهم الى الآن في كل
مكان ، فانك حينما نظرت في المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصي
الامم والظلم نشر عليه بنوده ، وتجاوزوا الحكم المطابق فيهم حدوده ، حتى
أودى بهم الى الهلاك . وبدوهم الى الزوال ، وبملاكهم الى الاضمحلال ،
وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس . ولا عروق تنبض .
ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم ، وتستنفذهم من هوة العدم ، والمغرب
امامهم يسوق اليهم العبر سوقاً ويعلمهم كيف تكون حياة الامم . وبماذا
تسعد الشعوب . وتشاد الممالك . وكيف يقضى العلم على الظلم وأهليه ،
والاستبداد وعاشقيه ، وبم يسود الانسان ، وتعلو كلمة العدل في كل مكان ،
وهم عن ذلك في شاغل من الخمول . واشتغال بالسفاسف . واعراض عن
شؤون الحياة الطيبة . رضاءً بالعبودية لطواغيت الرياسة . واستسلاماً
للقضاء . وما نهاية ذلك الا الفناء العاجل بازاء الأمم الغريبة التي استفاض
نور مدينتها على الارض . واندفع تيارها على كل الممالك . فلا يقوم في
وجهه الا قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بماقبة الامور
هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين في ولاية
ابن عامر من بلاد فارس الشرقية والنزبية وانما اجتزأنا هنا بذكر ما فتحه
ابن عامر بنفسه وفاءً بالوعد الذي تقدم لنا وبياناً لفضل هذا الرجل
الصغير يومئذ سنأ الكبير همّةً ونفساً فلا حاجة للمزيد

﴿ ولايته الثانية على البصرة ﴾

(وشي من اخباره فيها)

تلك ولاية عبد الله بن عامر الاولى وكانت في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد وليها مرة ثانية على عهده معاوية وذلك ان معاوية لما صفت له الخلافة أراد ان يولي عتبة بن أبي سفيان على البصرة فكلمه ابن عامر وقال له ان لي بالبصرة ودائع وأموالاً فان لم تواني عليها ذهبت . فولاه البصرة فقدمها سنة احدى وأربعين وجعل اليه معاوية خراسان وسجستان فاستعمل على خراسان قيس بن المهيم السامي وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين فسار قيس الى بلخ فنازلها فسأله الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حربصين على عمران البلاد وتسهيل السبل فتقدم الى عطاء بن السائب مولى بني ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة انهر من انهر عمالة بلخ فبناها وسميت قناطر عطاء ثم ان ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم خفاف قيس ابن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا امير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه لتضييعه الثغر واهماله امر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا فضربه وحبسه . واستعمل ابن عامر عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان فأناها وأخذ بتدوين البلاد التي نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجاليق فلم سورها ثلثة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يجالد المشركين ويمنعهم عن سدّها حتى اصبح ولم يقدرها على سدّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة . ثم سار عبد الرحمن الى زران وبست وخشك

فظفر بأهلها وفتحها كلها . ثم سار الى زابليستان وهي غزنة واعمالها وقد كان أهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها .

﴿ شيء من اخباره في البصرة ﴾

هذه فتوح ابن عامر وولايته في ولايته الثانية على البصرة . واما غير ذلك من اخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قويت وشرهم قد استشرخ فرج منهم على ابن عامر سهم بن غالب الهجيمي في سبعين رجلاً منهم الخطيم الباهلي فنزلوا بين الجسرين والبصرة فر بهم عبادة بن فرص الليثي من الغزو ومعه ابنه وابن اخيه . فقال لهم الخوارج من انتم ؟ قالوا قوم مسلمون . قالوا كذبتهم . قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله (ص) مني فاني كذبتهم وقائلته ثم اتيته وأسلمت فقبل ذلك مني . قالوا انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن اخيه . فخرج اليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم وقتل منهم عدة وانحاز بقيتهم الى اجمة (غيضة) وفيهم سهم والخطيم فعرض عليهم ابن عامر الامان فقبلوه فأمنهم فرجعوا . فكتب اليه معاوية يأمره بقتلهم فأبى وكتب اليه اني قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده زياد في ولايته واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رؤوفاً بأهلها كريماً عليهم لين الجانب لا يأخذ على ايدي السفهاء منهم فنسدت عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم لا سيما في بلد كثر فيه الخوارج الذين هم اعداء كل سلطان والمناهضون لكل امير يضاف الى هذا ما فطر عليه القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الامراء ومواجهتهم بقول الحق وأخذهم لهم بالهفوات

روى ابن عساکر عن أبي داود قال خرج عبد الله بن عامر الى الجمعة (أي صلاة الجمعة) عليه ثياب رفاق وابو بلال « هو مرداس ابن أدية من رؤس الخوارج » تحت المنبر وذلك في يوم الجمعة فقال ابو بلال . انظروا الى اميركم يلبس لبس الفساق . فقال ابو بكره وهو تحت المنبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أهان سلطان الله في الارض أهانه الله) لهذا واشباهه فسدت عليه البصرة فشكى ذلك الى زياد بن أبيه . فقال له جرد السيف . فقال اني اكره ان اصلحهم بفساد نفسي . وهذا منه منتهى العدل والتجافي عن الاستبداد بالناس والاخذ بالقوة الا انه نسب بذلك الى الضعف فعزله معاوية عن العمل وذلك ان ابن عامر أوفد وفداً من البصرة الى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن ابي أوفى اليشكري المعروف بابن الكواء فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة . فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين ان أهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم ساطانهم . ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه . فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر لکن لم ير مفاجاته بالعزل اما احتراماً له واعظاماً لشأنه واما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس اليه وحب قريش له فكتب اليه كما في رواية ابن عساکر يسأله ان يزوره فقدم عليه وكان يأتيه ويتغدى عنده ثم دخل اليه يوماً يودعه راجعاً الى عمله : فقال له اني سائلك ثلاثاً : فقال هي لك وانا ابن أم حكيم : قال ترد علي عملي (أي ولاية البصرة) ولا تنضب : قال قد فعلت : قال وتهب لي مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لي دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحم : فقال ابن عامر واني سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً فقل قد فعلت :

قال معاوية قد فعلت وانا ابن هند : قال ترد اليّ مالي بمعرفة : قال قد رددت اليك مالك بمعرفة : قال وتنكحني هند بنت معاوية . قال قد فعلت : قال ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع أثري : قال قد فعلت :

هكذا نقلوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة وعدم ترده فيما طلبه ابن عامر منه مع انّ معاوية لا يفعل عبثاً وليس هو في حاجة لدور ابن عامر والسرّ في هذا انّ معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس وانه اصبح من رجال قريش النجباء ، وابنائهم العظماء ، وانه ممن يشار اليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والاحسان ، يدلك عليه مارواه ابن عسّاكر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عن من ترى لهذا الامر (يعني الخلافة) من بعدي : قال وأما فتاها حياءً وحلماً وسخاءً فابن عامر : انّ بلوغ ابن عامر هذه المسكنة من نفوس الأمة هو الذي دعا معاوية لان يتلطف بعزله ويطلب منه ماله في عرفة ودوره في مكة وذلك كي لا يقصد بعد عزله مكة ويكي يذهب ذهاب دوره منها بأمله في السكنى فيها والاقامة في ربوعها حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من عش النازعين الى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ولذا رأى معاوية من الحزم ايضاً ان يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره وذا من جملة ما عرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واسلم قياد الرجال

✽ باب ✽

(ماذا كان منه في الفتنة)

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الامصار عليه أهل الكوفة وأهل

مصر وأما أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه لان ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحبه الى الناس لهذا لما استعفى عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه ان يقرّ ابن عامر على البصرة ليتجيبه اليهم كما ذكر ذلك ابن عسّاكر ولما كثر الأرجاف بالعمال واستمرت نار الفتنة دعا عثمان (رض) ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يعني عن الاعادة ثم لما حوضر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع ابن مسعود على جيش لانجاده حتى اذا كانوا بأداني الحجاز خرجت خارجة من أصحابه فلقوا رجلاً. فقالوا ما الخبر. قال قتل عدو الله نعل وهذه خصلة من شعره. فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله فكان أول مقتول في دم عثمان ثم رجع مجاشع الى البصرة. فلما رأى ذلك ابن عامر حمل ما في بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخص الى مكة فوافي بها طاححة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام. فقال لا بل اثتوا البصرة فإن لي بها صنائع وهي ارض الاموال وبها عدد الرجال والله ولو شئت ما خرجت حتى اضرب بعض الناس ببعض. فقال طلحة هلاً فعلت أشفقت على مناكب تميم. ثم أجمع رأيهم على المسير الى البصرة فاقبل بهم اليها. هكذا روى ابن عسّاكر وروى الطبري في ذهاب ابن عامر الى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك وأنهم قالوا له قبحك الله. فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما قام معاوية فنكتني بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب. فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً وانت ترى من هذا ان ابن عامر كان محل الظن في ان يعمل عملاً كبيراً بمد قتل عثمان وتشدت رأي الأمة لانه كان من وجوه قریش وذوى

الكلمة العليا في الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحيات حتى وصل مكة فانضم الى طلحة والزبير لئلا اُتبه القوم على تركه البصرة مع قدرته على المقام فيها والاستقلال بعمل يدبره حتى استضعف جانبه لذلك كما يأخذ من رواية الطبري عن سير امرء علي الى الامصار بعد البيعة له اذ جاء في تلك الرواية ما نصه

واما عثمان بن حنيف (اي عامل البصرة) فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم . ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا . اهـ

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب أو تأنيب وانما يستغرب عدم الرأي والاستقلال ممن تظن فيه القدرة على العمل كما لا يخفى على الناقد وكيفما كان الامر فان ابن عامر لم يستقل بعمل في الفتنة في بادئ الامر سواء كان لرغبته في الحيات أو لعدم الحزم فانضم الى طلحة وحزبه وعاد معهم الى البصرة وحضر وقعة الجمل ولو انفرد بنفسه في عمل لرأى اعواناً كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب اليه ولانه من وجوه قريش وأجداهم كما يدل ذلك عليه ما رواه ابن عساكر عن جويرية بن أسماء عن سمعته يقول . قال علي بن أبي طالب يوم الجمل أتدرون من حاربت ؟ حاربت أجد الناس أو أجد الناس : يعني بن عامر : واشجع الناس : يعني الزبير : وأدهى الناس : يعني طلحة .

قال ابن عساكر بعد ان اورد حديث اقبال القوم الى البصرة ومعهم ابن عامر : فلما كان من امر الجمل ما كان وهزم الناس جاء عبد الله بن عامر الى

الزبير فأخذ بيده فقال . أبا عبد الله أنشدك الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خلّ بين العارين يضطربان فان مع الخوف الشديد المطامع : فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدائي في خروج ابن عامر الى دمشق

أتاني من الانباء ان ابن عامرٍ
يطيف بجمامي دمشق وقصره
أناخ وألقى في دمشق المراسيا
فعميشك ان لم يأتك القوم راضيا

في آيات

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ولم يسمع له بذكر في صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التي يظهر من قوله لازبير ما قال انه ندم على دخوله فيها وخشي على المسلمين من مغبتها . وهذا ما وقفت عليه من اخباره في الفتنة والله اعلم

﴿ باب ﴾

(مآثره ومناقبه)

كان عبد الله بن عامر على الهمة جليل المآثر ومن مآثره العظمى التي خلدت له في بطون التاريخ أعظم الفخر ، وأشرف الذكر ، فتحه خراسان كلها واطراف فارس وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهي غزاة واعمالها اي انه فتح قسماً من فارس الغربية المعروفة الآن بايران وأعاد فتحه وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان ففضى على دولة الفرس وقتل في ولايته كسرى يزدرج وانهت ايام الدولة الساسانية في تلك المملكة الشاسعة الاكفاف ، المترامية الاطراف ، ورفع الاسلام على ربوعها اعلامه .

وسادت على أهلها كلمته الى اليوم

بعد ان انتظم لابن عامر أمر الفتح وخذل لنفسه هذه المنقبة سميت
 همته الى العمران ، ورمى بطرفه الى أقصى غاية في الاحسان ، فعول على
 جبل أراضى البصرة جنة تنبت الريحان ، وان يصل ما بين العراق والحجاز
 بالقرى العامرة . والمياه النابعة . لتذهب وحشة البادية من النفوس . ويتمهد
 طريق القوافل . ويأمن ابن السبيل . وتسهل مسالك التجارة . فأخذ باحتفار
 الأنهر في سواد البصرة فاحتفر كما في رواية ابن قتيبة ثلاثة أنهر : نهر البصرة
 الذي يمر في السرق : والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبد الله وهي أمه :
 ونهر الأبلّة : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النّباج وهي قرية بالبادية ففرس فيها
 الفرس فكانت تدعى نباج ابن عامر : واتخذ القريتين وغرس بها نخلاً
 وأنبت عيوناً تعرف بعيون ابن عامر ويذنها وبين النّباج ليلة على طريق المدينة :
 وحفر الحفير ثم حفر السمينة واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا
 فيه : وكلها أماكن ومياه بين البصرة والحجاز ازهرت جوانبها وسالت
 بهمته وجدّه عيونها . وكان يرمي بطرفه لأبعد من هذه الغاية لو استمر
 في ولاية البصرة . ويريد جعل القرى والمحطات . بين البصرة ومكة
 كالسلسلة المتصلة الحلقات . فقد نقل ابن قتيبة ان ابن عامر كان يقول : لو
 تركتُ لخرجت المرأة في حدّاجتها (محفها) على دابتها ترد كل يوم على ماء
 وسوق حتى توافي مكة : وورى ابن عساكر وابن الاثير وابن عبد البر ان
 ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها العين وسقى الناس الماء فذلك جار
 الى اليوم . واتخذ في البصرة السوق اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً : فهو
 كما أراد بشق الأنهار احياء الارضين واستثمارها وترغيب الناس بالزراعة

وجنى خيرها أراد بتمهيد السبل واقامة الاسواق ترويج التجارة وترغيب اهلها والقيام على شؤونها اداء لحق الرعية وقياماً بواجب الامارة والعدل هذه الهمة التي لا مرتقي فوقها لهمة . والمنزلة التي لا تتناول بعدها لذي احسان . فاقد بلغ ابن عامر باعماله غاية من الجد وتحري المصاحبة والياتان بكل ما هو نافع للأمة والدولة ليس وراءها متجاوز لعامل . فختيق به المدح . وحرى به الاقتداء . ولو سار كل عمال عثمان سيرته لاستحجال على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع الى الايقاع به بسيرة العمال والطعن على الولاة فرحمه الله ورضي عنه .

﴿ كرمه ﴾

مناقب ابن عامر كثيره وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر في الاستيعاب . كان عبد الله بن عامر سخياً كريماً حلماً ميمون النقيبة كثير المناقب : وقال ابن الاثير في أسد الغابة : كان احد الاجواد المدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولا جرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين الناس الكرم الذي تحلّى بحلاه ، وبلغ غاية مداه ، فانه كان موطأ الاكناف ، طويل اليد بالمعروف . رحب الصدر بالقاصد كثير الصلة خصوصاً لذوي قرابته من قريش . نقل ابن عساكر من رواية ابن اسحق قال . قدم ابن عامر على عثمان فقال له : صل قومك من قريش : ففعل وأرسل الى علي ابن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة . فلما جاءه به قال (اي علي) : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا : فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبّح الله رأيك أترسل الى علي بثلاثة آلاف درهم : قال كرهت ان أغرق ولم أدر

ما رأيتك : قال فاعرق : فبعث اليه بعشرين الف درهم وما يتبعها . فراح علي الى المسجد فاتتهى الى حلقة وهم يتذاكرون صلوات ابن عامر هذا الحي من قريش . فقال علي هو سيد فتيان قريش غير مدافع : قال وتكلمت الانصار فقالت ابنت الطلقاء الاعداوة . فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أبا عبد الرحمن ق عرضك ودار الانصار فالسنتهم ما قد علمت : فأفشي فيهم الصلوات والاكسا فأنسوا عليه . فقال له عثمان انصرف الى عمك . فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقال عبد الله بن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة :

وروى الطبري عن سحيم بن حفص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية فقال العباس بن ربيعة لعثمان : اكتب لي الى ابن عامر يسلفني مائة الف . فكتب فأعطاه مائة الف وصله بها وأقطعته داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال اراد ابن عمر شراء أهل بيت كان يعجبهم فأعطى بهم الف دينار فأبى عليه ذلك فاشترام عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها الا القليل من الاجواد وان اعتاق أهل بيت برمتهم من الرق وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الاجر ؛ وبلا عوض الا حسن الذكر ، لعمل مجليل محمود ؛ وأثر كبير معدود ؛ فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التي بلغت من الفضيلة والفضل مكانا ليس وراءه غاية لمستزيد

ومن هذا القبيل أيضاً ، ارواه عن عبد الله بن محمد القروي قال اشترى

عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ليسرع بها داره على السوق بثمانين او سبعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله : ما هؤلاء : فقيل له : يبكون دارهم . فقال يا غلام فأتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً

وعن الاصمعي قال أرتج على عبد الله بن عامر بالبصرة يوم اضحى فكنت ساعة ثم قال : لا أجمع عليكم عيماً ولوماً . من أخذ شاة من السوق فهي له ومنها عليّ وقيل لما ولي ابن عامر البصرة انحدر اليه صديقان له من أهل المدينة كان أحدهما عبد الله بن جابر الانصاري والآخر من ثقيف فاقبلا يسيران حتى اذا كانا بناحية البصرة قال الانصاري للثقيفي هل لك في رأي رأيته . قال اعرضه . قال رأيت ان نايخ وراحلنا وتناول مطاھرنا ونس ماء ثم نصلي ركعتين ونحمد الله على ما قضى من سفرنا . قال هذا الذي لا يرد . فتوضيا ثم صليا ركعتين ركعتين فالنفت الانصاري الى الثقيفي فقال . يا أخا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأي هذا قضيت سفري وأنصبت بدني وأنصبت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير هذا ؟ قال نعم اني لما صليت هاتين الركعتين فكرت فاستحييت من ربي ان يراني طالباً رزقاً من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ثم ولى راجعاً الى المدينة ودخل الثقيفي البصرة فكث اياماً فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك ^(١) فخبره خبره فبكي

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال في الاول منهما وكان لابن

عامر رجل مقيم بالمدينة فكتب اليه بشخص من شخص يريد ولا يقدم الرجل

الأعلى جائزة معدة : وهذا سبب قوله للثقيفي ألم أخبر الخ الخبر

ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها اشراً ولا بطراً ولكن رأى مجرى الرزق
 ومخرج النعمة فعلم ان الله الذي فعل ذلك فسأله من فضله . ثم أمر للثقي
 باربعة آلاف درهم وكسوة وطُرفٍ وأضعف ذلك كله للانصاري فخرج
 الثقي وهو يقول

أمامة ما حرصُ الحريصُ بزائدٍ فتيلاً ولا زهد الضعيف بضائري
 خرجنا جميعاً من مساقطِ روسنا على ثقةٍ منا بجود ابن عامر
 فلما أنخنا الناعجات ببابه تأخر عني اليثربيُّ ابنُ جابر
 وقال ستكفيني عطية قادرٍ على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
 وان الذي أعطى العراق ابن عامرٍ لربي الذي أرجو لسدِّ مفاري
 في آيات

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ولما تعودده منه قاصدوه من عدم
 المطل اذا ابطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسعة صدره ومؤكداً نواله ومن
 ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أنس بن أبي أنس شيئاً وقد كان
 عودده ذلك فمطله فقام اليه بكفة في الموسم فقال

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الودّ حتى ودعه
 لا تهني بعد إذ أكرمتني وقبيحٌ عادة منتزعه
 واذكر البلوى التي أبلتني ومقالاً قاتنه في الجمع
 لا يكن برقك برق خليلياً ان خير البرق ما الغيث معه

وفي ابن عامر يقول زياد الاعجم مادحاً له

أخ لك لا تراه الدهر إلا على الملات بساماً جوّادا
 أخ لك ما مودته بمزقٍ اذا ما عاد فقراً أخيه عادا

سألناه الجزيل فما تلکما وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً ما رجعت إليه الا تبسم ضاحكا وثى الوسادا

— ❦ — باب ❦ —

❦ وفاته ❦

روى ابن عساكر عن عمر بن ميمون ان عبد الله بن عامر حين مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه اصحاب النبي (ص) وفيهم ابن عمر . قال ما تروني في حالي فقالوا ما نشك لك في النجاة قد كنت تقري الضيف وتعطي المحتبط^(١) . وعن ميمون قال . بعث عبد الله بن عامر حين حضرته الوفاة الى مشيخة اهل المدينة وفيهم بن عمر فقال . اخبروني كيف كانت سيرتي . قالوا كنت تتصدق وتعق وتصل رحلك . قال وابن عمر ساكت . فقال يا ابا عبد الله ما يمنعك ان تتكلم . قال قد تكلم القوم . قال عزمت عليك لتكلمن . فقال ابن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة وستقدم قبرى . قال ابن منده توفي النبي (ص) ولعبد الله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفى هو سنة تسع وخمسين وقال الحافظ أبو نعيم انه توفي سنه ستين : وفي اسد الغابة انه توفي سنة ثمان وخمسين واوصى لعبد الله بن الزبير وروى ابن عساكر ان عبد الله بن عامر توفي قبل معاوية بسنة فقال معاوية : يرحم الله ابا عبد الرحمن بن نفاخر وبن نباهي :

وان رجلاً تفاخر به قريش ويقول به معاوية مثل هذا القول لرجل

(١) قال أبو عبيد المحتبط الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يد سألته

منه اليه ولا قرابة

كبير جدير بالاعظام حقيق بخليد الذكر فرحه الله ورضي عنه وكان ابن عامر كثير المال والولد فكان له النباج الذي يقال له نباج بن عامر (مر ذكره) وله الجحفة وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة وله آبار في الارض كثيرة كما ذكر ذلك ابن عساكر وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قتل دون ماله فهو شهيد)^(١) انتهى

— ❦ حبيب بن مسلمة الفهري ❦ —

❦ باب ❦

(نسبه ومولده ونشأته)

(نسبه)

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الاكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر القرشي الفهري يكنى أبا عبد الرحمن ويقال له حبيب الدروب وحبيب الروم لكثرة دخوله اليهم ونيله منهم

(مولده ونشأته)

ذكر في اسد الغابة ان حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقد كانت وفاة النبي (ص) في صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيكون مولد حبيب قبيل الهجرة بسنتين فهو مكّي المولد اسلامي الذشأة . وقد اختلفوا في هل كانت له صحبة ام لا

(١) قال ابن عساكر في سبب روايته لهذا الحديث ان معاوية أراد ان

يستصفي ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر والله لأقاتلنه دون مالي فقد

سمعت رسول الله يقول . . الحديث

وأكثرهم يقول كان له صحبة الا انه لم يفرغ مع النبي (ص) وفي رواية لابن عساكر عن ابن أبي مليكة عن حبيب بن مسامة الفهري انه أتى النبي (ص) بالمدينة فأدركه أبوه فقال : يا نبي الله يدي ورجلي . فقال له النبي ارجع معه فانه يوشك ان يهلك . فهلك أبوه في تلك السنة . وفي رواية له ايضاً انه رجع الى المدينة وغزا مع النبي آخر غزوة وهي غزوة تبوك وهذه الرواية تؤيد قول من قال ان له صحبة . وقد كان حبيب من اشرف قريش كما في رواية عن الزبير بن بكار ذكرها في أسد الغابة . بل كان من شجعانهم وسراهم ورافعي راية مجدهم . والمبرزين في الحزم رحسن القيادة منهم . وهو على ما أرى في طبقة خالد بن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والاندام والاثار الجميل في الفتح ذلك لانه شب منذ نعومة الاظفار على الحرب ، وألف من صغره الطعن والضرب ، فقتضى معظم أيام حياته في الحروب . فكان له في تشييد دعائم الاسلام في البلاد القاصية ، والممالك النائية ، جهاد طويل ، وعمل في الفتح جليل ، لا سيما في الجزيرة وارمينيا والتوقلس كما سترى بعدد : ومما يدل انه نشأ من صغره سنه على الحرب ما رواه ابن عساكر ان حبيباً ذهب في خلافة أبي بكر الى الشام للجهاد فكان على كردوس من السكراديس في اليرموك . لذا لما ادمن الحرب من صغره سنه نشأ قائداً محمداً . بن اعظام قواد الفتح في عصره كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(فتوحاته)

اختلف الرواة في هل ان عمر بن الخطاب ولي حبيباً في خلافته ام لا

والارجح ان أبا عبيدة بن الجراح في عهد ولايته على الشام ولاد انطاكية ثم لما فتح عياض بن شيمم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ولما ولي عمر ابن الخطاب سراقه بن عمرو على غزو الباب وكتب الى حبيب فيمن كتب اليهم بامداد سراقه سار حبيب من الجزيرة الى ارمينيا ومنها الى القوقاس كما مرّ الخبر عن ذلك في الكلام على فتح ارمينيا والقوقاس وفتح هو وعبد الرحمن وسراقه وغيرهم من القواد بلاد ارمينيا ثم انتقضت ثانية فغزاها في خلافة عثمان حتى أتم فتحها كما رأيت . وقد وعدنا فيما مضى بإيراد الخبر عن مسير حبيب الى ارمينيا وفتحه فيها وما كان له من البلاء الحسن في الحروب التي كانت للمسلمين في الجزيرة وارمينيا فنقول

كان حبيب بن مسلمة مع أبي عبيدة بن الجراح في حروبه في شمال سورية ولما فتح أبو عبيدة انطاكية الفتح الثاني بعد انتفاضها ولي عليها حبيب ابن مسلمة فتولاها وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن فقصده جبل اللكام وكان فيه قوم اشداء يسمون الجراجمة فلم يقا تلوه بل بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على ان يكونوا أعواناً للمسلمين وعميوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية ما داموا من اعوان المسلمين وجندهم ودخل معهم في هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الانباط وأهل القرى فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعوجون أخرى حتى غزاهم مسلمة ابن عبد الملك وأجلاهم عن جبل اللكام وان ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويتقوا على نصرانيتهم ولا تؤخذ منهم الجزية وان يجرى عليهم الرزق كبقية الجند فنزل بعضهم حمص وبعضهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها . ولعلّ الحلي الموجود الى هذا العهد في مدينة

حماه المعروف بحجارة الجراجمة ينسب الى اولئك القوم لانه نزل منهم فريق فيه

ثم لما سار عياض بن غنم الى فتح الجزيرة كان حبيب في جملة قواده ففتح سميساط وقرقيسيا وقرى حولها ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ثم سار الى ارمينيا بأمر عمر ففتح منها ما فتح وذلك الفتح الاول الذي انتقضت بعده وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان وقد بسطنا كيفية مسيره اليها وانه لما انتهى اليه سلمان بن ربيعة الباهلي الذي كان أرسله عثمان رضى الله عنه مدداً له سار حبيب من غرب ارمينيا وسلمان من شرقيها وقد ذكرنا ما فتحه في طريقه سلمان واوردنا الخلاف بين المؤرخين في خبر ذلك الفتح وفي المكان الذي اجتمع فيه حبيب وسلمان وبقي ان نذكر ما فتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب كما بلغه سلمان من جهة الشرق

ذكرنا في سيرة عثمان ان سلمان بعد ان فتح قاليقلا أجلبت عليه الروم بجموع عظيمة وانه يبتهم قبل وصول المدد اليه فاجتاحهم وذكر في فتوح البلدان ان حبيباً لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد اليه نزل ماربالا فاتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم وكان عياض قد أمنه على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على اناوة فانفذه حبيب له ثم نزل منزلاً بين الهرك ودشت الورك فاتاه بطريق خلاط بما عليه من المال وأهدى له هدية لم يقبلها منه ونزل خلاط ثم سار الى الصيسانة فلقمه فيه صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرجان فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلاً وكتب له كتاب صلح وأمان ووجه الى قرى أرجيش وبادغيس من غلب عليها ثم أتى ازديساط واجتاز نهر الرس وأتى مرج ديبيل وغاب على جميع تلك النواحي

حتى بلغ سراج طير وبفر وند فاتاه بطريق ديبيل فصالحه عنها على اتاوة يؤديها
وعلى مناصحة المسادين وقراهم (ضياقتهم) ومعاونتهم على اعدائهم : وهذه
صورة كتاب صالح ديبيل

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري
لنصارى أهل ديبيل ومجوسها ويهودها شاهدم وغائبهم . أنى امنتكم على
أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم . فأنتم آمنون . وعلينا
الوفاء لكم بالعهد ماوفيتم وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا :
وختم حبيب بن مسلمة :

وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده . وقصد السيسجان
فخاربه أهلها فهزموهم وغلب عليهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها
وقدم اليه هدية وسأله كتاب صالح وأمان فكتب حبيب اليه

اما بعد فان (نقلي) رسواكم قدم علي وعلى الذين معي من المؤمنين
فذكر عنكم انا أمة أكرمنا الله وفضلنا وكذلك فعل الله وله الحمد كثيراً
وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام وذكرم انكم احببتم
سامنا وقد قومتم هديتكم وحسبتمنا من جزبتكم وكتبت لكم أماناً
واشترطت فيه شروطاً فان قبلتموه ووفيتم به والّا فاذنوا بحرب من الله
ورسوله والسلام على من اتبع الهدى

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون
عن كثير من الضرائب التي كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ونقول
ضرائب لان الهدايا التي كان يقدمها الولاة لارباب الدولة سواء كان في فارس
او غيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها يدلك عليه ما سبق ايراده

في أخبار الفتح من ذكر الهدايا التي كانت تقدم للامراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها الا اذا احتسبت من الخراج أو الجزية وما نعرف في تاريخ الصحابة أحداً قبل مثل هذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذي يصالح عليه العدو الآ عبد الله بن عامر اذ قدّم لاحد امرائه في خراسان هدية فسأل سببها فقيل له هذه عادة عندنا فأبى قبولها الا بعد استشارة الاحنف بن قيس الامير يومئذ من قبل ابن عامر فلما استشاره عنها أبى قبولها أيضاً وأمره ان يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمنها القرشي وكان مضمماً : اشارة الى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وان مثل هذه العفة من اولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غاية من العدل وحسن السيرة لا يبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ومن دقق النظر في تاريخ تلك الامة يعجب ممن عاصرها من المؤرخين ومن بعدهم من أهل الملل الاخرى في عدم انصافهم لها واعراضهم عن ذكر اخلاقها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل لا الوجه الذي يقتضيه الغرض والتعصب الذميم

هذا ثم أن حبيباً سار الى تفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسامة لاهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالامان على أنفسهم وبيعتهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على اقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت دينار . وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية . ولا لنا ان نفرق بينهم استكثاراً منها . ولنا نصيحتكم وضلعكم على اعداء الله ورسوله

(ص) ما استطعتم وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا . وان انقطع برجل من المسلمين عنكم فعليكم اداؤه الى ادنى فئة من المؤمنين الا ان يحال دونهم . وان أنتم وأتم الصلاة فأخواننا في الدين والألجزية عليكم . وان عرض للمسلمين شغل عنكم فتهمكم تدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم . هذا لكم . وهذا عليكم . شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً اهـ

ثم ان حبيبا فتح كسفر يديس وسمسخي وخنان والجردمان وكستسجى وشوشت وبازليت وقلرجيت وثرالييت وخابييط وخواخييط وأرطهال وغيرها من بلاد ايبريا وأرمينيا الغربية منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الاسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزوين كما مر الخبر عن ذلك في سيرة عثمان (رض)

ولما فتح حبيب ما فتح من ارمينيا كتب الى عثمان بذلك فوافاه كتابه وقد نبي اليه سلمان فهم ان يوليه جميع ارمينيا ثم رأى ان يجعله غازياً بشغور الشام والجزيرة أفنائه ونسكاته في الروم فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فاتقلب راجعاً الى الشام ونزل حمص ثم أخذه معاوية الى دمشق وكان يردد الغزو الى الروم وله في الحروب معهم بلاء حسن لما عرف عنه من الشجاعة والاقدام وحسن قيادة الحيموش ففضى كل أيام حياته في الجهاد . وتدوخي البلاد . فكان من خيرة قواد المسلمين . وأبطال الفاتحين كما رأيت من أخباره في فتح الجزيرة وأرمينيا فرحمه الله ورضي عنه



﴿ باب ﴾

(أخباره في الفتنة)

لما نزل بعثان ما نزل كان حبيب بن مسامة بالشام وأرسله معاوية لئلا يجدته فلم يدركه بل قتل قبل وصوله الى المدينة
 روى في التمهيد والبيان عن سعيد بن عبدالله الجمحي قال . قال حبيب
 ابن مسامة رأيت فيما يرى النائم ان بعيراً عربياً سميتنا بيننا هو قائم انتهى
 اليه اعراب مذلي^(١) فأطافوا به نخفهم عليه ومحت بهم فبادروه فمقروه
 ثم انتهوه . فلما اصبحت اناني أصحابي واني لأقصها عليهم إذ جاءني رسول
 معاوية فأتيته . فقال يا حبيب ان عثمان قد ترك منزولاً به ولا أدري الى
 ما يترامى هذا الأمر فتجهز وأعجل . فرجعت الى أصحابي فاخبرتهم الخبر
 واستكثمتهم الرؤيا فبينما نحن في ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حصر .
 فأرسل الي (اي معاوية) واخبرني الخبر وأخرجني فأتقت لأصحابي
 بالطريق حتى ياحقوني

وروى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا . لما أتى معاوية الخبر أرسل الى
 حبيب بن مسامة الفهري فقال . ان عثمان قد حصر فأشر عليّ برجل ينفذ
 لأمري ولا يقصر . فقال ما أعرف ذلك غيري . قال أنت لها فأشر عليّ
 برجل أبعثه عليّ مقدمتك لا يُتهم رأيه ولا نصيحته أعجله في سرعان الناس .
 فقال أم من جندي أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام . فقال ان أردته من
 جندي أشرت عليك وان كان من غيرهم فاني أكره ان أغرك بمن لا علم
 لي به . فقال فهاته من جنديك قال يزيد بن شجعة (أو مشجعة) الخيري .

قال كما تحب . فانهم لني ذلك اذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاها ثم قال لهما . النجاة سيرا فأغينا أمير المؤمنين وتعجل يا يزيد . فان قدمت يا حبيب وثمان حيّ فهو الخليفة والأمر أمره فانفذ لما يأمرك وان وجدته قد قُتل فلا تدعن أحداً أشار اليه ولا أعان عليه الا قتلته وان أتاك شيء قبل ان تصل فأقم حتى أرى من رأي . وبعث يزيد بن شجعة فامضاه على المقدمة في الف فارس على البغال يقودون الخيل معهم الأبل عليها الروايا (القرب) واتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس . وخرجوا جميعاً وأخذ يزيد السير فأنهى الى ما بين خيبر والسقيا فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان ابن بشير بالخبر ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان (رض) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب :

وفي هذا الخبر ما يدل على اهتمام معاوية بامر عثمان واسراعه في انجاده منذ وصله الخبر خلافاً لما جاء في بعض الروايات من انه تباطأ في اغاثة عثمان (رض) والله أعلم

هذا وقد ذكر بعض الرواة ان حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه في حروبه وقال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب : روينا ان الحسن بن علي رضي الله عنهما قال لحبيب بن مسلمة في بعض خرجاته بعد صفين . يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله . فقال له حبيب . اما الى أبيك فلا . فقال له الحسن بلى والله ولقد طاوعت معاوية على ديناه ، وسارعت في هواه ، فائن كان قام بك في دنياك ، لقد عمد بك في دينك ، فليتك اذ اسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) ولكنك كما قال

له تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على انه مما يضعف هذه الرواية شهرة حبيب بالصلاح وحسن اعتقاده بعلي وثمان وانه من ريق الممتدلين الذين قالوا بتولى عثمان ودلياً ولا نتبراً منهما ونشهد عليهما على شيعتهما بالايمان وزجو لهم ونخاف عليهم كما روى ذلك ابن عساكر في حديث مرّ معنا ذكره في أخبار الفتنة ولو فرضنا صحة خبر أبي عمر الذي نال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلاً واضحاً على ان كل فريق من المختلفين في الفتنة كان يرى نفسه على حق إذ لا يتأتى لمثل حبيب بن مسامة على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح ان ينضم الى معاوية وهو يمتد انه على غير حق ويقول للحسن ما قال واما ان معاوية طالب دنيا وعلي طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من أحزابهما من الاعتقاد بفضل صاحبه وانه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقا تل عليها الا ان هناك فرقا بين علي ومعاوية في ان الاول يطالبها بحق البيعة التي وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول (ص) ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين وأبقى على أصول الشورى الانتخابية . والثاني يطالبها بالقوة والخلافة التي تؤخذ بالقوة مصيرها الى الاستبداد ولا يمكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وأمثاله من وجوه المسلمين وصلحاءهم بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولأن القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة أو النبوة أو الوهية في البعض الآخر كما حدث ذلك بعد بين المسلمين بل كانوا يرون انهم كلهم في الاسلام والصحبة سواء وان امتاز بعضهم عن بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة لذا كان مما يدل على ان حبيباً وأمثاله لم يماثلوا معاوية الا لمحض الاعتقاد الحسن به لا لغرض آخر وان حبيباً كان

لا يزال يطالب معاوية بسنة أبي بكر وعمر حتى مات كما ستري بعد وهذا ما يدعوننا الى ان نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع عليّ أو معاوية وضيع في تلك الفتنة ولو جزمنا بأن علياً كان أحق من معاوية اذ ان كل فريق من المتحاربين يومئذ كان يرى لصاحبه من الحق ما لم نره نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام اليه في حكمنا على فريق بأنه على غير الحق حكم على الفريق الآخر كما بسطنا الكلام على هذا في أكثر من محل من هذا الكتاب وانما عدنا الى الاشارة اليه تنبيهاً للشيع الاسلامية التي لا يزال بعضها يغلو في مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلوّاً ينزلهم في منزلة الانبياء . ويغلو في وصف بعضهم بكل شنيعة غلوّاً ينزلهم في منزلة العامة والدهاء . وكلا الامرين تفريط وافراط يعيبان تاريخ الامة لاسيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الاسلام . وتدوين الممالك والبلدان . وتأسيس بنيان الدولة التي نشرت على معظم الارض جناح السلطان . ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل . وقليل من الانصاف . ان يقدرهم قدرهم . ولا يبغضهم من الثناء حقهم . ويمترف على ملائ الشعب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الأمر منهم . اعلاء لشأنهم . وتنويهاً بجليل أعمالهم . وجميل صحبتهم . وسدّاً لذرائع القدرح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم . واستصغار أقدارهم . من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى والله يتولى هدايتنا جميعاً . وهو خير المرشدين

— ❧ باب ❧ —

(شي من سيرته)

أجمع الرواة على انَّ أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسامة ثناءً حسناً ويمتقدون فيه منتهى الصلاح لهذا كانوا يقولون كان مجاب الدعوة ومما يدل على صلاحه ما رواه ابن عساكر انَّ حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال . وهذا من نعيم من ما ينعم به أهل الدنيا ولو مكثت فيه ساعةً لملكيت ما انا بخارج منه حتى استغفر الله تعالى فيه الف مرة . قال فما فرغ حتى ألقى الماء على وجهه مراراً (لعله لانه كان يغشى عليه) . ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائماً يلح على معاوية بالعمل اسيرة ابي بكر وعمر . وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى ابن عساكر عن ابن عجلان قال . لما أتى معاوية موت حبيب بن مسامة سجد ولما أتاه موت عمرو بن العاص سجد فقال له قائل . يا أمير المؤمنين سجدت لوفدين وهما مختلفان . فقال اما حبيب : فكان يأخذني بسنة ابي بكر وعمر : واما عمرو بن العاص : فيأخذني بالامرة الامر (٢) فلا أدري ما أصنع

(وفوده على عمر وولايته)

روى ابن عساكر من طرق ان حبيب بن مسامة كان يلبى الصوائف على عهد عمر ويبلغ عمر عنه ما يحب ولم يثبتته (اي بالجيش) حتى قدم عليه في حجة وكان تام القامة فسلم على عمر : فقال له انك لفي قناة رجل قال اني والله

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذي جاء قبله انه اسم حمام بحمص

او لعله بستان فليحجر

(٢) وفي رواية احدهما كان يقول الامرة الامرة والآخر يقول السنة السنة

وفي سنانها : وفي رواية انه قال له انك لجيد القناة : قال وجيد سنانها : قال عمر افتحوها له الخزائن فليأخذ ما شاء : ففتحوها له فعدا عن الاموال وأخذ السلاح . وفي رواية لابن عساكر ان عمر لما عزل عياض بن غنم عن الجزيرة ولى حبيب بن مسلمة وضم اليه ارمينيا وأزر بنجان ثم عزله وولى عمير بن سعد الانصاري وسعيد بن عامر بن حذيم . وقد كان كثير الغزو الى الروم والنسكاية فيهم فدخل مرة ارض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خرّ ساجداً لله

ولأدمان حبيب الحرب اصبح مشهوراً بالشجاعة سبواً من الناس منوها باسمه على السن الشعراء وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان (رض)

يا أيها الناس أبدو ذات أنفسكم لا يستوي الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق ملك الناس تعترفوا بغارة عصب من بعدها عصب
فيهم حبيب شهاب الموت يقدمهم مستلماً قد بدا في وجهه الغضب
وفيه يقول شريح بن الحارث من ابيات

الأكل من يدعى حبيباً وان بدت رؤيته يفدي حبيباً بني فهر

— باب —

(وفاته وولده)

في رواية لابن عساكر ان حبيباً دخل الحمام فأطال المكث فيه فرض مرضه الذي مات فيه وقد اختلف المؤرخون في محل وفاته فقال البلاذري في فتوح البلدان انه لما أمره عثمان بالانصراف الى الشام نزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفي فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن

عبد البران معاوية وجهه الى ارمينيا والياً عليها فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ)
وكذلك قال ابن سعد وابن عساكر وانه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه
الله ورضي عنه

(ولده)

روى ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال . لحبيب بن
مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق وبرزلهم بطرف من اطراف
حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير اليّ في منزلي :

انتهى ما وصل اليه علمنا من سيرة حبيب بن مسلمة الفهرى وبه
يتتم الجزء الرابع

— فهرست —

صفحة	صفحة
الطعن على العمال	عثمان بن عفان
٧٢٦	(باب) حاله في الجاهلية
خبر الوليد بن عقبة	٦٦٨
٧٣٠	نسبه واصله
ولاية سعد بن العاص الكوفة	٦٦٨
٧٣٢	شرفه وصناعته
حادثة ابي ذر والقول بجرمة	(باب) اسلامه وصحبه
اكتناز المال	٦٦٩
(باب) آثاره في الخلافة	اسلامه
٧٣٧	٦٧٠
اجمع الناس على مصحف واحد	صحبه
٧٣٩	(باب) خلافته والشورى وكلمة
زيادته في المسجد الحرام ومسجد	٦٧٣
الرسول	في البيعة او الخلافة والدين
٧٣٩	كلمة في الخلافة والدين
جملة ما نزله	٦٨١
٧٤٠	خبر الشورى وخلافة عثمان
اولياته	٦٨٩
(باب) اخلاقه ومناقبه	هل هناك تحامل على عليّ
٧٤١	٦٩٣
سياسته وعدله	اول اعماله في خلافته
٧٤٦	(باب) فتوحاته
٧٤٦	٦٩٦
ادبه وتأديبه	افتح ارمينيا والقوقاز وجغرافيتهما
(ادبه مع نفسه ومع الرسول	٧٠٩
تأديبه لنفسه	دخول معاوية الى بلاد الروم وفتح
٧٤٧	قبرص
٧٤٧	٧١٢
تأديبه للمسلمين	فتح بلاد المغرب وجغرافيتها
٧٤٧	٧١٨
تواضعه	تمة فتح بلاد فارس وخراسان
٧٤٨	وطبرستان وقتل يزيدجرد
٧٤٨	٧٢٥
حيائه	مقتل يزيدجرد
٧٤٩	(باب) ام الاخبار والحوادث
شفقته على الرعية	٧٢٦
٧٤٩	في عصره
٧٥٠	٧٥١
كرمته	سقوط خاتم النبي في بئر اريس
٧٥٠	
صلاحه وتقواه	
(باب) كتبه وخطبه	
٧٥١	
كتبه	

صحيفة	صحيفة
٧٥٨ خطبه	٨٤٣ / باب ولده وعماله
٧٦١ / (باب) اخبار الفتنة ومقتل عثمان	٨٤٣ / ولده
٧٦٩ / مبادئ الفتنة	٨٤٣ عماله
٧٧٣ وفي اهمية تاريخ الصحابة	٨٤٤ الحالة الاجتماعية على عهده
٧٧٧ ما اذكره الناس عليه واعتذاره عن	٨٥١ عبد الله بن عامر
٧٧٧ بعض ما اذكره عليه	٨٥١ (باب) نسبه ومولده ونشأته
٧٨٣ ظهور الفتنة	٨٥٢ مولده ونشأته
٧٨٩ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله	٨٥٣ (باب) ولايته على البصرة وفتوحاته
٧٩١ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان	٨٥٧ ولايته الثانية على البصرة وشي من
٨٠٠ عود الى ما نحن بصدده	٨٥٨ اخباره فيها
٨٠٠ سبب امتناع عثمان عن اعترال الخلافة	٨٥٨ شي من اخباره في البصرة
٨٠٤ عود الى ما نحن بصدده	٨٦٠ (باب) ماذا كان منه في الفتنة
٨١٩ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان	٨٦٣ (باب) ماثره ومناقبه
٨٢٠ (باب) ما رثي به عثمان	٨٦٥ كرمه
٨٢٤ خطبة ابنته عائشة بعد قتله	٨٦٩ (باب) وفاته
٨٢٤ خطبة زوجته نائلة	حبيب بن مسلمة الفهري
٨٢٦ (باب) ما قيل في سبب الفتنة	٨٧٠ (باب) نسبه ومولده ونشأته
٨٣٣ وقتله عثمان والاعتذار عنه	٨٧٠ نسبه
٨٣٦ ما قاله بعض الصحابة واهل السنة	٨٧٠ مولده ونشأته
٨٣٦ ما قاله المعتزلة	٨٧١ (باب) فتوحاته
٨٣٧ ما قاله ابن خلدون في سبب القيام	٨٧٧ (باب) اخباره في الفتنة
٨٤٣ على عثمان	٨٨١ (باب) شي من سيرته
٨٤٣ رأي لاحد العلماء في الفتنة	٨٨٢ (باب) وفاته وولده
٨٤٣ صفة عثمان	٨٨٣ ولده

مطبوعات جديدة

تطلب من مكتبتي امين هنديه بالموسكي وبشارع المتاخ بمصر

الثمن اجرة البوسته

١٠	٢	كتاب الاخلاق للينات المقرر بوزارة المعارف المصرية عمل محمد بك رخا ومحمد حمدي بك
١٠	٢	تهذيب البنين المقرر بوزارة المعارف المصرية عمل محمد بك رخا
٢٠	٣/٥	الفرائض وعلاقتها بالتربية للشيخ محمد حسن بن الغمراوي
١٢/٥	٢	اخلاق الفتى لمحمد بك رخا المقرر بوزارة المعارف المصرية
٨	٣	التدبير المنزلي الجزء الاول لفرنسيس ميخائيل مقرر بالمدارس المصرية
٦	٢	الطبخ المنزلي للآنسة منيره ميخائيل مقرر بالمدارس المصرية
١٢	٣	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانجليزية لالياس انطون
١٥	٣	التحفة المرضية في تعليم اللغة الانجليزية ليعقوب نخله
٧	٣	الطريقة السهلة لتعليم اللغة الفرنسية ف. ا. هنديه
٥	٣	السلاسل الحديثة لتعليم اللغة الفرنسية ف. ا. هنديه
٦٠	١٠	كتاب أشهر مشاهير الاسلام جزء ٤ طبعة جديدة
١٢	٣	مبادئ الرياضة البدنية لست أتنا برلين بالصور
١٥	٣/٥	كتاب حقيقة الحرب العالمية العظمى تعريب علي افندي شكري عن الانجليزية
١٠	٢	الاننداب افرنساوي والتقاليد الفرنسية في سوريا ولبنان لسعادة عبد الله باشا صفيير مدير الامن العام بوزارة الداخلية سابقاً

